



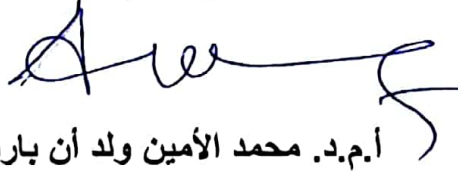
شهادة نشر

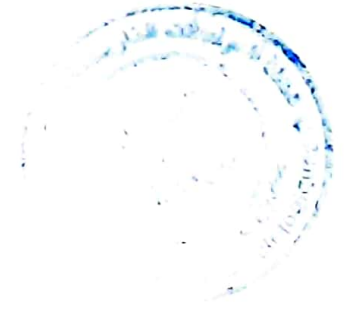
يفيد مدير مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، أن البحث الموسوم:

المرأة الجزائرية بين النذل والنضال في ظل الاحتلال الفرنسي ما بين 1830 و1962، للدكتورة يسمينة سعودي، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية - جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله، الجزائر، تم تحكيمه ونشره في العدد التاسع والأربعين من مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، وهي دورية أكاديمية محكمة تصدر بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط - موريتانيا.

ملاحظة: تم استلام البحث يوم 05 ديسمبر 2020، وعرض على التحكيم وتم قبوله يوم 11 يناير 2021.

مدير المجلة


أم.د. محمد الأمين ولد أن باريك



جامعة نواكشوط
العصرية



مجلة الدراسات

التاريخية والإجتماعية

العدد 49، يناير 2021



مجلة علمية محكمة فصلية



رقم الإيداع الوطني: 2014 - 1425
الترقيم الدولي: ISSN 2412 - 3501

Université moderne
De Nouakchott



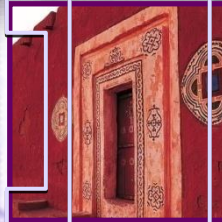
Revue des Etudes

Historiques et Sociales

N° 49 Janvier 2021

REHS

Revue Scientifique Arbitré Trimestrielle



رقم الإيداع الوطني: 2014 - 1425
الترقيم الدولي: ISSN 2412 - 3501

مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية

مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية دورية محكمة تعنى بالقضايا التاريخية والاجتماعية يصدرها فريق بحث المعارف للدراسات التاريخية والاجتماعية ونشر التراث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة نواكشوط - موريتانيا.

الرئيس الشرفي: أ.د. الشيخ سعد بوه كمر، عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مدير المجلة : أ.د. محمد الرازي ولد صدفن

رئيس التحرير: د. محمد الأمين ولد أن

التدقيق اللغوي:

أ.د. عبد الهادي سيد أحمد عبد العال، مصر

د. أحمد ولد حبيب الله، موريتانيا

أعضاء هيئة التحرير:

أ.د. الحمدي أحمد، الجزائر

أ.م.د. جمال ولد الخليل، السعودية

أ.م.د. سيدي محمد ولد ختاري، موريتانيا

د. الحسين ولد بيدي، موريتانيا

لجنة التحكيم:

الإسم الكامل	مكان العمل	التخصص	البريد الإلكتروني
د. إسماعيل نوري الربيعي	الجامعة الأهلية، البحرين	تاريخ حديث ومعاصر	imseer@yahoo.com
منيره بنت مدعث القحطاني	الأميرة نوره بنت عبد الرحمن	تاريخ إسلامي	dr.m.m.q@hotmail.com
أ.د. منجي الزيدي	جامعة تونس، تونس	علم اجتماع	m.ezzidi@gmail.com
أ.د. عبد القادر بوباية	جامعة وهران، الجزائر	تاريخ وسيط	aboubaya@gmail.com
أ.د. خالد حسين محمود	جامعة عين شمس، القاهرة	تاريخ إسلامي	drkhd777@yahoo.com
أ.د. عيسى محمود العزام	جامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية	تاريخ إسلامي	isa.alazzam@yahoo.com
أ.د. فاطمة بلهوارى	جامعة السلطان قابوس، سلطنة عمان	تاريخ وسيط	fbelhouari10@gmail.com
أ.د. ابتهاج عادل إبراهيم	جامعة دهوك، العراق	تاريخ قديم	altaiem940@gmail.com
أ.د. طه حسين هديل	جامعة عدن، اليمن	تاريخ وحضارة إسلامية	dr.taha.2012@hotmail.com
م.د. رائد أحمد طه صالحه	الجامعة الإسلامية، غزة - فلسطين	جغرافيا	rsalha@iugaza.edu.ps
د. محمد المختار سيد محمد	جامعة نواكشوط، موريتانيا	تاريخ معاصر	moems70@yahoo.fr
د. أشرف صالح محمد سيد	جامعة ابن رشد، هولندا	تاريخ وسيط	ashraf-salih@hitmail.com
د. واغي عثمان	جامعة نواكشوط، موريتانيا	علم اجتماع	wousmane@yahoo.fr
م.د. غسان محمود وشاح	الجامعة الإسلامية، غزة - فلسطين	تاريخ إسلامي	gwshah@iugaza.edu.ps
م.د. برزان مئسر الحامد	جامعة الموصل، العراق	تاريخ المغرب والأندلس	dr.barzan_78@yahoo.com
م.د. بشير بن علي اللويش	جامعة حائل، السعودية	خدمة اجتماعية	abu_sultan3@hotmail.com
د. ياسر محمد عثمان حماد	جامعة شندي، السودان	جغرافيا	yassirelmak@gmail.com

شروط النشر

- ١- يجب أن يكون البحث المقترح للنشر أصيلاً لم يسبق تقديمه لمجلة أو أي جهة ناشرة أو أكاديمية، وأن لا يكون جزءاً من رسالة علمية.
- ٢- لا يقل البحث الواحد عن ٢٠ صفحة، ولا يزيد على ٣٠ صفحة حتى تتاح فرصة النشر لأكبر عدد من الباحثين.
- ٣- ترسل البحوث إلى المجلة مطبوعة على الحاسوب باستعمال Word باللغة العربية:
 - الخط المستخدم في المتن Simplified Arabic الحجم ١٤ أما الهوامش فتكون آلية أسفل كل صفحة على حدة؛ بنفس الخط حجم ١٢.
- ٤- بالنسبة للبحوث المحررة باللغة الفرنسية:
 - الخط المستخدم في المتن Timed New Roman الحجم ١٢، أما الحواشي فتكون بنفس الخط بحجم ١٠
- ٥- أن يكون توثيق الكتب بذكر شهرة المؤلف متبوعاً باسمه الأول والثاني واسم الكتاب، واسم المحقق أو المترجم، والطبعة والناشر ومكان النشر وسنته، ورقم المجلد.
- ٦- أن يكون توثيق الدورية بذكر اسم كاتب المقال، عنوان البحث موضوعاً بين علامتي تنصيص " " ، واسم الدورية، ورقم المجلد والعدد والسنة، ورقم الصفحة.
- ٧- يلتزم الباحث القيام بالتصويبات والتعديلات التي اقترحها المحكمون خلال شهر من تاريخ تسلمها.
- ٨- الأبحاث المنشورة لا تعبر إلا عن رأي أصحابها.
- ٩- يخضع ترتيب الأبحاث في المجلة لمعايير فنية.
- ١٠- يكتب الباحث في الصفحة الأولى من البحث إسمه وعنوانه الكامل بالهاتف والإيميل والمؤسسة التي ينتمي إليها، وكذلك الدولة، باللغة العربية والإنجليزية. (ويفضل أن يكون اسم الباحث ثلاثياً).
- ١١- عنوان البحث باللغة العربية والإنجليزية،
- ١٢- يكتب ملخصاً باللغة العربية وآخر باللغة الإنجليزية بما لا يزيد عن ١٠٠ كلمة لكل منهما، وكذلك الكلمات المفتاحية باللغتين العربية والإنجليزية.
- ١٣- مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية محكمة، وهي ترحب بجميع المقالات المستوفية للشروط السالفة الذكر، ولا ترد المقالات لأصحابها في حال عدم نشرها. وعليه نرجو من كل الراغبين في نشر أعمالهم بالمجلة أن يبعثوا بها على البريد الإلكتروني التالي:
revueehs2020@gmail.com

محتويات العدد:

ص ٥	- الأحوال الدينية وأبرز سمات الشخصية اليهودية وفق رواية ابن خلدون، د. غسان محمود وشاح و أ. محمد جمعة أبو سلمي
ص ٤٠	- حركة عثمان بن فودي من فكر الدعوة إلى بناء الدولة وتأثيراتها على غرب افريقيا، بلقاضي مليكة و حسين عبد الستار
ص ٦٧	- المرأة الجزائرية بين النذل والنضال في ظل الإحتلال الفرنسي ما بين ١٨٣٠ و ١٩٦٢ د. يسمنية سعودي
ص ٩٧	- الطواف بالبيت من خلال كتب الرحلات (دراسة تاريخية مقارنة)، د. مهذ نايف مصطفى الدعجة
ص ١٣٢	- الحذاقة : طقوس التخرج العلمي في العصور الإسلامية، د. كريمة أحمد عوض الحاسي و د. عبدالله علي نوح
ص ١٥٧	- إيالة طرابلس أثناء حكم علي باشا القرمانلي ١٨٣٢-١٨٣٥ (انهيار العهد القرمانلي وعودة السلطة العثمانية)، د. أمميدة سالم حمادن و د. السنوسي يونس علي
ص ١٨٠	- مكافحة الفقر في موريتانيا: دراسة في رهانات وانعكاسات السياسة الاجتماعية والاقتصادية للدولة الوطنية، محمد يحيى حسني
ص ٢٠٣	- النمو الحضري ومشكلات النقل بالمدن الجزائرية، بوتلجة الحاجة، و أ.د. مخلوف البشير
ص ٢٢٧	- سامراء في معجم البلدان الياقوت الحموي ت١٢٦٦هـ، د. عبد الكريم جعفر الكشفي
ص ٢٥٢	- نصوص وشخصيات مطمورة في تاريخ غرب الصحراء (الحاج أعر التشتي ومؤلفاته نموذجاً)، محمد الحاج عمر
ص ٢٧٨	- الفقهاء والإصلاح السياسي والإداري في مملكة سنغاي (١٨٦٩هـ-١١٠٠هـ/١٤٦٤م-١٥٩١م)، د. مولاي محمد بن عبد القادر
ص ٣٠٥	- الانشقاق الكبير عام ١٠٥٤م الأسباب - الوقائع - النتائج، انتصار خالد هزاوي
ص ٣٢٨	- نماذج من الوثائق السواحلية بزنجبار: دراسة تاريخية، أرشيفية وثائقية مع نشر وترجمة وتحقيق، د. محمد مسعود محمد أبو سالم

كلمة العدد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، نحمده ونشكره على ما أولانا من نعمه الظاهرة والباطنة، والصلاة والسلام على معلم الناس الخير، وعلى آله وصحبه، وكل من دعا بدعوته واقتفى أثره إلى يوم الدين.

نطل اليوم عليكم بالعدد التاسع والأربعين من مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، مجلتكم التي تزدهر يوماً بعد يوم بمشاركاتكم الفعالة معنا فيها. ويعون من الله يصدر عددها الحافل بالدراسات والبحوث والمقالات المتنوعة.

لقد تناولت مجمل الأبحاث المنتقاة من بين عشرات المقالات المقدمة للمجلة مختلف القضايا والظواهر وعرضت لتشخيص الحلول المناسبة، بما يسهم في تعميق البحث العلمي وتطويره.

ولا يفوتنا - في هذا المقام - التنبيه إلى أن هذا الجهد لم يكن ليرى النور لولا حرص أعضاء هيئة التحرير وعملهم الدؤوب على إنجازهم ووضعهم بين أيادي الدارسين والباحثين..
والله من وراء القصد.

رئيس التحرير

أ.م.د. محمد الأمين ولد أن

الأحوال الدينية وأبرز سمات الشخصية اليهودية وفق رواية ابن خلدون

"Religious conditions and the most prominent personal characteristics of Judaism according to the narration of Ibn Khaldun "

د. غسان محمود وشاح، رئيس جامعة الأمة في فلسطين - غزة

أ. محمد جمعة أبو سلمية، باحث في الحضارة الإسلامية

ملخص

ذكرت رواية ابن خلدون التاريخية عن بني إسرائيل واليهود أن الديانة اليهودية تعرضت للكثير من التحريف والتعطيل والاندثار بين الأمم ما نتج عنه عقيدة فاسدة وشخصية يهودية غير سوية تعاني من الكثير من المشاكل وتسبب الضرر وتنتشر الفساد على طول التاريخ البشري إلى يومنا هذا من أجل ذلك تم تقسيم الدراسة لمقدمة وثلاث نقاط رئيسية

أولاً: تعريف باليهود. ثانياً: الأحوال الدينية لليهود. ثالثاً: سمات الشخصية اليهودية .

الكلمات المفتاحية (ابن خلدون - اليهود - بني إسرائيل - الوثنية - موسى)

Abstract

Ibn Khaldun's historical narration on the children of Israel and the Jews mentioned that the Jewish religion was subjected to a lot of distortion, disruption and extinction among the nations, which resulted in a corrupt belief and an abnormal Jewish personality that suffers from many problems and causes harm and spreads corruption throughout human history to this day. The study is for an introduction and three main points

First: Introducing the Jews. Second: the religious conditions of the Jews. Third: The characteristics of the Jewish personality.

Key words: (Ibn Khaldun - the Jews - the children of Israel - paganism - Moses)

مقدمة:

يعد ابن خلدون مؤرخاً حظي بالاهتمام والدرس لدى الباحثين قديماً وحديثاً، وقد شمل تاريخه سرد عن بني إسرائيل واليهود، حيث أظهرت الروايات فساد عقيدتهم وكشف عن

سمات شخصيتهم، وفي الوقت الذي تتسارع فيه خفافيش الظلام الصهيونية؛ لتنتشر وباء التطبيع في وعي الشعوب العربية والإسلامية باستغلال منصات الإعلام العربي المترهل الذي يحاول تحسين صورة اليهود في الرأي العام، فتارة نجد حملات وتصريحات مشبوهة لا تنطلق من عقيدة سوية ولا انتماء للدين تقلب الحقائق وتزور التاريخ، وتغير ما نص عليه القرآن صراحة وأكدته الروايات التاريخية عن حقيقة اليهود، وتارة تخرج علينا أعمال فنية من أفلام ومسلسلات أنفق عليها الملايين لتلمع صورة الصهيوني و تبرر التطبيع وتروجه، لكن الله تبارك وتعالى قال: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ" (١).

فوعي الشعوب وصوت الحق التاريخي سيكون الصوت الأوضح والكاشف، وكان هذا البحث المحكم في هذا الوقت الراهن دليل واضح وبصمة في طريق الحق، لفصل الحقيقة عن الوهم والأساطير الخرافية التي رويت على لسان اليهود، ويفضح للشخصية اليهودية المريضة وفق الروايات التاريخية التي ذكرها ابن خلدون وأكدها القرآن الكريم؛ ليكون بوصلة مرشدة للثابتين، وأداة قاطعة للمطبعين والمشككين.

أهمية الدراسة:

- تقدم الدراسة الفرق بين مصطلح اليهود ومصطلح بني إسرائيل وفق رواية ابن خلدون.
- تبين مظاهر الوثنية في العقيدة اليهودية المحرفة من خلال رواية ابن خلدون.
- تدحض مزاعم اليهود في وجود الهيكل مكان المسجد الأقصى.
- تبرز سمات الشخصية اليهودية المضطربة.

منهج الدراسة:

(١) الأنفال: ٣٦-٣٧.

اعتمد الباحث منهج البحث التاريخي الوصفي التحليلي ، القائم على الدراسة الموضوعية.

تقسيمات الدراسة:

قسمت الدراسة لمقدمة وثلاثة عناوين وخاتمة ثم ثبت بالمصادر والمراجع.

أولاً : تعريف باليهود.

ثانياً: الأحوال الدينية لليهود.

ثالثاً: سمات الشخصية اليهودية

أولاً: تعريف باليهود:

من الأمم التي ذكرها القرآن الكريم بين ثناياه بني إسرائيل، حتى سميت العديد من السور على أسماء حوادث وقصص لبني إسرائيل، كسورة البقرة، وسورة المائدة، والإسراء وغيرها. والآيات التي تتحدث عن اليهود وعن بني إسرائيل لا يسع المقام لحصرها، ولو أردنا حصر الأمم الخالية التي ذكرت في القرآن الكريم لكن أغلبها يتعلق ببني إسرائيل واليهود والنصارى من الأمم السابقة، يقول الحق تبارك وتعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)^(١)، ويقول الله عز وجل أيضا عن اليهود: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)^(٢).

وسأقدم بشكل موجز عدد المواضع التي ذكر فيها لفظ بني إسرائيل، وكذلك اليهود في القرآن الكريم، من خلال محرك بحث على شبكة الإنترنت^(٣) وهي كالتالي:

(١) النمل: ٧٦.

(٢) البقرة: ١١٣.

3) (<http://holyquran.net/cgi-bin/qsearch.pl>)

○ ذكر لفظ "بني إسرائيل" (٤١) مرة في القرآن الكريم، وقد تنوعت السور التي ذكر فيها اللفظ ما بين مدنية ومكية، وإن كان يغلب ذكرها في السور المكية، حيث ذكر اللفظ (٢٥) مرة في السور المكية، و(١٦) مرة في السور المدنية.

○ أما لفظ "اليهود" فقد ذكر في القرآن الكريم (٩) مرات، في سور البقرة، المائدة، التوبة وكلها سور مدنية.

ذكر ابن خلدون أن لفظ (بني إسرائيل) مرتبط بعرق ونسل أما لفظ (اليهودية) فهي ديانة، و ليس كل اليهود هم من بني إسرائيل، أي أن بني إسرائيل هم من سلالة سيدنا يعقوب عليه السلام، بقوله: "ما كان من شأن يعقوب بن إسحاق واستقراره بمصر مع بنيهِ الأسباط، وفي التوراة أنّ الله سماه إسرائيل، وإيل عندهم كلمة مرادفة لعبد وما قبلها من أسماء الله عز وجل وصفاته"^(١).

وأود الإشارة إلى أن العلماء اجتهدوا في التفريق بين مصطلح "بني إسرائيل"، و"اليهود" في القرآن الكريم.

حيث رأى الباحث رمضان الصيفي أن الفرق يتعلق بطبيعة المفهوم لا بالتقسيم الزمني، فعند دراسة المواضع التي ذكر فيها لفظ اليهود نجدتها في موضع الذم، مثل قول الله عز وجل: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ)^(٢)، وفي موضع النفي مثل قول الله عز وجل: (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)^(٣)، وكذلك لبيان نفوسهم الخبيثة وتحذير المؤمنين من موالاتهم أو مهادنتهم، أما الآيات التي ذكر فيها مصطلح "بني إسرائيل" جاءت لتذكيرهم بنعم الله عليهم، واسترقاق قلوبهم ودعوتهم للتوحيد ومن ذلك قول الله

(١) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج ٩٢/٢.

(٢) المائدة: ٦٤.

(٣) آل عمران: ٦٧.

عزو جل: (سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)^(١)، وأخذ العظة والعبرة من تجربتهم^(٢).

عرف أهل اللغة اليهود من هَوَدَ، واليهود: التوبة والرجوع إلى الحق، ومنه التهود: وهو مشي كالديبب، وصار اليهود في التعارف: التوبة، وبالضم اليهود اسم نبي، ويهود يجمع على يهدان، وهودّه حوله إلى ملة يهود، والهوادة اللين وما يرجى به الصلاح، وتهود صار يهودياً^(٣).

ويعود تسمية اليهود بهذا الاسم إلى عدة آراء^(٤):

• أنها نسبة إلى صفة الندم والتوبة، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾^(٥)

• لأنهم يتهودون أي يتحركون عند قراءة التوراة .

• قيل: سموا يهوداً من (الهوادة) وهي المودة، لمودتهم في بعضهم لبعض.

• أنه نسبة إلى اسم يهوذا، وهو الابن الرابع ليعقوب عليه السلام، ويهوذا اسم عبري معناه حمد، وهو الأرجح عند أكثر العلماء^(٦).

أما اليهود في الاصطلاح: هم الذين يزعمون أنهم أتباع موسى عليه السلام، وقد وردت تسميتهم في القرآن الكريم بقوم موسى، وبني إسرائيل/ نسبة إلى يعقوب عليه السلام، وكذلك أهل الكتاب واليهود^(١).

(١) البقرة: ٢١١.

(٢) منهج القرآن الكريم في التعامل مع جرائم اليهود، ص ٤٤ - ٥١.

(٣) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ج ١ / ٥٤٦؛ لقطة العجلان مما تمس إلى معرفته حاجة الإنسان: محمد صديق خان، ج ١ / ١١١؛ القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ج ١ / ٤٢٠.

(٤) الملل والنحل، الشهرستاني، ج ١ / ٢١٠ .

(٥) الأعراف: ١٥٦.

(٦) قاموس الكتاب المقدس، لنخبة من الأساتذة ذوي الاختصاص، ومن اللاهوتيين، ص ١٠٨٥؛ موجز تاريخ اليهود، محمود قدح، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ع ١٠٧ / ١٤٣.

إن الاستعمال الصحيح للمصطلحات التاريخية هو مؤشر دقيق لدلالات اللفظ، لا يستطيعه إلا الدارس المتعمق، ولقد كان ابن خلدون دقيقاً في استعمال المصطلحات التاريخية، فنجدته يتخير لفظ بني إسرائيل في مواضع وفي مواضع أخرى يذكر مصطلح اليهود، وقد أشار في كتابه إلى وجود فرق بين بني إسرائيل وبين اليهود وذلك في معرض قوله: " وبعث كاهنان إليهم من اليهود فعلموهم دين اليهودية، وأخذوا به، وهؤلاء عند اليهود هم الشمرة نسبة الى شمرة وهي شمورون، وليس الشمرة عندهم من بني إسرائيل، ولأن دينهم صحيح في اليهودية"^(٢).

وعرف المسيحي اليهودية بتعريف يتوافق مع مفهوم ابن خلدون فقال إن اليهودية تتميز كنسق ديني غير متجانس؛ لظهورها في مرحلة متقدمة نسبياً من التاريخ، ونظراً لاستيعابها كثيراً من العناصر الدينية والحضارية من سائر الحضارات التي وجدت خاصة بعد سقوط الهيكل واختفاء أي مركز ديني أو رمزي لليهود^(٣).

وهذا الرأي هو ما أميل إليه؛ لأنه يوضح أن اليهودية ظهرت كمصطلح بعد السبي البابلي الأول، كما يشير إلى أن اليهودية خليط من المعتقدات المتأثرة بأقوام مختلفة، وهذا يثبت حقيقة وجود الوثنية في الديانة اليهودية بشكل واضح، وهو ما لاحظته في السرد التاريخي لابن خلدون.

ثانياً: الأحوال الدينية:

❖ **الوثنية:**

(١) دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية: سعود بن عبد العزيز الخلف، ص ٣٦؛ الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، مانع حماد الجهني، ج ١/٤٩٥؛ موجز تاريخ اليهود: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

(٢) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج ٢/٧٩.

(٣) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، عبد الوهاب المسيري، ج ٥/١٥.

(١) الوثنية في عهد موسى عليه السلام:

لقد ظن اليهود أنفسهم بأنهم يمتازون عن العرب بكونهم أولاد الحرة سارة، وفيهم الأنبياء والكتب والتشريع، ولكن بني إسرائيل بقتلهم الأنبياء، وانحرافهم عن التوحيد، وعبادتهم آلهة الأمم الوثنية وتقديم الذبائح لها أغضبوا الله تعالى، وكان لانحرافهم وتبدل دينهم للوثنية عوامل عدة من أبرزها:

١- جهلهم بحقيقة العقيدة وتأثرهم بمن حولهم من الوثنيين: كما قال تعالى: " وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ"^(١).

وهذا هو بداية انحرافهم إلى الوثنية، فالجهل في عقولهم أعمى بصائرهم وأوصلهم إلى عبادة العجل، قال ابن خلدون في هذه القصة: "وكان هارون قد أخبرهم بأن الحلي الذي أخذوه للقبط محرّم عليهم، فأرادوا حرقه وأوقدوا عليه النار، وجاء السامريّ في شيعه له من بني إسرائيل، وألقى عليه شيئاً كان عنده من أثر الرسول، فصار عجلاً وقيل عجلاً حيواناً، وعبدته بنو إسرائيل، وسكت عنهم هارون خوفاً من افتراقهم."^(٢). ويظهر كيف أن بني إسرائيل رأوا معجزات الله وقدرته في نجاتهم من فرعون وجنوده، ثم انصرفوا عن دينهم وسرعان ما عبدوا عجلاً جسداً تقليداً للوثنيين.

٢- اختلاطهم بمظاهر الوثنية وتأثرهم بالأمم المحيطة: فإنهم يصورون دور العبادة في زمن موسى - عليه السلام - وكأنها معابد للكهان من مظاهر البذخ والترف، مدعين بأن الله أمر موسى عليه السلام أن يبني مكاناً للعبادة، قال ابن خلدون: "ثم أمر الله موسى ببناء قبة للعبادة والوحي من خشب الشمشاد، ويقال هو السنط وجلود الأنعام وشعر الأغنام، وأمر بتزيينها بالحزير والمصبغ والذهب والفضة على أركانها صور منها صور الملائكة

(١) الأعراف: ١٣٨.

(٢) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ٢/ج ٩٥.

الكروبيين على كفيات مفصلة في التوراة في ذلك كله^(١). ويُلاحظ من خلال الوصف السابق أنهم لم يكتفوا بذكر أنواع الخشب والذهب والفضة بل خالطه تجسيد للملائكة وكأنهم يصورونها في تماثيل، لتكون جزءًا من العبادة وفي ذلك تأثر واضح بالوثنية التي تعبد وتقدس الأصنام وتؤمن بتجسيد الأرواح.

ووصفوا التابوت أيضاً، وكانت مظاهر الوثنية تظهر عليه من خلال الوصف فقال ابن خلدون أنه من خشب الشمشاد طول ذراعين ونصف في عرض ذراعين في ارتفاع ذراع ونصف مصفحاً بالذهب الخالص من داخل وخارج، وله أربع حلق في أربع زوايا، وعلى حافظه كروبيان من ذهب يعنون مثالي ملكين بأجنحة ويكونان متقابلين وأن يصنع ذلك كله شخص معروف من بني إسرائيل يُذكر باسمه^(٢).

٣- فقدانهم للتوراة وتحريفهم لها: فقد كانت المدة بين نزول التوراة وبين تدوينها قرون طويلة، مما كان سبباً للتلفيق والتدليس على موسى عليه السلام، فكما قال تعالى: "مَنْ الذِّينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ"^(٣) أي أنهم حرفوا التوراة وبدلوا فيها^(٤)، ومن تحريفهم أنهم جعلوا مكان العبادة في زمن موسى عليه السلام، كمثل معابد الوثنيين، ذكر ابن خلدون القبة كانت عند بني إسرائيل قبل عبادتهم للعجل، وأنه كان فيها عمود يقف عنده موسى عليه السلام ويتنزل عليه الوحي وتأتيه الأوامر والنواهي منها فقال: "وأحوال هذه القبة كثيرة وفيها: أن قبة القربان كانت موجودة قبل عبادة أهل العجل، وأنها كانت كالكعبة يصلون إليها وفيها، ويتقربون عندها، وأن أحوال القربان كانت كلها راجعة إلى هارون عليه السلام بعهد الله إلى موسى بذلك، وأن موسى صلوات الله عليه كان إذا دخلها يقفون حولها وينزل عمود الغمام على بابها، فيخرون عند ذلك سجداً لله عز وجل، ويكلم الله موسى عليه

(١) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج ٢/٩٦.

(٢) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج ٢/٩٦.

(٣) النساء: ٤٦.

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، ج ١/١٦٠.

السلام من ذلك العمود الغمام الذي هو نور ويخاطبه ويناجيه وينهاه، وهو واقف عند التابوت صامد لما بين ذينك الكروبيين^(١).
يظهر تأثرهم بالوثنية في تجسيد نور الله عز وجل بالغمام، في لحظة لقاء سيدنا موسى مع الله عز وجل.

٢) الوثنية بعد عهد موسى عليه السلام:

إن كانت صور الوثنية تجلت واضحة وموسى عليه السلام بين ظهرانيهم ومعجزات الله عز وجل لهم تترا، تبين عظمة الخالق وصدق نبوة موسى عليه السلام، فكيف بهم بعد سيدنا موسى عليه السلام، لقد استفحلت مظاهر الوثنية فيهم، حتى اتخذوا من عبادة الأصنام ديناً لهم، كما استعرض ابن خلدون ذلك في أكثر من موضع منها: ما كان من بني إسرائيل بعد دخولهم الأرض المقدسة مع يوشع بن نون، قال ابن خلدون عن سبط بن يامين أن اليونانيين كانوا في أرضهم، وأخذوا منهم الخراج واختلطوا بهم، وعبدوا آلهتهم فسلب الله عليهم ملك الجزيرة واسمه كوشان شقنائم، ومعناه أظلم الظالمين^(٢).

وكان كلما هلك لهم قائد وتشتت شملهم، كفروا وعبدوا الأوثان، كما ذكر ذلك ابن خلدون^(٣).

كما ذكر ابن خلدون وصف الهيكل المزعوم بأن ارتفاعه مائة ذراع في طول ستين وعرض عشرين، وجعل بدائرة كله أروقة وفوقها مناظر، وجعل بدائر البيت إبريدا من خارج، ونمقه وجعل الظهر مقورا ليودع فيه تابوت العهد، وصفح البيت من داخله وسقفه بالذهب، وصنع في البيت كروبيين من الخشب مصفحتين بالذهب وهما تمثالان للملائكة الكروبيين، وجعل للبيت

(١) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج ٢/٩٦.

(٢) المصدر السابق، ج ٢/١٠٣.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢/١٠٣ - ١٤٤.

أبواباً من خشب الصنوبر، ونقش عليها تماثيل من الكروبيين والنرجس والنخل والسوسن وغشاها كلها بالذهب^(١).

ذكر المؤرخون أن ما أضيف إلى الهيكل من زخرفات وإضافات كان بتأثير الفنون الكنعانية والفينيقية والمصرية وبلاد ما بين النهرين^(٢)، من ذلك ما قاله أولبرايت أن الأعمدة والمذبح وزخرفة الجدران من الكروبيان وغيرها كانت بإيحاء من الفنون الكنعانية المعاصرة^(٣). وقال لودز أن رموز الهيكل المزعوم غريبة بشكل كلي عن العقيدة اليهودية، بل مشتقة من صور وصيدا وحتى من بابل ومصر^(٤).

وقد بقيت رواسب الوثنية في قلوب اليهود بعد موت داوود عليه السلام وتعاقب ملوكهم وتشتت كلمتهم، حتى أن بعضهم كان يدعو لعبادة الأصنام ويحارب الأنبياء ويقتلهم قال ابن خلدون: "وقام يؤاش بملكه في تدبير يهوديادع الكوهن، ثم أراد عبادة الأصنام، فمنعه زكريا النبي فقتله"^(٥).

وقولهم عن عيد العساكر قال ابن خلدون ناقلاً عن يوسف بن كريون: "ورجع يهوذا بن متيتيا إلى القدس، فهدم جميع ما بناه أنطيوخوس من المذابح، وأزال ما نصبه من الأصنام، وطهر المسجد، وبنى مذبحاً جديداً للقربان، فوضع فيه الحطب ودعا الله أن يريهم آية في اشتعاله من غير نار، فاشتعل كذلك، ولم ينطفئ إلى الخراب الثاني أيام الجلوة، واتخذوا ذلك اليوم عيداً سمّوه عيد العساكر"^(٦).

(١) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج ١١٢/٢.

(٢) داوود وسليمان في العهد القديم والقرآن الكريم، أحمد الأحمد، ص ١١٣.

(3) From the Stone Age, Albright, P,294.

(4) Israel from its beginning to the middle of the eighth century, Lods,P.415.

(٥) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج ١١٩/٢.

(٦) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج ١٣٩/٢.

ويظهر من الكلام السابق أن اليهود لم يتأثروا فقط بعبادة الأصنام، بل إن السبي البابلي واحتكاكهم بالفرس وديانتهم المجوسية جعلهم يقدسون النار ويتخذون منها قرباناً ومعبداً يعكفون عليه، فالنار على قولهم ظلت مشتعلة لم تنطفأ من السبي الأول حتى السبي الثاني، وهو تأثر واضح بالمجوسية وعبدة النار.

❖ عقائد اليهود عند ابن خلدون:

(١) الكتاب المقدس (العهد القديم):

التوراة: كلمة عبرية معناها الشريعة، وتسمى الناموس أي: القانون، وأصله من (طُورًا) بِمَعْنَى الْهُدَى، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ اسْمٌ لِلْأَلْوَابِ الَّتِي فِيهَا الْكَلِمَاتُ الْعَشْرُ الَّتِي نَزَلَتْ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي جَبَلِ الطُّورِ لِأَنَّهَا أَصْلُ الشَّرِيعَةِ الَّتِي جَاءَتْ فِي كِتَابِ مُوسَى^(١). والمقصود بالتوراة الألواح المكتوبة، التي نزلت على سيدنا موسى عليه السلام^(٢).

وذكر ابن خلدون أن التحريف في التوراة وقعت في التأويل وليس في الأخبار والنصوص -حسب رأيه- مستدلاً بقول الله عزو جل: " وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ"^(٣).

ويظهر أن هذا الاستدلال ليس في محله؛ لأن القول الذي نقله البخاري في الصحيح عن ابن عباس ليس من قول ابن عباس وإنما رأي البخاري في المسألة، كما ذكر ذلك العسقلاني، بل إن قول ابن عباس في الصحيح وغيره هو أن التحريف وقع في المعاني والألفاظ، و العلماء في ذلك على أربعة آراء: الأول أن التحريف وقع فيها كلها وهذا القول فيه إفراط لتواتر النصوص على صحة بعض نصوص التوراة، والقول الثاني وهو أن التحريف هو الغالب واليسير لم يحرف، والثالث وهو رأي الإمام ابن تيمية وابن حزم وجماعة كبيرة من العلماء أن التحريف وقع في بعضها ومعظمها قد بقي على حاله واستدلوا بذلك على الآيات القرآنية

(١) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، أبو البقاء الهاشمي، ج ١/٩٣؛ التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج ٣/١٤٨.

(٢) موسوعة المصطلحات الدينية اليهودية، رشاد الشامي، ص ٣٠٥.

(٣) المائدة: ٤٣.

الصريحة بتبديل الكلمات وعدم اتصال سند التوراة بموسى أو الإنجيل بعيسى وورود الأخبار التي كذبها القرآن، ولا تجوز بحال كالحديث في قصص الانبياء والافتراء عليهم والرابع وهو ما ذهب إليه البخاري ووهب بن منبه أن التحريف وقع في المعاني دون الألفاظ^(١).
والتوراة تشتمل على خمسة أسفار حسب زعم اليهود وتشمل: سفر التكوين، سفر الخروج، سفر اللاويين، سفر العدد، سفر التثنية^(٢).

والكتاب المقدس لليهود يشمل العهد القديم والذي يحتوي على : التوراة وهي خمسة أسفار، وكتاب يوشع، وكتاب القضاة، وكتاب راعوث، وكتاب يهوذا، وأسفار الملوك أربعة، وسفر بنيامين، وكتب المقابيين لابن كريون ثلاثة، وكتاب عزرا الإمام، وكتاب أوشير، وقصة هامان، وكتاب أيوب الصديق، ومزامير داود عليه السلام، وكتب ابنه سليمان عليه السلام خمسة، ونبؤات الأنبياء الكبار والصغار ستة عشر وكتاب يشوع بن شارخ وزير سليمان^(٣).
وكتاب المقابيين نسبه ابن خلدون ليوسف بن كريون، ولم يرد هذا النسب في التوراه، ولعل ابن خلدون يقصد به من قام بتلخيص هذا السفر واسمه يس الكريوني، نسبة إلى كريان وهي الاسم القديم لمقاطعة برقة في ليبيا^(٤).

٢) الملائكة:

ذكر ابن خلدون أن اليهود يجسدون الملائكة ويصورونها في معابدهم فقال صوروا الملائكة الكروبيين على كيفيات مفصلة في التوراة في ذلك كله، يزعمون أنها من أجزاء القبة التي أمر الله موسى ببنائها^(١).

(١) فتح الباري، ابن حجر، ج٣/٥١٨-٥٢٢.

(٢) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، أبو البقاء الهاشمي، ج١/٩٣ ؛ تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج١/٢٩٠، ج٢/١٧٤.

(٣) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، أبو البقاء الهاشمي، ج١/٩٣ ؛ تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج١/٢٩٠، ج٢/١٧٤.

(٤) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج١/ص٢٩٠.

ومصطلح الملائكة الكروبيين هو مصطلح غير وارد في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية الصحيحة، وإن كان بعض العلماء ذكر حديثاً عن جابر يذكر فيه مصطلح الملائكة الكروبيين على أنهم الملائكة المقربون من العرش غير أن الإمام الألباني خرج هذا الحديث على أنه ضعيف جداً^(٢).

وتستند عقيدة اليهود في الملائكة عليهم السلام على أساس التفريق بينهم، فبعضهم من أوليائهم كميكايل عليه السلام، وبعضهم من أعدائهم كجبريل عليه السلام^(٣)، وفي حوار بين النبي ﷺ وجماعة من أحبار اليهود سألوه عن أشياء وأجابهم عليها ثم قالوا له: "فحدثنا عن وليك من الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك، قال: فإن وليي جبريل ولم يبعث نبي قط إلا هو وليه، قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليك سواه من الملائكة لاتبعناك وصدقناك، قال فما يمنعكم أن تصدقوه، قالوا: إنه عدونا"^(٤)، وقد نزل في ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾^(٥)، والآية تتضمن توبيخ اليهود على عداوتهم لجبريل عليه السلام؛ لأنه لم يأت بالوحي من تلقاء نفسه وإنما بإذن الله، كما تتضمن تأكيداً على أن عداًء أحد من الملائكة يعني معاداتهم جميعاً، وأن معاداة الملائكة هي عداوة لله تعالى^(٦).

(١) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج ٩٦/٢.

(٢) سلسلة الأحاديث الضعيفة، الألباني، ج ٣٢٣/٢.

(٣) العنصرية اليهودية، الزغبني، ج ١/٢.

(٤) الطبقات، ابن سعد، ج ١/١٧٥، ١٧٤؛ تفسير الطبري، الطبري، ج ١/٤٣٢؛ تفسير ابن كثير، ابن كثير، ج ١/

١٣٠؛ مجمع الزوائد، الهيتمي، ج ٦/٣١٥؛ الشخصية اليهودية، صلاح الخالدي، ص ١٨٠، ١٧.

(٥) البقرة: ٩٨ - ٩٧.

(٦) بنو إسرائيل، طنطاوي، ص ٤٢٣، ٤٢٢.

أما عن سبب عدائهم الحقيقي لجبريل عليه السلام فهو عداؤهم للنبي ﷺ وحسد لهم؛ لأنه لم يكن من جنس بني إسرائيل وإنما من العرب، ولما كان جبريل هو الذي ينزل بالوحي على رسول الله ﷺ نالته عداوتهم بسبب ذلك^(١).

٣) الأنبياء:

لم تترك اليهود أحداً من الأنبياء إلا وأرادت به سوءاً، كما قال تعالى: " كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون"^(٢).

فرغم ما رأوه من معجزات وكرامات بين أيديهم في عهد موسى - عليه السلام - إلا أن بعضهم ارتابه الشك في نبوة موسى عليه السلام، كما أشار ابن خلدون إلى أن فودح بن يصهر بن قاهث، -وهو ابن عم موسى بن عمران بن قاهث- ارتاب هو وجماعة من بني إسرائيل بشأن موسى، واعتمدوا محاربتة ومخالفته فأصابتهم قارعة وخسفت بهم الأرض وأصبحوا عبرة للمعتبرين^(٣). قال الله تبارك وتعالى في ذلك: "ويقتلون النبيين بغير الحق"^(٤)، أي "وعلى قتلهم الأنبياء ظلماً، فهم قتلوا أشعيا وزكريا ويحيى وغيرهم بغير مسوغ للقتل"^(٥).

٤) الكوهن الأعظم:

عرف ابن خلدون الكهنونية بأنها إقامة القرابين من الذبح والبخور على شروطها وأحكامها الشرعية عندهم^(٦). وكانت تنسب لبني إسرائيل هذا المنصب لنسل هارون - عليه السلام - حيث أن الكهنونية جميعاً من عقب العيزار بن هارون من لدن وفاة هارون عليه السلام بتوليته موسى

(١) معركة مع اليهود، سيد قطب، ص ٢٨؛ العنصرية اليهودية، أحمد الزغبى، ج ٢/١٨.

(٢) المائدة: ٧٠.

(٣) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج ٢/٩٨.

(٤) البقرة: ٦١.

(٥) التفسير المنير، الزحيلي، ج ١/١٧٤.

(٦) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج ٢/١٠٦.

صلوات الله عليه بالوحي، وأن الله أعطاهم مركزاً؛ لأنهم حافظوا على كرامته حينما عبد باقي الشعب العجل^(١).

وظائف الكوهن متعلقة أساساً بالأمر الدينية والعبادات وكانت لهم مكانة مرموقة في عصر القضاة والهيكل الأول المزعوم، فكان يقوم بنشر تعاليم التوراه، ويشرع فتاوى الدنس والطهارة، ويتوجه إليه من يرغب في طلب مشورة الرب حسب زعمهم، لكن مكانتهم أخذت في التراجع ووظيفتهم في التناقص منذ خراب الهيكل الثاني وتشتت اليهود عن فلسطين، واقتصرت وظائفهم اليوم على اعتلاء المنبر ومباركة اليهود قبل انتهاء صلاة إمام المصلين^(٢).

ومع كون وظيفة كبير الكهنة دينية، إلا أنها كانت لها أبعادها الدنيوية، حيث يعد الكاهن الأعظم من رجالات المملكة العبرانية وجزءاً من الارستقراطية الحاكمة^(٣).

ونذكر ابن خلدون في معرض حديثه في أكثر من موضع عن الكوهن وذكر أسماء بعضهم، من ذلك يهود يادع ووصفه بالكوهن الأعظم^(٤)، لكن هذا الكوهن كان يدعو إلى عبادة الأصنام وفي عهده قتل زكريا عليه السلام، قال ابن خلدون أن ملكهم (يؤاش) وبتدبير مع يهود يادع الكوهن، أراد عبادة الأصنام، فمنعه زكريا النبي فقتله^(٥).

كما ذكر ابن خلدون أيضاً أن بني إسرائيل يعتقدون أن الكوهن مستجاب الدعوة، مثلما دعا الكوهن على ملكهم عزيا بأن يصيبه البرص فأصابه^(٦).

ويظهر مما سبق أن الأعمال المنوطة بالكوهن الأعظم من تقديم للقرابين والذبائح والبخور، وكونه حلقة وصل بين الإنسان وربّه وغيره من الوظائف التي ما أنزل الله بها من

(١) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج٢/١٠٦؛ موسوعة الكتاب المقدس، مجموعة من الباحثين، ص٢٦٨.

(٢) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج٢/١٠٣؛ موسوعة المصطلحات الدينية اليهودية، رشاد الشامي، ص١٦٣-١٦٤؛ موسوعة الكتاب المقدس، مجموعة من الباحثين، ص٢٦٩.

(٣) اليهودية ديانة توحيدية أم شعب مختار، عمر مصالحة، ص١٦٢.

(٤) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج٢/١١٨.

(٥) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج٢/١١٩.

(٦) المصدر السابق، ج٢/١٢٠.

سلطان، غير أنها اختلطت بالمصالح الدنيوية وهي مشوهة بالوثنية وبعيدة عن شريعة التوحيد التي لا تحتاج وسيطاً بين العبد وربّه.

٥) التابوت:

حيث كان التابوت المقدس عندهم هو ضريح يوسف عليه السلام، حيث ذكروا في التوراة أن الله أمر موسى باستخراجه وأخذه معه لبيت المقدس عند خروجهم من مصر، قال ابن خلدون: "وأخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام، استخرجه موسى صلوات الله عليه من المدفن الذي كان به بالهامة من الله تعالى" (١). ولقد ذكر لفظ التابوت في القرآن الكريم في قوله تعالى: " وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ " (٢). ورجح ابن عطية في تفسيره معنى التابوت فقال: "والصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك وتأنس به وتقوى" (٣).

ولعل هذا الرأي هو الأقرب إلى الصواب، وهو قريب مما ذكره ابن خلدون، ويدل ذلك على أن التابوت لم يكن في عصر موسى عليه السلام، بل بعد ذلك كما أنه ذا قدسية عند اليهود.

٦) الهيكل:

ذكر ابن خلدون الهيكل أول ما ذكر أنه بمعنى البناء العظيم، ... كما أشار أن الهياكل العظيمة، يصعب هدمها وأن المباني العظيمة تعجز الدول عن إخفاء آثارها وتخريبها (٤). يظهر مما سبق أن الهيكل لا يقصد به هيكل سليمان فقط، بل هو كل مكان للعبادة أو مبنى ضخم.

(١) المصدر نفسه، ج ٢/٩٤.

(٢) البقرة/٢٤٨.

(٣) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج ١/٣٣٣.

(٤) المصدر السابق، ج ١/٤٢٩ - ٤٣١.

ذكر ابن خلدون لفظ الهيكل الذي في بيت المقدس، حين أوّل الحديث الذي رواه البخاري ومسلم، عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: «قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوَّلُ؟»، قَالَ: (الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ)، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: (الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى)، قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: (أَرْبَعُونَ سَنَةً)^(١).

حيث كان بين بناء إبراهيم عليه السلام للبيت الحرام، وبناء سليمان لبيت المقدس ما يزيد عن ألف سنة.

أوّل ابن خلدون أن المقصود ليس البناء وإنما تعيين المكان للعبادة، معللاً ذلك بأن الصابئة - وهم على عهد إبراهيم عليه السلام - بنوا على الصخرة هيكل الزهرة، وكانوا يتخذونه مكاناً للعبادة، كما كان في الكعبة الأصنام والتماثيل^(٢).

كما ذكر ابن خلدون عن هيكل في الخليل في موضع حديثه عن إبراهيم عليه السلام، فيقول أن إبراهيم نزل جيرون وهو مدفنه المسمى "بالخليل"، وكانت تعظمها الصابئة، وتسكب عليها الزيت، وتزعم أنها هيكل المشتري والزهرة، وقد سماها العبرانيون إيليا ومعناه بيت الله^(٣). ذكر المؤرخون - ومنهم ابن خلدون - أن بيت المقدس سماه الرومان إيليا وذلك بعد الخراب الثاني في زمن الامبراطور الروماني السادس عشر "إيليا انريانوس" عام ١٣٥م واسمه في بعض الروايات "هدريان"، الذي قتل اليهود في بيت المقدس، ومنعهم من الدخول إليها، وأعاد تسميتها من أورشاليم إلى إيليا، ولم يعرف اسم مدينة باسم إيليا قبل ذلك العهد^(٤).

(١) صحيح البخاري، رقم ٣٤٢٥.

(٢) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج ١/٤٤٤.

(٣) المصدر السابق، ج ٢/٣٩.

(٤) التنبيه والإشراف، المسعودي، ج ١/١١١؛ الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج ١/٢٩٣؛ المختصر في أخبار البشر، صاحب حماة، ج ١/٣٨، تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج ٢/٢٤٢؛ دراسات في تاريخ العرب القديم، محمد مهرا، ص ٤٠١.

يظهر من روايات ابن خلدون أن هناك أكثر من هيكل زهرة في فلسطين، حيث ذكر - سابقاً- الهيكل على الصخرة في بيت المقدس وسماه هيكل الزهرة^(١)، ثم ذكر في موضع آخر عن هيكل للزهرة والمشتري في الخليل، وهذا يدل على أن الهيكل لم يكن له مكاناً ثابتاً بعينه، كما سوف نرى أن بني إسرائيل قد بنوا هيكلًا آخرًا لهم في نابلس.

يتضح من الرواية السابقة أن الهيكل لم يكن المقصود به بيت المقدس (المسجد الأقصى)، فقد بينت هذه الرواية اليهودية أن قدسية الهيكل لا ترتبط ببيت المقدس ، فمجرد أن بني هيكل في مكان آخر أصبح محجاً لهم يرتادونه في أعيادهم ويقدمون له القرابين متجاهلين بيت المقدس.

كان ابن خلدون يخلط بين الهيكل والمسجد فقال: " وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام، أمرهما الله ببناء مسجده ونصب هياكله ودفن كثيراً من الأنبياء من ولد إسحاق عليه السلام حواليه"^(٢).

ففي هذا الموضع ذكر ابن خلدون لفظ المسجد على مكان العبادة في بيت المقدس، ولم يذكر اسم الهيكل وهو ما يدل على أن بيت المقدس بقي مكان لعبادة الله على شريعة التوحيد الحقّة^(٣).

يبدو أن ابن خلدون كان ينقل عن الإسرائيليات لفظ الهيكل، وبذلك يظهر أن ابن خلدون لم يفرق بين لفظ الهيكل والمسجد، ولم ينوه لخطورة هذه المسألة.

نلاحظ أن الطبري لم يستخدم لفظ الهيكل في حديثه عن سليمان عليه السلام بل كان يستخدم لفظ المحراب والمسجد ومن ذلك قوله: " نَبَتْ لِحْرَابِ هَذَا الْمَسْجِدِ قَالَ سُلَيْمَانُ: مَا كَانَ اللَّهُ لِيُخْرِبَهُ وَأَنَا حَيٌّ، أَنْتِ الَّتِي عَلَى وَجْهِكَ هَلَاكِي وَحَرَابُ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، فَنَزَعَهَا وَغَرَسَهَا فِي حَائِطِ لَهْ، ثُمَّ دَخَلَ

(١) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج ١ / ٤٤٤.

(٢) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج ١ / ٤٣٦.

(٣) المصدر السابق، ج ٢ / ١٦٨-١٦٩.

المِحْرَابَ فَقَامَ يُصَلِّي مُتَكَبِّراً عَلَى عَصَاهُ فَمَاتَ"^(١). وقال في التفسير في سورة الإسراء : " وقوله (إلى المسجد الأقصى) يعني: مسجد بيت المقدس"^(٢)، وحتى في الخراب ذكر ذلك بقوله : " وغزو بختنصر بني إسرائيل وتخريبه بيت المقدس"^(٣).

ويظهر أن اليهود تأثروا بمفهوم الهيكل من الصائبة عبدة الكواكب - كما ذكرنا سابقاً- وقد يكون هذا التأثير هو سبب ذكرهم مصطلح الهيكل في كتبهم المختلفة ، كما أنه لم يرد في القرآن الكريم ولا السنة النبوية المطهرة لفظ الهيكل ، كما أن اللفظ في ذاته لا يحمل أي دلالة تعبدية، بل بمعنى المبنى المرتفع العظيم، ولعلمهم اتخذوا هيكلًا بعيداً عن المسجد الأقصى، وخالطوا ذلك ببيت المقدس؛ فقد ذكر ابن خلدون أن بني إسرائيل اتخذوا هيكلًا لهم في نابلس. وقد ذكر ابن القيم أن السامرة طائفة من اليهود كانوا يتخذون الهيكل الذي في نابلس قبلة لهم، فَأَلْيَهُودُ تُصَلِّي إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ وَالسَّامِرَةُ تُصَلِّي إِلَى جَبَلِ عِزُونَ بِبَلَدِ نَابُلُوسَ^(٤) وبينت الدراسات البحثية أن هناك تخبُّطاً في تحديد مكان هيكل سليمان في الروايات التوراتية، وهناك اختلاف وتعارض فيما بينها، فتارة يقولون أن الهيكل على جبل موريا^(٥)، وتارة يذكر أن الرب أمر داوود ببناء مذبح في بيدر أرونا اليبوسي^(٦)، وتارة أنه بني على جبل صهيون -والذي اختلف في توصيف مكانه- في القدس^(٧)، كما أن التوراه ذكرت أن الهيكل عند عين الماء، علماً أن محيط المسجد الأقصى لا يوجد عنده عين ماء أبداً إلا في منطقة بعيدة عن وسط المدينة في عين جيحون^(٨).

(١) تاريخ الطبري، الطبري، ج ١/ ٥٠٢.

(٢) تفسير الطبري، الطبري، ج ٣٣٣/١٧.

(٣) تاريخ الطبري، الطبري، ج ٥٣٨/١.

(٤) أحكام أهل النمة، ج ١/ ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٥) سفر الملوك الثاني، ٣ / ١ - ٢ .

(٦) سفر صموئيل الثاني، ٢٤ / ١٥ - ٢٥.

(٧) سفر يوتيل، ٣ / ١٥ - ١٧.

(٨) نقد أفكار هيكل سليمان الواردة في النص التوراتي، زكريا السنوار، ص ١٧ - ١٩.

كما أن الأسفار التي تحدثت عن الهيكل وهما سفري الملوك الأول والثاني قد لفتت وجمعت من مصادر مختلفة، واكتشف الباحثون ذلك من لغة الكتابة ، حيث لم يتقن الكتابة لعملية التلفيق والتزوير والتحريف^(١)، وذلك باعتراف الموسوعة اليهودية ودائرة المعارف الأمريكية التي أقرت بوجود تغيير مقصود في الأسفار اليهودية، وأنهم لم تصلهم النسخة الأصلية للأسفار^(٢). كما ذكروا أن سفري الملوك الأول والثاني من كتابة أرميا، وهو باطل لأن أحداث السفر تمتد لما بعد عصر أرميا ولا يُعقل أن يكون هو كاتبه^(٣).

يظهر من هذه الأدلة أن الأسفار التي تتحدث عن الهيكل ما هي إلا مدونات اعتمد كاتبها على الروايات الشفهية والحكايات الشعبية المتأثرة بالوثنية.

كما أن مصطلح المسجد الأقصى على المسجد المعروف الآن هو مصطلح حديث، أما المسجد الأقصى في المصطلح القرآني فهو المكان الموجود الآن داخل أسوار الحرم الشريف بالقدس، وقد كان يطلق عليه العلماء والمؤرخون باسم المسجد الأقصى أو مسجد بيت المقدس^(٤).

يظهر أن هناك العديد من التخبط والأدلة المهزوزة حول هيكل سليمان المزعوم لتشكك في حقيقة وجوده أصلاً، وإن وجد تجعله في دائرة المبهم عن حقيقة مكانه ، فضلاً عن التهويل الذي ذكرته الروايات التوراتية المختلفة حول طبيعة بنائه ، مما يجعل إمكانية دثره نهائياً دون أن تكون له آثار أو بقايا يعد أمراً خارج المنطق وفق ما بين ابن خلدون الذي بين أن الهياكل العظيمة ، يصعب هدمها، والمباني العظيمة تعجز الدول عن إخفاء آثارها وتخریبها.^(٥)

(١) الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي، عبد العظيم المطعني، ص ٣٥٥ - ٣٥٦.

(٢) تأثر اليهودية بالأديان الوثنية، فتحي الزغبى، ص ٣٧٢-٣٧٣.

(٣) المدخل إلى الكتاب المقدس، حبيب سعيد، ص ٩٩.

(٤) نقض المزاعم الصهيونية في هيكل سليمان، صالح الرقب، ص ٧٧.

(٥) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج ١ / ٤٢٩ - ٤٣١.

❖ فرق اليهودية:

- كانت لليهود فرق كل فرقة لها مذهب وطريقة ومن أهم الفرق والمذاهب اليهودية:
- ١- القراؤون أو العنانية: من أهم تعاليمهم عدم الاعتراف بالتلمود كمصدر فقهي يفيد التشريع والتقنين، ورفض مطلقاً للشريعة الشفوية، وكان شعارهم (اقرأوا التوراة واتركوا التلمود^(١))، وهم يتمايزون بالتمسك بظواهر النصوص ومعانيها الحرفية، ويحرمون التأويل، ومن هنا تسميتهم بأهل النص والحرفيين، ويميل القراؤون في مسائل القضاء والقدر إلى القول بالاختيار الإنساني وحرية الإرادة، ويعتقدون أيضاً بتناسخ الأرواح^(٢).
 - ٢- الفريسيون: اسم هذه الفرقة من الكلمة العبرية (PERUSHIM) التي تعني المدح، والذين اعتزلوا غيرهم، أو بدلالة القدح والذم: أي المنفصلون والمفصولون من غيرهم، واعتبروا أنفسهم أكثر الجماعات اليهودية التزاماً بالتوراة، ويعدون أكثر المفسرين للتوراة دقة، ويسمون أنفسهم الأحرار أو الأخوة في الله أو الريانيين^(٣).
 - ٣- الصدوقيون: وأصحاب هذه الفرقة نسبوا إلى رجل يقال له صدوق، وهم يقولون بين سائر اليهود أن العزيز هو ابن الله- تعالى الله عن ذلك- وهم أصحاب عانان الداوديّ اليهوديّ وهم لا يتعدون شرائع التوراة وما جاء في كتب الأنبياء عليهم السلام، ويتبرؤون من قول الأحرار ويكذبونهم^(٤).
- وإذا كان الفريسيون يمثلون الجماهير الشعبية فإن الصدوقيين على النقيض المقابل لهم، كانوا يمثلون الطبقات الأرستقراطية، فكانوا تبعاً لذلك موضع ثقة الأغنياء وحدهم، ولم يكن لهم

(١) التلمود: هي مجموع مناقشات حاخامات في التعليم والتأمل العميق في أمور التوراه. انظر: موسوعة المصطلحات الدينية اليهودية، رشاد الشامي، ص ٣٠٧.

(٢) الملل والنحل، الشهرستاني، ج ٢/٢٠؛ اليهودية عرض تاريخي والحركات الحديثة في اليهودية، عرفان فتاح، ص ٩٤.

(٣) مقارنة الأديان-اليهودية، أحمد شلبي، ص ٢١٨.

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، ج ١/ ٨٢.

- أتباع في صفوف عامة اليهود، فانحصرت تعاليمهم في القلة والنخبة الثرية فحسب من أصحاب الثروات والأرستقراطية الدينية، وهيئة كبار الكهنة التي احتكرت لنفسها الحكم ديناً ودنيا منذ فترة طويلة ترجع بداياتها إلى عهد الحكم الفارسي. والذي يجمع الصدوقيين جملة أمور منها: (١)
- إنكارهم التام للبعث الجسماني، وإنكار الملائكة والأرواح.
 - رفض العمل بالتلمود؛ لاعتقادهم الصارم بأن السبيل الوحيد لحفظ الدين هو التمسك الحرفي الشديد بأحكام التوراة المدونة، ووجوب فرضها بالكامل.
 - رفض ومناهضة كل أمر لم يثبت بنص، باعتباره بدعة مستحدثة.
 - استغراق بعضهم التام في حياة الترف واللهو، والسقوط في الإباحية الأخلاقية نتيجة لإنكارهم البعث والقيامة.
 - تصورهم القومي للألوهية، فالإله في نظرهم إله قومي، وأنه رب إسرائيل حصراً، فهو الذي اختارهم، وهم شعبه مما لزم عنه التشدد في معاملة الأقوام الأخرى.
 - أما في مسائل القضاء والقدر، فقد مالوا إلى القول بحرية الإنسان المطلقة في خلق (أفعاله ومسؤوليته الكاملة عنها).
- ٤- الأسينيون: اسمهم مشتق من كلمة (ISI) التي تعني - المعالجون الروحانيون - ويقدر عددهم بأربعة آلاف نسمة، كانوا منتشرين في كل بقاع المنطقة، لم يكن للأسينيين فرقة دينية خالصة كالفريسيين، أو حزباً سياسياً بالدرجة الأولى كالصدوقيين، وإنما مثلوا ظاهرة دينية اجتماعية قريبة في نظمها وسلوكها من الرهينة المسيحية (٢).
- ٥- الكتبة: تطلق هذه التسمية على مجموعة من اليهود كانت مهمتهم كتابة الشريعة لمن يطلبها، فهم أشبه شيء بالنساخ، وعن طريق صلتهم بكتابة الشريعة، عرفوا بعض المعلومات من الكتب التي نسخوها، فاتخذوا الوعظ وظيفة أخرى لهم بجوار كتابة الشريعة،

(١) اليهودية عرض تاريخي والحركات الحديثة في اليهودية، عرفان فتاح، ص ١٠٢ .

(٢) اليهودية عرض تاريخي والحركات الحديثة في اليهودية، عرفان فتاح ، ص ١٠٤ .

وكانوا يسمون أحياناً بالحكماء، وأحياناً السادة، كما كان الواحد منهم ينادى بلقب (أب) عند المخاطبة.^(١)

٦- الغيورون: حركة ثورية باعثها الأول والمباشر كان دينياً، وإن انطوت أثناء تطورها على أبعاد سياسية واجتماعية، وأهم ما اقتصت به الحركة تعطش أتباعها للحرية، فكانت قطع النقود التي أصدرها إبان الحرب تحمل عبارات (الحرية لصهيون) و(حان الخلاص لصهيون)، وانبعث من صفوف الغيورين جماعة أشد تطرفاً وأكثر عنفاً من البقية وهم المغتالون، من كلمة (SICA) التي تعني الخنجر المعكوف الذي كانوا يخفونه تحت ملابسهم، ويستعملونه في اغتيال خصومهم المتعاونين فعلاً، أو المشكوك في تعاونهم مع السلطات الرومانية الوثنية^(٢).

٧- السامريون: وهي أقدم انشقاق ديني في تاريخ اليهودية، وللسامريين توراتهم الخاصة بهم، تختلف عن التوراة المعتمدة عند عامة اليهود، وتقوم عقيدة السامرة على خمسة أركان، هي: وحدانية الله تعالى وأنه تعالى ليس بجسم ولا يقبل القسمة والتجزئة، ونبوة موسى عليه السلام وأنه أفضل الأنبياء، فهو نور العالم وضيأؤه، وقداسة جبل جرزيم، واعتباره مركز العالم وقطبه، وأن الأسفار الخمسة وحي إلهي لا يقبل النسخ. والسامريون يمثلون في الوقت الحاضر طائفة صغيرة جداً في تعدادها، إذ يبلغ مجموع أفرادها ٣٣٧ شخصاً، وعرف من علمائهم شدة العناية باللغة العربية والتأليف فيها^(٣).

كما ذكر ذلك ابن خلدون، ثلاثة من هذه الفرق وهي : فرقة الفقهاء وفرقة القراؤون وفرقة الحيسيد ، فقال بأن اليهود كانوا في دينهم يومئذ ثلاث فرق: فرقة الفقهاء وأهل القياس ويسمّونهم الفروشم وهم الرّبانيّون، وفرقة الظاهريّة المتعلقين بظواهر الألفاظ من كتابهم

(١) مقارنة الأديان-اليهودية، أحمد شلبي، ص ٢٢٤.

(٢) اليهودية عرض تاريخي والحركات الحديثة في اليهودية، عرفان فتاح، ص ١٠٨.

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، ج ١/٨٢؛ الملل والنحل، الشهرستاني ، ج ٢/٢٣؛ اليهودية عرض تاريخي، عرفان فتاح، ص ١١٢.

ويسمونهم الصدوقية وهم القراءون، وفرقة العبّاد المنقطعين إلى العبادة والتسبيح والزهاد فيما سوى ذلك ويسمونهم الحيسيد^(١)، وذكر ابن خلدون أن هذه الفرق كانت تتصارع فيما بينها وانتشرت بينهم الفتن والقتل^(٢).

ثالثاً: صفات الشخصية اليهودية:

(١) البارانويا (جنون العظمة): هي حالة مرضية ذهانية تميزها الأوهام والهذيان الواضح المنظم الثابت، أي الهذيان والمعتقدات الخاطئة عن العظمة أو الاضطهاد، مع الاحتفاظ بالتفكير المنطقي وعدم وجود هلوسات في حالة الهذاء النقي، أي أن الشخصية رغم وجود المرض تكون متماسكة ومنظمة نسبياً وعلى اتصال لا بأس به بالواقع، ولا يرافقه تغيير في السلوك العام إلا بقدر ما توحى به الأوهام والهذيان، وأطلق عليه البعض اسم جنون العظمة أو جنون الاضطهاد^(٣).

ومن أهم عوامل هذا المرض هي الأسباب الوراثية والأسرية لذلك تصاب بهذا المرض جماعات وقبائل، لا مجرد حالات فردية .

هذه الأوهام تقنعه بأنه مضطهد من قبل الآخرين وبأنّ السبب الرئيسي لاضطهاده من قبلهم هو كونه شخص عظيم ومهمّ للغاية! كما يشعر مريض البارانويا بمشاعر الكراهية على الآخرين، كما أن المريض يتميز بالقدرة على المناقشة لساعات طويلة وتبدو مناقشة منطقية غير أنها تقوم على أساس فكري خاطئ^(٤).

فمثلاً اليهود عندهم توهم بقدرتهم على التنبؤ بالمستقبل، وأن الله يخصص بعناياته ويعرفهم بيوم انتصارهم ويسيروا في حياتهم وفقاً للإلهام الرباني - حسب ما يعتقدون - .

(١) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج٢/١٤٢.

(٢) المصدر السابق، ج٢/١٤٣.

(٣) الصحة النفسية والعلاج النفسي، حامد زهران، ص ٥٤٣.

(٤) الأوهام المرضية والضلالات، عطية، ص ١٦.

قال ابن خلدون في أخبار بني إسرائيل أن ملك فارس سقى قواده بأواني بيت المقدس التي احتملها جدّه من الهيكل ابتهاجاً بالنصر، فسخط الله لذلك ورأى تلك الساعة كأنّ يدا خرجت من الحائط تومي بكتابة كلمات بالخط الكلداني والكلمات عبرانية، فارتاع لذلك هو والحاضرون وفزع إلى دانيال النبي لتفسيرها، فقال له دانيال: هذه الكلمات تنذر بزوال ملكك ومعناها أنّ الله أحصى مدّة ملكك، ووزن أعمالك، ثم قتل الملك في تلك الليلة!^(١).
كما أن الله ذكر بعض جنونهم ونقل بعض أقوالهم ، فهم الذين قالوا : " وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه"^(٢). وهم الذين قالوا كذلك: " لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة"^(٣).

(٢) غياب المبادئ :

تقوم العلاقات عند اليهود على أساس المصلحة، وقد كان حكامهم يضعون أيديهم في أيدي أعدائهم لينالوا من بعضهم البعض، فبعد موت داوود عليه السلام تفرق بنو إسرائيل وكان لهم حاكم اسمه (أسا) من نسل داوود عليه السلام، قضى فترة حكمه في قتال مستمر مع يربعم بن نباط وبني إسرائيل وهو من أحد أسباطهم، فاستمد اسبا بملك دمشق على بني جلدته ليتقوى به^(٤).

وقال ابن خلدون أيضاً عن أحد حكامهم واسمه (يوآش) قد عطل أحكام التوراة، وأساء السيرة، فزحف إليه فرعون الأعرج، وأخذته ورجع به إلى مصر فمات هناك، وضرب على أرضهم الخراج مائة قنطار فضة وعشرة زهبا، ووّلّى مكانه أخاه (ألياقيم) وكان عاصياً كافراً، وكان يأخذ الخراج لفرعون من بني يهوذا^(٥).

(١) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج٢/١٣٦.

(٢) المائدة: ١٨.

(٣) البقرة: ٨٠.

(٤) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون ، ج٢/١١٧.

(٥) المصدر السابق ، ج٢/١٢٢.

٣) تعدد الحكام وتشدت كلمتهم:

حيث كثرت ملوكهم، وتفرقوا أمما أسباطاً، قال ابن خلدون أن بني إسرائيل اختلفوا بعد يوشع وعبدوا الأصنام وسلط الله عليهم بني فلسطين والأمم المجاورة فقهرهم سنوات طويلة، وأن الفتنة وقعت بين بني إسرائيل ففني فيها سبط بنيامين عن آخرهم؟!^(١) وكما قال تعالى فيهم: "أولكما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم"^(٢)، وقوله تعالى: "الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة"^(٣). حتى أن الاقتتال كان بين الحكام الإخوة فكانوا يحيكون المؤامرات لبعضهم البعض، حتى أن أحبارهم ليؤكدون ذلك بقول يوسف بن كريون عن أرسطبلوس قائد العسكر لما شعر بموت حاكمتهم خرج إلى القراءين يستدعيهم إلى نصرته فأجازوه، واجتمعت عليه العساكر من النواحي وضرب البوق وزحف لحرب أخيه هرقانوس والربانيين، وحاصرهم أرسطبلوس ببيت المقدس، وعزم على هدم الحصن^(٤).

٤) الوهمية:

حيث كانت حياتهم قائمة على الأوهام يحبون الراحة ويركنون إليها؛ لذلك استتكفوا عن القتال في زمن موسى عليه السلام ورفضوا دخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، فاستعظموا العدو من الكنعانيين والعمالقة، ورجعوا إلى قومهم يخيفونهم ويخذلونهم، إلا يوشع وكالب فقالا لهم ما قالا وهما الرجلان اللذان أنعم الله عليهما^(٥)، قال تعالى: " قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"^(٦).

(١) المصدر نفسه، ج ٢ / ١٠٦.

(٢) البقرة: ١٠٠.

(٣) الأنفال: ٥٦.

(٤) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج ٢ / ١٤٤.

(٥) المصدر السابق، ج ٢ / ٩٧.

(٦) المائدة: ٢٣.

فالوهن الذي في قلوبهم صور لهم الجبارة بصورة مرعبة وكأنهم فوق القوة البشرية ولا طاقة تمنعهم أو تقف حائلاً دونهم، وتتاسوا قوة الجبار الذي وعدهم الأرض، رغم أنه طلب منهم التحلي ببعض البأس إلا أن الأوهام سيطرت عليهم وقيدت أطرافهم، فهاموا على وجههم في البراري خوفاً من الموت فكتب الله عليهم التيه وحرّمهم من دخول بيت المقدس.

وعزا ابن خلدون هذا الذل والانقياد لخلوهم من العصبية التي هي قوام الأمة، فقال إنّ المذلة والانقياد كاسران لسورة العصبية وشدتها، فإنّ انقيادهم ومذلتهم دليل على فقدانها فما رئموا للمذلة حتّى عجزوا عن المدافعة فأولى أن يكونوا عاجزين عن المقاومة والمطالبة^(١).
(٥) ازدواجية المعايير والنسبية الأخلاقية:

حيث كثرت خصوماتهم ومشاكلهم، حتى وموسى عليه السلام بين ظهرانيهم، ذكر ابن خلدون أن موسى صلوات الله عليه لما نجا ببني إسرائيل الى الطور بلغ خبره الى بيتر صهره من بني مدين، ف جاء ومعه بنته صفورا زوجة موسى عليه السلام، وقد رأى كثرة الخصومات على موسى، فأشار عليه بأن يتخذ النقباء على كلّ مائة أو خمسين أو عشرة فيفصلوا بين الناس، وتفصل أنت فيما أهم وأشكل، ففعل ذلك^(٢).

فلكثرة مشاكلهم الناتج من حبههم للدنيا وتعديهم على الأخلاق والحقوق، قسمهم موسى - عليه السلام - إلى أقسام وجعل النقباء عليهم؛ ليحلوا مشاكلهم ويردوا المظالم إلى أصحابها، وقال ابن خلدون في سوء أخلاقهم أيضاً - وهم في عهد موسى عليه السلام حيث فشا في بني إسرائيل الزنا ببنات مؤاب ومدين فأصابهم الموتان، فهلك منهم أربعة وعشرون ألفاً^(٣).

(٦) الترحال وعدم الثبات:

فهم لا يرتبطون بمكان، وليس لهم مملكة تحكمهم ولا قائد يجمع كلمتهم، قال ابن خلدون أنه لما قبض يوشع صلوات الله عليه بعد استكمال الفتح، وتمهيد الأمر، ضيّع بنو إسرائيل

(١) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج ١ / ١٧٦.

(٢) المصدر السابق، ج ٢ / ٩٦.

(٣) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج ٢ / ٩٨.

الشرعية، وما أوصاهم به وحذرهم من خلافه، فاستطالت عليهم الأمم الذين كانوا بالشام، وطمعوا فيهم من كل ناحية، وأقاموا على ذلك نحو من ثلاثمائة سنة لم يكن لهم فيها ملك مستقل، والملوك تتناوشهم من كل جهة^(١).

كما أن حكامهم كانوا سرعان ما يهربون من الأرض التي يعيشون فيها إن أحسوا بالخطر على حياتهم فلا قدسية المكان تربطهم، ولا الانتماء للأرض يجمع شملهم، ذكر ابن خلدون عن ملكهم رحبعم - وهو من ولي بعد سليمان عليه السلام - عندما زحف شيشاق ملك مصر إلى بيت المقدس، هرب رحبعم، واستباحها شيشاق وضرب عليهم الجزية^(٢).

٧) الخوف والفرع:

كان يمتلك الخوف والفرع قلوب بني إسرائيل، ومن ذلك أنهم لم يقبلوا أن تنزل الألواح عليهم لما نجوا ونزلوا حول طور سيناء، فحينما صعد موسى عليه السلام إلى الجبل، وكلمه ربه وأمره بأن يتطهروا ويغسلوا ثيابهم ثلاثة أيام، ويجتمعوا في اليوم الثالث حول الجبل، ففعلوا وظلت الجبل غمامة عظيمة ذات بروق ورمود ففرعوا، وقاموا في سفح الجبل دهشين، ثم غشي الجبل دخان في وسطه عمود نور وتزلزل له الجبل زلزلة عظيمة شديدة، واشتد صوت الرعد الذي كانوا يسمعون، وأمر موسى صلوات الله عليه بأن يقرب بني إسرائيل لسماع الوصايا والتكاليف، لكنهم لم يطيقوا ذلك، فأمر بحضور هارون وتكون العلماء غير بعيد ففعل، وجاءهم بالألواح^(٣).

قال الله عز وجل: "يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا أكبر من ذلك فقالوا أرننا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم، ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات"^(٤).

(١) المصدر السابق ، ج ٢/ ١٠١.

(٢) المصدر نفسه ، ج ٢/ ١١٦.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢/ ٩٨٥.

(٤) النساء: ١٥٣.

٨) انتشار القتل بينهم:

كانوا يستسهلون القتل فيما بينهم وللأغراب فكيف لا؟! وهم قتلة الأنبياء والمرسلين وعلى طول ذكر أخبارهم في كتاب ابن خلدون والحكام يتنازعون فيما بينهم ويقتلون بعضهم بعضاً، ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن خلدون أن (يهوشافاظ بن يشا من سبط منشا بن يوسف) ثار على (يؤام) ملك الأسباط، وذلك عند منصرفه من محاربة ملوك الجزيرة وأروم مع (أحزيا بن يهورام) ملك القدس، وكان جريحا فعاده (أحزيا) وكان هذا الفتى ياهو يترصد قتل (يؤام) فأمكنته الفرصة فيه تلك الساعة فقتله وقتل معه (أحزيا) ملك القدس وبني يهوذا وملك على الأسباط^(١).

٩) مداهنة الحكام:

اتضح من التاريخ الذي سرده ابن خلدون أن بني إسرائيل لم تكن لهم دولة قائمة بذاتها، فهم لا يتشبثون بأرض ولا بوطن ولا بعقيدة، وإنما كانوا في بيت المقدس ضمن دائرة الحكم المحلي المعتمد على قوة مساندة، فحكام بني إسرائيل يقدمون ولأئهم لملوك الأمم المجاورة لضمان بقائهم.

حتى إنهم انسلخوا عن عقيدتهم ودينهم وانخرطوا في الوثنية لذلمهم وصغار شأنهم، وقتلوا أنبياءهم، وحرفوا وغيروا وبدلوا التوراه، قال تعالى: "أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ"^(٢). أي أنهم حرفوا التوراة التي أنزلت عليهم، يجعلون الحلال فيها حراماً، والحرام فيها حلالاً، والحق فيها باطلاً والباطل فيها حقاً، فإذا جاءهم المحق برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب المحرف، فهو فيه محق، وإن جاء أحد يسألهم شيئاً ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء، أمروه بالحق!^(٣).

(١) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج ٢/١٣٠.

(٢) البقرة: ٧٥.

(٣) تفسير الطبري، الطبري، ج ٢/٢٤٦؛ مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، ج ٣/٥٥٩.

١٠ الارتباط الشرطي:

يعرفه علماء النفس أنه الاستجابة الطبيعية والمؤكدة التي يحدثها وجود مثير غير شرطي. وتعتبر الاستجابة غير الشرطية عادة انعكاسية قوية يستدعيها وجود المثير غير الشرطي.^(١)

كان التابوت يمثل المثير غير الشرطي لليهود ووجوده بينهم مرتبط بوجود الرب بينهم، شرطاً بشرط وعهداً بعهد، فلن يحدث لهم أي مكروه و لن يُغلبوا أبداً ما داموا يحملونه، وحتى عندما تولى عليهم (الرجل الطويل والضخم) طالوت، لمحاربة الرجل الملحد (كثير التجوال والبطش) جالوت، واستكروا لطالوت أن يكون ملكاً بسبب كونه فقيراً، كانت الآية الفاصلة التي تقنعهم أن التابوت نفسه تحمله الملائكة و يهبط أمامهم، فسلموا بذلك أيما تسليم، وعرفوا أن الرب سيكون معهم إذا سلموا لطالوت الملك.

و حتى في أسفارهم أن يوشع عندما أراد دخول الأرض المقدسة جعل التابوت يتقدمهم لينشق له البحر وتتأخر الشمس في المغيب حتى يتم له النصر على الجابرة الكنعانيين.^(٢)

النتائج:

- ذكر ابن خلدون أن لفظ (بني إسرائيل) مرتبط بعرق ونسل أما اليهودية فهي ديانة، وليس كل اليهود هم من بني إسرائيل.
- عند دراسة المواضيع التي ذكر فيها لفظ اليهود في القرآن والروايات التاريخية نجدها في موضع الذم، والتحذير من الاتصاف بصفاتهم وتقليد تصرفاتهم.
- بعد الدراسة نجد سهولة تأثر اليهود بالانحرافات العقيدية ومحاولة تقليد من حولهم من المشركين وذلك لجهلهم بحقيقة العقيدة الصحيحة.

(١) نظريات التعلم، علي حجاج، ص ٦٩.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ج ٣٣٣/١؛ تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج ٩٤/٢، موسوعة اليهود واليهودية، عبد الوهاب المسيري، ج ١٠/٤٢٤-٤٢٦؛

- وضح ابن خلدون أن الهيكل بمعنى البناء العظيم، وأن الهيكل لا يتم بناؤه في مرحلة الدولة الواحدة بل تتعاقب الملوك في بنائه؛ لأنه بحاجة إلى التعاون ومضاعفة القدرة البشرية، كما أكد أن الهياكل العظيمة، يصعب هدمها وتعجز الدول عن إخفاء آثارها وتخریبها، وهذا يدل على بطلان زعم اليهود أن هيكلم الذي لم يجدوا له أثراً كان موجوداً مكان المسجد الأقصى.
- تقوم العلاقات عند اليهود على أساس المصلحة، وقد كان حكامهم يضعون أيديهم في أيدي أعدائهم لينالوا من بعضهم البعض، فلا يمكن الحوار معهم أو أمن جانبهم فهم قوم بلا مبادئ يمكن بينى عليها حوار أو تعايش.
- أظهرت الدراسة أن مجموع السمات التي يتسم بها اليهود تعتبر مصدر خطر على الأمن والسلم العالميين، لما تشكله من شخصية إجرامية مريضة، كجنون العظمة والنرجسية.

❖ المصادر والمراجع:

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: المصادر والمراجع العربية.

- ١- "أحكام أهل الذمة"، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، المحقق: يوسف بن أحمد البكري - شاكر بن توفيق العاروري، ط١، الدمام، رمادى للنشر، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- ٢- "الأوهام المرضية أو الضلالات في الأمراض النفسية والعنف"، عز الدين جميل عطية، عالم الكتب، ٢٠٠٣م.
- ٣- "الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي"، عبد العظيم المطعني، ط١، دار الوفا للنشر والطباعة، عبد العظيم المطعني.
- ٤- "بنو إسرائيل في القرآن والسنة"، محمد سيد طنطاوي، رسالة دكتوراه منشورة، ط٢، القاهرة، دار الشروق، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- ٥- التوراة.

- ٦- تاريخ ابن خلدون"، عبد الرحمن بن محمد بن محمد ابن خلدون، تحقيق د. عبد الواحد وافي، المجلد الثاني، ط٧، القاهرة، دار نهضة مصر، ٢٠١٤م.
- ٧- "تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري"، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ/٩٢٣م)، ط٢، بيروت، دار التراث.
- ٨- "التنبية والإشراف"، أبو الحسن على بن الحسين بن علي المسعودي (ت: ٣٤٦هـ)، تصحيح: عبد الله إسماعيل الصاوي، الناشر: القاهرة، دار الصاوي.
- ٩- "تخجيل من حرف التوراة والإنجيل"، صالح بن الحسين الجعفري أبو البقاء الهاشمي (ت: ٦٦٨هـ)، المحقق: محمود عبد الرحمن قدح، ط١، الرياض، مكتبة العبيكان، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، عدد الأجزاء: ٢.
- ١٠- "التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»"، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤ هـ.
- ١١- "التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج"، وهبة بن مصطفى الزحيلي، ط٢، دمشق، دار الفكر المعاصر.
- ١٢- "تأثر اليهودية بالأديان الوثنية"، فتحي الزغبى،
- ١٣- "تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن"، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان.
- ١٤- دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية"، سعود بن عبد العزيز الخلف، ط٤، الرياض، مكتبة أضواء السلف، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، عدد الأجزاء: ١.
- ١٥- "دراسات في تاريخ العرب القديم"، محمد بيومي مهران، ط٢، دار المعرفة الجامعية، عدد الأجزاء: ١.
- ١٦- "داوود وسليمان في العهد القديم"، رسالة دكتوراة، أحمد عيسى الأحمد، جامعة القاهرة، حصلت على مرتبة الشرف، ١٩٩٠م.
- ١٧- "الشخصية اليهودية من خلال القرآن"، صلاح عبد الفتاح الخالدي، ط٣، دمشق، دار القلم دمشق، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م عدد الأجزاء: ١.
- ١٨- "الصحة النفسية والعلاج النفسي"، حامد زهران، ط٤، القاهرة، عالم الكتب، ٢٠٠٥م.

- ١٩- صحیح البخاری"، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، (ت: ٢٥٦هـ/٨٦٩م)، تحقيق: محمد محمد ناصر، القاهرة، دار الآفاق العربية، ٢٠٠٤م، أربعة اجزاء.
- ٢٠- "الطبقات الكبرى"، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (ت: ٢٣٠هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية.
- ٢١- "العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي والموقف منها"، أحمد بن عبد الله الزغيبي، ط١، الرياض، مكتبة العبيكات، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.
- ٢٢- "فتح الباري شرح صحيح البخاري"، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، بيروت، دار المعرفة ١٣٧٩هـ.
- ٢٣- "الفصل في الملل والأهواء والنحل"، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (ت: ٤٥٦هـ)، القاهرة، مكتبة الخانجي.
- ٢٤- "القاموس المحيط"، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت: ٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، ط٨، بيروت، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع.
- ٢٥- قاموس الكتاب المقدس، لائحة من الأساتذة ذوي الاختصاص، ومن اللاهوتيين، ص ١٠٨٥؛ موجز تاريخ اليهود، محمود قدح، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ع١٠٧/١٤٣.
- ٢٦- "الكامل في التاريخ"، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط١، بيروت، دار الكتاب العربي.
- ٢٧- "لقطة العجلان مما تمس إلى معرفته حاجة الإنسان"، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي (ت: ١٣٠٧هـ)، بيروت، دار الكتب العلمية.
- ٢٨- "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت: ٥٤٢هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية.
- ٢٩- "مفاتيح الغيب = التفسير الكبير"، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت: ٦٠٦هـ)، ط٣، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠ هـ.
- ٣٠- "الملل والنحل"، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني (ت: ٥٤٨هـ)، مؤسسة الحلبي.

- ٣١- "اليهودية عرض تاريخي والحركات الحديثة في اليهودية"، عرفان عبد الحميد فتاح، ط١، بيروت، دار البيارق، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.
- ٣٢- "مقارنة الأديان-اليهودية"، أحمد شلبي، ط٨، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية للنشر، ١٩٨٨ م
- ٣٣- "المختصر في أخبار البشر"، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، صاحب حماة (ت: ٧٣٢هـ)، ط١، مصر، المطبعة الحسينية المصرية.
- ٣٤- (١) <http://holyquran.net/cgi-bin/qsearch.pl>
- ٣٥- "منهج القرآن الكريم في التعامل مع جرائم اليهود"، رمضان الصيفي ، (رسالة ماجستير).
- ٣٦- "المفردات في غريب القرآن"، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ)، المحقق: صفوان عدنان الداودي، ط ١، الدار الشامية - دمشق بيروت، دار القلم.
- ٣٧- "المدخل إلى الكتاب المقدس"، حبيب سعيد، القاهرة، الكنيسة الأسقفية.
- ٣٨- "تقد أفكار هيكل سليمان الواردة في النص التوراتي"، زكريا إبراهيم السنوار، مؤسسة القدس الدولية.
- ٣٩- "نقض المزاعم الصهيونية في هيكل سليمان"، صالح الرقب، غزة، مركز النور للبحوث والدراسات، قسم البحوث ولإصدارات، ٢٠٠٢ م.
- ٤٠- موجز تاريخ اليهود: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، موقع الجامعة على الإنترنت.
- ٤١- "الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة"، مانع حماد الجهني، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط٤، دار الندوة العالمية.
- ٤٢- "موسوعة المصطلحات الدينية اليهودية"، رشا الشامي، مصر،المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، ٢٠٠٢ م.
- ٤٣- "مَجْمَعُ الزَّوَائِدِ وَمَنْبُغُ القَوَائِدِ"، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت: ٨٠٧هـ)، حَقَّقَهُ وَحَرَّجَ أَحَادِيثَهُ: حسين سليم أسد الداراني، دَارُ المَأْمُونِ لِلتُّرَاثِ.
- ٤٤- "تظريات التعلم"، دراسة مقارنة، جورج إم غازدا [وآخرون] ؛ ترجمة د. علي حسين حجاج ؛ الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٦ م.
- ٤٥- "معركتنا مع اليهود"، السيد قطب، ط٤، القاهرة، دار الشروق، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .
- ٤٦- "موسوعة الكتاب المقدس"، مجموعة باحثين، دار منهل الحياة لبنان.

- 47- **From the Stone Age, Albritght**
- 48- **Israel from its beginning to the middle of the eighth century**
- 49- <http://holyquran.net/cgi-bin/qsearch.pl>

حركة عثمان بن فودي

من فكر الدعوة إلى بناء الدولة وتأثيراتها على غرب إفريقيا

The Reform movement in sub-Saharan Africa

Sheikh Othman bin Foudi movement

اسم ولقب المؤلف الأول: بلقاضي مليكة

الدرجة العلمية: أستاذ مساعد قسم (أ)

المؤسسة المستخدمة: المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة

Name and Surname of the first author: Prof. Belkadi Malika High College of

Teachers at Bouzareah/Algiers(E.N.S.B)

البريد الإلكتروني: Belkadi.malika11@gmail.com

اسم ولقب المؤلف الثاني: حسين عبد الستار

الدرجة العلمية: أستاذ محاضر قسم (أ)

المؤسسة المستخدمة: المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة

Name and Surname of the second author: Dr. Abdessatar Hocine

High College of Teachers at Bouzareah/Algiers(E.N.S.B)

البريد الإلكتروني: hocine.abdstr@yahoo.fr

الملخص:

يعد القرن التاسع عشر الميلادي، عصر الحركات الإصلاحية والتجديدية بامتياز في منطقة إفريقيا جنوب الصحراء، ولعل من بين الحركات التصحيحية التجديدية الجادة التي استهدفت التغيير الاجتماعي والسياسي من منطلقات عقائدية ودينية حركة الشيخ عثمان بن فودي في غرب إفريقيا مع نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وهي الحركة التي كان لمؤسسها الأثر الحاسم في إرساء الدعوة الإسلامية في المنطقة، بل على امتداد القارة الإفريقية بكاملها وأحدثت صدى مرضياً أحياناً وناقماً أحياناً أخرى.

تهدف هذه الدراسة لإبراز دور حركة عثمان بن فودي الإصلاحية في نشر الإسلام وتعاليمه في بلاد الهوسا مع بداية التاسع عشر، حيث اتخذت دعوته الإصلاحية طرقاً متعددة للإصلاح، بداية بالموعظة الحسنة عبر دروس الوعظ والإرشاد والأمر بالمعروف، ومراسلة الحكام والأمراء ثم إعلان الجهاد ضد قوى الكفر والوثنية، وقد تمكن الشيخ عثمان بن فودي من إقامة كيان سياسي عرف بإمارة سكوتو التي ستصبح أحد أهم الحواضر العلمية والاقتصادية والسياسية في غرب إفريقيا لمدة أكثر من قرن من الزمن وعملت على تحصين المنطقة وتأخير براثن الاستعمار عنها.

كما تحاول هذه الدراسة إبراز ملامح الفكر الدعوي عند بن فودي وتجلياته السياسية، وفهم رؤية المصلحين الأفارقة من خلال بن فودي لفلسفة التغيير الاجتماعي ومشروع المجتمع في غرب إفريقيا جنوب الصحراء، كما سنحاول من خلالها ربط الخطاب الدعوي مع الخطاب السياسي في غرب إفريقيا كتجربة حضارية تستحق الدراسة.

الكلمات المفتاحية: إفريقيا جنوب الصحراء، عثمان بن فودي، بلاد الهوسا، التغيير الاجتماعي، حركة التجديد، القرن التاسع عشر، قبيلة الفولاني، إمارة سكوتو، عمر ب سعيد الفولاني.

ABSTRACT :

The nineteenth century, known as the era of reform and renewal movements in the sub-Saharan Africa region, and the movement of Sheikh Othman bin Foudi in West Africa is one of the most important of these movements, which targeted the social and political change of conditions in the region from ideological and religious grounds, and its founder had a major role in establishing the da'wa Islam in the region, but throughout the entire African continent, and brought about an important change in the African region.

This study aims to highlight the role of Othman bin Foudi, the reform movement, in spreading Islam and its teachings in the Hausa countries at the beginning of the nineteenth, from the methods of advocacy through teaching and preaching, then declaring jihad against among the pagan princes and rulers.

Sheikh Othman bin Foudi was able to establish a state known as the Emirate of Scotu, which would become one of the most important scientific, economic and political cities in West Africa for more than a century, which contributed to the development of the region.

This study also tries to highlight the features of the reform movement in Ben Foudi and its political manifestations, and to understand the philosophy of social change and the community project of Othman bin Foudi in West Sub-Saharan Africa. We will also try, through this study, to identify the general conditions of sub-Saharan Africa at the beginning of the nineteenth century.

Keywords: 19th century; the sub-Saharan Africa; Sheikh Othman bin Foudi; Nigeria; Folani; the Hausa state; Muhammad Bello; the reforming movement; Sokoto; Islamic community.

المقدمة:

الإصلاح أصل شرعي من أصول الإسلام، وهو عملية تجديد تتصل بالحياة، وتحمي المجتمع من شيوخ المفسدات والمنكرات والانحرافات، أما التجديد فهو مطلب شرعي ووحدة أساسية لكل نظام معرفي ومنظومة فكرية، ويمثل أحد المفاهيم التي كثيرا ما استخدمت في الفكر الحديث والمعاصر العربي والإسلامي منذ قرون، وترددت بأسماء مختلفة مثل النهضة والإصلاح والتغيير والثورة... أن الإصلاح والتجديد عميقي الحضور والتأثير بإفريقيا لعدة قرون مضت، ويعد القرن التاسع عشر الميلادي، عصر الحركات الإصلاحية والتجديدية بامتياز في منطقة إفريقيا جنوب الصحراء، إذ أن إحياء السنة ومحاربة البدعة وإصلاح أمور المسلمين الدينية والدنيوية ونشر التعليم وتصحيح المفاهيم الخاطئة في أذهان العامة من الناس وبناء مشروعات للنهضة على أساس من الدين في إطار الإصلاح الديني السياسي الاجتماعي والثقافي... كانت السمة البارزة لهذه الحركات الإصلاحية. من بين هذه الحركات التصحيحية التجديدية التي استهدفت التغيير الاجتماعي والسياسي من منطلقات عقائدية ودينية وحركة الشيخ عثمان بن فودي في غرب إفريقيا مع نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وهي الحركة التي كان لمؤسسها الأثر الحاسم في إرساء الدعوة الإسلامية في المنطقة، بل على امتداد القارة الإفريقية بكاملها وأحدثت صدى مرضيا أحيانا وناقما أحيانا أخرى. حيث شهدت دويلات بلاد الهوسا، وبالتحديد قبيلة الفولاتي حركة إصلاحية وثورة فكرية وتجديدية قادها الشيخ عثمان بن فودي، بدأت بنشاط تعليمي تنقيفي ومسار دعوي دام عقدين من الزمن، نتج عنها ميلاد كيان سياسي إسلامي عرف بإمارة سكوتو في غرب إفريقيا استمر لأكثر من

قرن من الزمن، وكانت تستلهم من الشريعة الإسلامية في جميع أنظمتها الدستورية والقضائية والإدارية...

وقد حققت هذه الحركة التجديدية للشيخ عثمان بن فودي الكثير من المنجزات الحضارية مست كافة الأصعدة والمجالات، في الفكر والدين، وفي السياسة والاجتماع، وفي الشؤون العسكرية والاقتصادية وفي النظم الثقافية والتعليمية، ناهيك عن مدى تأثيرها على بلاد السودان الغربي حيث أنّ جميع الحركات الإصلاحية التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر تستمد روحها ومرجعية أفكارها من دعوة الشيخ عثمان بن فودي.

لذلك تحاول هذه الدراسة الإجابة عن إشكالية جوهرية هي: إلى أي مدى نجح الشيخ عثمان بن فودي في حركته الإصلاحية التجديدية؟ وكيف يمكن قراءة التأثير الفكري والسياسي لهذه الحركة على البيئة الإفريقية؟

١- جغرافية بلاد الهوسا:

إن الجغرافيا في جوهرها تقوم على معطيات الموقع والتضاريس وامتدادات المساحة والحدود، الا انها في الجانب الاخر تمثل حوار الطبيعة والإمكانات المتاحة وكيفية التعامل الإنساني معها، ليس فقط للتغلب على مشكلاتها، ولكن لتحويلها الى عناصر قوة مضافة للإنسان في تعامله مع البيئة من حوله.

ولا يمكن من خلال هذا فهم حركات التغيير خارج إطار جغرافيتها وتركيبها الدينية والاجتماعية، لان إمكانيات الموقع لا تحقق نفسها بنفسها بل من خلال الانسان.

وإذا كانت الجغرافيا هي قدر الأمم، بل هي العامل الثابت في صناعة التاريخ، فقد قدر لبلاد الهوسا ان تلعب دورا مفصليا في تاريخ غرب افريقيا. ولهذا لا بد من مدخل لإبراز الملامح الجغرافية لبلاد الهوسا.

إنّ تحديد الإطار الجغرافي لبلاد الهوسا يتطلب ضبط المفهوم العام لبلاد السودان، فقد ورد في معجم البلدان لياقوت الحموي أنّ السودان في اللغة تلفظ جمع أسود بضم أوله قرية بالشام^١، وتعني

^١ - شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، مج ٣، دار صادر، بيروت، د س ن، ص ٢٧٧.

بلاد السود (أي الجنس الأسود) وذلك في مقابلة بلاد البيضان، ويقصد بها شمال افريقية (المغرب والصحراء)^١.

وقد أطلق هذا المصطلح (السودان) من طرف العرب في العصور الوسطى للون البشرة التي يتميز بها سكان الإقليم^٢، الذي يمتد من الصحراء الإفريقية الكبرى شمالا إلى الغابات الاستوائية جنوبا، ومن البحر الأحمر شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا^٣.

لكن أغلب المؤرخين والجغرافيين يعتقدون أن التسمية أطلقت على بلاد السودان الغربي أو غربي افريقيا^٤، أما بلاد الهوسا^٥ فهو تعبير يطلق على مناطق تتسع أو تضيق حسب تعريفات المؤرخين والجغرافيين، ولكن في هذه الدراسة نعني بها ذلك الإقليم الذي انطلقت منه حركة الشيخ عثمان بن

^١ - نبيلة حسن محمد، تاريخ إفريقيا الإسلامية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية مصر، ٢٠٠٧، ص ١٩٠.

^٢ - محمد ظاهر جاسم، إفريقيا ما وراء الصحراء من الاستعمار إلى الاستقلال (دراسة تاريخية)، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، مصر، ٢٠٠٣، ص ٣٢.

^٣ - بودواية مبخوت، "العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان"، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة ابي بكر بلقايد - تلمسان، ٢٠٠٦-٢٠٠٧، ص ٣٥.

^٤ - قسم الجغرافيون والدارسون السودان ثلاثة مناطق أو أقاليم، السودان الغربي ويشمل حوض نهر السنغال ونهر غامبيا والمجرى الأعلى لنهر بوركينافاسو والحوض الأوسط لنهر النيجر، السودان الأوسط ويشمل المناطق المحيطة ببحيرة تشاد، والسودان الشرقي الذي يمتد من البحر الأحمر شرقا حتى إقليم دارفور غربا... لمزيد من التفصيل راجع: حسن يوسف فضل، دراسات في تاريخ السودان وإفريقيا وبلاد المغرب، دار جامعة الخرطوم للنشر والتوزيع، السودان، ١٩٨٩، ص ١٤٧. وأيضا: تقي الدين الدوري، خولة شاكر الدجيلي، تاريخ المسلمين في افريقية، ط١، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠١٤، ص ٢١٧.

^٥ - تقع بلاد الهوسا في نيجيريا الشمالية، وكان للهوسا سبع إمارات شهيرة هي: داورا، كانو، زازاو، زجزج، جوبير، كاتسينا، بيرام، رانو. للتفصيل أكثر أنظر: محمود شاكر، نيجيريا، ط٢، مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٩٧١، ص ٥٦. وأيضا: نورة بنت معجب الحامد، دعوة الشيخ عثمان بن فودي بنيجيريا عام ١٢٠٢هـ/١٧٨٨م وتأثرها بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد السابع، ربيع ١٤٢٩هـ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ص ١٨.

فودي أو توسعت فيها^١، إذ تتشكّل من المنطقة الممتدة وسط القارة الإفريقية إلى المحيط الأطلسي حتى البحر الأحمر بين الصحراء شمالاً والمنطقة الاستوائية جنوباً والذي كثيراً ما أطلق عليه باسم السودان، وقد ارتبطت إمارات بلاد الهوسا بإقليم السودان الأوسط الذي يشمل المناطق المحيطة ببحيرة تشاد^٢. أما فيما يتعلق بالإقليم محل الدراسة فإن نيجيريا^٣ استمدت هذا المسمى من اسم النهر الذي يخترق أراضيها وهو نهر "النيجر"، فكلمة نيجيريا تعني "ما حول النيجر"، والنيجر اسم مستمد من الكلمة اللاتينية (REGIN) أي الزنجي الأسود، فأصبح النهر يعني نهر الزنج^٤. والإسبان هم أول من أطلق تسمية نيجيريا على ما حول النهر^٥، وتقع نيجيريا على الساحل الغربي لقارة إفريقيا بين دائرتي عرض ٠٤ و ١٤ درجة شمالاً، وخطي طول ١٥ و ٣ درجة شرقاً أما جغرافياً فهي تقع غرب القارة الإفريقية، يحدها شمالاً النيجر، جنوباً خليج غينيا، شرقاً تشاد والكامرون، وغرباً البنين^٦.

٢- الوضع العام في بلاد الهوسا في نهاية القرن الثامن عشر:

شهدت بلاد الهوسا في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر وضعاً متردياً ميزه التمزق والتجزئة السياسية التي عانتها المنطقة نتيجة التناحر والتناحر بين ممالكها الصغيرة^٧، والحروب

١- محمد بن علي بن محمد السكاكر، دعوة الشيخ محمد عبد بن عبد الوهاب ودعوة الشيخ عثمان بن فودي (دراسة تاريخية مقارنة)، الإدارة العامة للثقافة والنشر، الرياض، السعودية، ٢٠٠٠، ص ٢٤.

٢- عطية مخزوم الفيتوري، دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء (مرحلة انتشار الإسلام)، منشورات جامعة قاريوس، بنغازي، ليبيا، ١٩٩٨، ص ٢٠٩.

٣- الهادي قطش، أطلس الجزائر والعالم، دار الهدى للنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، ٢٠٠٣، ص ١١٦.

٤- أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ٣، ١٩٧٨، ج ٦، ص ٥٧٦.

٥- هناك من يرى أن زوجة المندوب السامي البريطاني هي التي أطلقت هذا المسمى حينما حلت بالبلاد منذ عام ١٩٠٠. لمزيد من التفصيل أنظر: عبد العزيز الخضري، نيجيريا والانتصار للعالم الثالث، مجلة الشرق، العدد ٢٢٨، السنة السادسة، أغسطس ١٩٨٣، ص ١٥. وكذلك: نورة بنت معجب الحامد، المرجع السابق، ص ١٥.

٦- آدم عبد الله الألوري، موجز تاريخ نيجيريا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ١٩٦٥، ص ٢١.

٧- محمد بيللو، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، شركة لوزاك، لندن، ١٩٥٧، ص ٣٢.

المستمرة بينها، حيث أنّ كلّ إمارة أو مملكة كانت تسعى حال قوتها السيطرة على مثيلاتها وضمّها بالقوة^١.

وقد كانت غوبر أقوى دويلات بلاد الهوسا، حيث قامت بفتوحات واسعة اجتاحت عدة أراضي كزيرما، غرما، كانو، كاتسينا، وزنفر... وغيرها، وامتد نفوذها إلى يوربا في الجنوب^٢. هذا التمزق وفقدان الوحدة السياسية وفساد السلاطين وانتشار الظلم والطغيان أدى إلى اضطراب وفوضى ومضاعفة مشكلة الأمن والأمان، مما أثر على مصالح الناس وعلى الحياة الاقتصادية والاجتماعية لبلاد الهوسا^٣.

أما الوضع الديني فكان أكثر تناقضا، فسطحية فهم الإسلام والبعد الجغرافي عن الحواضر الإسلامية وانتشار الوثنية، أدى إلى اختلاط الإسلام بالكثير من المعتقدات الفاسدة التي استقرت في نفوس الناس وسلمت به عقولهم، حيث اختلطت العقيدة الإسلامية بطقوس الوثنية، وشاعت البدع والخرافات وذاعت الرذائل والفواحش، كما انتشرت عبادة الموتى وتقديسهم حتى لدى المسلمين في الكثير من المناطق في غرب إفريقيا، والتمسح بالقبور والتبرك بالأضرحة وتقديم القرابين للأولياء الصالحين والمشعوذين^٤، كما انتشرت أعمال الكفر لدى معظم ملوك بلاد غربي إفريقيا وجنودهم، فقد

^١ - نورة بنت معجب الحامد، المرجع السابق، ص ٢٣.

^٢ - عند قيام دعوة الشيخ عثمان بن فودي مع بداية القرن التاسع عشر الميلادي كانت بلاد الهوسا تتشكل كمايلي: غوبر كانت تمثل أقوى دويلات الهوسا تسود منطقة الشمال الشرقي، وبرنو في الجنوب الشرقي، فيما كانت مملكة نيب لا تزال مستقلة رغم كثرة حروبها التي أنهكتها وأضعفتها، أما دويلات زاريا وكاتسينا فقد كانتا تحت وصاية برنو... للتفصيل أكثر راجع: آدم عبد الله الألوري، المرجع السابق، ص ٨٢. وأيضا: محمد بن علي بن محمد السكاكر، المرجع السابق، ص ٥٣.

^٣ - Robert et Marianne Cornevin, **Histoire de l'Afrique des Origines jusqu'à nos jours**,

Paris, 1960, p285. Payot , bibliothèque, 2ed, petite

^٤ - أحمد بوعتروس، **الحركات الإصلاحية في إفريقيا جنوب الصحراء ١٩١٣/م**، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر، ٢٠٠٩، ص ص ١٢٦-١٢٧.

كانوا يدعون الإسلام لكن مع ذلك يعظمون بعض الأماكن والأشجار بالذبح والصدقة عندها ويستعينون بالكهنة والسحرة^١.

في هذا المحيط المتكدر والجو الكافر ظهرت دعوة الشيخ المصلح عثمان دان فوديو أحد علماء غرب إفريقيا الذي قام بالدعوة الجهادية وأسس كيانا سياسيا عرف بإمارة سكوتو التي أضحت إحدى الحواضر السياسية والاقتصادية والعلمية في غرب إفريقيا لمدة أكثر من قرن من الزمن.

٣- شخصية الشيخ عثمان دان فوديو:

سنتناول في هذا العنوان المحطات الهامة في حياة الشيخ عثمان دان فوديو منذ مولده ونشأته، مروراً بطلبه للعلم الدين وأهم مشايخه ومعاصريه.

٣-١/ مولده و نسبه:

هو عثمان بن محمد الملقب بفودي^٢، بن عثمان بن صالح ابن هارون بن محمد الملقب -غورط- ابن جب بن محمد تثب بن أيوب ابن ماسران بن بوب باب بن موسى جكل^٣، وأمه فهي حواء بنت محمد بن عثمان التي يعود نسبها إلى الأشراف من ناحية أمها رقية^٤.

ولد الشيخ عثمان دان فوديو في قرية ماراتا بأرض جالمي التابع لإمارة جوبير بالقرب من سوكتو شمال نيجيريا حالياً يوم الأحد آخر أيام شهر صفر ١١٦٨هـ الموافق لـ ١٥ ديسمبر ١٧٥٤م^٥، وتتنسب عائلة الشيخ عثمان إلى القبيلة الفلانية^٦ التي هاجرت من شمال إفريقيا إلى أقاليم فوتاتورو

^١ - محمد بن علي بن محمد السكار، المرجع السابق، ص ٦٩-٧٠.

^٢ - فودي معناه الفقيه أو العالم في اللغة الفلانية .

^٣ - محمد باي بلعالم، قبيلة فلان في الماضي والحاضر وما لها من العلوم والمعرفة والمآثر، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٤، ص ٥٨. وأيضا: محمد بن علي بن محمد السكار، المرجع السابق، ص ١٦١.

^٤ - علي بن أيوب ناجي، لمحات عن الإسلام في نيجيريا بين أمس واليوم، دار الكتاب الحديث، الكويت، ١٩٩٦، ص ٦٣.

^٥ - إلهام محمد علي دهني، جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي ١٨٥٠-١٩١٤، دار المريخ للنشر، الرياض، السعودية، ١٩٨٨، ص ٤٢. وأيضا: أحمد بوعتروس، المرجع السابق، ص ١٥٠. وكذلك:

محمد بن علي بن محمد السكار، المرجع السابق، ص ١٦٢

^٦ - القبيلة الفلانية، تسمى بالفلاتية أو الفلانية.

وفوتاجالون^٢ أعالي نهر السنغال وغينا، واستقرت بهاذين الإقليمين زمنا طويلا، ثم رحل جزء منها ناحية الشرق، وعاشوا في مواطن القبائل الهوسية وذلك في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي^٣.
نشأ عثمان دان فوديو في بيئة متدينة وسط أسرة اشتهرت بين قبائل الفولاتي بالعلم والتقى والصلاح^٤ كان لوالديه فضل في توجيهه إلى الدين والعبادة، حيث حفظ القرآن وأخذ مبادئ العلم والدين وقواعد اللغة العربية عن والده محمد فوديو ووالدته حواء وجدته رقية، وبعض شيوخ بلده^٥، كما تربى وتعلم على أيدي شيوخ وعلماء الفولانيين والهاوساويين والبرناوسيين في الفقه والتفسير ومختلف علوم الدين...^٦.

لم يكتف الشيخ عثمان بما تحصل عليه من علم وإنما رغب في الاستزادة من العلوم الدينية ولم يكن قد تجاوز العشرين من عمره، فأخذ ينتقل من مكان لآخر ويأخذ العلم على يد مشايخ معروفين، حيث رحل شمالا إلى بلاد التوارق جنوب الصحراء الكبرى، وفي مدينة أغاديس ذات المكانة الدينية، تعلم على يد الشيخ جبريل بن عمر الأغديسي، أكبر المشايخ الذين أخذ عنهم الشيخ عثمان واقتدى بهم، حيث لازمه في حله وترحاله مدة سنة كاملة، وتأثر بما كان يدعو إليه من العودة إلى التعاليم

^١ - فوتاتورو: هضبة ومرتفعات في غرب افريقيا الساحلية ونعني بها فوتا تورد الحالية الواقعة في السنغال ، لمزيد من التفصيل أنظر: مصباح الدين جنيد، "الشيخ عثمان بن فودي الفولاتي وعقيدته على ضوء الكتاب والسنة"، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، السعودية، ١٩٨٢، ص ٥.

^٢ - تعد فوتاجالون الموطن الأصلي لشعب الفلاتة الذي هاجر جزء منه نحو الشرق إلى بلاد الهوسا وسكنها الأصليون من شعب التوكولور. انظر: يحيى بوعزيز، تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من القرن ١٦ إلى مطلع القرن العشرين ويليه الاستعمار الأوروبي الحديث في إفريقيا، دار البصائر، الجزائر، ٢٠٠٩، طبعة خاصة، ص ١٣٦.

^٣ - محمد بن علي بن محمد السكاكر، المرجع السابق، ص ١٦١.

^٤ - عبد الله عبد الرزاق ابراهيم، المسلمون والاستعمار الأوروبي لإفريقيا، عالم المعرفة، الكويت ، ١٩٨٩، دط، ص ٣٣.

^٥ - محمد فاضل علي باري وسعيد ابراهيم كريدية، المسلمون في غرب إفريقيا، تاريخ وحضارة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٧، ص ١٨٨. وأيضا: أحمد بوعتروس ، المرجع السابق ، ص ١٣٢.

^٦ - محمد فاضل علي باري وسعيد ابراهيم كريدية، المرجع السابق ، ص ١٨٩

الإسلامية الصحيحة، ونبذ كل ما يخالف الكتاب والسنة^١، في ذات الوقت تأثر الشيخ عثمان بالطريقة الدينية التي كان الشيخ جبريل أحد كبار علمائها وهي الطريقة القادرية^٢، وكانت خلاصة جدّه واجتهاده أن أجاد له شيخه جميع مروياته عنه^٣.

٣-٢ / شيوخه:

درس الشيخ عثمان دان فوديو ونهل من العلم في مختلف مراحل تكوينه على يد مشايخ كثر في بلاد الهوسا وخارجها، فقد عني أهله بتدريسه وتنقيفه وتلقيه، بداية بتلمذه على يد أبيه وأمه وجدته مبادئ اللغة العربية وأصول الفقه وحفظ القرآن الكريم^٤، وأخذ قواعد اللغة العربية من إعراب ونحو وصرف.. على يد الشيخ عبد الرحمن بن حمدا، وقرأ المختصر على يد عمّه وخاله الشيخ عثمان المعروف باسم بيدور، وكان شيخا تقيا وعالما^٥، كما أخذ التفسير من ابن عمه وابن خاله أحمد بن محمد بن الأمين بن عثمان بن حم بن عال، وهو ابن عم وابن خال الشيخ عثمان، وكان من علماء الفولانيين المشهورين^٦، وحضر عدّة مجالس، منها مجلس هاشم الزنفرى في التفسير، وأخذ الحديث عن عمّه وخاله الشيخ الحاج محمد بن راج بن مودب بن حم بن عال، وسمع الفقه من خاله الشيخ محمد

^١ - محمد كمال جمعة، انتشار دعوة الشيخ محمد عبد الوهاب خارج الجزيرة العربية، دار الملك عبد العزيز، الرياض، السعودية، ١٩٨٨، ص ١٠٠

^٢ - تنتسب الطريقة القادرية إلى الشيخ عبد القادر بن موسى بن عبد الله الجيلاني، ولد في مدينة جيلان سنة ١٠٧٧م، انتقل إلى بغداد وتلمذ على يد علمائها، برع في أساليب الوعظ والإرشاد، اشتغل في التدريس، ثم مال إلى التصوف، انتشرت طريقته في السودان الأوسط وبلاد الهوسا، توفي سنة ١١٦٦م ودفن ببغداد. أنظر: عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، الإسلام والحضارة الإسلامية في نيجيريا، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٤، ص ٢٥.

^٣ - محمد بن علي بن محمد السكاكر، المرجع السابق، ص ١٦٦.

^٤ - عبد القادر زبادية، دراسة عن أفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب والمسلمين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص ٧٨.

^٥ - محمد بن علي بن محمد السكاكر، المرجع السابق، ص ١٦٣.

^٦ - نفسه، ص ١٦٣.

ثنب بن الشيخ عبد الله، كما تعلّم على يد الشيخ جبريل بن عمر وكان من أتباع الطريقة القادرية ومن أكبر علماء السودان في ذلك الوقت^١.

٤- الحركة الإصلاحية للشيخ عثمان بن فودي:

مرّت الحركة الإصلاحية للشيخ عثمان بن فودي بثلاث أدوار أساسية تمثلت في:

٤-١- دور الدعوة:

استمرت هذه المرحلة من عام ١٧٧٤ حتى ١٨٠٣ أي حوالي ٣٠ سنة من الدعوة والبناء الدقيق لحركة الدعاة والمبلغين والتحدي الأخلاقي والفكري والاجتماعي ولكن دون المواجهة المباشرة مع خصومه، حيث سعى الشيخ عثمان خلالها لإصلاح الأمور في بلاد الهوسا دون اللجوء للعنف وبدأ مهمته الدعوية بدعوة الناس بكافة طبقاتهم لاعتناق الإسلام والابتعاد عن الوثنية وإرشاد المسلمين منهم إلى التخلي عن ممارسات وعادات الشرك، وتصحيح عقيدتهم الإسلامية ونبذ البدع والخرافات عبر الوعظ والإرشاد^٢.

ولكي تتمكن جماعة المسلمين من القيام والنهوض للتجديد والإصلاح، لا بد لهم من الوعي والنضج الكامل بقضايا مجتمعهم وحاجاته، فالوعي بالنسبة للشيخ عثمان من أهم مقومات الإصلاح، هذا الوعي لا يقتصر على الفرد الواحد من المجتمع، بل لا بد ان يتخطى الى الجماعة وهو ما يجعلهم في حالة استعداد تام لمواجهة من يسعى لإخضاعهم أو نصب المكائد لهم. لا بد من إيجاد الوعي السياسي والاقتصادي والاجتماعي، واليقظة الفردية والجماعية، بين مكونات الأمة بكاملها، وذلك بقدر الكفاية، فإن الإنسان الواعي اليقظ لا يقبل الخضوع ولا تتطلي عليه المكائد.

ولم يكتف الشيخ عثمان بدعوة الناس في قريته لتعاليم الدين الصحيح، وإنما حرص على نشر تلك الدعوة في الولايات المجاورة لدخل، حيث سعى لإقناع الناس بدعوته الإصلاحية من خلل الدروس والمواعظ التي كان يلقيها في إماراتي كيببي وجوبير، متخذاً تلاميذته أعواناً له في دعوته، ومنهم أخوه

^١ عثمان برايما باري، جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي، ط١، دار الأمين للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ٢٠٠٠، ص ٩٨. وأيضاً: محمد بن علي بن محمد السكاكر، المرجع السابق، ص ١٦٣-١٦٦.

^٢ محمد فاضل علي باري وسعيد إبراهيم كريدية، المرجع السابق، ص ١٨٩. وأيضاً عثمان برايما باري، المرجع السابق، ص ١٠٠. وكذلك: يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ص ١١٩.

عبد الله الذي لم يفارقه مدة نصف قرن من الزمن ، كما ابتعد عن الشؤون السياسية حتى لا يتفادى الاصطدام بالحكام والأمراء^١.

بعدها انتقل إلى زمفارا وأقام بها لمدة خمس سنوات كاملة يدعو الناس للإسلام الصحيح وتعاليمه السمحة، والعمل بما جاء في الكتاب والسنة، مستخدماً الحكمة والموعظة الحسنة في تعليم الناس وتوجيههم^٢، وسرعان ما انتف حولهُ عدد من الأتباع المخلصين الذين تصدوا معه للدعوة والبعض بنسخ كتبه ونشرها بين الناس والبعض بالانتقل في الولايات المجاورة لنشر دعوته، فذاع صيته وزادت شهرته وكثر أتباعه، وهاجر إليه عدد كبير من المسلمين مستمعين لوعظه ومقتدين بسلوكه، فتحوّلت دعوته من فكرة الإصلاح إلى حركة الجهاد التي استهدفت إقامة خلافة إسلامية^٣.

وقد جلب هذا العمل الدعوي مشاكل للشيخ عثمان حيث حسده بعض العلماء وسعوا له لدى الأمراء والحكام لكبح دعوته، كما تضايق أمراء إمارة قوبرير وحاولوا تعطيل حركته ودعوته الإصلاحية ومنهم الحاكم باوا، ونافاتا الذي خلفه، هذا الأخير الذي جهر بعدائه لدعوة الشيخ عثمان حيث أصدر مرسوماً لتحجيم دعوته ممّا جاء فيه^٤:

- عدم السماح لأحد باعتناق الإسلام إلا من ورثه عن أهله.

- منع العلماء من الدعوة للإسلام باستثناء الشيخ عثمان بن فودي.

- منع لبس العمامة للرجال والخمار للنساء.

في ذات الوقت حاك مؤامرة لاغتيال الشيخ عثمان، توفي قبل أن ينفذها، وخلفه ابنه يونفا الذي اتّبع نفس السياسة في تعامله مع المسلمين وأتباع الشيخ عثمان حيث شنّ حملة ضدهم فصادر أموالهم وأملاكهم، وقتل عدداً كبيراً من العلماء والفقهاء والقراء، وأمر جنوده بحرق المصاحف القرآنية، والكتب والألواح...^٥

^١ - نورة بنت معجب الحامد، المرجع السابق، ص ٢٦ وكذلك : يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ص ١١٩.

^٢ - محمد كمال جمعة ، المرجع السابق ، ص ١٠٠.

^٣ - يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ص ١٢٠.

^٤ - أحمد محمد كاني ، الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، ١٩٨٧، ص ٧٨ .

^٥ - يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ص ١٢١-١٢٢ .

ولما رأى الشيخ عثمان ما أصاب أتباعه، وسوء علاقته بالأمير يونقا، قرّر الهجرة ومعه جماعته إلى حدود بلاد جوبير في مكان يدعى غودو، في الوقت الذي أمر أمير جوبير حكام الولايات التابعة له بالقبض على أتباع الشيخ عثمان وقتلهم ومصادرة أملاكهم^١.

٤-٢- دور الفتح والجهاد:

امتدت هذه المرحلة من ١٨٠٤ إلى ١٨١٠ وتميزت بدخول الشيخ عثمان معركة مع سلاطين الهوسا بعد أن قويت شوكته واستجاب لدعوته عدد كبير من المقهورين، وقد كانت هجرة الشيخ عثمان نقطة تحوّل هامة في دعوته، حيث بايعه العلماء، الأعيان والوجهاء من أصحابه وتلامذته على طاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله، فكانت هذه البيعة بداية الجهاد وبداية لتأسيس دولة إسلامية^٢.

وقد أصدر الشيخ عثمان وثيقة عرفت باسم "وثيقة أهل السودان" تضمنت سبعة وعشرين بندا ووضّح فيها المنهج الإسلامي الذي سوف يسير عليه^٣، وأنه مستمد من الكتاب والسنة، كما حدّد فيها الأسس التي استند عليها في إعلانها للجهاد^٤.

في ذات السياق قام الشيخ بمراسلة أمراء الهوسا يدعوهم للدخول تحت طاعته فرفضوا دعوته ما عدا أمير زاريا، على اعتبار أنّ ما يدعوا إليه من إقامة نظام جديد يحتكم فيه إلى شرع الله وهو أمر ضد التقاليد التي نشأوا عليها^٥، فعمل عدد منهم على السخرية والاستهزاء منه ومن جماعته، في حين

^١ - حسن إبراهيم حسن ، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، مكتبة النهضة المصرية، ط٣، ١٩٨٤، ص ٤٤.

^٢ - فيج جي دي، تاريخ غرب إفريقيا، تر: السيد يوسف نهر، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٨٢، ص ٢٩١.

^٣ - دعا الشيخ عثمان بن فودي في وثيقته لأهل السودان السودانيّين لإعلان الجهاد ضد أمراء جوبير ومما جاء فيها " فاعلموا يا إخوتي أنّ الأمر بالمعروف واجب إجماعا، والنهي عن المنكر واجب إجماعا، وأن الهجرة من بلاد الكفار واجبة إجماعا ، وأن موالاة المؤمنين واجبة إجماعا وأن طاعته وجميع نوابه واجبة إجماعا وأن الجهاد واجب إجماعا...." لمن أراد أن يطلع على الوثيقة عد إلى: الجمل شوقي عطا الله، إبراهيم عطا الله عبد الرزاق، الوثائق التاريخية، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات ، القاهرة ، ٢٠٠٤، ص ١٨٦.

^٤ - حسن إبراهيم حسن ، المرجع السابق، ص ١٣٨.

^٥ - عبد القادر زبادية، المرجع السابق، ص ٨١ .

واجه ردة فعل عنيفة من حكام آخرين من حوله ولاسيما من أمير جوبير الذي تزعم جبهة الحرب ضد الشيخ وأتباعه^١.

حيث وقعت أول معركة بينهما هي معركة "غنج"، تمكن خلالها الشيخ عثمان من إلحاق الهزيمة بأعدائه، مما دفع بأمير جوبير -سعيًا منه للانتقام- إلى التحالف مع أمراء الولايات المجاورة ومنها: كاتسينا وكنو وزاريا ودوريا، الذين خرجوا في نفس العام لأجل ملاقاته الشيخ عثمان في منطقة كاتاوا، فدارت بينهما معركة عنيفة تحقق النصر فيها لأنصار الشيخ عثمان بقيادة أخيه عبد الله^٢.

وعلى الرغم من الخسائر التي تكبدها أمير جوبير يونقا وحلفائه خلال تلك المعركة، فقد أعاد تنظيم جيوشه وتجدد القتال بينهما في معركة تونو حيث مني الشيخ عثمان بهزيمة كبيرة فقد خلالها عددا كبيرا من مقاتليه قدرتها بعض المصادر بأكثر من ألف شهيد^٣، ولم يثن ذلك من عزم الشيخ عثمان الذي واصل جهاده واستعاد قوته محققًا الانتصار تلو الآخر أدى لسقوط إمارات الهوسا في أيدي أتباع الشيخ ومنها القاضاوا عاصمة إمارة جوبير، وبذلك انتهت مقاومة الوثنيين في تلك المنطقة^٤.

وكان لسقوط عاصمة إمارة جوبير وخضوعها للشيخ عثمان صدى كبيرا لدى القبائل التي أخذت تتوافد على الشيخ عثمان معلنة إسلامها وانضمامها لدولته، حتى خضعت جميع بلاد الهوسا لحكم الشيخ عثمان سنة ١٨١٢، وقد تمكن الشيخ عثمان بن فودي من إقامة كيان سياسي عرف بإمارة سكوتو أو الدولة الصكتية التي ستصبح أحد أهم الحواضر العلمية والاقتصادية والسياسية في غرب افريقية لمدة أكثر من قرن من الزمن^٥.

٤-٣- دور بناء الدولة وتنظيماتها:

^١ - نورة بنت معجب الحامد، المرجع السابق، ص ٣٣

^٢ - محمد بيللو، المصدر السابق، ص ١٠٢. وأيضا: عثمان برايما باري، المرجع السابق، ص ١١١-١١٢.

^٣ - أحمد بوعتروس، المرجع السابق، ص ١٥٥ وكذلك: حسن ابراهيم حسن، المرجع السابق، ص ١٣٩.

^٤ - حسن ابراهيم حسن، المرجع السابق، ص ١٣٩. وكذلك: نورة بنت معجب الحامد، المرجع السابق، ص ٣٤.

^٥ - عبد الله عبد الرزاق ابراهيم، المرجع السابق، ص ٣٦. وأيضا: نورة بنت معجب الحامد، المرجع السابق، ص

تكلّلت جهود الشيخ عثمان بن فودي بالنجاح، فقد استطاع أن يحقّق الهدف من قيامه بالدعوة، وهو تأسيس إمارة إسلامية عاصمتها سكوتو ضمتّ مناطق الشمال من نيجيريا إلى أعالي نهر النيجر، تستمد حكمها وشرائعها من الكتاب والسنة.

لا شك ان التنظيم الدقيق هو من مقومات الإصلاح، ومن أهم وسائل القوة، فمن لا يمتلك التنظيم لا يمكن أن يمتلك القوة التي تذهب به إلى أهدافه بأقل الخسائر والجهود وبأسرع وأدق الطرق، أما العبثية أو الارتجالية فإنها لا تقضي بالفرد أو الجماعة إلى ما تتوخاه من أهداف. فضياع الطاقات والجهود يكمن في عدمية التنظيم، لهذا رأى الشيخ عثمان ان المسلمون مطالبون بتنظيم قدراتهم وتوحيد صفوفهم.

فبعد تأسيسه للإمارة شرع الشيخ ابن فودي في اتخاذ إجراءات لأجل التمكين لدولته وضمنان تسيير أمثل لشؤون العامة، لذلك فقد ركز جلّ اهتمامه لتنظيمها على كافة الجوانب والمستويات السياسية والإدارية، الاجتماعية والاقتصادية، الثقافية والتعليمية لاسيما وأنّ حركته كانت أشبه بثورة اجتماعية وتغيير اجتماعي وثورة في الإدارة والقانون والقضاء.

٤-٣-١ - النظم السياسية القضائية والإدارية:

سارت إمارة دان فوديو على نمط الخلافة الإسلامية بشكل عام، ونمط الدولة العباسية بشكل خاص، حيث أنّ الشيخ ابن فودي جمع بين الإمامة والخلافة وتحوّل الداعية الإمام إلى خليفة حاكم بيده الأمر^١، يلقّب بأمر المؤمنين ويسهر على حفظ حقوق الرعية وتسيير الدولة وفق ما تنص عليه أحكام الشريعة الإسلامية، وعلى حماية حدود الدولة من الاعتداء والغزو^٢.

ولعلّ التغيير الحاصل في البنية السياسية والإدارية من النظام القبلي إلى نظام الإمارة سينعكس على فلسفة الدولة التي ستقوم باستحداث مؤسسات وهيئات تساعد الخليفة في إدارة شؤون الرعية هي

^١ - أحمد بوعتروس ، المرجع السابق ص ١٥٧-١٥٨.

^٢ - شملت الدولة التي أسسها الشيخ ابن فودي أقاليم واسعة في غرب أفريقيا، ضمنت كل بلاد الهوسا والمناطق المجاورة.. وقد لجأ الشيخ إلى تقسيم إماراته إلى قسمين : قسم شرقي أوكل قيادته لابنه محمد بللو، أمّا القسم الغربي فقد عهد به إلى أخوه عبد الله.

بمثابة البلاط الذي يتشكل من الوزراء والأمراء وقادة الجيش، ومجالس إدارية ذات مهام استشارية وتنفيذية ومكتب المظالم والكتاب والديوان وجهاز الشرطة^١ هذا على المستوى المركزي، أما على المستوى المحلي فقد قسم الشيخ ابن فودي الدولة إلى عدة ولايات (إمارات صغيرة) يحكمها أمير هو بمثابة والي مسؤول أمام الخليفة عن إمارته، يساعده في تسيير شؤون ولايته وزير وقائد الجنود والإمام الأكبر للصلاة ورئيس القضاة وكبار الجنود وعمال الولايات^٢.

كان الأمر شوري والقضاء مستقلا عن السلطة التنفيذية، ولم يكن للحكومة تدخل في أمور القضاء وكان القضاء يستندون في أحكامهم على تنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية، وقد عرف عن قضاة هذه المملكة الدقة والتبحر في العلم وفي فهم القوانين الإسلامية.

٤-٣-٢- النظم الاقتصادية والمالية:

أمام فتوة الدولة التي أسسها الشيخ ابن فودي وعدم استقرارها بشكل كاف^٣، اهتدى الشيخ إلى منح الاستقلال الذاتي للإمارات في تسييرها معتمدا على سياسة اللامركزية، هذا التوجه سيؤدي لحالة من الاستقرار التدريجي، سمح للدولة التحكم في الوضع بشكل ايجابي والسعي لتنظيم الحياة العامة لاسيما على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي، حيث اهتم الشيخ ابن فودي بالجانب الاقتصادي باعتباره عصب الدولة، وهو مقوم بالغ الأهمية، يمكنه أن يجعل من الجهود الإصلاحية فاعلية وتسير في الاتجاه السليم، لذلك ركز بن فودي على ركيزة الاكتفاء الذاتي في كل المجالات الزراعة والصناعة وغيرها في حالة الطموح إلى تحقيق الإصلاح.

^١ Kameche Mohamed, The shelu uthuman danfadio the reformer the renovator and the founder of the Sokoto caliphate (1774-1817), athesis for the degree of magister of Arts in african civilisation, University of Oran , Algeria , 2008-2009,p 182

^٢ محمد لواء الدين أحمد، الإسلام في نيجيريا ودور الشيخ عثمان بن فودي في ترسيخه، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٧١، ص ١٣٩.

^٣ عزيز بطران، الثورات الإسلامية في افريقيا الغربية في القرن التاسع عشر، تاريخ افريقيا العام، اليونسكو، لبنان، ١٩٩٦، المجلد ٦، ص ٦٤٧.

ولذلك أنشأ مؤسسات اقتصادية هامة أهمها: بيت المال وجهاز الحسبة^١، فبالنسبة لبيت المال فيعد من دعائم النظام المالي والاقتصادي للدولة وهو بمثابة الخزينة العامة، من أهم موارده الضرائب والجزية والهدايا، فبالنسبة للضرائب فقد تنوعت بين الزكاة وضريبة العشر وضريبة تفرض على الماشية وضريبة الخراج على الأرض وضريبة خمس الغنائم، وضرائب أخرى على أرباب الحرف والصناعات، أما لغير المسلمين فقد فرضت عليهم الجزية، نظير حمايتهم وإعفائهم من الخدمة العسكرية واستمتاعهم بالمرافق العامة^٢.

ومن أهم دعائم النظام المالي والاقتصادي أيضا جهاز الحسبة وهي رقابة إدارية تقوم بها الدولة عن طريق ممثليها من الولاة على أفعال الأفراد وتصرفاتهم في الأقاليم المختلفة للدولة، وفق قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^٣، وذلك لضبط أمور الدين والدولة لاسيما وأن الشيخ ابن فودي سعى لبناء نظام اقتصادي قائم على العدل بين الناس ورفض الظلم والاضطهاد واستغلال الغير وإعطاء الرشاوى وقبولها ونهب أموال الناس...^٤

وبغض النظر عن دعائم الحياة الاقتصادية لإمارة سكوتو واكب الاستقرار السياسي ازدهار اقتصادي، فنشطت الزراعة والصناعة وانتعشت التجارة حيث ظهرت في المدن أسواق كبرى^٥، وتنوعت

١- محمد لواء الدين أحمد، المرجع السابق، ص ١٤١.

٢- محمد باي بالعالم، المرجع السابق، ص ١١٤. وكذلك: محمد شاكر، المرجع السابق، ص ٢٢

٣- عبد العزيز بن محمد بن مرشد، نظام الحسبة في الإسلام، منشورات جامعة الغمام محمد بن سعود الإسلامية السعودية، ١٩٩٣، ص ١٦.

٤- عثمان بن فودي، الوصية الرضية من الراعي إلى الرعية (نجم الإخوان يستعينون به في أمور الزمان)، تقديم وتعليق: أحمد مصطفى أبو الخير، مركز أبحاث الوثائق والمخطوطات، دمياط، مصر، ١٩٩٥، ص ص ١١٩-١٢٠.

٥- تذكر بعض المراجع أن انتعاش الحركة التجارية لدولة عثمان ساهمت في بروز أسواق بالمدن الكبرى يأتيها التجار عبر الصحراء ومن النصف الشرقي لإفريقيا الغربية وغيرها..أهمها أسواق مدينتي كانو وكاتيسنا التي كانت تصنف ضمن أحسن الأسواق في إفريقيا وهو ما لاحظته الرحالة الاسكتلندي كلا برايتون. لمزيد من التفصيل راجع: الماجور دنهام وهيو كلا براتون، وولتر أودني، رحلة لاستكشاف إفريقيا، تر: عبد الله عبد الرزاق ابراهيم وشوقي عطا الله الجمل، المشروع القومي للترجمة، مصر، ٢٠٠٢، ج ١، ص ص ٥-٦. وأيضا: بهيجة الشاذلي، دور زعماء الإصلاح

فيها السلع والبضائع ولاسيما المواد الغذائية في مقدمتها الحبوب والخضر والتوابل، وتجارة الماشية وكذا تجارة الأواني والنسيج جعل من صناعة الملابس من أكثر الصناعات شيوعاً^١.

٤-٣-٣- النظم الاجتماعية والثقافية والتعليمية:

عمل الشيخ على تهذيب الحياة الاجتماعية وتنقية المجتمع من مظاهر الوثنية والشرك والجهل والخرافات والعادات السيئة^٢، وأحل محلها العادات والتقاليد الإسلامية وأعاد المناسبات الدينية مكانتها، كما حاول الجمع بين أفراد مختلف القبائل لتحقيق تكامل اجتماعي أساسه الإسلام الذي يدعو للمساواة بين الجميع بغض النظر عن قبائلهم وألوانهم... والقضاء على جميع الفروقات الاجتماعية والقبلية، في ذات الوقت لم يغفل ابن فودي وضع الفئات الهشة في المجتمع حيث حث دائماً على وجوب حفظ كرامتهم ورفع مستوى معيشتهم^٣ نظر بن فودي الى اصلاح المجتمع من خلال مجموعة من المقومات تركز الى نظرة مستجدة لمفهوم المجتمع وسبل اصلاحه: أناس تربط بينهم مصالح، أفكار، مشاعر، نظام مطبق.

ينطلق مفهوم بن فودي للإصلاح من خلال التفريق بين اصلاح الفرد او انتاج فرد صالح وبين اصلاح المجتمع او الجماعة، فهو يرى ان العمل لإصلاح الفرد لا يؤدي إلا إلى إصلاح الفرد لا غير ولا يؤثر في إصلاح المجتمع، أما المطلوب هو إصلاح المجتمع بشكل كامل وليس إصلاح الأفراد بشكل كامل، وان كان إصلاح المجتمع يجعل أكثرية الأفراد صالحين.

في المجال الثقافي والتعليمي تظهر تحديات الوضع الصعب، وذلك بتراجع الثقافة العربية الإسلامية، وإخفاق المؤسسات المجتمعية والثقافية كالأسرة والمدرسة والمسجد، و في نظر الشيخ

الأفارقة (القرن ١٩م) في إثراء الثقافة العربية الإسلامية، المؤتمر الدولي، "الإسلام في إفريقيا"، ليبيا، ٢٠٠٦، ص ٣١٦-٣١٧.

^١ - محمد باي بالعالم، المرجع السابق، ص ١١٤-١١٥. وأيضاً: بهيجة الشاذلي، المرجع السابق، ص ٣١٦.
^٢ - شهدت بلاد الهوسا عادات سيئة أنكرها الشيخ ابن فودي لأنها لا تمت بصلة للدين الإسلامي بل وتناقضه وأحياناً تدخل صاحبها دائرة الشرك من أهمها: اتباع بعض الطقوس الوثنية وممارسة السحر و ذبح الأغنام والمشى على شعورها وأصوافها وكشف عورات الإمام في الأفراح وعادات التشاؤم من الطيور واستخدام الطلاسم وتأخر ختان الصبيان... وغيرها. للتفصيل أكثر في الموضوع أنظر: آدم عبد الله الألووري، المرجع السابق، ص ١٢٢.

^٣ - Kameche Mohamed, OP-cit, p 177

عثمان يتركز الحل بإصلاح التعليم الذي يعد أمراً أساسياً في إصلاح النظام والمجتمع نظراً لدوره في بناء الدولة والاقتصاد والإدارة ومختلف نواحي الحياة، ولذلك اهتم بمؤسسة المسجد كمحور للعمل الدعوي والتعليمي واعتمد على المدارس الدينية، التي تم بفضلها انتشار التعليم والوعي والثقافة واللغة العربية، وهذا كله بفضل جهود الشيخ عثمان والدعاة المصلحين الذين تخرجوا على يديه، وفضلوا العمل في هذا الحقل، حيث خرجوا يجوبون مدن البلاد وأريافها وقرأها لنشر الدعوة الإسلامية وتوعية المجتمع عبر الدروس والمواعظ^١.

٥- تأثير حركة عثمان بن فودي على منطقة غرب إفريقيا.

مثّلت حركة عثمان دان فوديو النموذج والمثل الأعلى لغيرها من حركات الجهاد والدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا، بل وأصبحت أمّ الحركات الإصلاحية ورائدة التحرر والجهاد الإسلامي لنشر الدين الحنيف وتعاليمه السمحة في مجتمعات غرب إفريقيا بفضل الثورة الفكرية والثقافية والاجتماعية والأخلاقية التي أحدثتها، فأصبحت تمثّل قوة إقليمية وحضارية في كامل غرب إفريقيا^٢.

وقد تركت دعوة الشيخ عثمان بن فودي أثراً عظيماً في نيجيريا وغرب إفريقيا بشكل عام، فقد تمكن أمراء الفولاني من نشر الإسلام بين قبائل الهوسا واعتمد علمائهم المذهب المالكي في الشريعة الإسلامية، وتغيّرت الذهنيات كنتيجة للثورة الفكرية والثقافية والاجتماعية والأخلاقية التي أحدثتها دعوة الشيخ عثمان وخلفاءه من بعده^٣.

ولم تقتصر مآثره على ذلك بل أنّ دعوته وإماراته الحديثة تركت أثراً عظيماً في السودان الغربي وتعداه أيضاً إلى أقاليم أخرى، حيث تأثر بفكره ودعوته الكثير من الزعماء والعلماء والدعاة فسعوا لتقليده وتطلعوا دول وممالك على غرار مملكة الفولاني في منتصف القرن التاسع عشر^٤ ومنهم:

^١- ibid, p 177

^٢- عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، " حركة الشيخ عثمان في غرب إفريقيا وأثارها الدينية"، حوليات كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، العدد ٥، جامعة قطر، الدوحة، ١٩٩٢، ص ٢٥٣.

^٣- يحيى بوعزيز، تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين، دار هومة للنشر، الجزائر، ٢٠٠١، ص ١٤٩-١٥٠. وكذلك: نورة بنت معجب الحامد، المرجع السابق، ص ٤٥.

^٤- نورة بنت معجب الحامد، المرجع السابق، ص ٤٥.

٥-١- الحاج عمر بن سعيد الفولاني: الذي يعد من أكبر علماء الدعوة في حوض السنغال، الذي نشأ نشأة دينية وعلمية حيث حفظ القرآن ودرس اللغة العربية وكذا علوم الفقه والتفسير والحديث وغيرها من العلوم^١، وخلال رحلته لأداء فريضة الحج مرّ بسكوتو وبرنو، وأقام بها عدة أشهر، تأثر إثرها بدعوة الشيخ عثمان بن فودي وأفكاره الإصلاحية، وأطلع على منجزاته وأبنائه، وتزوج ابنة محمد بلو ابن عثمان، وبعد عودته من الحج أقام بها ثماني سنوات^٢، ثم رحل بعد وفاة أمير المؤمنين محمد بلو واستقر في فوتاجالون بالسنغال، حيث أسس فيها رباطا للعبادة، وشرع في الدعوة الإسلامية لسنوات مركزا جهوده على نشر الإسلام بين قبائل البمبارا الوثنيين، وأسّس إمبراطورية التوكولور في السودان الغربي وواجه تحديات داخلية وخارجية. انتهى ذلك بمقتله وخلفه أبناءه من بعده^٣، كما ظهر العديد من القادة الذين تطلّعوا للقيام بنفس الدور لأجل تكوين ممالك مماثلة ومنهم أيضا:

٥-٢- الشيخ أحمد ولوبو الماسيني: الذي اعتبر خليفة الشيخ عثمان في إمارة ماسينا، هو الآخر تربي تربية دينية ودرس الفقه والحديث والتفسير والتاريخ الإسلامي...، كانت علاقته بإمارة سكوتو قوية حيث حكم ماسينا نيابة عن الشيخ عثمان بن فودي، وبعد وفاة الشيخ عثمان انفرد أحمد ولوبو بالسلطة في ماسينا معتذرا لخلفاء الشيخ عثمان بتباعد الأماكن وصعوبة التواصل، وقد أقره خلفاء الشيخ على ذلك ولم يعارضوه^٤، في الوقت الذي استمر الشيخ أحمد ولوبو في بناء إمارة إسلامية على نهج الشيخ عثمان بن فودي حريصا على توطيد علاقته بإمارة سكوتو، منتهجا نفس التنظيم السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي الذي استحدثه الشيخ عثمان وأبنائه في سكوتو، وقد اتسعت حدود إمارته حتى وصلت أقصى تمبكتو...، حيث انتشرت تعاليم الإسلام وانتعشت الحياة الاقتصادية والاجتماعية

^١ - يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ص ١٦٥.

^٢ - نورة بنت معجب الحامد، المرجع السابق، ص ٤٣.

^٣ - استمر الحاج عمر مدة سبع سنوات في الدعوة الإسلامية، وتمكن من تكوين جيش بهدف الجهاد ضد الوثنيين، بفضل أخضع عدة إمارات مثل كارتا، حنو، وجم بحوض السنغال الأوسط، ولكن نشاط الفرنسيين في تلك الجهات ما بين ١٨٥٧-١٨٥٩ جعله يوقف تقدمه نحو الغرب ويتجه شرقا، فقام بإخضاع سيقو ثم تمبكتو سنة ١٨٦٣. لمزيد من التفصيل راجع: حسن حسن إبراهيم، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، مكتبة النهضة المصرية، ط٣، مصر، ١٩٨٤، ص ١٣٧.

^٤ - أحمد محمد كاني، الجهاد الإسلامي في غلاب إفريقيا، الزهراء للإعلام العربي، مصر، ١٩٨٧، ص ١١٤.

والثقافية بها، توفي الشيخ أحمد ولوبو سنة ١٨٤٤، واستمرت إمارته في ظل أسرته من ١٨١٨ لغاية ١٨٩٣.^١

ولم تقتصر دعوة الشيخ عثمان وتنظيم إماراته على إمارات الهوسا ومنطقة السودان الغربي بل وصل تأثيرها إلى شمال غرب إفريقيا، وسودان وادي النيل من خلال نموذجين: أولهما: إعجاب وتأثر السلطان المغربي سليمان محمد بن عبد الله بحركة الشيخ عثمان بن فودي الإصلاحية، وتواصل معه وأرسل له الرسائل والهدايا، حيث أورد محمد بلو في كتابه إنفاق الميسور رسالتان للمولى سليمان ينوه فيهما بما حققه الشيخ بن فودي من نصرته للإسلامي^٢.

ومما جاء في إحدى الرسالتين ما نصه "بسم الله الرحمن الرحيم وصلوات الله على سيدنا محمد المصطفى الكريم وآله وأصحابه الذين انتهجوا نهجه القويم... إلى السيد الذي فشا في الأقطار السودانية عدله، واشتهر في الآفاق المغربية ديانتته وفضله، العلامة النبيه، العدل في زمانه الشبيه، ذي النورين بالعلم والعمل اللذين هما منتهى الأمر، السيد عثمان بن محمد بن عثمان بن صالح الفولاني، نفع الله بعلومه القاصي والداني... فقد بلغنا من الثناء عليك والتعريف بأحوالك وأفعالك، ذلك ما أوجب محبتنا وتسليمنا إليك... وفي آخر الرسالة، قال المولى أحمد: هذا من أعظم النعم وأتم النعم، ولأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم، فالله يجازيك على الأمة خيرا، ويقيكم ضيرا، ويديم دولتكم محفوظة ومحفوظة بعين العناية ملحوظة... والسلام منا على جنابكم، والذي صار للإسلام كالبيت المعروف والسلام عليكم ورحمة الله"^٣.

النموذج الثاني أبرز ذلك الامتداد الفكري والروحي لدعوة الشيخ عثمان بن فودي والتي سيتبناها أتباعه بعد وفاته، من خلال إسهامات الفولانيين في ثورة محمد أحمد المهدي في السودان وادي النيل،

^١ - يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص ١٢٨-١٢٩.

^٢ - التيجاني أندوي، الشيخ عثمان دان فوديو أبو حركة الإصلاح الديني في غرب إفريقيا ١٧٥٤-١٨٠٢، مجلة الأمة، صفر، ١٤٠٤هـ، ص ٧٨-٧٩.

^٣ - محمد بيللو، المصدر السابق، ص ١٩٩. وأيضا: بهيجة الشاذلي، المرجع السابق، ص ٣١٢-٣١٣.

من خلال مشاركتهم في جيشه وثورته، ناهيك عن الإمدادات التي وصلت لثورة المهدي من دولة سكوتو وغرب إفريقيا التي تولاها الشيخ حياتو بن سعيد وهو أحد أحفاد الشيخ عثمان بن فودي^١.

٦- قراءة في حركة بن فودي:

ان الدارس للحالة المجتمعية لغرب افريقيا سيلحظ دون عناء الوضع الصعب والمتأزم الذي واجهه بن فودي، وضعا تأصلت فيه جملة من السلوكيات السلبية في الفعل والضمير الجمعي الافريقي، والعلاقات الاجتماعية وأنظمة التفكير والممارسات الاخلاقية، والتي أعاقت حركية التغيير الحضاري وحدثت من فعاليتها في المجتمع، ولعل أبرز هذه العلل والسلوكيات:

- سيطرة العقلية القبلية وتغلبها على المشترك الوطني
- القيم السلبية الموروثة التي كبلت إرادة التغيير والأنا الجمعي.
- الاقتصار على التوصيف للحالة دون اقتراح الحلول، ثم غالبا ما تكون الحلول ردة فعل وارتجالية.
- غياب التفكير المنهجي المنظم وان وجد فيمتاز بالوحدوية وسلطوية.
- القدرية والاتكالية على الآخر وغياب روح المبادرة وسيادة المنطق التبريري للعجز الذاتي.
- التعصب المقيت للآراء والمذاهب وغياب أدب الاختلاف فضلا عن التعايش الحضاري؛ وإذا بحثنا في جملة النتائج التي توصلنا اليها من خلال دراستنا لحركة الإصلاح بن فودي وجدنا منها ما يلي:
- تعد حركة الشيخ عثمان بن فودي أنجح تجربة تجديدية في تاريخ افريقيا جنوب الصحراء، لما أحدثته من تغيير ايجابي على كافة الأصعدة، حيث حقق الشيخ فودي خلال عقدين من الزمن الكثير من المنجزات الحضارية التي لم يسبق لها أحد في السودان الغربي، سواء في الفكر والدين، في السياسة والاجتماع وفي الشؤون العسكرية والاقتصادية وفي النظم الثقافية والتعليمية.
- إن الخلفية العلمية للشيخ عثمان بن فودي وانتماءه لقبيلة الفولاني المسلمة، ووجود ثقافة علمية إسلامية عريقة ببلاد السودان الغربي وموروث إصلاحي متواصل في تاريخ المنطقة، ساهمت بشكل كبير في تكوينه العلمي وفي تشكيل فكر تجديدي لديه، ساعده في مساره الدعوي وفي بناء كيان سياسي إسلامي.

^١ - للتفصيل في دور الفلاتة في السودان وثورة المهدي راجع: الطيب عبد الرحيم محمد الفلاتي، الفلاتة في إفريقيا ومساهماتهم الإسلامية والتنموية في السودان، دار الكتاب الحديث، الكويت، ١٩٩٤.

- إنَّ التمزق وفقدان الوحدة السياسية الذي ساد بلاد الهوسا نهاية القرن الثامن عشر، وفساد السلاطين وانتشار الظلم والطغيان والتنافر والتناحر بين ممالئها الصغيرة، والحروب المستمرة بينها، بالإضافة للاضطراب والفوضى ومضاعفة مشكلة الأمن والأمان، التي أثرت على مصالح الناس وعلى الحياة الاقتصادية والاجتماعية لبلاد الهوسا، والوضع الديني الذي تميز بانتشار الوثنية، واختلاط الإسلام بالكثير من المعتقدات الفاسدة، حيث شاعت البدع والخرافات وذاعت الرذائل والفواحش، هذا المحيط المتكرر كان حافزا لقيام حركة الشيخ فودي الإصلاحية التي هدفت لإحياء السنة ومحاربة البدعة، والقيام بنهضة شاملة في إطار الإصلاح الديني والاجتماعي والثقافي...

- إنَّ المشروع الدعوي للشيخ عثمان بن فودي لم يكن مشروعاً ارتجالياً اعتباطياً، وإنما ارتكز على رؤية واضحة الأهداف والوسائل انطلقت من مسار دعوي تعليمي تثقيفي، حيث اتخذت دعوته طرقاً متعددة لنشر الإسلام، بداية بالموعظة الحسنة عبر دروس الوعظ والإرشاد والأمر بالمعروف، ومراسلة الحكام والأمراء، ثم إعلان الجهاد ضد قوى الكفر والوثنية، وهو ما مكّنه من إقامة كيان سياسي عرف بإمارة سكوتو، وما زاد من قيمة مشروعه هي النظم الحضارية التي تطبّعت بها إمارته ومست مختلف الجوانب الدينية الإدارية والعسكرية، والنظم الاجتماعية والاقتصادية وكذا الجوانب الثقافية والتعليمية.

- كان لحركة التجديد والإصلاح التي قادها الشيخ بن فودي تأثير بالغ الأهمية على بلاد السودان الغربي حيث كانت دافعا وحافزا للكثير من الحركات الإصلاحية التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر واستمدت روحها وأفكارها من دعوة الشيخ عثمان بن فودي، حيث سعى زعماء أفارقة لتقليده وتطلعوا لبناء دول وممالك على غرار مملكة الفولاني، فنجح الحاج عمر في تكوين إمبراطورية من التكرور ووجه جهوده لنشر الإسلام بين البمارا الوثنيين، كما ظهر العديد من القادة الذين تطلعوا للقيام بنفس الدور الذي قام به عثمان في تكوين ممالك مماثلة.

- من المصلحين القلائل الذين جمعوا بين الدعوة والسيف والقلم الشيخ عثمان بن فودي، الذي كان مجدداً وداعية ورجل سياسة بامتياز، كما شارك في معارك الجهاد ضد الوثنيين، وحقق انتصارات تاريخية، مكّنته من نشر الإسلام وتكوين مملكة إسلامية، بل كان أيضاً عالماً ورجلاً من كبار المفكرين المسلمين، فبعدما أدرك الشيخ بن فودي أنّ دعوته قد انتصرت وانتشرت مبادئ الإسلام بين القبائل أخذ الشيخ يجد في التأليف الديني والاجتماعي، مخلفاً ثروة غزيرة من المؤلفات الدينية

والاجتماعية والسياسية والقضايا الإسلامية تعدّت ١٤٠ مؤلفاً ما بين رسالة وكتاب، يعد بحق موروثاً ثقافياً وإنتاجاً فكرياً مميزاً قلّ نظيره.

- إنّ دعوة الشيخ عثمان قد حققت أهدافها ونجحت لحدّ بعيد في مسارها الإصلاحية والتجديدي، حيث تمكن الشيخ من إصلاح أمور المسلمين الدينية والدنيوية ومن إقامة كيان سياسي قائم على البيعة والشورى ومبادئ الشريعة الإسلامية وتحقيق منجزات حضارية متميزة مست كافة الأصعدة والمجالات، في الفكر والدين، وفي السياسة والاجتماع، وفي الشؤون العسكرية والاقتصادية وفي النظم الثقافية والتعليمية... وما زاد من تميز تجربة التجديد والإصلاح للشيخ بن فودي هو استمرار الكيان الإسلامي الذي أسسه لأكثر من قرن الزمن، بل وكان لتجربته تأثير عميق وواسع في غرب افريقيا طيلة القرن التاسع عشر الذي سجّل الكثير من الحركات الإصلاحية التي استمدت روحها من حركة الشيخ عثمان بن فودي لاسيما وأنّ دعوته أحدثت ثورة فكرية وثقافية واجتماعية في بلاد الهوسا وفي مناطق مجاورة كمالي والسنغال وغيرها.

الخاتمة:

لا شك ان حركة الإصلاح بن فودي ظهرت في فترة زمنية صعبة، وبدأت عوامل الضعف الذي تظهر نتيجة الاسترخاء والفتور المفضي للكسل، وهي أقوى عوامل الضعف الذي تصاب به الأمم، ثم ظهرت الخلافات السياسية، وتبعها الانغماس في الترف والملذات والخلاف المذهبي الذي أدى للجمود الفكري والحضاري. في هذا الوضع ظهر بن فودي يحدوه طموحاً كبير لتغيير الواقع المأسوي الافريقي وامل صادق بالصالح والإصلاح.

ان التغيير والفعالية المجتمعية تتولد من مقومات المجتمع وروابطه ومنظومة القيم والأفكار وما يزخر به من علوم وفنون، وبحسب حسن تدبير وتوظيف هذه القيم تتحدد حركية المجتمع واتجاهه نحو التعمير والبناء والتطوير والارتقاء، فالإصلاح حركة دائمة ذاتية الدوافع.

- قائمة البيبليوغرافيا:

أولا المصادر:

- البغدادي شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي، معجم البلدان، مج ٣، دار صادر، بيروت، د س ن.

- بن فودي عثمان ، الوصية الرضية من الراعي إلى الرعية (نجم الإخوان يستعينون به في أمور الزمان)، تقديم وتعليق : أحمد مصطفى أبو الخير، مركز أبحاث الوثائق والمخطوطات، دمياط، مصر، ١٩٩٥.
- محمد بيللو، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، شركة لوزاك، لندن، ١٩٥٧.
- دنهام الماجور و براتون هيو كلا ، و أودني ولتر ، رحلة لاستكشاف إفريقيا، تر: عبد الله عبد الرزاق ابراهيم وشوقي عطا الله الجمل، المشروع القومي للترجمة، مصر، ٢٠٠٢، ج ١.

ثانياً المراجع:

- إبراهيم عبد الله عبد الرزاق ، الإسلام والحضارة الإسلامية في نيجيريا، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٤.
- ابراهيم عبد الله عبد الرزاق ، المسلمون والاستعمار الأروبي لإفريقيا، عالم المعرفة، الكويت ، ١٩٨٩، دط.
- الألواري آدم عبد الله ، موجز تاريخ نيجيريا، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٥ .
- الجمل شوقي عطا الله، إبراهيم عطا الله عبد الرزاق، الوثائق التاريخية، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات ، القاهرة ، ٢٠٠٤.
- الدوري تقي الدين ،خولة شاكر الدجيلي، تاريخ المسلمين في افريقية، ط١، دار الكتب الوطنية ، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة ، ٢٠١٤.
- السكاكر محمد بن علي بن محمد ، دعوة الشيخ محمد عبد بن عبد الوهاب ودعوة الشيخ عثمان بن فودي (دراسة تاريخية مقارنة)، الإدارة العامة للثقافة والنشر، الرياض ، السعودية ، ٢٠٠٠ .
- الشاذلي بهيجة ، دور زعماء الإصلاح الأفارقة (القرن ١٩م) في إثراء الثقافة العربية الإسلامية ، المؤتمر الدولي ، " الإسلام في إفريقيا"، ليبيا، ٢٠٠٦.
- الفلاتي الطيب عبد الرحيم محمد ، الفلاتة في افريقيا ومساهماتهم الإسلامية والتنمية في السودان ، دار الكتاب الحديث، الكويت ، ١٩٩٤.
- الفيتوري عطية مخزوم ، دراسات في تاريخ شرق افريقيا وجنوب الصحراء(مرحلة انتشار الإسلام)، منشورات جامعة قاربيوس، بنغازي، ليبيا، ١٩٩٨.
- باري محمد فاضل علي و كريدية سعيد ابراهيم ، المسلمون في غرب افريقيا، تاريخ وحضارة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٧.
- باري عثمان براهما، جنود الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي، ط١، دار الأمين للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ٢٠٠٠.
- بطران عزيز، الثورات الإسلامية في افريقيا الغربية في القرن التاسع عشر، تاريخ افريقيا العام، اليونسكو، لبنان، ١٩٩٦، المجلد ٦ .
- بلعالم محمد باي، قبيلة فلان في الماضي والحاضر وما لها من العلوم والمعرفة والمآثر، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٤ .

- بن مرشد عبد العزيز بن محمد ، نظام الحسبة في الإسلام، منشورات جامعة الغمام محمد بن سعود الإسلامية السعودية، ١٩٩٣.
- بوعتروس أحمد ، الحركات الإصلاحية في إفريقيا جنوب الصحراء ١٣هـ/١٩م، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر، ٢٠٠٩.
- بوعزيز يحيى ، تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من القرن ١٦ إلى مطلع القرن العشرين ويليه الاستعمار الأوروبي الحديث في إفريقيا، دار البصائر، الجزائر، ٢٠٠٩، طبعة خاصة.
- بوعزيز يحيى ، تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين، دار هومة للنشر، الجزائر، ٢٠٠١.
- جاسم محمد ظاهر، إفريقيا ما وراء الصحراء من الاستعمار إلى الاستقلال (دراسة تاريخية)، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، مصر، ٢٠٠٣.
- جمعة محمد كمال ، انتشار دعوة الشيخ محمد عبد الوهاب خارج الجزيرة العربية، دار الملك عبد العزيز، الرياض، السعودية، ١٩٨٨.
- حسن إبراهيم حسن ، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، مكتبة النهضة المصرية، ط٣، ١٩٨٤.
- حسن يوسف فضل ، دراسات في تاريخ السودان وإفريقيا وبلاد المغرب ، دار جامعة الخرطوم للنشر والتوزيع، السودان ، ١٩٨٩.
- دهني إلهام محمد علي ، جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي ١٨٥٠-١٩١٤ ، دار المريخ للنشر، الرياض ، السعودية، ١٩٨٨.
- زبادية عبد القادر ، دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب والمسلمين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- شاکر محمود، نجيريا، ط٢، مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٩٧١.
- شلبي أحمد، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، ط٣، ١٩٧٨، ج٦.
- قطش الهادي، أطلس الجزائر والعالم، دار الهدى للنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، ٢٠٠٣.
- فيج جي دي، تاريخ غرب إفريقيا، تر: السيد يوسف نهر، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٨٢.
- كاني أحمد محمد، الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٧.
- لواء الدين أحمد محمد، الإسلام في نيجيريا ودور الشيخ عثمان بن فودي في ترسيخه، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٧١.
- محمد حسن نبيلة، تاريخ إفريقيا الإسلامية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية مصر، ٢٠٠٧.
- ناجي علي بن أيوب، لمحات عن الإسلام في نيجيريا بين الأمس واليوم، دار الكتاب الحديث، الكويت، ١٩٩٦.

Robert et Marianne Cornevin, **Histoire de l'Afrique des Origines jusqu'à nos jours**,-

Paris, 1960 Payot , bibliothèque, 2ed, petite

ثالثا- الرسائل الجامعية والمقالات:

- بوداوية مبخوت، "العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان"، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة ابي بكر بلقايد- تلمسان، ٢٠٠٦-٢٠٠٧.

- جنيد مصباح الدين، "الشيخ عثمان بن فودي الفولاتي وعقيدته على ضوء الكتاب والسنة"، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، السعودية، ١٩٨٢.

Kameche Mohamed, **The shelu uthuman danfadio the reformer the renovator and the founder of the Sokoto caliphate (1774-1817)**, a thesis for the degree of magister of

.Arts in African civilisation, University of Oran , Algeria , 2008-2009

- أندوي التيجاني، الشيخ عثمان دان فوديو أبو حركة الإصلاح الديني في غرب إفريقيا ١٧٥٤ - ١٨٠٢، **مجلة الأمة** ، صفر، ١٤٠٤هـ.

- الحامد نورة بنت معجب، دعوة الشيخ عثمان بن فودي بنيجيريا عام ١٢٠٢هـ/١٧٨٨م وتأثيرها بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية، **مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية**، العدد السابع، ربيع ١٤٢٩هـ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية.

- الخضري عبد العزيز، نيجيريا والانتصار للعالم الثالث، **مجلة الشرق**، العدد ٢٢٨، السنة السادسة، أغسطس ١٩٨٣.

- عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، " حركة الشيخ عثمان في غرب إفريقيا وآثارها الدينية"، **حوليات كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية**، العدد ٥، جامعة قطر، الدوحة، ١٩٩٢.

المرأة الجزائرية بين الذل والنضال في ظل الإحتلال الفرنسي ما بين ١٨٣٠ و ١٩٦٢

Algerian women between humiliation and struggle under the French

occupation between 1830 and 1962

د. يسمينة سعودي

قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية

جامعة الجزائر ٢ ابو القاسم سعد الله، الجزائر

asminaY aoudiDr. S

of Human Sciences faculté Department of History,

Algeria University 2 Abul-Qasim Saadallah

Algiers, Algeria

saoudiyasmina248@gmail.com

الملخص:

تميز تاريخ المرأة الجزائرية بالنضال ومواجهة الذل الذي سلطته سلطات الاحتلال الفرنسي على الجزائريين، فكان دورها جبارا في تحدي الترسنة الفرنسية رافضة الظلم والاستبداد وتردي اوضاعها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، فكسرت قيود التقاليد ورسمت لوحة عنوانها الايمان بالقضية الجزائرية والاخلاص لها والعمل بكل الوسائل المادية والمعنوية المتاحة داخل الوطن وخارجه. حاولت إثبات وجودها في النضال السياسي والاجتماعي، حيث ساهمت في الحركة الإصلاحية والمنظمات والجمعيات

تأسست منظمة النساء الجزائريات للتعبير عن رأيها والدفاع عن حقوقها، فتبلور فكرها ووهيها للقضية الجزائرية الى ان اندلعت الثورة التحريرية لتتصدى القوات الفرنسية في المدن والجبال وتحمل أصعب المسؤوليات وأخطر العمليات حتى تحقق النصر مع أخيها الرجل.

الكلمات المفتاحية: المرأة، النضال، الجهاد، الثورة الجزائرية، الاحتلال الفرنسي، المنظمات النسوية

Abstract

The history of Algerian women was distinguished by the struggle and confronting the humiliation that the French occupation authorities imposed on the Algerians, so their role was great in challenging the French arsenal, rejecting injustice and tyranny and the deterioration of their social, cultural and economic conditions. And outside. She tried to prove her presence in the political and social struggle, as she contributed to the reform movement, organizations and associations

The Algerian Women Organization was established to express its opinion and defend its rights, so its thought and awareness of the Algerian issue crystallized until the outbreak of the liberation revolution to confront the French forces in cities and mountains and to bear the most difficult responsibilities and the most dangerous operations until victory with her brother the man.

key words

Women, struggle, jihad, the Algerian revolution, the French occupation, feminist organizations

تميز تاريخ المرأة الجزائرية بالنضال ومواجهة الذل الذي سلطته سلطات الاحتلال الفرنسي على الجزائريين، فكان دورها جبارا في تحدي الترسانة الفرنسية رافضة الظلم والاستبداد وتردي اوضاعها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، فكسرت قيود التقاليد ورسمت لوحة عنوانها الايمان بالقضية الجواررية والاخلاص لها والعمل بكل الوسائل المادية والمعنوية المتاحة داخل الوطن وخارجه. فخلال الحركة الوطنية الجزائرية بدأ اسم المرأة الجزائرية يبرز في الصحف والندوات للنهوض بحقها في التعليم والثقافة، وحقها في المشاركة في انتخابات سنة ١٩٤٧م، وفي الفترة الممتدة ما بين الأربعينات حاولت إثبات وجودها في النضال السياسي والاجتماعي، حيث ساهمت في الحركة الإصلاحية والمنظمات والجمعيات...، خاصة تلك التي جابت العديد من مدن الوطن تنديدا بمجازر ٨ ماي ١٩٤٥م. وكان من الطبيعي وقد بلغ نضج المرأة منتهاه إذ تأسست منظمة النساء الجزائريات للتعبير عن رأيها والدفاع عن حقوقها وكنتيجة حتمية لتطور الأحداث السياسية على الساحة الوطنية الجزائرية قبيل الثورة تطور الوعي الوطني لديها والتي لم تعد تقبل أن تظل معزولة عن تيار الأحداث، بل أصرت على المشاركة فيها، وهذا ما خلق لديها استعدادا نفسيا للمشاركة في أهم حقبة من التاريخ

الجزائر، وهي مرحلة الثورة التحريرية التي اندلعت في ١ نوفمبر ١٩٥٤م تحت قيادة جبهة التحرير الوطني، التي النف الشعب الجزائري حولها ، وصدقت بذلك مقولة العربي بن مهدي "القوا بالثورة إلى الشارع فان الشعب يحتضنها، كانت المرأة الجزائرية من السابقين لتحضير أرضية الثورة المسلحة، وبعد تفجيرها تبنتها وأمنت بها واحتضانها ودافعت عنها بكل اخلاص، وتابعتها من نصر إلى نصر، وتحملت أصعب المسؤوليات وأخطر العمليات والمعارك في المدن والأرياف. وبذلك نقول أن المرأة الجزائرية كافحت بكل ما أعطيت من قوة حتى ترى الجزائر حرة مستقلة، وهذا ما جعلنا في هذه الورقة نعمل لإبراز مكانتها في الوسط الثوري من خلال عملها ومسؤولياتها حتى نرى مدى تمسكها بعقيدتها ودينها وحبها لبلدها.

ومعرفة بعض الأدوار التي شغلها المرأة الجزائرية التي كافحت بكل ما أعطيت من قوة حتى ترى الجزائر حرة مستقلة وهذا كله لإبراز شخصيتها رغم بشاعة الاستعمار فياترى كيف كانت اوضاع المرأة الجزائرية قبيل الثورة التحريرية؟ ما الأسباب التي حفزت المرأة الجزائرية للانضمام للثورة؟ ما هي الأدوار التي كلفت بها المجاهدة الجزائرية؟ وما هي المسؤوليات التي ألقبت على عاتقها؟

إعتمدنا لمعالجة الموضوع المنهج السردى والتحليلي التاريخي لأن الموضوع يتطلب ذلك. إذ قمت بسرد حقائق عن المرأة وحالتها تحت ظل الاستعمار في مدة أزيد من قرن، بعرضها بطريقة وصفية كرونولوجية، اما المنهج التاريخي التحليلي فمن خلال تحليل الأحداث والمعطيات لاستنتاج وتحليل مسؤولياتها ودورها في الثورة التحريرية في مختلف المجالات.

١- المرأة الجزائرية والاحتلال الفرنسي:

كانت للمرأة مكانة خاصة في أسرتها حيث كانت تشارك في جميع الأعمال الشاقة خاصة في الأرياف، أما في المدن فكانت أكثر حظا، تتحكم نوعا ما في المجالات الثقافية والفكر والأدب لكونها تنتمي إلى الطبقة البرجوازية، وهذا ما ساعدها على الإسهام في رفع مستوى عيشها إذ فرض الإستعمار الفرنسي كل أشكال الذل على الجزائريين وطبق أبشع المخططات الإستعمارية، فلم يكن ماديا بل كان روحيا و استيطانيا ، يهدف إلى القضاء على الشخصية العربية والإسلامية واستعمل ضد الجزائريين مختلف أساليب الظلم والوحشية، وعندما تظن إلى الخلية الأساسية في المجتمع ألا وهي المرأة، فحاول إغرائها بكل الطرق لكنها لم تستسلم وبقيت مسيطرة على حياة الرجل، فوقفت إلى جانبه خاصة بعد محاولة سالاإعمار طمس الهوية الجزائرية، فرأت أولوية الدفاع عن وطنها مثلها مثل

الرجل، فكافحت وناضلت وتحملت المتاعب والصعوبات داخل البيت وخارجه من خلال وقوفها الايجابي كمسؤولة عن مقومات الأسرة وعاداتها وتقاليدها الروحية والحضارية، فقد قاومت المرأة الجزائرية جيش الإحتلال بكل صلابه، ومن هنا برزت نساء الجزائر الباحثات عن الحرية لبلادهن ففي سنة ١٨٣٢م عندما بدأت مقاومة الأمير عبد القادر رجع إلى منزله بعد مبايعته وتحدث مع زوجته لالة خيرة عن تلك المبايعه، وأوضح إليها مسؤوليته تجاه هذا الشعب الذي يضع كل أماله عليه، فما كان منها إلا أن تأزره وتقف معه وقفة امرأة لا ترضى لبلدها الذل والهوان، فقد رضيت لنفسها مايرضاه زوجها لنفسه، أما شقيقته خديجة فوقفت بجانبه وأزرتة حيث قالت قولتها الشهيرة "إذا استشهد شقيقي فهادكم أنتم في الدين والوطن.." أما والدته السيدة الزهرة فدو رها في مقاومته واضح وجلي خاصة وأنه كان قريبا منها جدا، وعرف بميوله لأمه وكلامها وقراراتها التي كانت تتخذها لصالح المقاومة، فقد تولت شؤون الأسيرات الفرنسيات بنفسها حتى تقف على أحوال كل واحدة منهن، وذكر بن سالم في إحدى مراسلاته " إن أم الأمير هي التي كانت تصدر الكتابات والتقارير باسمه، وفي سنة ١٨٤٣م وتحديدا زمالة الأمير كانت أمه وزوجته متواجدتين هناك^(١)، وذكر بن سالم في إحدى مراسلاته" إن أم الأمير هي التي كانت تصدر الكتابات والتقارير باسمه، وفي سنة ١٨٤٣م بزماله الأمير كانت أمه وزوجته متواجدتين هناك، وان الجيش الفرنسي في دورية فهرب بهيما مولود بن عراش حتى لا تقعان في يد الفرنسيين"، وفي سنة ١٨٤٥م بعد معركة سيدي إبراهيم استقبلت لالة الزهرة الأسرى الفرنسيين^(٢).

أما في سنة ١٨٤٧م فقد قيل أنها هي من نصحت الأمير بتوقيف الحرب بسبب محاصرة الفرنسيين لهم، كما كانت أم الأمير وزوجته وأبنائه في سجون فرنسا قرابة الخمس سنوات وهناك نساء أخريات أبين ألا أن يقفن في وجه العدو ، ففي ثورة الزعاطشة سنة ١٨٤٩م، تخلت النساء عن لباس الحزن مستبدلة إياه بلباس الأعراس والأعياد فعبرن بفرحتهن عن سقوط مجاهدين من عائلتهن، وليس هذا فحسب بل هناك نساء كثيرات من تيزي وزو إلى تمنراست ومن تبسة إلى تلمسان ممن عنين

(١) بسام العسلي، المجاهدة الجزائرية و الإرهاب الاستعماري، ط . خ، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، النايب، الجزائر ، ٢٠١٠ ، ص ٥١.

(٢) نفسه، ص ٢٨.

للحرية والوقوف في وجه الاستعمار بالغالي والنفيس، فبكين آبائهن وخوانهن يوم استشهدوا، ومن بينهن نجد أزواجهن وأبنائهن وأهم امرأة قاومت الاحتلال وواجهت عشرات الجنرالات من قادة فرنسا أمثال بليسي، وولف، راندون وبيجو... الخ، وتدعي هذه المجاهدة بعذراء الجبل، إنها لالة فاطمة نسومر، وكانت تمقت الاستعمار لذلك أقسمت على مقاومته إلى آخر نفس في حياتها، وكان من أبرز أسباب اندفاعها للثورة على العدو هو انتمائها إلى عائلة عريقة فقد كان أبوها ذا مكانة مرموقة في المنطقة فهو ينتسب الطريقة الرحمانية، وهذا مساعدتها على التفوق على الاستعمار^(١).

كان لفاطمة نسومر شخصية بارزة ومؤثرة، فعلى الرغم من تصورها إلا أنها كانت على دراية بما حدث في الجزائر من جرائم للعدو الذي دخل البلاد من أوسع أبوابها، كانت تتبع أخبار العدو بالتفصيل خاصة 191 . في منطقتها ما بين سنتي ١٨٤٤ / ١٨٤٦^(٢)، فكانت على علم بالمعارك التي كانت تجري هناك مثل المعركة التي دارت بين الجنرال بيجو والحاج عمر بن زعموم . ظلت لالة فاطمة نسومر تخاطب أتباعها دائما بأن الوقت قد حان للدفاع عن أرضهم وأعراضهم، وهذا هو السكون الذي سبق العاصفة، فبعد ١١ ديسمبر ١٨٥١م عين راندون حاكما عاما في الجزائر وجاءته الأوامر من فرنسا لمجابهة الثوار في بلاد القبائل حتى لا يبقى إحتلال الجزائر ناقصا، لكن بوبغلة رفض هذا الانحطاط وقام بمعارك كثيرة لصد جنرالات فرنسا، وكانت فاطمة نسومر قد شاركت في معارك كثيرة بسبب حنكتها السياسية الكبيرة، لهذا وجد فيها بوبغلة القوة المعنوية الهامة ولم يؤيدها معنويا فقط بل أراد منها زواجا سياسيا يرتبط به ارتباطا مصيريا بأهل الناحية وقد كانت أشهر معارك لالة فاطمة نسومر وبوبغلة والجنرال وولف ٧ افريل ١٨٥٤م، ومن هنا كان النصر لصالح الجزائريين وحسب الروايات فإن لافيت للانتباه هو شجاعة المقاومة لالة فاطمة نسومر البالغة التي جعلت الكثير

(١) مسعود كواتي، المرأة الجزائرية والاستعمار الفرنسي خلال القرن ١٩، دراسات وبحوث الملتقى الوطني الأول حول كفاح المرأة، د . ط ، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٤٥ ، ص ٤٢ .

(٢) محمد شريف سيدي موسى، مقاومة لالة فاطمة نسومر للاستعمار الفرنسي، دراسات وبحوث الملتقى الوطني الأول حول كفاح المرأة، د ط ، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، ص ٣٣ .

يعجبون ببسالته وشخصيتها، ومهارتها القتالية، خاضت فاطمة نسومر معارك ناجحة ، وأخرى غير ذلك ...، وواصلت كفاحها ونضالها رغم انهزاماتها إلى غاية ٢٤ يونيو ١٨٥٧ م.^(١) وبالتحديد في معركة ايشريضن حيث أن معركتها مع الجنرال راندون كانت شرسة ، وهذا السبب عدم تكافئ القوى لكنها أعطت العدو درسا قيما وهوى أن أهل الجزائر عامة وأهل جرجرة خاصة مستعدون للدفاع عن أرضهم حتى الموت . وبعد هذه المعركة توصل الطرفان إلى حل سلمي وهو التفاوض وكانت ابرز شروط هذه المفاوضات :. رفض الضرائب . . خروج القوات الفرنسية من القرى والتجمعات السكنية . . عدم متابعة ومعاينة قادة الثورة . . حماية الأشخاص وممتلكات . لكن خبث فرنسا لازال قائما وأمر راندون بإلقاء القبض على الوفد الجزائري حال خروجه من المعسكر^(٢)، ولم يبقى إلا إخضاع فاطمة نسومر والقبض عليها حية أو ميتة، فقد كانت تمثل روح المقاومة المستميتة، وبعد استعمال فرنسا لأساليبها الدنيئة من حرق وقتل، أسرت لالة فاطمة نسومر وحملت إلى السجن بتابلط وضلت فيه حتى وفاتها سنة ١٨٦٣م متأثرة بالتهاب في الأحشاء^(٣). إن المرأة الجزائرية كانت حاقدة على العدو، ومن المواقف التي انبهر بها الفرنسيون أن المرأة الجزائرية تقتل نفسها على أن تكون في أيدي العدو، أما عن التعليم في هذه الفترة فلم يكن مفقودا ولكنه كان استماعيا، إذ كانت النساء تتجمع لأخذ العلم، ونذكر السيدة الزهراء بنت العربي والسيدة باية بنت احمد حسان إذ كانت قارئة للقران وعالمة بعدة علوم^(٤)

٢- المرأة الجزائرية ما بين الحربين العالميين:

(١) ابوقاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية ، ج ١ ، ط ١ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٢ ، ص 351 ..

(٢) يحيى بوعزيز، ثورات الجزائر في القرن ١٩م و٢٠ منشورات المتحف الوطني للمجاهدين، د ط، الجزائر، ص 101.

(٣) ابوقاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص ٣٥٣.

(٤) نفسه ، ص ٣٥٣.

إن حركة التغيير التي عرفت الجزائر منذ بداية القرن أولت اهتماما خاصا بالمرأة الجزائرية، فإن صلحت صلح المجتمع ، وان فسدت فسدت المجتمع^(١) ، فعند ظهور الحركة الوطنية السياسية في مطلع القرن العشرين برز دور المرأة ، حيث إن الحركة كانت تبدي إهتمامها بعناية للمرأة وتعليمها، فتجاوبت مع حركات الإصلاح النسوية العربية، وأصبحت تساعد في تطوير الحياة الفكرية والاقتصادية والمهنية والسياسية ، إذ أن عبد الحميد بن باديس كان له دور رياديا في ترقية المرأة الجزائرية ، حيث أخرجها من الوضع المزيم الذي كانت تعيشه ، فأسس سنة ١٩٣٠م جمعة التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة وجعل بها أقساما خاصة للنساء، وكان يركز في تعليم المرأة على جانبين، الجانب الديني والجانب الاجتماعي، لما لهما من تطوير الأمة ومكافحة الفساد الذي أتى به الاستعمار وقد أنشأ ابن باديس في مجلته "الشهاب" بابا خاصا للحديث عن المرأة ، وقد أصبحت هذه الظاهرة متفشية باتت كل جريدة إصلاحية تصدر إلا وقد خصص للمرأة جزء عنها وعن حياتها الاجتماعية والدينية والسياسية ومن هنا فقد أصبح الاهتمام بالمرأة الجزائرية محورا هاما، إذا فالحركة الإصلاحية ساهمت كثيرا في تطوير المرأة وتنقيتها لتنشئة المجتمع ، وبذلك بدأ إسم المرأة الجزائرية يبرز في الصحف والندوات، كما أصبح لها الحق في الانتخابات سنة ١٩٤٧م. وفي هذه السنة ومن شهر جوان تأسست منظمة النساء الجزائريات لتعبير عن رأيها وتدافع عن حقها^(٢). ومن هذا المنطلق كانت المرأة الجزائرية من السابقين لتحضير أرضية الثورة المسلحة وبعد تقجيرها تبنتها وآمنت بها واحتضنتها ودافعت عنها بكل إخلاص وتابعتها وتحملت أصعب المسؤوليات و أخطر العمليات العدائية في الأرياف والمدن، فبرهنت عن وعي عميق وكفاءة عالية خلاص نادرين وعن شجاعة وأثبتت إنها جديرة بأداء رسالتها النضالية إلى جانب أخيها الرجل فأحدثت بذلك انقلابا جذريا في المفاهيم والأفكار.^(٣)

٣- المرأة الجزائرية وأوضاعها قبل اندلاع الثورة:

-
- (١). احمد مديوش، "مكانة المرأة في التراث الجزائري" ، دراسات وأبحاث الملتقى الأول حول كفاح المرأة ، د ط ،المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤ م ، ص 58.
- (٢) يحيى بوعزيز ، المرجع السابق ، ص ٥٣.
- (٣) نفسه، ص ٥٣.

أ - الأوضاع السياسية: لقد عانت المرأة الجزائرية من الناحية السياسية من الوضع الذي واجهته في محيطها و في وسط المجتمع الذي تفتت فيه مختلف الآفات الاجتماعية، مجاعة، وانتشار الفقر ومختلف الأمراض التي انعكست سلبا على حياتها جراء الجفاف الذي عرفته في أربعينيات القرن الماضي^(١)، بمختلف مستوياتها وطبقاتها الاجتماعية سواء كانت في الريف أو المدينة^(٢).

فبالحديث عن الريف الجزائري البائس الذي أسدل عليه الاستعمار الفرنسي ستار الحرمان، فقد عانت فيه المرأة أكثر من معاناتها في المدينة وذلك لانتهاك حرمتها وكرامتها من طرف قوات الاستعمار والهجمات الواسعة على سكان الأرياف منذ بداية الاحتلال تتخللها إهانة وتعذيب وسلب واعتداءات على شرف العائلات^(٣). فكثير ما كانت هناك زوجات وأمهات مناضلات اللاتي وقعن في قبضة الجنود الفرنسي لعدة مرات وتلقين أشواطاً من العذاب المرير^(٤)، ولقد كانت المرأة الريفية تواجه من الأذى بالصبر على كل ما ألم بها من مصاعب والأحزان. وعلى الرغم من السياسات الاستعمارية التي مارسها فرنسا لم تكن الجزائرية في الريف أو المدينة قد تأثرت بها وبكل التدابير والخطط الجهنمية التي أحيت ضدها بل على نقيض ذلك تراها عاكستها وسارت ضدها تماما^(٥). فبالنسبة للمدينة فتجد الإشارة إلى أن وضع المرأة فيها خلال الإحتلال قد مر بعدة مراحل تطورت خلالها تدريجيا ، متأثرة بالوضع السياسي السائد خاصة في الفترة الممتدة بين ١٩٣٦ ١٩٤٥م، وهي المرحلة التي بدأ فيها الشعب الجزائري يتلمس طريقه الصحيح، وظهرت معظم الحركات الوطنية

(١) عثمان السعيد، الثورة الجزائرية في الشعر السوري، ج١ [د. د. ر. ط]، منشورات وزارة المجاهدين ، [د ط] ، ص 210 .

(٢) أنيسة بركات، "محاضرات ودراسات تاريخية وأدبية حول الجزائر" ، [د. د. ر. ط]، منشورات المتحف الوطني للمجاهد الجزائر ، ١٩٩٥ ، ص ص ١٠١ ، ١٠٢

(٣) أحسن بومالي ، أدوات التجنيد والتعبئة الجماهيرية أثناء ثورة التحرير ٥٤ - ٥٦ ، [د. د. ر. ط] ، دار العرفة ، [د. م. ط] ، ٢٠١٠ ، ص ٤٢٠ .

(٤) أنيسة بركات، نضال المرأة الجزائرية خلال الثورة الجزائرية، [د ر ط] ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م ، ص ٤٠ .

(٥) محمد شريف عباس وآخرون، كفاح المرأة الجزائرية، ط٢، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، دار هومة، الجزائر، الجزائر، ٢٠٠٧ ، ص ٣٠٢ .

والإصلاحية^(١) التي تتادي بالنهوض وقد أعطت المرأة عناية كبيرة وصارت قضيتها تتناقش في الجزائر والمؤتمرات، كما بدأ إسمها يبرز في الصحافة وخلال هذه المرحلة الحافلة بالأحداث ثابرت المرأة على إثبات وجودها بالنضال السياسي والاجتماعي ، وذلك بمساهمتها في الحركة الإصلاحية ومشاركتها في الحركة الوطنية^(٢). كما أن المرأة في هذه الفترة إهتمت مثل الرجل بالأحداث المؤلمة التي ألمت الشعب الجزائري آنذاك وشاركت في المظاهرات كمظاهرات ٨ ماي ١٩٤٥م. إذ ساعدت إخوانها المنكوبين والمسجونين في إعانة عائلتهم^(٣)

أما في الحقبة الممتدة ١٩٤٥ - ١٩٥٤ م فقد لعبت المرأة الجزائرية عامة خلالها دور فعالا في التعبئة السياسية والتأهب الثوري خلال هذه الفترة تم تأسيس خلايا نسوية لحزب الشعب الجزائري في أماكن تجمعهن لاسيما عند أحياء حفلات الزواج والختان^(٤)، وقد تمثل هذا التنظيم في جمعية النساء المسلمات الجزائريات^(٥)، وذلك بفضل الطالبات والمعلمات في المدارس الحرة ، ومن ضمن أعمالها عانة عائلات المناضلين المساهمة في التكوين السياسي للنساء والمشاركة بالمحاضرات والدعايات وإعانة عائلات المناضلين السياسيين المعتقلين المعوزين^(٦)

وقد أصبحت هذه الجمعية بو ثقة لتعبئة وتجنيد النساء في صفوف حزب الشعب ثم في صفوف جبهة التحرير فيما بعد ، وقد إعترف إتحاد النساء الجزائريات بشرعية جمعية النساء المسلمات الجزائريات حيث أستدعيت هذه الجمعية من طرف الإتحادية الديمقراطية الدولية للنساء للمشاركة في مؤتمرها في 3جنيف، وكان ذلك الحدث يومئذ إنتصارا باهرا لحزب الشعب الجزائري ، ومما يدل أيضا

(١) أنيسة بركات، نضال المرأة...، المرجع السابق، ص ١٩.

(٢) أنيسة بركات، "محاضرات...، المرجع السابق، ص ٩٧.

(٣) يمينة بشي، " صور وعبر في شعر نوفمبر لجهاد المرأة الجزائرية المستعمرة "، مجلة المصادر، العدد ٥، منشورات

٤ المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، الجزائر، ٢٠٠١، ص ٨٤.

(٤) محمد الشريف عباس وآخرون ، المرجع السابق ، ص ص ٣٣٩ - ٣٤٠.

(٥) محمد قنطاري، من بطولات المرأة الجزائرية في الثورة وجرائم الاستعمار الفرنسي ، [د . ر . ط] ، دار الغرب ،

وهران ، الجزائر ، ٢٠٠٩ ، ص ٢.

(٦) انيسة بركات، "نضال المرأة..."، المرجع السابق، ص ص ٢٢ - ٢٣.

على مشاركة المرأة في المنظمات الوطنية حضور بعض النساء المناضلات في الإجتماع الذي عقد في ٥ أوت 1951م بسيما "دنيا زاد" بالجزائر العاصمة الذي دعت إليه اللجنة الإنشائية لتأسيس الجبهة للدفاع عن الحرية واحترامها^(١) و شارك في هذا الملتقى العديد من الهيئات الوطنية الإصلاحية لتوحيد صفوفها وجهودها من اجل عمل جدي، كان هذا اليوم مشهود في تاريخ النضال الجزائري ومما امتاز به هذا الاجتماع حضور بعض النساء .

ولقد تعرض نشاط المناضلات الوعدة لعدة عراقيل من بينها مضايقة السلطات الاستعمارية ،خاصة أثناء عملية توزيع الطرود على عائلات ضحايا القمع بسيما " دنيا زاد" الذي كان يجلب أعداد هائلة من رجال الشرطة لمراقبة هوية كل النساء اللواتي يدخلن القاعة^(٢)

إن هذه الأحداث التاريخية والحركات الوطنية كانت لها نتائج في أذكار الروح النضالية وتوعية الجماهير التي ضاقت صدرها بالأنفاس الطويلة ، وتنتهي بالقول إن المرأة الجزائرية خاصة إبان الاحتلال قد اجتازت مراحل تطورت فيها تدريجيا إلى أن برزت شخصيتها وأصبحت مشحونة بطاقات من العزة والإحساس القومي والاستعداد الثوري تفجرت طاقتها من ذاك الضغط المتوتر والكبت الذي كانت تضيق منه سنين طويلة وظهر إسمها مرموقا إبان احتدام الثورة المساحة في مختلف الميادين^(٣)

ب.الأوضاع الاجتماعية:

لم تكن الوضعية الاجتماعية للمرأة الجزائرية أحسن حال من وضعيتها السياسية التي كانت لها أكبر الأثر على حياتها ككل^(٤)، فقد كانت متدهورة إلى حد أبعد، فعاشت ظروفًا شاقة مزرية وسدت أمامها كل السبل وفرضت عليها عادات وأعراف بعيدة كل البعد عن الدين والرقى والحضارة. وجعل

(١) .محرز عفرون ، مذكرات من وراء القبور ، ترجمة الحاج مسعود ، [د . ر . ط .] ، ج ٣ ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ، [د . م . ط .] ، ٢٠١٣ ، ص ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٢) أنيسة بركات ، " محاضرات ودراسات.." ، المرجع السابق، ص ٩٧ - ٩٨ .

(٣) أنيسة بركات ، " نضال المرأة..." ، المرجع السابق، ص ٢٣ .

(٤) يمينة بشي، " مآثر المرأة الجزائرية خلال قرن من الاحتلال" ، مجلة المصادر ، العدد ٣ ، إصدار المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤ ، دار الحكمة للطباعة ، الجزائر ٢٠٠٠ ، ص ٢١٤ .

المنزل بمثابة سجن لها لا تغادره من يوم أن تزف إليه إلى أن تحمل على النعش إلى القبر^(١)، حيث كان الرجل أو رئيس العائلة يتمتع بكل الحقوق فإذا حصل أن توفي تخضع زوجته لأخيه أو لعمه، ولا يمكن للمرأة أبدا أن تعرض رئيس العائلة^(٢)

كما فرض عليها حصارا إجتماعيا مخنق ويعتبر ذكر إسمها في أي محفل قلة أدب، فعندما يذكر الرجل كلمة المرأة أو الزوجة يقول لمخاطبيه "أكرمكم الله" أو "حشاكم" وفرض عليها نوع من الحجاب لا صلة له بالإسلام أبدا، وعاد ذلك بالتدهور والتخلف عليها وعلى الأسرة والمجتمع^(٣)، أما فيما يخص عمل المرأة الجزائرية فقد بقيت عاملة داخل بيتها حفاظا على سمعتها وشرفها حيث تم سنة 1946 إحصاء حوالي ٩٢ عائلة أخذت بالصدفة ، وتبين من خلال هذا الإحصاء إن ٣٧ امرأة تعمل في بيتها وفي سنة ١٩٥٤ تم إحصاء حوالي ١٧٢٠ امرأة عاملة في بيتها في كل الجزائر^(٤)، وكان ارتياد العين لجلب الماء بالنسبة للمرأة أهم لحظه في اليوم وهو يعادل مكانة السوق بالنسبة للرجل، فهي الفرصة الوحيدة عندها للخروج من عالمها الضيق، وللحصول في ظل الظروف حياة الحبس التي تحياها، على لحظات قصيرة للتواصل للحياة الاجتماعية لأنها تحتاج حقا إلى رؤية وجوه أخرى وخاصة بالنسبة للمرأة الشابة التي عليها تحمل قانون الحماية من الصباح إلى المساء ولمدة طويلة^(٥).

بقيت المرأة في بيتها تقوم بالأشغال الحرفية التي كانت معروفة آنذاك في الجزائر، فالحرف كانت منتشرة في كل البيوت الجزائرية تقريبا ، ولكن الأعمال الحرفية في الريف كانت أكثر إنتشارا من تلك

(١) يحي بوعزيز، المرأة الجزائرية وحركة إصلاح النسوية العربية، [د. ر . ط] ، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة ، الجزائر، [د . س . ط] ، ص ٢٣.

(٢). أندري لوكوتوا، جزائر الخمسينات شهادة قس اثر عبد القادر بوزيدة، [د.ر.ط] ، لزهري، لبتن للنشر ، الجزائر، ٢٠٠٨، ص ٨٢.

(٣) يحي بوعزيز، المرجع السابق ، ص ٢٣.

(٤) محمد قريشي، الأوضاع الاجتماعية للشعب الجزائري منذ نهاية الحرب العالمية الثانية إلى اندلاع الثورة التحريرية 1954 / 1945 ، إيش د . بن سلطان عمار، مذكرة ماجستير تخصص تاريخ معاصر، جامعة الجزائر ٢٠٠١/ ٢٠٠٢ ، ص ٨٠.

(٥) أندري لوكوتوا ، المرجع السابق، ص ٨٣.

المعروفة في المدن ، وكن يقمن بصناعة الخزف أو الفخار، وينسجن الألبسة والزرابي زيادة عن الاواني المنزلية والقفف المصنوعة من أوراق النباتات وبالمقابل فإن نساء المناطق الحضرية لم يكن بوسعهن الخروج إلى ميدان العمل إلا القليل منهن بسبب التقاليد الجزائرية^(١). التي لم تكن تسمح للمرأة بالخروج سافرة^(٢)، وكانت تجبر الرجل باعتباره رب الأسرة على ضمان قوة الأسرة وملبسها^(٣)، حيث كان يقتصر دورها في الداخل، والزوج هو الذي يذهب للسوق لشراء المستلزمات اللازمة للأسرة وهو يتحمل مصاريف العلاج وأحيانا يعطي الزوج المرأة مبلغا من المال لشراء ما يلزمها بنفسها لكن هذه الحالة نادرة جدا^(٤).

وعلى الرغم من أن أغلب النساء بالمناطق الحضرية، كن على دراية تامة بفنون الطراز وأشغال الخياطة وتقنيات الرسم على الألبسة فإنهن لم تكن تتبعن منتجاتهن إلا إذا اضطرن لذلك، أي عند لقصوى، وإذا ما كان زوجها معتقلا أو متوفيا فإن المرأة كانت تضطر إلى إقحام عالم الشغل ضرورة القيام بأي عمل يقدم لها من أجل ضمان لقمة العيش ولكن ليس على حساب شرفها وسمعتها^(٥)، اضافة إلى أن الإستيلاء المستعمرة على أراضي وخيرات الشعب الجزائري ، دفع بالمرأة وزجها إلى البحث عن العمل لدى المعمرين أو في بيت الكولون خادمة بأجر زهيد لتسد حاجيات أبنائها، وفي الكثير كانت تضطر إلى بيع كل ما تملكه^(٦)، حيث نجد أن المرأة كانت تضطر في كثير من الأحيان إلى بيع حليها من أجل شراء قطعة أرض وقطيع غنم، وتراها في أسواق تعرض منتجاتها المنزلية

(١) محمد قريشي ، المرجع السابق، ص ٨١.

(٢) محمد العربي الزبيري، الثورة الجزائرية في عامها الأول، ط١، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، ص٤٥.

(٣) محمد قريشي، المرجع السابق، ص ٨١.

(٤) Zénaïde Tsourikouf, L'enseignement des filles en Afrique du nord, Edition A. Bedonne, (٤)

Libraire De La Cour D'appel Et De L'ordre Des Avocats, Paris, 1935, p. 23.

(٥) محمد قريشي، المرجع السابق، ص ٨٧ .

(٦) يمينة بشي، "مآثر المرأة..." ، المرجع السابق، ص ٢١٥.

للبيع^(١)، ومهما كان وضع المرأة الجزائرية إجتماعيا فإنها كانت تساهم بنشاط في أعمال الحقل والأعمال الفلاحية فهي إذن تجمع أعباء الحياة المنزلية والإعتناء بالأطفال والمساهمة في أعمال الحقل والإعتناء بالحيوانات^(٢). وإذا وا حاولنا صد مظاهر أخرى من الأوضاع الاجتماعية للمرأة الجزائرية التي كانت سببا في تخلفها، نجد ظاهرة الانحراف الديني المتمثلة في الطرفية المنحرفة التي إنتشرت في المجتمع الجزائري وسيطرت على عقول العامة من الناس ، وكانت المرأة الجزائرية من بين الذين وقعوا فريسة سهلة بين أيدي هؤلاء المشعوذين وبحكم طبيعتها الساذجة وجهلها أيضا ، كانت تعتقد أن هؤلاء هم أولياء الله الصالحين، تستجاب دعواتهم ، وحين يعترها شعورها بالعجز أو الضعف إزاء بعض المشاكل والمواقف الصعبة التي تواجهها في الحياة ولا تجد لها حلا تلجأ إليهم، إعتقادا منها أن هؤلاء القدرة على المنح والتمنع ومكاشفة الغيب، فكان لهذه الثقة أثارا وخيمة على حياتها^(٣)

اما بالنسبة للخدمات الطبية والمنشآت الصحية فقد إندلعت ثورة نوفمبر ١٩٥٤ والأغلبية الساحقة من الجزائريين، لاسيما المرأة لا تعرف الطبيب والمستشفى والمستوصف، ولا تستعمل الأدوية بل كان يتم التداوي خاصة في الأرياف بالطرق التقليدية مثل إستعمال الأعشاب باختلاف أنواعها، كما كانت في كثير من الأحيان تلجأ إلى إستعمال النار وبعض التمانم، تلك هي الوضعية الإجتماعية للمرأة الجزائرية التي اتسمت بالتخلف والتدهور الإجتماعي نتيجة عوامل عديدة تجلى هذا الوضع الإجتماعي المتخلف للمرأة من خلال عدة ظواهر سلبية كالبؤس والفقر، والتنصير والطرفية والشعوذة وغيرها من الآفات الإجتماعية والظواهر التي تعرض لها المجتمع الجزائري، وإنطلاقا من الوضعية الإجتماعية للمرأة الجزائرية نطرح السؤال التالي كيف كانت الوضعية الثقافية للمرأة الجزائرية؟ وهذا ما أطرق له في العنصر الموالي.

ج.الأوضاع الثقافية:

(١) محمد قريشي، المرجع السابق، ٨٧.

(٢) اندري لوكتوا، المرجع السابق، ص ٨٤.

(٣) محمد العربي زبيري، تاريخ الجزائر المعاصر، ج ١، د ر ط]، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ١٩٩٠، ص ٢٧.

بالنسبة للوضع الثقافي للمرأة الجزائرية فقد كانت أكثر تدهورا وسوءا من وضعيتها الاجتماعية والسياسية^(١)، وكانت المرأة بالإضافة إلى ما يعاني منه الرجل تخضع لظروف قاسية نتيجة التأويل الخاطئ لمبادئ الاسلام السمحة^(٢)، فكانت بذلك المرأة قبيل الثورة سجينه وضحية أوضاع التأخر والجهل التي خلفها الإستعمار وحبيسة تقاليد واهية وقيود ثقيلة ساعد على تثبيتها وجود الاستعمار^(٣). أما بالنسبة لقضية تعليم المرأة قد كان على صعيد الحركة الإسلامية محل جدال ونقاش، أخذ ورد منذ ظهور المدارس الحرة^(٤)، وتجد الإشارة في هذا الصدد إلى أن كثير من الأسر الجزائرية بصفة عامة التي كانت تسمح بتعليم الإبن وتودده إلى المدارس الفرنسية لم تكن تسمح للبنات بذلك^(٥)، إلا فئة قليلة جدا منهم من ترضى بذلك، فقد كانت وظيفتها تكاد تكون منحصرة في الطبخ والإنجاب لذلك فإنها لم تكن في حاجة إلى العلم والمعرفة للذان كان الرجل يعتبرها معرة بالنسبة إليها، لكن هناك من الجزائريين رغم كل شيء من يوفر لبناته تعليما قرانيا^(٦)، ومنه كانت نسبة الأمية في أواسط النساء الجزائريات في إرتفاع مستمر مع مرور السنوات^(٧)، وكانت المرأة الجزائرية عموما تتخبط في الجهل والحرمان والكبت نظرا لعدم تفتحها على الثقافة الإستعمارية خوفا من الانزلاق والتأثر بهذه الثقافة^(٨).

(١) علي الجمبلاطي، جميلة بوحيرد، [د ر ط]، دار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، [د س ط]، ص ٨.

(٢) أنيسة بركات، " نضال المرأة ... "، المرجع السابق، ص ٢٠.

(٣) محمد الميلي، فرانز فانون والثورة الجزائرية وحركة الاصلاح [د ر ط]، إصدار وزارة الثقافة، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ١٤٤.

(٤) محمد العربي الزبيري، تاريخ الجزائر ...، المرجع السابق، ص ٢٥.

(٥) زهير بن علي، قضايا المرأة ضمن اهتمامات الحركة الاصلاحية الجزائرية ١٩٢٥ / ١٩٥٤ م، اشراف سليمان قريبي، مذكرة ماجستير تخصص تاريخ الحديث والمعاصر، جامعة باتنة، ٢٠١٥ م، ص ٣٩.

(٦) سامية بادي، المرأة والمشاركة السياسية للتصويت والعمل الحزبي، العمل النيابي، مذكرة ماجستير في علم الاجتماع، اشراف الأستاذ سفاري ميلود، جامعة قسنطينة، ٢٠٠٥ م، ص ١٠٧.

(٧) زهير بن علي، المرجع السابق، ص ٣٩.

(٨) محمد العربي الزبيري، الثورة الجزائرية...، المرجع السابق، ٦٥.

وعليه يمكننا القول أن المستوى الثقافي لعامة الجزائريات صار بأئسا جدا إذا ما قورن مع ما كان عليه الحال قبل وصول الفرنسيين^(١)، حيث كان كل فرد من الجماهير الجزائرية قبل الإحتلال يحسن القراءة والكتابة^(٢)، على عكس بعد الإحتلال إذ عرفت المرأة الجزائرية إبانها تأخرا كبيرا في ميدان التعليم، إلا أنه ومع تطور الوعي القومي وبظهور الحركة الوطنية الجزائرية كجمعية العلماء المسلمين التي فتحت بعض مدارسها أبوابها للفتيات، إذ سارعت المرأة لتسجيل نفسها في هذه المدارس حيث وصل عندهن سنة ١٩٣٩م إلى ٢١٦٧٩ فتاة متعلمة، وتطور سنة ١٩٥٧م إلى ٨١٤٤٨ فتاة متعلمة^(٣). وقد كان للشيخ ابن باديس دورا رائدا في ترقية المرأة الجزائرية والنهوض بها وأحزابها من الوضع المزري الذي كانت تعيشه، فبعد أن أسس جمعية التربية، والتعليم وفتح بها أقسام خاصة للبنات بمدينة قسنطينة وأعطى أوامره لفعل ذلك في كل مدارس جمعية العلماء على مستوى القطر الجزائري وحث الناس على تعليم المرأة و العناية بتثقيفها، البنات في المدارس والنساء في المساجد أين تخصص لهن أجنحة خاصة لسماع الدروس، خاصة يومي الخميس والجمعة^(٤)، على أن يكون هذا التعليم قائما على أساس الدين القومية والأخلاق النسوية المحمودة ولن يذهب في النهوض بالمرأة أبعد من رفع الأمية عنها فهي دعوة إلى تعليم المرأة في مقال له تحت عنوان تعليم المرأة الكتابة يقول فيه "واستنادا على هذه الأدلة وسيرا على ما إستفاض في تاريخ الأمة من العالمات الكاتبات الكثيرات، علينا أن ننشر العلم بالقلم في أبنائنا وبناتنا، في رجالنا وفي نساينا على أساس ديننا وقوميتنا إلى أقصى ما يمكننا أن نصل إليه من العلم الذي هو تراث البشرية جمعاء وثمار جهادها في أحقاب التاريخ المتطاولة، وبذلك نستحق أن نتبوا منزلتنا اللائقة بنا والتي كانت لنا بين الامم"^(٥)

ولهذا كان الشيخ ابن باديس يخرج بنفسه ليتجول في المتاجر ويجمع الإشتراكات والإعلانات وحث الناس على تعليم بناتهم وقد كتب عددا كبيرا من المقالات في المنتقد والشهاب والبصائر، حول تعليم

(١) زهير بن علي، المرجع السابق، ص ٣٩ .

(٢) محمد العربي الزبيري، الثورة الجزائرية، المرجع السابق، ص ٦٥ .

(٣) محمد قرشي، المرجع السابق، ص ١٨٤ .

(٤) يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص ٢ .

(٥) جريدة الشهاب، ج ١ ، ٥ ، نوفمبر ١٩٢٩، ص ١٤ .

المرأة والإعتناء بها داخل البيت وخارجه في إطار التعاليم الإسلامية و ندد بالعادات والتقاليد البالية التي فرضت عليها ودعا إلى نبذها.

لقد اثرت هذه أوضاع الجهل والاستعمار سلبا على حياة المرأة الجزائرية، خاصة في مختلف جوانبها بحيث كان لها اكبر الاثر في تخلفها خاصة في المجالين الاجتماعي والثقافي، إلا انه ورغم كثرة الصعوبات فان المرأة الجزائرية لم تستسلم ولم تغشلق واثبتت وجودها قبل اندلاع الثورة بفعالية داخل الحركة الوطنية وشاركت في مختلف المنظمات والحركات والجمعيات.

٤. النضال السياسي للمرأة الجزائرية ١٩٤٥ - ١٩٥٤: (١)

كانت المرأة الجزائرية في موعد مع التاريخ فشاركت أباها الرجل في تحمل أعباء الحياة، وبنيت وشيدت وتصارعت مع هموم الدهر وامتھنت مختلف الحرف وربت الأجيال وشاركت حتى في الحقل السياسي على أساس أن كل رجل عظيم وراءه امرأة. وهكذا بدأ اسم المرأة الجزائرية يبرز في صحف والندوات للنهوض بحقها في التعليم والثقافة وحققها في الإنتخابات السياسية لسنة ١٩٤٧م، وفي الفترة الممتدة ما بين الأربعينات والخمسينات ثابتت المرأة الجزائرية على فرض واثبات وجودها في النضال السياسي والإجتماعي حيث ساهمت في الحركة الإصلاحية والمنظمات والجمعيات والهيئات الوطنية والمسيرات والمظاهرات خاصة تلك التي جابت العديد من مدن الوطن تنديدا بمجازر ٨ ماي ١٩٤٥م. رغم الظروف الإستعمارية القاهرة والتي كان لها دورا كبيرا في خروج المرأة من البيت وإلحاقها بالعمل من أجل لقمة العيش و إعالة أفراد عائلتها خاصة بعد إلتحاق الرجل بالثورة التحريرية من جهة، ومن جهة أخرى إلتحاق فئة كبيرة من النساء وخاصة الفتيات بصفوف جيش التحرير، غير مبالية بكل القيم والتقاليد التي كانت سارية آنذاك لكن مع الحفاظ على التقاليد الإسلامية من جعل نمو الحركة الوطنية عبر أوسع مشاركة في الثورة، ووصلت حدود القيادة النسائية للتجمعات القتالية ضد المستعمر (٢)

(١) مليكة القورصو، ويسميته سعودي، وجارية بن ناجي، الجزائريات أثناء حرب التحرير الوطنية مواقف ومسارات ١٩٥٤-١٩٦٢، سلسلة المشاريع الوطنية للبحث، الامال للطباعة والنشر والتوزيع، نوفمبر ٢٠١٦، ص ص ٨٨-١٢٢.

(٢) حكمت ابو زيد، إمكانيات المرأة العربية في العمل السياسي، عن مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٨٢ م، ص ١٦٥.

كما أنها طالبت بحقوق وطنها من خلال التنظيمات فأنشأت بذلك جمعيات ومنظمات نسوية بمبادرة من بعض المثقفات وكانت بداية تأطير للحركة النسوية الجزائرية بعد سنة ١٩١٩م للإصلاح وانتشرت دعوات تنادي بالتححر للمرأة الجزائرية وبضرورة تعليمها وتوعيتها وقد كانت الحرب العالمية منعطفا تاريخيا حاسما بالنسبة للحركات النسوية في الجزائر إذ يعتبر حرمانها من التصويت سنة ١٩٤٧م إعترافا بالدور المهم الذي لعبته المرأة الجزائرية للاستفادة من إجراءات التي سمحت بدخولها للمعترك السياسي والإفتكاك من الدستور الذي فتح لها مجال النشاط السياسي وتجلى ذلك في تأسيس المنظمات النسوية بمبادرة من بعض الطالبات والمثقفات^(١)

أ- المنظمات النسوية:

- الاتحاد الفرنسي الإسلامي لنساء الجزائر: ظهرت سنة ١٩٣٧م حيث وصل مجموع النساء المنخرطات في هذه المنظمة ٣٦ امرأة ما بين أوروبية ومسلمة، وهذه المنظمة هي وجه التقارب بين الأوروبيات والمسلمات اللواتي يعتبرن أكثر تفوقا من الناحية الفكرية^(٢) وقد طرحت هذه المنظمة في سنواتها الأولى بعض القضايا كالنظافة للحفاظ على الصحة، ومن المعروف أن المسلمات المنخرطات في المنظمة يتمتعن بالحماية والرعاية من طرف الحكومة الفرنسية

شهدت سنوات مابين ١٩٤٤_١٩٤٥م تطورات في نشاط النسوة حيث كانت من بين أعمالهن الخيرية فتح مركز صحي خصصن فيه الظهيرة من كل يوم لتقديم الخدمات الى النساء والفتيات المقبلات عليه ، وكان لهذه المنظمة نشاطات ثقافية كتتنظيم محاضرات وأسواق خيريته لقد كان لها مواقف ونشاطات سياسية لا تقل أهمية وفعالية عن الرجل، بالرغم من الأمية التي بلغت ٩٩% لدى النساء ، والمستوى التعليمي الضعيف إلا أنها كانت رمزا بحسن أدائها وكفاحها مبرهنة على تمسكها بقيمتها وهويتها الأصيلة خاصة بعد مرور مائة سنة من الإحتلال، حيث أرادت فرنسا أن تبرهن لسادتها الكبار القادمين من باريس وعو اصم أوروبية أخرى للمشاركة في الإحتفال أن المرأة الجزائرية

(١) كفاح المرأة الجزائرية، دراسات وبحوث الملتقى الوطني الاول حول كفاح المرأة الجزائرية، ط ٢، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة اول نوفمبر ١٩٥٤ م، مطبعة هومة، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ٣٢٨.

(٢) سعد حورية، الوضعية الاجتماعية والسياسية للمجاهدات بعد الاستقلال، رسالة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع ، اشراف بن يوسف التلمساني، ١٩٩٤-١٩٩٥، ص ص ٥١-٥٣.

قد تحولت عن أصالتها إلى الغرب وأصبحت امرأة فرنسية في لسانها وزيتها وفي تفكيرها ونمط حياتها ... ، ولكن المفاجئة التي لم تكن متوقعة و صدمت الإدارة الإستعمارية عندما خرجت ثلاث جزائريات فوق منصة الإستعراض الرسمية بالزى الإسلامي فلم يجد رئيس المستعمرات إلا أن يعترف أمام الحضور قائلاً "ما أصنع أيها السادة إذا كان القرآن أقوى من فرنسا".^(١) ومن عام ١٩٣١ تحولت المرأة الجزائرية إلى قضية في ملف الإستعمار أولاها أهمية كبرى و واضحة، إلى أن وقعت مأساة الثانية مجازر ماي ١٩٤٥.^(٢) حيث كانت المرأة حاضرة في تلك المأساة البشعة.... ، وحسبك أن تتخيل الأثار الاجتماعية والإقتصادية والثقافية التي يخلفها إستشهاد ٤٥ ألف شهيد تركوا وراءهم نساء (أمهات ، أخوات ، خالات ، عمات) هذه الأحداث كانت كافية بأن تحدث إنقلابا في فكر المرأة الجزائرية ، الذي شد تفكيرها إلى أمل الاستقلال.

- اتحاد النساء الجزائريات : لقد أنشأ الحزب الشيوعي الجزائري تنظيما سنة ١٩٤٤م وأطلق عليه إتحاد نساء الجزائر، والذي كان يشرف عليه ولسان حاله صحيفة نساء الجزائر^(٣)، كانت تنادي بالتساوي والعدالة بين كل النساء العالم وبالضبط بالنسبة لنساء المسلمات إلا أنه لم يلق الإقبال الكبير لأن جل عناصره هن من الفرنسيين، وقد إستمرت هذه المنظمة إلى عام ١٩٥٥م حيث حلت نهائيا يوم ١٥ سبتمبر بعد عشرة أشهر من إنطلاق الثورة التحريرية

- جمعية النساء المسلمات الجزائريات: لقد تأسست في ٢٤ جوان ١٩٤٧م للتعبير عن رأي وحقوق المرأة، والتي اسسها حزب الشعب الجزائري في اطار حزب حركة الانتصار للحريات الديمقراطية وهي أول منظمة تكونت من نساء مسلمات فقط^(٤). وهذا بفضل مساهمة الطالبات والمعلمات في المدارس الحرة للنساء عن طريق (إتحاد النساء الجزائريات) وقد شاركت الجمعية في أحد مؤتمرات الفيدرالية

(١) ابو جرة ، جذور الصراع في الجزائر ، الوطنية للطباعة والنشر ، مطبعة عيسات إيدير، ١٩٩٥، ص ٢٠٣.
(٢) نعيمة نصيب، المشاركة السياسية للمرأة الجزائرية ، رسالة دكتوراه، اش: ا.د.نادية سعيد عيشور، تخصص في عام الاجتماع، كلية الآداب قسم علم الاجتماع، جامعة عين الشمس، ٢٠٠٢ م ، ص ١٧٧.
(٣) انيسة بركات، "محاضرات ودراسات..."، المرجع السابق، ص ص ١٠١-١٠٢.
(٤) نواره سعدي جعفر، الوفاء، سلسلة حوارات ولقاءات مع مجموعة من مجاهدات ثورة نوفمبر ١٩٥٤ م الخالدة ، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ٢٠١٢ م ، ص ٥٧

بالعاصمة جنيف عن طريق الأمينة العامة نفيسة حمود^(١)، اللواتي كانتا تقومان بالتنظيم والتنسيق في ناحية الغرب (وهران تلمسان)، لقد عمد المستعمر الفرنسي إلى مراقبة تحركات "مامية شنتوف"^(٢) منذ البدء ، وتمت ملاحظتها ونفيها في شهر نوفمبر ١٩٥٥م ثم عادت إلى الجزائر في شهر جانفي ١٩٥٦م وقد التحقت بالمجاهدة " نفيسة حمود " التي كانت متواجدة آنذاك بالولاية التاريخية الثانية من خلال خلية للاتصال والإيواء تحت قيادة عبان رمضان، وكانت أهداف هذه المنظمة ظاهريا مساعدة الاسرة المعوزة بينما كان عملها الحقيقي هو التكوين السياسي للنساء، وقد كانت تستعمل حتى الغرف المسرحية لأجل ذلك في قاعة السينما " دنيا زاد " في العاصمة وكذلك في وهران وتلمسان عندما تتوفر أماكن العرض والفرص السائحة لذلك، وكانت العروض تدور حول قضية الاستقلال الوطني، كما كانت العضوات تغتنم فرصة التجمعات النسوية على اختلافها من أجل التذكير على ضرورة العمل لتحقيق استقلال الجزائر. وجمعية النساء الجزائريات المسلمات لم تطرح في برنامجها أي مطلب نسائي، ولم تطرح في أي مناسبة نما كان قضية ترقية المرأة، وإهتمامها فقط ضمن الإهتمام العام للشعب الجزائري وهو إستقلال البلاد، وتذكر "مامية شنتوف" إنه من بين العناصر الاولى لهذه الجمعية

(١)مجاهدة ناشطة سياسية ولدت في ١٩٢٤م بالجزائر العاصمة، من عائلة معروفة واصلت دراستها وكانت من بين اوائل دفعات تخصص طب ١٩٤٤م، احتلم عقلها على مظالم الاستعمار وسياسته العنصرية ، فحملت على عاتقها هم بلادها، وأمضت عقد الالتزام بالنضال، حيث شاركت في مظاهرات ماي ١٩٤٥م، وباشرت نشاطها النضالي في في جمعية الطلبة المسلمين لشمال افريقي، التي تقلدت منصب النائبة فيها سنة ١٩٤٧ م، قبل أن تنتخب أمينة عامة لجمعية النساء المسلمات الجزائريات وبعدها انخرطت في حزب الشعب كعضو الخلايا السرية الاولى، التحقت بصفوف جيش التحرير ١٩٥٤م وأصبحت رائدة في صفوف ، كما كانت تعالج الجرحى في معازل الثورة حتى القي عليها القبض بالولاية الثالثة سنة ١٩٥٧م ثم اطلق سراحها قبيل الاستقلال، بموجب عفو شامل ، وظلت يدها ممدودة لخدمة وطنها إلى أن وقتها المنية في ٢٠٠٢م عن عمر يناهز ٧٨ عاما.

(٢) إسمها الاول مامية عيسى، ولدت بين سكران بنواحي تلمسان حاليا، من عائلة زراعية ثرية، كان والدها عضو نشطا في حزب الشعب الجزائري، انتقلت إلى الجزائر العاصمة لانتهاء دراستها في كلية الطب كقابله، قامت بإنشاء خلايا الإناث التابعة لحزب الشعب، التحقت بالثورة واكتشفت أمرها ١٩٥٦/٠٥/٢٤ م لتتج بالسجن، افرج عنها مع وضعها تحت المراقبة، اجبرت على السفر إلى تونس لتلتحق بزوجها عبد الرزاق بوشنتوف، عملت مع أول فريق الهلال الاحمر الجزائري، بعد الاستقلال تحصلت على شهادة ليسانس في العلوم السياسية سنة ١٩٥٥م، وبعد سنة من ذلك عينت على رأس الاتحاد النسائي الجزائري ثم اعتزلت السياسة لتتفرغ لعائلتها.

توجد : نفيسة حمود، فطيمة زكال، كانت المنظمة (الجمعية) تولي اهتماما كبيرا بترقية الفتاة والمرأة الجزائرية ، ومن ضمن أعمال الجمعية المساهمة في التكوين السياسي للنساء و المشاركة بالمحاضرات والدعايات من بيت لآخر عانة عائلات المناضلين السياس و بين المعتقلين المعوزين، وتعتبر هذه المناضلات مثلا تقتديه الفتاة الجزائرية كما قدمت صورة مرضية أثناء الحرب عن المرأة المتقدمة المترقية التي يفتخر بها المجتمع الجزائري في تلك الفترة^(١) وتحولت فيما بعد إلى لجنة للعمل بقيادة السيدة "مامية شنتوف" التي قدمت صرار رفقة صورة رائعة عن مشاركة المرأة الجزائرية بكل قوة و الرجل في أعظم ثورة في القرن العشرين وكان الهدف لهذه الجمعية هي إسقاط المرأة الجزائرية للإسهام في الحركة الوطنية من أجل تحرير الوطن ولم يكن من اللائق حينذاك أن تطلب هذه الجمعية بحقوق المرأة فقط، لأن كل الشعب الجزائري كان يزرع تحت نير الإحتلال رجالا ونساء على السواء. كان الشعب كله مدعو في هذه الحقبة للإلتفاف حول هدف واحد وهو: تحرير الوطن ، وفي هذا السياق^(٢) تولت الأمانة العامة فيما بعد السيدة "نفيسة حمودة" التي عملت إلى جانبها تحت غطاء إجتماعي على بث التوعية وغرس الروح الوطنية والتكوين السياسي للمرأة الجزائرية إبان فترة الإحتلال بعد الإتصال بالفيدرالية الديمقراطية العالمية سامية بلحفاف، مليكة مفتي، رقيقي وكان من المهام الرئيسية لهذه الخلايا هو إدخال فكرة الاستقلال بكل الطرق الممكنة في الوسائط النسوية ، وكان العمل النشيط خاصة في بلكور و القصبة ، وكانت السيدة "مامية شنتوف" هي التي كانت تقوم بالربط بين الخلايا النسوية والحزب الذي كان يمثل أحيانا من طرف "محي الدين حفير، "علي محراز"، "عبد الرحمان طالب"، وأحيانا مع "عبد الحميد سيد علي".^(٣) ولم يتطرق التنظيم لمسألة المرأة إلا بعد تطرق المؤتمر الثاني لحزب الشعب الى ذلك عام ١٩٥٣م، حيث صرحت "مامية شنتوف" ان هدف التنظيم الرئيسي هو ترقية المرأة وتحسين وضعها . - وفي الخلاصة نقول هكذا توسعت الحركة الإصلاحية النسوية في المدن والقرى ، ووجدت إستجابة الواسعة لها على مدى نصف قرن، وهو عمر الحركة الوطنية ١٩٠٠ / ١٩٥٤م. بفضل ظهور مجموعة من النساء في شكل نخبة تصدرون الحركة

(١) أنيسة بركات ، نضال المرأة ... ، المرجع السابق، ص ص ٥١ - ٥٣.

(٢) نواره سعدية، المرجع السابق، ص ٥٧.

(٣) سعد حورية، المرجع السابق، ص ٤١.

الإصلاحية في الجزائر خاصة بعد الحرب العالمية الثانية. وأصبحت البعض منهن يكتبن وينشرن في الصحف والمجلات ، ويؤلفن القصص و يعالجن الموضوعات النسوية ، وكن بمثابة رائدات للنساء الجزائريات اللاتي كان لهن دور فريد من نوعه خلال حرب التحرير في العمل على ترقية المرأة والنهوض بها، وبت تعاليم الدين في نفسها كونها امرأة مسلمة التي هي في حاجة أكيدة إليها لإصلاح الإعوجاج الموجود في الأحوال الداخلية للتقدم في حدود الشرع والدين.

٥- الحركة الإصلاحية النسوية الجزائرية:

كان للشيخ عبد الحميد بن باديس دور رائدا الذي أثمر أيما إثمار لأنه نجح في عملية ترقية المرأة خارجها من الوضع ال والنهوض بها وبمستواها، وامزري الذي كانت تعيشه، فبعد أن أسس معها مدرسة التربية والتعليم وفتح لها الطريق لتتسط، وذلك لها الكثير من الصعاب، وتمكن من إقناع شريحة كبيرة من المجتمع الجزائري بضرورة إخراج المرأة من أوضاعها المزرية، وإتاحة الفرص لها لتتعلم أساسا ولتشارك بعد ذلك في الحياة العامة إلى جانب أخيها الرجل.

فعلت مثله الحركة الوطنية خاصة تيار حزب الشعب الذي كانت له نفس السياسة داخل الجزائر، وحتى في المهجر ، فشجع المرأة على أن تتعلم وتخوض غمار السياسة على أي مستوى فأعطيت للمرأة بعض الفرص ولكن في الإطار السنوي، وسمحت للبعض منهن أن يتقلدن منصب الشبيخة أو المقدمة. ومن المعلمات الرائدات عام ١٩٤٧م في مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة"حورية عربية، عقيلة كلوش ، ونعناعة ونيسي" وفي مدرسة الفلاح باب وأمينة زعنان، حورية خثير، وفي مدرسة ببلكور الانسة فاتحة قبو، وفي مدرسة رويسو بالعاصمة زينب بوعامر، وفي مدرسة أقبو حرمة الفاضلة^(١).

ومن الصدف انه في هذه الفترة بدأت تظهر بعض الجمعيات النسوية للعمل على ترقية المرأة والنهوض بها، ومن هذه الجمعيات جمعية المرأة المسلمة بتلمسان التي كانت ترأسها السيدة فاتحة كاهية، وقد نشرت بلاغا بمجلة البصائر "لا نطلب سفورا لعلنا بأنه يؤدي حتما إلى ما تحمد عقباه خصوصا في هذا الوقت الحاضر"^(٢) ونشرت رئيسة هذه المجلة مقلا في نفس العدد شرحت فيه

(١) يحي بوعزيز، المرأة الجزائرية وحركة الإصلاح النسوية العربية ، (د. ط)، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، ٠١١، ص ٣٥.

(٢) مجلة البصائر" ، العدد ٢٠ ، الاثنين ٧ ربيع الاول ١٣٦٧ هـ / الموافق ل ١٩ جانفي ١٩٤٨ م.

أوضاع المرأة وانتقدت المتعلمات في المدارس الفرنسية ، ودعت الى التمسك بالقيم الإسلامية وعدم الإغترار بمظاهر الحضارة الغربية التي تعتبر سموما قاتلة ، والى جانب جمعية نهضة المرأة المسلمة هناك جمعية النساء المسلمات الجزائريات ومن بين العضوات المؤسسات لهذه الجمعية والمنشطات لها نذكر - :

الطبيبة نفيسة حمود : التي شاركت في تأسيسها بالعاصمة وعينت نائبة رئيسة جمعية الطلبة المسلمين لإفريقيا الشمالية عام ١٩٤٧-١٩٤٨ م وأصبحت عضوة خلية في حزب الشعب الجزائري ، وتشارك في كل التجمعات النسوية للتوعية الوطنية والاجتماعية مع زميلات أخريات لها ، مثل عزة بوزكري ، زبيدة ساكر ، زبيدة صغير ، باية لارات . وفي عام ١٩٥٠ م إتصلت بالفيدرالية العالمية للنساء من أجل تنظيم الإحتفال لأول مرة في الجزائر باليوم العالمي للمرأة في ٨ مارس . وعند ما إندلعت الثورة في أول نوفمبر ١٩٥٤ م إتصل بها (نفيسة حمود) أو عمران وعبان رمضان، وأقنعها بالالتحاق بالمجاهدين في الجبال لعلاج الجرحى فاستجابت ، وكانت من أوائل من أسس مصلحة الصحة لجيش التحرير الوطني في الولاية الثالثة ، وهناك تعرفت على الطبيب مصطفى لاليام الذي قدم من تونس مع عميروش ضمن قافلة السلاح ، وفي عقد الثمنينات عينت وزيرة للصحة لفترة قصيرة من الزمن .

السيدة مليكة مفتي : التي ولدت بحي بلكور في الجزائر ودرست بها واشتركت في تأسيس جمعية النساء المسلمات الجزائريات ١٩٤٧ م ، وكانت قبل ذلك عضوة في حزب الشعب الجزائري منذ عام ١٩٤٥ م ، وتعلمت الوطنية من والديها^(١)

السيدة علجية نور الدين : وهي زوجة بن علاف ولدت بالجزائر العاصمة من عائلة قبائلية ، إنضمت بفضل والدها الذي كان عضوا في حزب الشعب ، درست الطب وكانت أول جزائرية تحصلت على شهادة الدكتوراه فيها ، شاركت في تأسيس جمعية النساء المسلمات الجزائريات في جوان ١٩٤٧ م كما شاركت في تأسيس جمعية احباب الطلبة في نفس العام .السيدة فاطمة زكال : زوجة بن عثمان التي ولدت في حي بيلكور وشاركت في تأسيس جمعية النساء المسلمات الجزائريات وعملت على تطوير الحركة الوطنية في الاوساط النسوية باعتبارها عضوة في احدى خلايا حزب الشعب الجزائري

(١) يحي بوعزيز، المرأة الجزائرية ... ، المرجع السابق، ص ٣٨.

منذ ١٩٤٥ وعندما اندلعت الثورة عام ١٩٥٤ م اعتقلتها الشرطة الفرنسية وسجنتها في مدينة نيوز قرب باريس في فرنسا.

السيدة باية لعرب: انضمت الى جمعية النساء المسلمات عام ١٩٥٣م وأصبحت من كبريات المنشطات بها عام ١٩٥٤ م.

السيدة نسيمه جلال: زوجة بن مقدم والتي إنضمت إلى جمعية النساء المسلمات الجزائريات سنة 1950م ، واشتغلت كاتبة بمصحتها ، وعملت على تطوير الحركة الوطنية ضمن النساء الجزائريات، وعندما اندلعت الثورة إشتكرت فيها واعتقلتها الشرطة الفرنسية عام ١٩٥٦م مع الطالب عمارة رشيد، وبقيت في السجن عامين كاملين. السيدة مامية عبدالي: زوجة عبد الرزاق شنتوف وبنت عيسى عبد اللي، تنحدر من عائلة ذات تقاليد عريقة في الوطن، أبوها عضو في حزب حركة الانتصار الحريات الديمقراطية، وقد تأثرت بأفكار حزب الشعب الجزائري عام ١٩٤٣م واشتركت في الخلايا الأولى لحزب البيان والحرية بالجامعة، وفي مظاهر أول ماي ١٩٤٥م في شارع ايزلي بالعاصمة

ميمي بلحول : إشتكرت في المجموعات التي أسسها حزب الشعب لمعالجة جرحى المظاهرات مع طلبة الطب، وذلك ضمن فريق القصبة، وفي عام ١٩٤٦م أنتخبت نائبة رئيس جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا ، وفي عام ١٩٤٧م إشتكرت في تأسيس جمعية النساء المسلمات الجزائريات، وانتخبت رئيسة لها في إجتماعها الأول خلال جويلية ١٩٤٧. عملت مولده ونشطت في حركة التوعية السياسية والاجتماعية ضمن أخوات أخريات لها في أحياء بلكور القصبة والحراش، وبعد الإستقلال أنتخبت أول رئيسة للإتحاد الوطني للنساء الجزائريات^(١).

هذه نماذج لبعض الرائدات في حركة الإصلاح النسوية الجزائرية لأنه من الصعب الإمام بكلهن وهذا لإبراز الدور الذي لعبته المرأة الرائدة الذي كان الداعم الحقيقي في تقديم الإرهافات الأولى لتعبئة المرأة الجزائرية واستقطابها للإنخراط والإسهام في الحركة الوطنية من أجل تحرير الوطن .

عاشت المرأة الجزائرية في بداية الإستعمار حالة من الجهل والحرمان إذ حاول المستعمر طمس هويتها وشخصياتها عن طريق سياسة التجهيل ، لذلك أصبحت لاتفقه شيئا عن القراءة والكتابة ، لكن مع إطلالة القرن العشرين و إنتشار الحركة الوطنية والجمعيات الإصلاحية بدأت المناداة بتعليم المرأة

(١) يحي بوعزيز، المرأة الجزائرية ...، المرجع السابق، ص ٣٩.

وضرورة أن تتال حظها من التعليم ، فبدأت الفتاة الجزائرية تطرق أبواب المدارس والمعاهد، وأصبحت تدرك حقيقة ما يدور في وطنها وبدأ إحساسها بهذا الواقع يترجم إلى أقوال ثم أفعال أسفرت على إنشاء منظمات نسوية وكنتيجة حتمية لتطور الأحداث السياسية على الساحة الوطنية الجزائرية قبيل الثورة تطور الوعي الوطني لدى المرأة الجزائرية التي لم تعد تقبل أن تظل معزولة عن تيار الأحداث ، بل أصرت على المشاركة فيها . وهذا ما خلق لدى المرأة إستعدادا نفسيا للمشاركة في أهم حقبة من تاريخ الجزائر ألا وهي مرحلة الثورة التحريرية التي اندلعت في أول نوفمبر ١٩٥٤ م .

فكانت بذلك مساهمة المرأة الجزائرية من أهم إنجازات الثورة التي تمكنت من إدماجها في صفوفها بعد أن عانت من فترة عزلة أملت عليها القوانين الرجعية التي فرضتها الإدارة الفرنسية، مما جعل المرأة تعيش إلى جانب الرجل تدعم الثورة بالنفس والنفيس، فكانت المجاهدة في ميادين القتال والفدائية في المدينة ، كانت الممرضة التي تسهر على راحة الجرحى والمصابين، وكانت الإدارية والمعلمة والمحافضة السياسية ، تطهو الطعام للمجاهد. فالمرأة الجزائرية شاركت في الثورة بكل ما لديها من جهد بدني ومعنوي وبالكلمة اللفظية تتغنى لتثير حماس المجاهدين والمجاهدات ، لتدفع بذلك الثورة إلى الأمام بصمود وبجرأة مما يزيد الثوار إصرارا وعنادا أكثر وكانت تقدم المثال بشجاعتها وتضحياتها في سبيل الحرية ، فكانت منها المجاهدة والشهيدة، والأسماء عديدة نذكر منها المجاهدة جميلة بوحيرد، وحسيبة بن بوعلي ، وجميلة بوعزة ، وريده مداد ، ومريم بوعتورة ، وباية حسين، ومليكة قايد... هن شهيدات الجزائر اللواتي كافحن من أجل نيل الحرية و نموذج للمرأة الجزائرية التي لم تتوان في تحمل المسؤولية إتجاه الثورة سواء في السهول أو الجبال وفي التلال والصحاري^(١)

كما تعتبر المرأة الجزائرية الركيزة الخلفية للعمل الثوري فقد تحملت مهمات كثيرة ومتنوعة ، فالمرأة الريفية قد تحملت أعباء الثورة التحريرية في الجبال والقرى فإن المرأة الجزائرية في المدن هي الأخرى قامت بواجبها الوطني، وكانت السند القوي للمقاومين والفدائيين داخل المدن ، أين تكثر أجهزة القمع البوليسي، وحيث المراقبة المستمرة على كل ما هو متحرك داخل المدن لذا حلت محل أخيها الفدائي في

(١) لونسى إبراهيم، "تساء جزائريات تحت التعذيب، الجميلات الثلاث نموذجا"، حولية المؤرخ، ٢٠٠٢ م، ص ٢.

العديد من المهام المعقدة و الجد خطيرة^(١). كما شاركت في العديد من العمليات خلال الثورة منها : قال مريدث تورشن Turshen Meredith "أنها شاركت بفاعلية كمقاتلات وجواسيس وفي جمع التبرعات وكذلك كمرضات وكطاهيات ويغسلن الملابس"^(٢)، كما أكدت إحدى المجاهدات أنه جاء في الإحصائيات الموجودة بوزارة المجاهدين أنه تم تسجيل سنة ١٩٥٦ م حوالي ٤٠٠ مجاهدة في الجبال مقابل ٣٠٠ ألف رجل ، فالمرأة تقدمت في مظاهرات ١١ ديسمبر 1960م وواصلت تضحياتها في إضراب عام ١٩٥٦ م لقد جاء ضمن إحدى مقرراته التي أشادت إشادة واضحة بفاعلية المرأة الجزائرية في ثورة نوفمبر المظفرة حيث أقر المجتمعون بذلك الدور بقولهم : "أنا ننحني بإعجاب وتقدير لذلك المثل الباهر الذي تضربه في الشجاعة الثورية فتيات ونساء وزوجات وأمهات الجزائر ، ذلك المثل الذي تضربه جميع أخواتنا المجاهدات اللاتي يشاركن بنشاط كبير وبالسلح أحيانا في الكفاح المقدس في سبيل تحرير الوطن". ولا يخفى أن الجزائريات قد ساهمن مساهمة إيجابية فعالة في الثورات الكثيرة التي توالى وتجددت في الجزائر منذ عام ١٨٣٠ م ضد الإحتلال الفرنسي ، وكانت على طول تلك الفترة متيقنة أن الثورة ستنتهي لا محالة و منه الحصول على الاستقلال^(٣).

كما كان للمرأة الجزائرية خارج الجزائر مظاهر ساهمت فيها من خلال عيشها نفس اجواء الحماس للثورة التحريرية من خارج الوطن، تمثل ذلك في تشجيعها للمرأة داخل الوطن ومساندتها بالكلمة ورفع الشعارات واللافتات ، فشاركت في العديد من عواصم العالم منددة بالإستعمار الفرنسي وجرائمه، فلعبت دورا في مظاهرات ١٧ أكتوبر ١٩٦١م بفرنسا من خلال مشاركتها فيها في الصفوف الأولى حاملات شعارات النصر والإستقلال للجزائر وتنديدا بجرائم فرنسا وذلك أمام مقرات الأمن والشرطة في مختلف مدن فرنسا، فجابت شوارع باريس وهي تلك التي كانت تسكن في الأكواخ القصديرية كانت

Turshen Meredith, *Algerian Women In The Libération Struggle And The Civil War, From a Active Participation To Passive, Victimes*, Social Research Vol : 69, N 3 Fall, 2002, P 889 – 890.

p 890. Ibid,(٢)

(٣) سويلم مختار، دور المرأة الشعانبية في الثورة التحريرية ، نواصر عائشة (الخنساء الاخرى للشعانبية نموذجا) الواحات للبحوث والدراسات ، المجلد ، ع ، ٢٠١٤ م، ص 42٣ .

مرفوعة الرأس متحضرة متحدية رجال موريس بابون فعندما اعتقلت نساء اكتوبر بغتة قمن أمام الصحافة بإخراج الأعلام الجزائرية مرددات الأناشيد الوطنية، كما سجل تأييدها ودعمها في مختلف منابر المنظمات والهيئات الدولية حيث مثلت المرأة الجزائرية في المؤتمر الدولي الرابع للإتحاد النسائي الديمقراطي الذي إنعقد في فيينا ١٩٥٨م. حيث إنطلق صوتها بالقول : "ياإسم المرأة الجزائرية أطلب من المؤتمر أن يراعي في اللائحة الختامية بأن المرأة الجزائرية لا تطلب في الوقت الحالي حقوق العمل او تحسين مستوى العيش، بل إيقاف هذه الحرب"^(١)

وقد برز نشاط المرأة الجزائرية داخل هياكل الإتحاد العام للطلبة الجزائريين الذي يقوم بجمع الإشتراكات واقتناء الأدوية وتوفير المؤونة والألبسة التي كانت توجه للمجاهدين ، كما كانت المنظمة الطلابية وعاءا ثوريا بالنسبة للمرأة الجزائرية ناضلت من خلاله لأجل نصره القضية الجزائرية، معرضة نفسها لكل أنواع، فقد شكلت المناضلة الجزائرية قوة سياسية فعالة ويجابية مثل المناضلة الجزائرية جميلة بوحيرد هي ليست رمزا من رموز النضال الجزائري فحسب بل علامة بارزة في حركة التحرير التي عرفها العالم لكسر شوكة الإستعمار، فالمرأة التي كانت شوكة في حاصرة الإستعمار الفرنسي تعرضت لأشد أنواع التعذيب، ومع وحشية تلك الأيام التي قضتها في السجن، إلا أنها تصفها بأنها من الأيام الخالدة التي تمحي من الذاكرة وقصة المناضلة جميلة بوحيرد واحدة من مليون قصة لشهداء الثورة الجزائرية.

الخاتمة:

نستشف مما سبق ذكره أن شخصية المرأة الجزائرية كانت قوية وشجاعة حيث شقت لنفسها سبيل الكفاح والنضال لتنتعق من قيود الذل والهوان الذي ما فتأ أن ينتهي لولا وقوفها متاضلة ضد السياسات المتعددة لبستعمار الفرنسي، بل وبرهنت أنها عنصرا أساسيا في الثورة التحريرية ما بين ١٩٥٤ و١٩٦٢، بوقوفها إلى جانب الرجل في تحمل المسؤولية تجاه الثورة، وبالتالي كانت سندا قويا للزوج والأخ والابن والأهل الذين حملوا السلاح ضد الاستعمار الفرنسي، وقد ابلت بلاء حسنا بإظهارها أنها النفس الثانية للثورة التحريرية ، إذ استطاعت أن تكون عنصرا فعالا في كسر الحصار الذي حاول

(١) سويلم مختار، المرجع السابق، ص ٩.

المستعمر فرضه لعزل الثورة عن المجاهدين، فكانت مساهمتها قوية في تقديم خدمات جليلة، كانت الثورة بأمس الحاجة إليها، لتكون السند القوي للمجاهدين.

كما تعد فترة الثورة فترة استثنائية في تاريخ المرأة الجزائرية، حيث حققت انثائها حريتها وأثبتت وجودها، حتى أنه يمكن أن نقول أنها أثناء الثورة كانت أكثر تحررا فاقتحمت كل ميادين النشاط الوطني، سواء مجاهدة، أو مناضلة، أو فدائية، أو مسبلة، أو ممرضة، أو معلمة أو مرشدة لتتنوع بذلك مهامها، وهو ما جعل العدو يدرك قيمتها داخل الثورة لأنها برهنت عن خلاص نادرين، وأثبتت أنها جديرة بأداء رسالتها ووعيها العميق وكفاءتها العالية، وعن شجاعتها النضالية، فأحدثت بذلك انقلابا، حيث أصبحت فيه عنصرا فعالا، وهذا ما أعطى الدافع القوي للسير قدما وعدم الرجوع إلى الوراء. فضربت أروع الامثلة في البطولة والفداء والتضحية في سبيل الله والوطن، لأنها وجدت متنفسا من خلال الثورة، حيث أطلقت العنان لقوتها. والتفت حول جبهة التحرير الوطني، مضحية بفلذات كبيدها ونصفها الثاني وكل ممتلكاتها في سبيل تحرير وطنها، ملتحقة بالجبال ومفضلة العيش في الكهوف المظلمة والجبال الوعرة وهذا من أجل قيامها بواجبها في مساعدة المجاهدين على أكمل وجه، كما أن دورها لم يقتصر على عمليات الإيواء والمساعدة، بل تعداه إلى المشاركة الفعلية في المعارك رافعة السلاح والمشاركة في المظاهرات والإضرابات، وهذا ما جعل أدوارها تتحول من الأدوار الثانوية إلى الأدوار الأساسية التي كان المجاهدون في أمس الحاجة إليها رغم كل الصعاب التي واجهتها كونها امرأة.

فعموما مشاركة المرأة الجزائرية في النضال كان جد فعال ولم تكتف فيه بمهامها بل كانت الصخرة التي استندت إليها حرية وتحرير الجزائر، والشحنة التي لا تتوقف في الدفع بزوجها وابنها وأخيها الى ميدان القتال حرصا على نيل الشهادة أو أنها دفعت الثمن بأنها تتيمة أو ترملت وعذبت وسجنت واستشهدت، ولم تقبل إلى ان أثمرت جهودها وجهود أبنائها الوطن بالاستقلال من أغلال الاستعمار الفرنسي في جويلية ١٩٦٢.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

(١)- جريدة الشهاب ج ١، م ٥، نوفمبر ١٩٦٩.

- (٢)- مجلة البصائر، العدد ٢٠ ، الاثنين ٧ ربيع الأول ١٣٦٧ هـ / الموافق ل ١٩ جانفي ١٩٤٨ م.
المراجع:
- (١)- ابو جرة، جذور الصراع في الجزائر، الوطنية للطباعة والنشر، مطبعة عيسات إيدير، ١٩٩٥ .
- (٢)-ابو زيد حكمت، إمكانيات المرأة العربية في العمل السياسي ،عن مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، لبنان، ١٩٨٢ م.
- (٢)-بركات أنيسة، نضال المرأة الجزائرية خلال الثورة الجزائرية ، [د ر ط] ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985 م .
- (٤)-بركات أنيسة، محاضرات ودراسات تاريخية وأدبية حول الجزائر، [د . ر . ط]، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، ١٩٩٥ .
- (٥)- بوعزيز يحيى، المرأة الجزائرية وحركة الاصلاح النسوية العربية، (د . ط)، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، ٢٠١١ .
- (٦). بوعزيز يحيى ، ثورات الجزائر في القرن ١٩ م و ٢٠ منشورات المتحف الوطني للمجاهدين ، د ط ، الجزائر .
- (٧)- بوعزيز يحيى، المرأة الجزائرية وحركة إصلاح النسوية العربية ، [د . ر . ط] ، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع ، عين مليلة، الجزائر ، [د . س . ط] .
- (٨)-بومالي أحسن ، أدوات التجنيد والتعبئة الجماهيرية أثناء ثورة التحريرية ٥٤ - ٥٦، [د . ر . ط] ، دار العرفة ، [د . م . ط] ، ٢٠١٠ .
- (٩)-جعفر نواره سعدية ، الوفاء ، سلسلة حوارات ولقاءات مع مجموعة من مجاهدات ثورة نوفمبر ١٩٥٤ م الخالدة ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ٢٠١٢ م .
- (١٠)-الجمبلاطي علي، جميلة بوحييد، [د ر ط] ، دار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، [د س ط] .
- (١١)-الزبيري محمد العربي، تاريخ الجزائر المعاصر، ج ١، [د ر ط]، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ١٩٩٠ .
- (١٢)-الزبيري محمد العربي، الثورة الجزائرية في عامها الأول، ط١، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر .
- (١)-سعد الله ابوقاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، ج ، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٩٢ .
- (١٣)-السعيد عثمان، الثورة الجزائرية في الشعر السوري، ج ١ [د . ر . ط] ، منشورات وزارة المجاهدين، [د ط] .
- (١٤)-سيدي موسى محمد شريف، مقاومة لالة فاطمة نسومر للاستعمار الفرنسي ، دراسات وبحوث الملتقى الأول حول كفاح المرأة ، د ط ، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤ .
- (١٥)-عباس محمد شريف وآخرون ، كفاح المرأة الجزائرية، ط٢ ، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ٩٥٤ ، دار هومة، الجزائر، الجزائر، ٠٠٧ .

- (١)-العسلي بسام ، المجاهدة الجزائرية و الإرهاب الاستعماري ، ط . خ ، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع ،
النيابيع، الجزائر، ٢٠١٠.
- (١٦)-عفرون محرز، مذكرات من وراء القبور، ترجمة الحاج مسعود ، [د. ر . ط] ، ج ٣ ، دار هومة للطباعة
والنشر والتوزيع ، [د . م . ط .] ، ٢٠١٣.
- (١٧)-القورصو مليكة ، وسعودي يسمينة وبن ناجي جارية، الجزائريات أثناء حرب التحرير الوطنية مواقف ومسارات
١٩٥٤-١٩٦٢، سلسلة المشاريع الوطنية للبحث، الامال للطباعة والنشر والتوزيع،نوفمبر ٢٠١٦.
- (١٨)- قنطاري محمد، من بطولات المرأة الجزائرية في الثورة وجرائم الاستعمار الفرنسي، [د. ر . ط]، دار الغرب،
وهران، الجزائر، ٢٠٠٩.
- (١٩)- كفاح المرأة الجزائرية ، دراسات وبحوث الملتقى الوطني الاول حول كفاح المرأة الجزائرية ، ط ، منشورات
المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة اول نوفمبر ١٩٥٤ مطبعة هومة، الجزائر، ٢٠٠٧.
- (٢٠)- كواتي مسعود، المرأة الجزائرية والاستعمار الفرنسي خلال القرن ١٩ ، دراسات وبحوث الملتقى الوطني الأول
حول كفاح المرأة ، د . ط ، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٤٥ .
- (٢١)- لوكتوتا أندري، جزائر الخمسينات شهادة قس اثر عبد القادر بوزيدة، [د.ر.ط]، لزهري، لبتن للنشر، الجزائر،
٢٠٠٨.

المجلات:

- (١)-يمينة بشي،"مآثر المرأة الجزائرية خلال قرن من الاحتلال" ، مجلة المصادر، العدد ٣ ، إصدار المركز الوطني
للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ٩٥٤ ، دار الحكمة للطباعة، الجزائر، ٢٠٠٠.
- (٢)-بشي يمينة، "صور وعبر في شعر نوفمبر لجهاد المرأة الجزائرية المستعمرة" ، مجلة المصادر، العدد ٥، منشورات
٤ المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤ ، الجزائر، ٢٠٠١ .
- (٣)- سويلم مختار، دور المرأة الشعانبية في الثورة التحريرية ، نواصر عائشة (الخنساء الاخرى للشعانبية نموذجاً)
الواحات للبحوث والدراسات، المجلد ٧ ، ع ٢ ، ٢٠١٤ م .
- (٤)- لونسى إبراهيم، "نساء جزائريات تحت التعذيب، الجميلات الثلاث نموذجاً"، حولية المؤرخ، ٢٠٠٢ م.
- (٥)- مديوش احمد، "مكانة المرأة في التراث الجزائري"، دراسات وأبحاث الملتقى الأول حول كفاح المرأة، د ط ،المركز
الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤ م .

الرسائل الجامعية:

- (١)-بادي سامية ، المرأة والمشاركة السياسية للتصويت والعمل الحزبي ، العمل النيابي ، مذكرة ماجستير في علم
الاجتماع، اشراف سفاري ميلود، جامعة قسنطينة، ٢٠٠٥ م.
- (٢)- بن علي زهير، قضايا المرأة ضمن اهتمامات الحركة الاصلاحية الجزائرية ١٩٢٥ / ١٩٥٤ م، اشراف سليمان
قريبي، مذكرة ماجستير تخصص تاريخ الحديث والمعاصر ، جامعة باتنة ، ٢٠١٥ م .

- (٣)- سعد حورية، الوضعية الاجتماعية والسياسية للمجاهدات بعد الاستقلال ، رسالة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع، اشراف بن يوسف التلمساني، ١٩٩٤ - ١٩٩٥ .
- (٤) - قريشي محمد ، الأوضاع الاجتماعية للشعب الجزائري منذ نهاية الحرب العالمية الثانية إلى اندلاع الثورة التحريرية 1954 / 1945 ، إشراف الدكتور بن سلطان عمار، مذكرة ماجستير تخصص تاريخ معاصر، جامعة الجزائر ٢٠٠١ / ٢٠٠٢ .
- (٥)-الميلي محمد، فرانس فانون والثورة الجزائرية وحركة الاصلاح [د ر ط]، إصدار وزارة الثقافة، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، ٢٠٠٧ .
- (٦)- نصيب نعيمة ، المشاركة السياسية للمرأة الجزائرية ، رسالة دكتوراه ، اش: ا.د. نادية سعيد عيشور، تخصص في عام الاجتماع ، كلية الآداب قسم علم الاجتماع ، جامعة عين الشمس ، ٢٠٠٢ م .

المراجع باللغات الاجنبية:

- Meredith Turshen, Agerian Women In The Libération Struggle And The Civil War, (١)-
From a Active Participation To Passive, Victimes, Social Research Vol : 69, N 3 Fall,
.2002
- (٢) - .Bedonne, Libraire De La Cour D'appel Et De L'ordre Des Avocats, Paris, 1935

الطواف بالبيت من خلال كتب الرحلات
(دراسة تاريخية مقارنة)

Roaming around the sacred house through travel books
(A Comparative historical study)

د. مهند نايف مصطفى الدعجة أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك في قسم الدراسات الاجتماعية
بكلية الآداب / جامعة الملك فيصل بالأحساء / المملكة العربية السعودية

DR. Mohanad nayef m aldajah

Associate Professor of Islamic History – King Faisal University

– al-Ahsa– Saudi Arabia

mohanadm1@yahoo.com

ملخص

تأتي أهمية دراسة موضوع الطواف بالكعبة المشرفة من تلك المشاهدات والظواهر التي دونتها كتب الرحلات باعتبارها شاهد عيان لما تم من أحداث أثناء زيارتهم واقامتهم حاجين او معتمرين او زائرين ، حيث لاحظوا بمشاهدتهم اليومية مظاهر عكست جمالية الروح الدينية وشرائعها في التطبيق والممارسة العملية ، فبرزوا تلك الظواهر في تأنق غاية في الدقة والوضوح ، كالمواكب والاحتفالات والفرح والسرور في الأشهر الحرم ، ويقابل ذلك مشاهداتهم لبعض السلوكيات الناجمة عن الجهل او التقليد الأعمى في بعض الأحيان كسلوكيات بعض القرامطة والطواف عريا ،ومن ابز هؤلاء الرحالة (ابن جبیر ، وابن بطوطة ، وناصر خسرو)، وقد استخدمت المنهج البحثي المقارن في سرد الروايات التاريخية لإثبات وتدقيق وتمحيص صحة تلك المشاهدات للرحالة من جهة ولمقارنتها مع المصادر التاريخية من جهة أخرى أملا في الوصول الى السرد الموضوعي لتفاصيل البحث.

الكلمات المفتاحية (الطواف بالبيت، الرحالة والطواف، الطواف بالحج والعمرة)

Abstract

The importance of studying the topic of the circumambulation around the Holy Kaaba stems from those observations and phenomena recorded by the travelers accounts as an

eyewitness of what happened during their visit and residence in Mecca, as pilgrims or visitors.

They have noticed on their daily observing the aspects that reflected the aesthetic of the religious spirit in application and practice.

Furthermore, they illuminated these phenomena in a very elegant and clear elegance, such as processions, celebrations, joy and happiness during the sacred months.

While, on the other hand, this contrasts with their other observations of some behaviors resulting from ignorance or blind imitation in some cases, such as the behaviors of some Qarmatians and the naked circumambulation.

In this paper, I have used the comparative research method in narrating historical narratives to prove, check and scrutinize the validity of those observations of the travelers on the one hand; comparing them with other contemporary historical sources on the other hand. Eventually, aiming to clarify and prove the validity of these narratives and comparing them with contemporary sources to achieve an objective view on the topic.

Key Words (Tawaf of the House, Tawaf, Circumambulation for Hajj and Umrah).

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبعد: فهذه دراسة عن الطواف بالبيت العتيق شرفه الله وأعظمه من خلال كتب الرحلات (دراسة تاريخية مقارنة)، حيث تأتي أهمية هذه الدراسة من كونها تمثل شهادة عيان للأحداث التاريخية والمشاهدات التطبيقية لأحوال المسلمين وتصرفاتهم في أحد أركان الحج المهمة وهي الطواف مع ما رافقها من أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية مصاحبة كانت محط أنظار الرحالة في وصفهم أمثال (خسروا، ابن بطوطة، ابن جبير)، ومن هنا جاءت أهمية البحث في تلك القيسات العينية المباشرة والتي دونت بصورة سطحية، عبرت من خلالها عن كثير من الأحداث التي قل العنور عليها في مضان المصادر التاريخية المعاصرة لتلك الفترات.

وفي فرضيات الدراسة جاء هذا البحث في محاولة الإجابة عن عدد من التساؤلات منها: كيف وصف الرحالة في رحلاتهم هيئة الطواف بالبيت وماهي صفته؟ وهل اختلفت عما كانت عليه في فترة

ما قبل الإسلام وبعده؟ وهل هناك أحداث متزامنة مع الطواف؟ وماهي صفات مواكب الطواف؟ وماهي النوادر التي شاهدها الرحالة في ذلك؟

وقد تم الاعتماد على منهج البحث العلمي في جلب المادة العلمية من كتب الرحلات ومقارنتها مع نظرائها من المصادر المعاصرة وسد بعض الثغرات مما لم يرد لدى الرحالة او اظهار ما انفردت به كتب الرحلات عن المصادر الأخرى، ودراسة ذلك بصورة مقارنة مع المصادر التاريخية والجغرافية والأدبية والدينية وكتب اللغة والادب والشعر. وقد تم جمع المادة العلمية مما وجدت من كتب الرحلات التي زار أصحابها مكة المكرمة وكتبوا عنها في دراسة تاريخية مقارنة، حيث صادفت مشاهداتهم تطابقاً في بعض المصادر التاريخية حيناً او تبايناً في حين آخر - كما سيظهر في ثنايا البحث- وكذلك تم سد بعض الثغرات التي لم يلق لها الرحالة العناية الكافية من خلال العودة لأهمات الكتب في ذلك.

وقد تم تقسيم البحث لعدد من المباحث تناولت الحديث عن مفهوم الطواف لغة واصطلاحاً، وشرعية الطواف وكيفية أداءه، ودراسة بعض الظواهر التي شاهدها الرحالة في ذلك، كالطواف عري او سباحة وصفة الطواف في الأشهر الحرم وصفة موكب الامراء أثناء الطواف، وما عبرت عنه كتب الرحلات من وصف لبعض الظواهر الاجتماعي التي تميزت بالندرة والدقة، وكذلك الحديث عن جوانب مهمة ومشرفة من خلال عرض مواقف بعض الطائفتين من الرجال والنساء مع الخلفاء او الولاة او الشعراء، وأيضاً مما تم من عقد بعض المعاهدات السرية أثناء الطواف وبعده وكذلك تمت الإشارة الى بعض الصعوبات التي واجهت الطائفتين بالبيت سواء كانت بدنية او شخصية او جراء الفيضانات والسيول. ثم تم إضافة خاتمة أظهرت أبرز النتائج التي توصل اليها البحث وقائمة بالمصادر والمراجع التي تم اعتماده في ثنايا البحث.

١- الطواف لغة واصطلاحاً:

لم تعن كتب الرحلات بالتعريف بالطواف لغة واصطلاحاً، باعتبار أنها ظاهرة دينية وركن عظيم متداول ومعروف في التطبيق والأداء، ولسد فجوة ذلك النقص سيتم التعريف بمفهوم الطواف.

١-١ مفهوم الطواف في اللغة:

وردت كلمة طواف بألفاظ حملت معان متعددة منها: مصدر طاف/ طاف ب/ طاف على/ طاف وهو السعي سبعة أشواط حول الكعبة، وهو من مناسك الحج. وقولهم طاف بالبيت والأركان أي

الدوران حول الكعبة، وسُنَّة الطواف: يطلق هذا الاسم على ركعتين يصلحها الحاج عند مقام إبراهيم بعد طوافه سبع مرات حول الكعبة.^١

وتأتي بمعنى طَافَ بِالْبَيْتِ وَأَطَافَ عَلَيْهِ: لَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: (وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ)^٢.
والمَطَافُ: موضعُ المَطَافِ حَوْلَ الكَعْبَةِ، وَطَافَ فِي البِلَادِ طَوْفًا وَتَطَوَّفًا وَطَوَّفَ: سَارَ فِيهَا. وَالطَّائِفُ: العَاسُ بِاللَّيْلِ. وَالطَّائِفُ: العَسَسُ. وَالطَّوَّافُونَ: الخَدَمُ وَالمَمَالِكُ، وَالطَّائِفُ هُوَ الخَادِمُ الَّذِي يَخْدُمُكَ بِرُقُقٍ وَعِنَايَةٍ، وَجَمْعُهُ الطَّوَّافُونَ.^٣

وبذلك فالطواف كلمة عامة تستخدم للطواف في البيت الحرام او الطواف في مكان آخر، ولذا تم استخدامها في مكنون البحث بما يخدم الطواف بالبيت فقط.

١-٢ الطواف في الاصطلاح: يطلق على المنطقة المحيطة ببيت الله الحرام (مطاف)^٤، فقيل وجه آدم الى بكة فحين استوحش، شكى ذلك الى الله عزوجل في دعائه. فلما انتهى الى بكة أنزل الله ياقوته من ياقوت الجنة. فكانت على موضع البيت. فلم يزل يطوف به حتى أنزل الله الطوفان، وقيل أن الله تبارك

^١ دُوَزِي، (المتوفى: ١٣٠٠هـ)، تكملة المعاجم العربية، ترجمة محمد سليم النعمي، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ط١، ٩١/٧.

^٢ سورة الحج/٢٩.

^٣ السبتي، عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن اليحصبي، أبو الفضل (المتوفى: ٥٤٤هـ)، مشارق الأنوار على صحاح الآثار، المكتبة العتيقة ودار التراث، ٢/٢٩٩. ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المخصص، تحقيق خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م، ٤/٦٠. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر - بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، ٩/٢٢٥-٢٢٧. الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (المتوفى: ٨١٧هـ)، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط٨، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، ١/٨٣٣.

^٤ مهر، غلام رسول، يوميات رحلة في الحجاز ١٣٤٨هـ، ١٩٣٠م، ترجمة سمير عبد الحميد إبراهيم، طبع على نفقة الملك سلمان بن عبد العزيز آل سعود، دار الملك عبد العزيز، ١٤١٧هـ، ص ٧٥.

وتعالى بعث ملائكته، فقال ابنوا لي بناء في الأرض تمثل البيت وقدره. وأمر الله من في الأرض من خلقه أن يطوفوا به، كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور.^١

٢- أداء الطواف:

استهلت بعض كتب الرحلات الحديث عن كيفية أداء الطواف من خلال مشاهداتهم العينية بأنه إذا وصل المرء إلى مكة دخل المسجد الحرام وتوجه إلى الكعبة، فعليه أن يترك الكعبة عن يساره ويستلم الحجر الأسود حيث يبدأ الطواف ويكرر الطواف سبع مرات ، يرمل في ثلاثة أشواط ويسير الهويما في الأشواط الأربعة الباقية، وإذا انتهى الإنسان من نسك الطواف بالبيت توجه إلى مقام إبراهيم عليه السلام والمقام باتجاه الكعبة ويقف خلف المقام ويصلي ركعتي الطواف...^٢ وجاء ذكر ذلك بعد طواف طواف خسروا في الكعبة حيث أورد: طفت بالكعبة طواف الوداع وغادرت مكة يوم الجمعة التاسع عشر من شهر ذي الحجة سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة^٣، وقد تحدث ابن جبير عن الطواف بالكعبة المشرفة كركن من أركان الحج و العمرة عند وصوله من رحلته الأولى قائلاً: فطفنا طواف القدوم ، ثم صلينا بالمقام الكريم ، وتعلقنا بأستار الكعبة عند الملتمزم ، وهو بين الحجر الاسود والباب ، وهو موضع استجابة الدعوة .^٤

وقد تطابقت مشاهدات خسروا وابن جبير في صفة أداء الطواف في زمن الرسول محمد صلى الله عليه حيث «قدم رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وأصحابه مكة، وقد وهنتهم حمى يثرب، فقال المشركون: إنه يقدم غدا قوم قد وهنتهم الحمى، ولقوا فيها شدة، فجلسوا على قعيقعان^٥ مما يلي الحجر، فأطلع

^١ العمري، ابن فضل الله، مسالك الابصار في ممالك الامصار، تحقيق احمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، القاهرة ، ١٣٤٢هـ، ١٩٢٤م، ج ١ ، ص ٩٣-٩٤.

^٢ خسرو، ناصر ابي معين الدين ناصر خسرو القبادياني المروزي، (ت ٤٨١هـ) سفرنامه، ترجمة وتقديم احمد خالد البديلي، جامعة الملك سعود، الرياض، ص ١٣٨.

^٣ خسروا، سفرنامه، ص ١٦١.

^٤ ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، ص ٥٨. ويسمى ذلك الموضع الملتمزم: لان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغ من طوافه التزمه ودعا فيه. العمري، مسالك الابصار، ج ١ ص ١٠٣.

^٥ قُعَيْقَعَانُ:بالضم ثم الفتح، بلفظ تصغير: وهو اسم جبل بمكة، قيل: إنما سمي بذلك لأن قطوراء وجرهم لما تحاربوا قعقت الأسلحة فيه، وقيل: سمى الجبل الذي بمكة قعيقعان لأن جرهم كانت تجعل فيه قسيها وجعابها ودرقها فكانت

الله- تعالى- نبيه على ما قالوا، فلما دخل رسول الله- صلى الله عليه وسلم- المسجد اضطجع بردائه وأخرج عضده الأيمن، ثم قال: «رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوّة». وأمرهم أن يرملوا ثلاثة أشواط، ويمشوا بين الركنين، ليرى المشركون جلداهم، ثم استلم الركن، وخرج يهرول وأصحابه معه، حتى إذا واره البيت منهم، واستلم الركن اليماني مشى حتى استلم الركن الأسود ثم هروا كذلك ثلاثة أشواط ومشى سائرهما، وقيل - إن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- دخل عام القضية مكّة، فطاف على ناقته، واستلم الركن بمحجنه.^١

وروى من حديث ابن عباس: أنه- صلى الله عليه وسلم- قدم مكة وهو يشتكي، فطاف على راحلته، وقيل طاف راكبا ليراه الناس ويسألوه. وقد قيل: إن ناقته- صلى الله عليه وسلم- كانت منوقة، أي مدربة معلمة، فيأمن معها ما يحذر من التلويث.^٢ وما تعرف به الراحلة التي طاف عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم عدة رواحل منها الناقة الصهباء^٣

تقعق فيه، ومن قعيقعان إلى مكة اثنا عشر ميلا على طريق الحوف إلى اليمن. الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (المتوفى: ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ٢، ١٩٩٥ م، ٤/٣٧٩.

^١ الشامي، محمد بن يوسف الصالحي (المتوفى: ٩٤٢هـ)، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود و علي محمد معوض، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م، ٥/١٩٢. المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين (المتوفى: ٨٤٥هـ)، إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تحقيق محمد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، ٧/٢٣٩. الشامي، محمد بن يوسف الصالحي (المتوفى: ٩٤٢هـ)، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود و علي محمد معوض، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م، ٨/٤٦٢.

^٢ القسطلاني، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين (المتوفى: ٩٢٣هـ)، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، المكتبة التوفيقية، القاهرة- مصر، ٣/٤٧٨.

^٣ ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، دار الفكر، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م، ٥/١٦٤.

وقيل العطاء، والقصواء، والجدعاء، وإن كان قيل في الجميع إنهن واحدة.^١ وفي سياق الطواف راكبا قيل ان عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ^٢ كان يَطُوفُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ عَلَى حِمَارٍ.^٣ وذلك لأنه كان مقعدا.^٤ وللطواف فضائل كبيرة فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: طوافان لا يوافقهما عبد مسلم إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.^٥

٣- صفة موضع الطواف وعمارته:

يصف ابن جبير المسجد الحرام ومكان الطواف وصفاً معمارياً غاية في الدقة: بدء من استلام الحجر الأسود، جاعلا البيت على يساره، متجها صوب الركن العراقي، شمالا، ثم الركن الشامي، وهو

^١ ابن كثير، البداية والنهاية، ١٥٨/٥. الفاسي، محمد بن أحمد بن علي، تقي الدين، أبو الطيب المكي الحسني (المتوفى: ٨٣٢هـ)، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ١٧٦/٢. دمشقي، عبد الرحمن بن حسن حَبَّكَّة الميواني (المتوفى: ١٤٢٥هـ)، البلاغة العربية، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط١، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م، ٥٢٦/١.

^٢ عمرو بن دينار. مولى آل باذان، مولى بني مخزوم، يكنى أبا محمد. مات سنة ست وعشرين ومائة. خليفة بن خياط، أبو عمرو خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفري البصري (المتوفى: ٢٤٠هـ)، طبقات خليفة بن خياط، رواية: أبي عمران موسى بن زكريا بن يحيى التستري (ت ق ٣ هـ)، محمد بن أحمد بن محمد الأزدي (ت ق ٣ هـ)، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م، ٤٩٤/١.

^٣ أبو زرعة، عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان النصرى المشهور بأبي زرعة الدمشقي الملقب بشيخ الشباب (المتوفى: ٢٨١هـ)، تاريخ أبي زرعة الدمشقي، رواية: أبي الميمون بن راشد، دراسة وتحقيق: شكر الله نعمة الله القوجاني (أصل الكتاب رسالة ماجستير بكلية الآداب - بغداد)، مجمع اللغة العربية - دمشق، ٤٦٨/١.

^٤ ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي (المتوفى: ٢٣٠هـ)، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م، ٢٩/٦.

^٥ الخركوشي، عبد الملك بن محمد بن إبراهيم النيسابوري، أبو سعد (المتوفى: ٤٠٧هـ)، شرف المصطفى، دار البشائر الإسلامية - مكة، ط١، ١٤٢٤ هـ، ٢٦٩/٢. الحلبي، علي بن إبراهيم بن أحمد، أبو الفرج، نور الدين ابن برهان الدين (المتوفى: ١٠٤٤هـ)، السيرة الحلبية - إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، دار الكتب العلمية - بيروت، ط٢، ١٤٢٧هـ، ٣٧٨/٣.

ناظر غرباً ثم الركن اليماني وهو ناظر جنوباً، ثم يعود إلى الركن الأسود وهو ناظر إلى الشرق، وبذلك يتم الشوط الأول من الطواف.^١ وقد الرحالة مسافة الطواف ب ١٠٧ أذرع^٢.

ويسهب في الحديث عن جمالية الفن المعماري لموضع الطواف المفروش بحجارة مبسوطة كأنه الرخام حسناً المتلاصق، بالألوان منها ابيض واسود. وسائر الحرم مع البلاطات كلها مفروش برمل ابيض.^٣ وقد حدد ابن جبير طواف النساء في آخر الحجارة المفروشة.^٤

وفي أعلى بلاطات الحرم سطح يطيف بها كلها من الجوانب الأربعة، وهو مشرف كله بشرفات مبسوطة مركنة، في كل جانب من الشرفة ثلاثة أركان كأنها أيضاً شرفات أخر صغار، والركن الأسفل منها متصل بالركن الذي يليه من الشرفة الأخرى. وتحت كل صلة منها ثقب مستدير في دور الشبر منفوذ يخترقه الهواء يضرب فيه شعاع الشمس أو القمر فيلوح كأنها أقمار مستديرة، يتصل ذلك بالجوانب الأربعة كلها، كأن الشرفات المذكورة كلها بنيت شقة واحدة ثم أحدثت فيها التقاطيع والتراكين فجاءت عجيبة المنظر والشكل.^٥ والذي يعكس جمالية الهندسة في التصميم والانتقان.

وقد أحاط بالطواف أميال من الصفر وخشبات فيها قناديل معلقة ويجعل فوقها الشمع.^٦ وهذا ما اكده عدد من الرحالة حيث يطيف بالحرم وبدائر البيت العتيق، مشاعيل توقد في صحاف حديد فوق خشب مركزه فيتقد الحرم الشريف كله نوراً، ويوضع الشمع بين أيدي الأئمة في محاربيهم.^١

^١ ابن جبير، الرحلة، ص ٥٩-٦٠. ابن حوقل، ابي القاسم بن حوقل النصيبي، كتاب صورة الارض، دار الكتاب الاسلامي، القاهرة، ص ٣٦. الكرخي، ابن اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الاضطخري (ت ٣٢١هـ/٩٣٣م)، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبدالعال الحيني، مراجعة محمد شفيق غربال، دار القلم، ١٣٨١هـ/١٩٦١م، ص ٢١-٢٢.

^٢ الذراع؛ ما بين طرف المزق إلى طرف الإصبع الأوسط. ابن منظور لسان العرب، ٩٣/٨. ابن خردادبة، ابي القاسم عبيدالله بن عبدالله، المسالك والممالك، وضع مقدمته وحواشيه وفهارسه محمد مخزوم، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ص ١١٦. المقدسي، شمس الدين ابي عبدالله محمد بن احمد بن ابي بكر (ت ٣٨٠هـ) أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، علق عليه ووضع حواشيه محمد امين الضناوي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٨٣.

^٣ ابن جبير، الرحلة، ص ٦٣. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٨٤.

^٤ ابن جبير، الرحلة، ص ٦٣.

^٥ ابن جبير، الرحلة، ص ٧٦.

^٦ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٨٤.

وهذا الوصف المعماري مرده لما وجد في الكعبة من قبل كشاذروان الكعبة: وهي الأحجار اللاصقة بالكعبة التي عليها البناء المسنم المرخم في جوانبها الثلاثة: الشرقي، والغربي، واليماني. وبعض حجارة الجانب الشرقي لا بناء عليه، وهو شاذروان أيضا. وأما الحجارة اللاصقة بجدار الكعبة الذي يلي الحجر فليست شاذروانا، والشاذروان هو ما نقصته قريش من عرض جدار أساس الكعبة حين ظهر على الأرض كما هو عادة الناس في الأبنية، والبعض يعارض القول بأن الشاذروان من البيت، يكون ابن الزبير - رضي الله عنهما - بنى البيت على أساس إبراهيم عليه السلام، وهذا المعارض لا يخلو من حالتين أحدهما: أن يدعي أن ابن الزبير، رضي الله عنهما استوفى البناء على جميع أساس جدران البيت بعد ارتفاعها عن الأرض، والآخر: أن يدعي أن البناء إذا نقص من عرض أساسه بعد ارتفاعه عن الأرض لا يكون مبنيا على أساسه، والأول لا يقوم عليه دليل، لأن ما ذكر من صفة بناء ابن الزبير رضي الله عنهما البيت لا يقتضي أن يكون بناء البيت مستوفيا على جميع أساس جدرانه بعد ارتفاعها عن الأرض، ولا ناقصا عن أساسها، ووقوع هذا في بيانه أقرب من الأول، لأن العادة جرت بتقصير عرض أساس الجدار بعد ارتفاعه لما في ذلك من مصلحة البناء، وإذا كان هذا مصلحة فلا مانع من فعله، في البيت لما بني في زمن ابن الزبير رضي الله عنهما.^٢

وقد بلغ من تعظيم العرب قبل الإسلام لمكة أنهم كانوا يحجون البيت ويعتَمرون ويطوفون فإذا أرادوا الانصراف أخذ الرجل منهم حجراً من حجارة الحرم فنحته على صورة أصنام البيت فيحفي به في طريقه ويجعله قبلة ويطوفون حوله....^٣

٤- صفة طواف العري في مكة:

مارس بعض العرب في فترة ما قبل الإسلام بعض العادات الغريبة أثناء الطواف كالعري في الطواف فبعضهم كان يخلو ثياب الحل ويستبدلونها بثياب الحرم إما شرياً وإما عرياً وإما هبة، فإن وجدوا ذلك

^١ ابن جبير، الرحلة، ص ٨٠. ابن بطوطة، الرحلة، ٥٧.

^٢ الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ١/١٥٥.

^٣ الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٢١٤.

وإلا طافوا بالبيت عرياً، وفرضوا على نساء العرب مثل ذلك إلا أن المرأة كانت تطوف في درع مفرج المقادير والمآخير.^١

وقد وردت تلك الأحداث بصورة مفصلة في عدد من المصادر والمراجع فالإخباريون يذكرون أن الطائفتين بالبيت كانوا على صنفين: صنف يطوف في ثيابه وصنف يطوف عرياً. ويعرف من يطوف بالبيت عرياً بـ"الحلة". أما الذين يطوف بثيابهم، فيعرفون بـ"الحمس". وأضاف بعض أهل الأخبار إلى هذين الصنفين، صنفاً ثالثاً قالوا له: "الطلس". ويذكرون أن "الحلة" ما عدا الحمس وأنهم كانوا يطوفون عراة إن لم يجدوا ثياب أحمس.^٢

وتخضع النساء لهذه القاعدة أيضاً إذا كن من الحلة، فكانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة. وقيل تضع إحداهن ثيابها كلها إلا درعاً مفرجاً عليها ثم تطوف فيه. وقيل بل كانت تضع إحدى يديها على قبلها واليد الأخرى على دبرها وتطوف حول البيت على هذا النحو. وهم يروون في ذلك بيتاً ينسبونه لامرأة جميلة، قيل هي: ضباعة بنت عامر بن صعصعة^٣ حيث طافت بالبيت عريانة وهي تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله

وشاءت بعض الروايات أن تخفف من وقع طواف النساء على هذه الصورة في النفوس، فنكرت أن بعض النساء كانت تتخذ سيوراً فتعلقها في حقوتها تستتر بها، وذكرت روايات أخرى أنهن كن يظفن ليلاً، وبذلك يتخلصن من وقوع سترهن في أعين الرجال؛ لأن طواف الرجال في النهار.^٤

^١ الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٢١٤. برو، توفيق، تاريخ العرب القديم، دار الفكر، ط٢، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، ٣٠٠/١.

^٢ علي، جواد (المتوفى: ١٤٠٨هـ)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقية، ط٤، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، ٣٦٠/١١.

^٣ ضباعة بنت عامر بن قرط بن سلمة بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة تزوجها عبد الله بن جدعان النيمي وكان لا يولد له فسألته الطلاق فطلقها فتزوجها هشام بن المغيرة فولدت له سلمة فكان من خيار المسلمين وكانت من أجمل نساء العرب وأعظمه خلقاً. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: ٥٧١هـ)، تاريخ دمشق، المحقق: عمرو بن غرامة العمري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، ٢٤٤/٣.

^٤ علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٣٦٠/١١.

وورد أنهم "كانوا يطوفون بالبيت عراة، وهم مشبكون بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون". ويذكر بعض أهل الأخبار أن طواف الطائف عرياناً إنما يكون للمرة الأولى، فإذا عاد فطاف بعد ذلك، لبس ملابسه، وطاف بملابسه كالحمس لا يلقها خارج حدود الحرم.^١

والتفسير الذي ذكره الإخباريون لطواف العري، هو رغبة الطائف حول البيت أن يكون نقياً متحرراً عن ذنوبه وآثامه بعيداً عن الأدران. واعتقاده أن طوافه بملابسه طواف غير صحيح؛ لأن ملابسه شاركته في آثامه، فهي ملوثة نجسة، ولذلك هاب من لبسها، فإذا أتم طوافه تركها في موضعها، ولبس ملابس أخرى جديدة. ويذكر الإخباريون أن تلك الملابس التي يلقها المحرم تبقى في مكانها، لا يمسه أحد، ولا يحركها حتى تبلى من وطء الأقدام ومن الشمس والرياح. ويقال لهذه الثياب التي تطرح بعد الطواف "اللقى". ولعل اعتقاد القوم بأن تلك الملابس ملوثة بالأدران، هو الذي منع الناس الآخرين من لمس تلك الملابس والاستفادة منها، فتركوها لذلك للأرض وللشمس والرياح تعبت بها إلى أن تتمزق وتتهرى.^٢ ولكننا نجد الإخباريين يعودون فيروون روايات تناقض ما ذكره عن "اللقى". إذ يقولون: كان الحلة إذا ختموا طوافهم وأتموه بنائلة، خرجوا إلى ثيابهم التي ألقوها خارج باب المسجد، فلبسوها، فإذا أرادوا الطواف مرة أخرى طافوا بملابسهم. فهم يقرون في هذه الرواية طواف العري، ولكنهم ينكرون ترك "اللقى" على الأرض لتدوس عليها الأقدام وتلعب بها الرياح وتعبت بها الأهوية والأثرية، ويجعلون أصحابها يعودون إليها فيلبسونها تارة أخرى.^٣

ونقرأ في كتبهم رواية أخرى تذكر أن أحداً من الحلة إذا لم يجد ثياب أحمسي يطوف فيها ومعه فضل ثياب يلبسها، غير ثيابه التي عليه فطاف في ثيابه ثم جعلها لقي يطرحها بين إساف ونائلة فلا يمسه أحد ولا ينتفع بها منتفع حتى تبلى من وطء الأقدام والشمس والرياح والأمطار. وقد ذكر أن "الحلة" كانوا إذا دخلوا مكة "تصدقوا بكل حذاء^٤ وكل ثوب لهم ثم استكروا لهم من ثياب الحمس تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد. ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء يبشرونها بأقدامهم. فإن لم

^١ علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٣٦٠/١١.

^٢ علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٣٦٠/١١.

^٣ علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٣٦٠/١١.

^٤ وقيل ان عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ كَانَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ مُعَلِّقًا نَعْلَهُ بِيَدِهِ، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، دار الفكر، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م، ٣٦٢/٤.

يجدوا ثيابًا طافوا عراة. وكان لكل رجل من الحلة حرمي من الحمس يأخذ ثيابه. ^١ فمن لم يجد ثوبًا طاف عريانًا. وإنما كانت الحلة تستكري الثياب للطواف في رجوعهم إلى البيت لأنهم كانوا إذا خرجوا حجاجًا لم يستحلوا أن يشتروا شيئًا ولا يبيعوه حتى يأتوا منازلهم إلا اللحم. ^٢

وأما "الحمس"، فهم الذين كانوا يطوفون بثيابهم، ثم يحتفظون بها فلا يلقونها، فلهم من هذه الناحية ميزة امتازوا بها على الحلة، ولهم على الحلة ميزة أخرى. وَالتَّحْمُسُ أَشْيَاءُ أَحَدَتْوَهَا فِي دِينِهِمْ تَحَمَّسُوا فِيهَا. أَي شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِيهَا. فَكَانُوا لَا يَخْرُجُونَ مِنَ الْحَرَمِ إِذَا حَجُّوا. فَصَرَّوْا عَنْ بُلُوغِ الْحَقِّ. وَالَّذِي شَرَعَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِإِبْرَاهِيمَ وَهُوَ مَوْفِقُ عَرَفَةَ. وَهُوَ مِنَ الْحِلِّ. وَكَانُوا لَا يَسْلُوْنَ السَّمْنَ وَلَا يَنْسَجُونَ مَطَالَ الشَّعْرِ. وَكَانُوا أَهْلَ الْقُبَابِ الْحُمْرِ مِنَ الْأَدَمِ. وَشَرَعُوا لِمَنْ قَدِمَ مِنَ الْحَاجِّ أَنْ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ وَعَلَيْهِ ثِيَابُهُ مَا لَمْ يَذْهَبُوا إِلَى عَرَفَةَ. فَإِذَا رَجَعُوا مِنْ عَرَفَةَ لَمْ يَطُوفُوا طَوَافَ الْإِقَاصَةِ بِالْبَيْتِ إِلَّا عُرَاءَ أَوْ فِي ثَوْبِي أَحْمَسِيٍّ. وَإِنْ طَافَ فِي ثَوْبِيهِ لَمْ يَحِلَّ لَهُ أَنْ يَلْبَسَهُمَا. ^٣ فالذي يطوف بالبيت عريانًا، هو ضعيف "الحلة"، ممن لا قبل له على استكراء ثياب له من أحمسي، وممن لا صاحب له من الحمس، يعطيه ثيابًا ليلبسها. أما المتمكن من "الحلة" ومن له صديق من الحمس، فلا يطوف عريانًا، وإنما يطوف بثياب أحمسي.

وقد حرم الإسلام طواف "العري" في أي وقت كان، وحتم على الجميع قريش وغيرهم لبس "الإحرام". وقد ذكر علماء التفسير في تفسير قوله تعالى: {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} ^٤. أن هذه الآية نزلت في حق المتعربين الذين كانوا يطوفون بالبيت عراة، فنحن إذن أمام سنة جاهلية قديمة، ترجع طواف العري إلى أمر سابق وشريعة سابقة. ^٥

^١ علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٣٦٠/١١.

^٢ علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٣٦٠/١١.

^٣ ابن سعد الطبقات الكبرى، ٥٩/١. المقدسي، المطهر بن طاهر (المتوفى: نحو ٣٥٥هـ)، البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، ٣٢/٤.

^٤ سورة الأعراف / ٢٨.

^٥ علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٣٦٥/١١.

فستر العورة شرط لصحة الطواف فجاء في الصحيحين عن أبي هريرة أن أبا بكر رضي الله عنه بعثه في الحجة التي أمره عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل حجة الوداع، حين كان الأمير على الحج أبا بكر الصديق رضي الله تبارك وتعالى عنه، فأرسل أبا هريرة في رهط يؤذن في الناس يوم النحر: ألا يحج بعد العام هذا مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، أي: لا يجوز أن يطوف بالبيت عريان، فقد كان المشركون يصنعون ذلك، فيطوفون بالبيت وهم عراة، فأرسل إليهم صلى الله عليه وسلم هذا التحذير، وهذا السبب كان هو العلة في أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحج في ذلك العام، مع أنه فرض عليه صلى الله عليه وسلم في سورة آل عمران: **لَوْلَهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**^١، وهذه السورة نزلت في عام الوفود، في العام التاسع، ومع ذلك لم يحج النبي صلى الله عليه وسلم لهذا السبب، فما كان له أن يطوف وحوله رجال ونساء من المشركين، وهم عراة، فلم يفعل في ذلك العام، وأخر الحج إلى العام الذي يليه، حتى صار المكان ليس فيه أحد من المشركين، ولا أحد من العراة، فذهب النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع.^٢

وقد مارس القرامطة في العصر العباسي العري في الطواف فكان أبو طاهر القرمطي يطوف هو والناس عراةً بالبيت^٣ في محاولة صريحة للخروج على الإسلام وتعاليمه.

٥- موكب الأمير في الطواف:

تحدث ابن جبير بإسهاب عن موكب أمير مكة مكث في الطواف، فوصف قادته يحفون به والقراء يقرأون أمامه، فدخل على باب النبي صلى الله عليه وسلم، ورجاله السودان الذين يعرفون بالحراة يطوفون أمامه وبأيديهم الحراب، وهو في هيئة اختصار عليه السكينة والوقار، لابساً ثوب بياض متقلداً

^١ سورة آل عمران / آية ٩٧.

^٢ أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، صاحب حماة (المتوفى: ٧٣٢هـ)، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، ط١، ١/١٥٠. العلمي، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الحنبلي، أبو اليمن، مجير الدين (المتوفى: ٩٢٨هـ)، الأئس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس - عمان، ١/٢١٤.

^٣ الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (المتوفى: ٧٤٨هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، دار الكتاب العربي، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، بيروت، ط٢، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣ م، ١٥/٢٥.

سيفه مختصراً متعمماً بكرزية^١ (عمامة) صوف بيضاء رقيقة، فلما انتهى بإزاء المقام الكريم وقف وبسط له وطاء كتان فصلى ركعتين. ثم تقدم إلى الحجر الأسود فقبله وشرع في الطواف، وقد علا في قبة زمزم صبي وهو أخو المؤذن الزمزمي وهو أول المؤذنين أذاناً، به يقتدون وله يتبعون، وقد لبس أفخر ثيابه وتعمم، فعندما يكمل الأمير شوطاً واحداً ويقرب من الحجر يندفع الصبي إلى أعلى القبة رافعاً صوته بالدعاء ويستنقحه بصبح الله مولانا الأمير بسعادة دائمة ونعمة شاملة. ويصل ذلك بتهنئة الشهر بكلام مسجوع مطبوع حفيل الدعاء والثناء. ثم يختم ذلك بثلاثة أبيات من الشعر في مدحه ومدح سلفه الكريم وذكر سابقة النبوة، رضي الله عنهم، ثم يسكت، فإذا اطل من الركن اليماني يريد الحجر اندفع بدعاء آخر على ذلك الأسلوب، ووصله بأبيات من الشعر غير الأبيات الأخر في ذلك المعنى بعينه كأنها منتزعة من قصائد مدح بها. هكذا في السبعة الأشواط إلى أن يفرغ منها. والقراء في أثناء طوافه أمامه. فينتظم في هذه الحالة والأبهة وحسن صوت ذلك الداعي على صغره لأنه ابن إحدى عشرة سنة أو نحوها، وحسن الكلام الذي يورده نثراً ونظماً، وأصوات القراء وعلوها بكتاب الله عز وجل، مجموع يحرك النفوس ويشجئها ويستوقف العيون ويبيهاها، تذكر لأهل البيت الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، فإذا فرغ من الطواف ركع عند الملتزم ركعتين ثم جاء وركع خلف المقام أيضاً ثم ولى منصرفاً وحلبته (جماعته) تحف به^٢.

ومما ورد ذكره عادة أهل مكة في استهلال الشهر إذ يأتي أمير مكة في أول يوم من الشهر، وقواده يحفون به، وهو لابس البياض معتم كتنقلد سيفاً وعليه السكينة والوقار، فيصلي عند المقام الكبير ركعتين، ثم يقبل الحجر، ويسرع في طواف أسبوع (سبعاً) ورئيس المؤذنين على أعلى قبة زمزم. فعندما يكمل الأمير شوطاً واحداً، ويقصد الحجر لتقبيله، يندفع رئيس المؤذنين بالدعاء له، والتهنئة بدخول الشهر، رافعاً بذلك صوته، ثم يذكر شعراً في مدحه ومدح سلفه الكريم، ويفعل به هكذا في السبعة أشواط. فإذا فرغ منها ركع عند الملتزم ركعتين، ثم ركع خلف المقام أيضاً ركعتين، ثم

^١ كَرزِيَّة، وكُرزِيَّة: والجمع كَرزِي. عصابة طويلة من هذا القماش الرقيق تُلفُّ حول الرأس خمس لفات أو ست لفات بمثابة. وقيل عمامة أو كرزية سوداء دُوْزِي، رينهارة ببيت أن (المتوفى: ١٣٠٠هـ)، تكلمة المعاجم العربية نقله إلى العربية وعلق عليه: جمال الخياط، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ط١، ١٩٧٩ - ٢٠٠٠ م، ٦١/٩.

^٢ ابن جبير، الرحلة، ص ٧٤-٧٥.

انصرف. ومثل هذا سواء يفعل إذا أراد سفراً وإذا قدم من سفر أيضاً. وإذا هل هلال رجب أمر أمير مكة بضرب الطبول والبوقات إشعاراً بدخول الشهر، ثم يخرج في أول يوم منه راكباً. ومعه أهل مكة فرساناً ورجالاً، على ترتيب عجيب، وكلهم بالأسلحة يلعبون بين يديه، والفرسان يجولون ويجرون، والرجال يتواثبون ويرمون بحرابهم إلى الهواء، ويلقونها، وبين أيديهم الرايات والطبول والدبابات، وعليهم السكنية والوقار. ويسيروا حتى ينتهوا إلى الميقات، ثم يأخذون في الرجوع على معهود ترتيبهم إلى المسجد الحرام، فيطوف الأمير بالبيت، والمؤذن الزمزمي بأعلى قبة زمزم يدعو له عند كل شوط، فإذا طاف صلى ركعتين عند الملتزم، وصلى عند المقام وتمسح به، وخرج إلى المسعى فسعى راكباً والقواد يحفون به، والحراية بين أيديهم، ثم يسير إلى منزله. وهذا اليوم عندهم عيد من الأعياد يلبسون فيه أحسن الثياب ويتنافسون في ذلك.^١

وفي وصف مقارن مشابه لتلك المواكب يروى أنه في عام ٧١٢هـ حج السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وكان يطوف بالكعبة، وعليه ثياب أحرام من صوف، وهو يعرج في مشيته، وحوله جماعة من الأمراء، وبأيدي كثير منهم الطير من أمامه، ومن خلفه وجوانبه، فلما فرغ من طوافه ركع خلف المقام، ثم دخل الحجر، فصلى فيه، ثم جاءه قاضي مكة نجم الدين الطبري، ثم جاءه إمام الصلاة والحديث فيها رضي الدين إبراهيم بن محمد الطبري، الشافعي، وكان دخوله مكة بعد دخول الركب المصري. ساق في أيام يسيرة، وحج وانصرف راجعاً قبل الركب.^٢

وهذه الاحتفالات في الطواف على هيئة موكب متعظم متفاخر لم تعهد زمن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فقد طاف الرسول صلى الله عليه وسلم بشكل متواضع بسيط راكباً لعله اصابته.^٣

^١ ابن بطوطة، الرحلة، ص ٥٦.

^٢ اليافعي، أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان (المتوفى: ٧٦٨هـ)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

^٣ ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٦ م، ٣١٦/٤.

وبدا من تواضع عُمرَ بْنَ الْحَطَّابِ انه كان يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عَلَيْهِ إِزَارٌ فِيهِ اثْنَتَا عَشْرَةَ رُقْعَةً بَعْضُهَا بِأَيْمٍ أَحْمَرَ^١ فِي عَامِ الرَّمَادَةِ وَهُوَ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ ادْعُوا اللَّهَ أَنْ يُدْهَبَ عَنْكُمْ الْمَحَلْ، وَهُوَ يَطُوفُ^٢.
ومما روي ايضا أن جبلة^٣ أسلم في زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. حيث كتب جبلة إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في القدوم عليه، فأذن له عمر، فخرج إليه في خمسمائة من بنيه حتى إذا كان على مرحلتين^٤ كتب إلى عمر يعلمه بذلك، فسر عمر وبعث إليه بإنزال، وأمر جبلة مائتي رجل من أصحابه فلبسوا الديباج والحريز، وركبوا الخيل معقودة أذناها وألبسوها قلائد الذهب والفضة، ولبس جبلة تاجه وفيه قرط مارية، وهي جدته، ودخل المدينة فلم يبق بها بكر ولا عانس إلا خرجت تنتظر إليه وإلى زيه، فلما انتهى إلى عمر رحب به وأطفه وأدنى مجلسه، ثم خرج عمر إلى الحج، فحج معه جبلة، فبينما هو يطوف بالبيت وطئ إزاره رجل من بني فزارة فانحل، فرفع جبلة يده فهشم أنفه، فاستعدى عليه عمر، فاقتص منه الخليفة عمر، وقيل أن الفزاري لما وطئ إزار جبلة، فلطمه جبلة، فلطم جبلة كما لطمه، فوثب عليه غسان فهشموا أنفه وأتوا به عمر، .. وفي هذا بيان لبعض المواقف التي حصلت في الطواف ودور الإسلام بعدم التفريق بين المتخاصمين والقصاص في ذلك وفق الشرع الحنيف.

^١ ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، ١٤١/٤.

^٢ البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود (المتوفى: ٢٧٩هـ)، جمل من أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر - بيروت، ط١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م، ٤٠٠/١٠.

^٣ جبلة بن الأيهم بن جبلة بن الحارث بن أبي شمر، واسمه: المنذر بن الحارث وهو ابن مارية ذات القرطين، ومارية هي بنت أرقم بن ثعلبة بن عمرو ابن جفنة أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وقيل: إنه أرسل إليه شجاع بن وهب يدعوه إلى الإسلام وكان منزله الجولان وغيره من أعمال دمشق، ودخل دمشق غير مرة وأسلم ثم تنصّر ولحق ببلاد الروم وكان آخر ملوك غسان، وقيل: إنه لم يسلم قط. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢٨/٧٢.

^٤ المرحلة: وهي مسيرة يوم. ابن نشوان، سعيد اليميني الحميري (المتوفى: ٥٧٣هـ)، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، المحقق: د حسين بن عبد الله العمري، دار الفكر المعاصر (بيروت - لبنان)، دار الفكر (دمشق - سورية)، ط١، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، ٢٤٤/٤.

^٥ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ٢٥٦/٥.

ومما تم من الممازحة في الطواف ان كَانَ رجل من أَهْلِ مَكَّةَ ضعيفا فمازحه سعيد^١ وهو يطوف، أو قَالَ: زحمه. فَقَالَ: أنت نفر من الحجاج وتجيء إلي ههنا. فضربه عكرمة بن خالد^٢ وناس من قريش حَتَّى كاد ينيبسط.^٣

وربما أن بعض مشاهد الاحتفال في موكب الطواف قد سبقت الأمير مكثر الذي ذكره ابن جبير ففي العصر الاموي قيل أن الوليد بن عبد الملك ولى سعد بن إبراهيم^٤ على قضاء المدينة، وأراد الوليد الحج، فاتخذ قبة من ساج ليجعلها حول الكعبة ليطوف هو ومن أحب من أهله ونسائه فيها، فأراد بزعمه أن يطوف فيها حول الكعبة، ويطوف الناس من وراء القبة، فحملها على الإبل من الشام، ووجه معها قائدا من قواد أهل الشام في ألف فارس، وأرسل معه مالا يقسمه في أهل المدينة، فقدم بها فنصبت في مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففرغ لذلك أهل المدينة ثم اجتمعوا فقالوا: إلى من نفرع في هذا الأمر، فقالوا: إلى سعد بن إبراهيم، فأتاه الناس فأخبروه الخبر، فأمرهم أن يضرموها بالنار، فقالوا: لا نطبق ذلك، معها قائد في ألف فارس من أهل الشام، فدعى مولى له فقال: هلم الجراب، فأتاه بجراب، فصبها عليه وقال لغلامه: هلم بغلتي، فأتاه ببغلته فركبها، فما تخلف عنه يومئذ قرشي ولا أنصاري حتى إذا أتاه قال: علي بالنار، فأتي بنار فأضرمها فيها، فغضب القائد وهم بالخصومة، فقيل له: هذا قاضي أمير المؤمنين ومعه الناس ولا طاقة لك به، فانصرف راجعا إلى الشام، وشبع عبيد أهل المدينة من الناطق مما استلبوه من حديدتها. فلما بلغ ذلك الوليد كتب إليه: ول القضاء رجلا وأقدم علينا، فولى القضاء رجلا وركب حتى أتى الشام، فأقام ببابه أشهرا لا يؤذن له حتى نفذت نفقته، وأضر به طول المقام، فبينما هو ذا عشية في المسجد إذا هو بفتى في جبة صفراء سكران،

^١ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ. وَيَكْنَى أبا عبد الله مولى لبني والبة بن الحارث من بني أسد ابن خزيمة. قَتْلُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَتِسْعِينَ وَكَانَ يَوْمَئِذٍ ابْنُ تِسْعٍ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢٧٥/٦.

^٢ عَكْرِمَةُ بْنُ خَالِدِ بْنِ الْعَاصِ بْنِ هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ مَخْرُومٍ وَأُمُّهُ ابْنَةُ كَلْبِ بْنِ خَزْنِ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ خَفَاجَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَقِيلٍ، وَكَانَ ثَقَّةً وَلَهُ أَحَادِيثُ. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٤٧٥/٥.

^٣ البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، ٣٧١/٧.

^٤ سَعْدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، أَبُو إِبْرَاهِيمَ، الْقُرَشِيُّ، الزُّهْرِيُّ، الْمَدَنِيُّ، قَاضِي أَهْلِ الْمَدِينَةِ. مات سنة خمس وعشرين ومئة. البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، التاريخ الكبير، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد - الدكن، ٥١/٤.

فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا خال أمير المؤمنين سكران يطوف في المسجد، فقال لمولى له: هلم بالسوط، فأتاه بسوطه، فقال: علي به، فأتي به فضربه في المسجد ثمانين سوطاً، وركب بغلته ومضى راجعاً إلى المدينة، فأدخل الفتى على الوليد مجلوداً، فقال: من فعل هذا به؟ قالوا: مديني كان في المسجد، فقال: علي به، فلحق على مرحلة، فدخل عليه، فقال أبا إسحاق: ماذا فعلت يا ابن أخيك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنك وليتنا أمراً من أمورك، وإني رأيت حد الله ضائعاً، سكران يطوف في المسجد وفيه الوفود ووجوه الناس، وكرهت أن يرجع الناس عنك بتعطيل الحدود، فأقمت عليه حده، فقال: جزاك الله خيراً، وأمر له بمال وصرفه إلى المدينة ولم يذاكره شيئاً من أمر القبة ولا عن فعله فيها.^١

وعندما حج سليمان بن عبد الملك ومعه عمر بن عبد العزيز، دخل عليه داود بن الحضرمي، وكان عامله على مكة وقد تطيب ولم يكن طاف طواف الزيارة، فقال له سليمان انفرت بعد؟ قال: لا، قال: فما لك والطيب؟ قال: يا أمير المؤمنين ان عائشة كانت تذكر أنها طيبت النبي صلى الله عليه وسلم، قال أبو عبيدة: فأمرني فأرسلت الى سالم والقاسم، فدخلوا عليه فسألهما عن ذلك، فقال سالم: يا أمير المؤمنين أما عمر بن الخطاب فكان يقول: اذا رميتم الجمرة فقد حل كل شيء الا الطيب وأما القاسم بن محمد فقال: يا أمير المؤمنين أخبرتني عائشة أنها طيبت رسول الله صلى الله عليه وسلم عند احلاله وعند احرامه.^٢

وقد يكون الطواف مدعاة للمكاشفة في الحوار المباشر بين الخليفة والرعية فحدّث سلمة بن سلمة القرشي قاضي اليمن قال: سمعت أبا المهاجر المكي يقول: قدم المنصور مكة، فكان يخرج من دار الندوة إلى الطواف في آخر الليل ويطوف ويصلي، ولا يعلم به، فإذا طلع الفجر رجع إلى دار الندوة، وجاء المؤذنون فسلموا عليه، فخرج ذات ليلة حين أسحر، فبينما هو يطوف إذ سمع رجلاً عند الملتزم وهو يقول: اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض.... فاستدعاه المنصور وسأله عن قوله، وأمنه فأجابه: يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل استرعاك أمور المسلمين بأموالهم، فأغفلت أمورهم، واهتممت بجمع أموالهم، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الآجر والجص، وأبواباً من الحديد،

^١ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ٢٣٧/٧.

^٢ ابن العديم، عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جراحة العقيلي، كمال الدين ابن العديم (المتوفى: ٦٦٠هـ)، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، ٢٩٩٦/٦.

وحجة معهم السلاح، واتخذت وزراء وأعوانا فجرة، إن نسيت لم يذكروك، وإن أحسنت لم يعينوك، وقويتهم على ظلم الناس بالرجال والأموال والسلاح، وأمرت أن لا يدخل عَلَيْكَ من الناس إلا فلان وفلان، ولم تأمر بإيصال المظلوم والمهوف والجائع والعمري، وما أحد إلا وله في المال حق، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على.....فبكى المنصور بكاء شديدا حَتَّى ارتفع صوته وقال اللهم وفقني أن أعمل بما قَالَ هَذَا الرجل.....^١

ومما تم من الجدل في الطواف أن عَبْدَ العزيز بْنَ أَبِي رواد مولى المغيرة بْنَ المهلب بْنَ أَبِي صفرة. مكث أربعين سنة لم يرفع طرفه إِلَى السماء، فبينما هو يطوف حول الكعبة إذ طعنه المنصور أَبُو جَعْفَرٍ بإصبعه فِي خاصرته فالتفت إِلَيْهِ فَقَالَ: قَدْ علمت أنها إصبع جبار.^٢

٦- ذكر من اشتهر بكثرة الطواف:

اعتنت كتب الرحلات بتعداد المشهورين بكرة الطواف بالبيت، فظهر ابن جبير تعجبه قائلاً: (فمن عجائب اعتناء الله تبارك وتعالى بالمسجد الحرام أنه لا يخلوا من الطائفين ساعة من النهار ولا وقتاً من الليل ، فلا تجد من يخبر أنه رآه دون طائف به ، فسبحان من كرمه وعظمه وخلد له التشريف إلى يوم القيامة)^٣. حتى في أوقات الحر الشديد أو في أثناء هطول الأمطار الغزيرة .^٤

وقد عدد ابن بطوطة من اشتهر بمكة بكثرة الطواف، فمنهم الإمام العالم الصالح الصوفي المحقق العابد عفيف الدين عبدالله بن أسعد اليميني الشافعي الشهير بالياضي، كثير الطواف آناء الليل وأطراف النهار وكان إذا طاف من الليل يصعد سطح المدرسة المظفرية فيقعد مشاهدا للكعبة الشريفة، إلى أن يغلبه النوم، فيجعل تحت رأسه حجراً أو ينام يسيراً، ثم يجدد الوضوء ويعود لحاله من الطواف حتى يصلي الفجر. ومنهم الشيخ الصالح العابد شمس الدين محمد الحلبي، كثير الطواف والتلاوة من قداماء المجاورين، توفي بمكة. ومنهم الصالح أبو بكر الشيرازي المعروف بالصامت، كثير الطواف، أقام

^١ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ٤٨/٨.

^٢ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ، ٢٣١/٨.

^٣ ابن جبير، الرحلة، ص ٧٦

^٤ مهر، يوميات رحلة في الحجاز، ص ٧٨.

بمكة أوعاماً لا يتكلم فيها. ومنهم الصالح خضر العجمي، كثير الصوم والتلاوة والطواف. والشيخ الصالح برهان الدين العجمي الواعظ.^١

ومما نقلته كتب الرحلات من الأمثلة على الدعاء بالطواف ما أشار إليه ابن جبير من دعاء الطائفين بعد صلاة المغرب، إذ يقف المؤذن الزمزمي في سطح قبة زمزم رافعا صوته بالدعاء للإمام العباسي احمد الناصر لدين الله، ثم للأمير مكثر ثم لصلاح الدين أمير الشام وجهات مصر كلها واليمن، ذي المآثر الشهيرة والمناقب الشريفة، فإذا انتهى إلى ذكره بالدعاء ارتفعت أصوات الطائفين بالتأمين بألسنة تمدها القلوب الخالصة والنيات الصادقة. وتخفق الألسنة بذلك خفقا يُذنب القلوب خشوعا لما وهب الله لهذا السلطان العادل من الثناء الجميل وألقى عليه من محبة الناس وعباد الله شهادته على أرضه. ثم يصل ذلك بدعاء لأمرأ اليمن من جهة صلاح الدين ثم لسائر المسلمين والحجاج والمسافرين.^٢

ومن بين الأدعية التي تبرز أهمية الطواف ما كان يدعيه الخطيب: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ما طاف بهذا البيت طائف ويشير بأصبعه إلى البيت الكريم.^٣

ومن المآثور من الدعاء في الطواف: بِسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ إِيْمَانًا بِكَ، وَتَصْدِيقًا بِكِتَابِكَ، وَوَفَاءً بِعَهْدِكَ، وَاتِّبَاعًا لِسُنَّةِ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَطُوفُ سَبْعًا، يُرْمِلُ فِي الثَّلَاثَةِ الْأُولَى مِنْهُ، وَيَمْشِي فِي الْأَرْبَعَةِ، وَكَلِمَا حَاذَى الْحَجْرِ الْأَسْوَدِ وَالرَّكْنَ الْيَمَانِي، اسْتَلْمَهُمَا، وَيَقُولُ فِي رَمَلِهِ كَلِمَا حَاذَى الْحَجْرِ الْأَسْوَدِ: اللَّهُ أَكْبَرُ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَيَقُولُ فِي بَقِيَّةِ الرَّمْلِ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ حَجًّا مَبْرُورًا، وَسَعْيًا مَشْكُورًا، وَذَنْبًا مَغْفُورًا. وَيَقُولُ فِي بَقِيَّةِ الْأَرْبَعَةِ: رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ، وَأَعْفُ عَمَّا تَعَلَّمَ، وَأَنْتَ الْأَعَزُّ الْأَكْرَمُ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، وَيَدْعُو بِمَا أَحَبَّ بَيْنَ ذَلِكَ..^٤

٧- السباحة في الطواف:

^١ ابن بطوطة، الرحلة، ص ٥٢.

^٢ ابن جبير، الرحلة، ص ٨٠.

^٣ ابن بطوطة، الرحلة ص ٥٥.

^٤ ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (المتوفى: ٥٩٧هـ)، مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن، تحقيق مرزوق علي إبراهيم، دار الراجعية، ط ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، ٣٩٦/١.

لقد كانت السيول التي تغمر صحن الطواف حيناً قد أظهرت نوعاً من الاستغراب والتعجب في الطواف فقيل إن المهدي أمر بصرف الوادي المنسوب لإبراهيم صلى الله عليه وسلم، ومجراه على باب الصفا إلى مجراه على عهد أبيه إبراهيم صلى الله عليه وسلم، وتوسعته بالرحاب التي حول المسجد الحرام لحاج بيت الله وعُماره، وكان السيل قد خالف مجراه فكان يأتي على المسيل بين الصفا والمروة ويدخل الحرم، فكان مدة مده بالإمطار يُطاف حول الكعبة سباً، فأمر المهدي برفع موضع في أعلى البلد يسمى رأس الردم، فمتى جاء السيل عرج عن ذلك الردم إلى مجراه واستمر على باب إبراهيم إلى الموضع الذي يسمى المسفلة ويخرج عن البلد ولا يجري الماء فيه إلا عند نزول كمية المطر الكثير^١، وهو الوادي الذي عنى صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى: (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع)^٢.

ويبدو أن ظاهرة السباحة في الطواف وتعجب الرحالة لمشاهدتهم لها وقعت نتيجة السيول ووصولها للكعبة المشرفة في أوقات سبق حدوثها ومن ذلك ما حصل أيام عبد الله بن الزبير، حيث جاء سيل طبق البيت فجعل الناس يطوفون سباحة^٣.

وكذلك تكرر هذا المشهد في سيل الحجاب حيث هَدَمَ بمكة دوراً كثيرة وأحاط بالكعبة، أيام عبد الملك سنة ٨٠هـ، وكذلك في ولاية عمر بن عبد العزيز ٨٧هـ عندما أقامَ لِلنَّاسِ الْمَوْسِمَ، وَكَانُوا بِمَكَّةَ فِي جَهْدٍ مِنْ قِلَّةِ الْمَاءِ، فَاسْتَسْقَوْا، فَسُقُوا، قَالَ بَعْضُهُمْ: فَرَأَيْتُ عُمَرَ يَطُوفُ وَالْمَاءُ إِلَى أَنْصَافِ سَاقِيهِ.^٤

^١ ابن جبير، الرحلة، ص ٨٦

^٢ سورة إبراهيم، الآية ٣٧.

^٣ ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين (المتوفى: ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ٣/٤٠٨. الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ٥/٤٤٠. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (المتوفى: ٩١١هـ)، تاريخ الخلفاء، تحقيق حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط ١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، ١/١٦١.

^٤ الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَائِمَاز (المتوفى: ٧٤٨هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ٦/٢٩. كبريت، محمد بن عبد الله بن محمد، من أحفاد شرف الدين بن يحيى الحمزي الحسيني المولوي المعروف (المتوفى:

وفي سنة إحدى وسبعين وتسعمائة طاف بالبيت سيل عظيم، وهُدِّمَتْ بسببه دورٌ كثيرة، وفي ذلك للشيخ صلاح الدين بن ظهيرة شعرا:

لما علا السيل على مكة ... وخرب الدور وأخلى البقاع
لاذ بباب الله مستغفراً ... وطاف بالبيت طواف الوداع
تاريخه إن رُمِّتْ تعريفه ... علا على الركن اليماني ذراع^١

٨- متاعب الطواف:

٨-١- البدنية:

أشار ابن جبير إلى ما يمس الطائف من الإعياء وفتور الأعضاء من عمرة يعتمرها على قدميه أو من غير ذلك من الأسباب المؤدية إلى تعب البدن، وتحدث عن علاج ذلك واصفاً تجربته مع ماء زمزم قائلاً: (ومن الأمور المجربة في هذا الماء المبارك أن يصب من ذلك الماء على البدن فيجد الراحة والنشاط لحينه ويذهب عنه ما كان أصابه)^٢.

٨-٢- متاعب السرو المائرون^٣ في الطواف:

وهم من قبائل اليمن المعروفة بالسرو، كجبيلة وغيرها وما يهنا هنا بالإضافة لبراعتهم في التجارة فقد كانوا يمتازون بحسن الدعاء في الطواف فذكر أن عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - كان يحترم وقت طوافهم ويتحرى الدخول في جملتهم تبركا بأدعيتهم، فترى الناس حولهم باسطي أيديهم مؤمنين

١٠٧٠هـ) ،رحلة الشتاء والصيف،حققها وقدمها وفهرستها: الأستاذ محمد سعيد الطنطاوي، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٣٨٥ هـ، ٢٢٧/١.

^١ كبريت، رحلة الشتاء والصيف ، ٢٢٧/١.

^٢ ابن جبير ، الرحلة ،ص ١٠١.

^٣ السرو بفتح أوله، وإسكان ثانيه، بعده واو: سخاء في مروءة، وهو منازل حمير؛ عدة مواضع: سرو حمير ، وسرو العلاء ، وسرو مندد، وسرو بين ، وسرو سحيم ؛ وسرو الملا، وسرو لبن؛ وسرو صنعا ، وسرو السواد بالشام، وسرو الوعل بالرمل بجهة بينه وبين الماء من كل جهة ثلاث ليال بين فلاة أرض طيء وأرض كلب.والسرو: قرية كبيرة مما يلي مكة، وإلى هذه السروات ينسب القوم الذين يحضرون مكة ويجلبون الميرة، وهم قوم غتم أشبه شيء بالوحش . البغدادي، عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي البغدادي، الحنبلي، صفّي الدين (المتوفى: ٧٣٩هـ)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجبل، بيروت، ط١، ١٤١٢ هـ، ٧١١/٢.

على أذعيتهم متلقين لها من ألسنتهم وقد أبدى ابن جبير إعجابه الشديد بذلك.^١ على أن مما يؤخذ عليهم بالطواف أن طول مقامهم لا يتمكن معهم طواف ولا يوجد سبيل إلى استلام الحجر، فهم إذا طافوا بالكعبة المقدسة يتطارحون عليها تطارح البنين على الأم ويتصلون على ما يزيد عن الأربعين شخصا في صفا واحداً.^٢ كما قدم ابن بطوطة وصفا عاما لهذه الحالة عندما أشار إلى أنك ترى الناس إذا طافوا يتساقط بعضهم على بعض ازدحاما على تقبيل الحجر الأسود.^٣

وهذه الظاهرة مخالفة صريحة لأوامر النبي محمد صلى الله عليه وسلم ففي حديث ابن عباس حاذى - صلى الله عليه وسلم - الحجر الأول استلمه، ولم يزاحم عليه: وقال لعمر بن الخطاب: يا عمر إنك رجل قوي لا تزاحم على الحجر تؤذي الضعيف إن وجدت خلوة فاستلمه، وإلا فاستقبله وهلل وكبر.^٤ وتم الاستشهاد بهذا الحديث أيضا في العصر الاموي فقيل أن شَيْخًا بِمَكَّةَ فِي إِمَارَةِ الْحَجَّاجِ بْنِ يَوْسُفِ الثَّقَفِيِّ حَدَّثَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ...^٥

٩- طواف النساء:

أشار ابن جبير إلى اليوم التاسع والعشرين من رجب والذي صادف يوم الخميس ، أن أفرد البيت للنساء خاصة ، فاجتمعن من كل أواب ، وقد تقدم احتفالهن لذلك بأيام ولم يبق امرأة بمكة إلا حضرت المسجد الحرام ذلك اليوم ، فلما وصل الشيبينيون^٦ لفتح البيت الكريم على عاداتهم ، وأسرعوا للخروج منه

^١ ابن جبير ، الرحلة ، ص ١١٢ .

^٢ ابن جبير ، الرحلة ، ص ١١٢ .

^٣ ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٤٦ .

^٤ النويري ، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري ، شهاب الدين (المتوفى: ٧٣٣هـ) ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٢٣ هـ ، ٣١٦/١ . ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٧٧/٥ . الشامي ، محمد بن يوسف الصالحي (المتوفى: ٩٤٢هـ) ، سبل الهدى والرشاد ، في سيرة خير العباد ، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد ، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، الشيخ علي محمد معوض ، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م ، ٤٦٢/٨ .

^٥ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٧٧/٥ .

^٦ أبو صَفِيَّةَ الْحَجْبِيِّ : شَيْبَةَ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ الدَّارِ بْنِ قَاصِي بْنِ كَلَابِ أَبُو عُثْمَانَ وَقِيلَ أَبُو صَفِيَّةَ الْحَجْبِيِّ حَاجِبُ الْكُعْبَةِ وَهُوَ جَدُّ الشَّيْبِيِّينَ وَاللَّيْهُ يُنْسَبُ بَنُو شَيْبَةَ . الصَّفْدِيِّ ، صلاح

وأفرجوا للنساء عنه ، وأفرج الناس لهن عن الطواف وعن الحجر ولم يبق حول البيت المبارك أحد من الرجال تبادل النساء إلى الصعود ، حتى كاد الشيبليون لا يخلصون بينهن عند هبوطهم من البيت الكريم ، وتسلسل النساء بعضهن ببعض وتشابكن حتى تواقعن ، فمن صائحة ومعولة ومكبرة ومهلفة ، وظهر من تزاحمهن ما ظهر من السرو اليمينين مدة مقامهم في مكة، وتمادين على ذلك صدراً من النهار وانفسحن في الطواف والحجر وتشفين من تقبيل الحجر واستلام الأركان ، وكان ذلك اليوم عندهن الأكبر، ويومهن الأزهر الأشهر ، وهذا اليوم هو من عام إلى عام فهن يرتقبنه ارتقاب أشرف الأعياد ويكثرن له من التأهب والاستعداد^١.

وكانت العادة أنه كلما فتحت الكعبة للرجال فتحت للنساء في يوم غيره، ولا يقرب ساحة البيت يوم دخول النساء أحد من الرجال كفعل النساء يوم دخول الرجال، ومن اضطر لطواف يوم دخول النساء لأجل عمرة، طاف من وراء الأعمدة والقباب كلها، فتلحقهم مشقة في ذلك^٢. وكانت نساء مكة يقصدن الطواف بالبيت في كل ليلة جمعة ويأتين في أحسن زي وتغلب على الحرم رائحة طيبهن^٣.

وقيل في زواج أهل مكة أنه في العشر من ذي الحجة يخطب زيد بنت عمرو وفي العاشر من المحرم يدخل كل واحد منهم على عرسه بالنظرة والتظهير، فإذا تزوج رجل من أهل مكة وقطع المهر وأراد الدخول على المرأة يخضب الرجال أيديهم وأرجلهم، ويخرج العروس إلى الحرم ويطوف سبعاً ويصلي في مقام إبراهيم ركعتين ويقبل الحجر الأسود....^٤

الدين خليل بن أبيك بن عبد الله (المتوفى: ٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، المحقق: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث - بيروت، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ١١٨/١٦.

^١ ابن جبير ، الرحلة ، ص ١١٦.

^٢ العياشي ، عبدالله بن محمد (ت ١٠٩٠هـ) ، مقتطفات من رحلة العياشي (ماء الموائد) ، دار الرفاعي ، الرياض ، ط١ ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م ، ص ٥٣.

^٣ ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٥١.

^٤ ابن المجاور، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تأريخ المستبصر، اعتنى بتصحيحها وضبطها أوسكر لوفقرين، طبعت في مدينة ليدن بمطبعة بريل ، ١٩٥١م، ص ٦-٧.

ومن سماحة الإسلام وعدله أن رخص صلى الله عليه وسلم في ترك المؤمنين ذلك للحائض التي قد طافت طواف الإفاضة قبل حيضها كصافية أم المؤمنين رضي الله عنها.^١ وحفاظا على ستر عورة المرأة رأى صلى الله عليه وسلم أن يطوف من وراء الحجر لما في ذلك من الراحة لأمتة دينا ودنيا، حيث أن في ذلك حسما لمادة فساد، وهو أن النساء يتسورن الحجر في الطواف كالرجال، وفي تسورهن كشف لهن، وهن مأمورات بالصيانة.^٢ وفي الطواف مناسبة لاختيار الزوجة لما يتراءى من دينها وجمالها وهذا ما شاهدته الرحالة في وصفهم - أعلاه- وقد سبق ذلك الحدوث فعندما حج عبد الملك بن مروان وحج معه خالد بن يزيد بن معاوية، وكان من رجالات قريش المعدودين وعلمائهم. وكان عظيم القدر عند عبد الملك. فبينما هو يطوف بالبيت إذ بصر برمله بنت الزبير بن العوام فعشقها عشقا شديدا، ووقعت بقلبه وقوعا متمكنا. وكان ذلك مدعاة لخطبتها وزواجها.^٣

وقد كان في الطواف فسحة من أمل لدى بعض النساء لتحقيق مطالبهن فعندما حَرَجَ الْمُهْدِيُّ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ لَيْلًا، فَسَمِعَ أَعْرَابِيَّةً تَقُولُ: قَوْمِي مُقْتِرُونَ، نَبَتْ عَنْهُمْ الْعُيُونُ، وَفَدَحَتْهُمْ الدُّيُونُ، وَعَصَّتْهُمْ السُّنُونُ، بَادَتْ رِجَالُهُمْ، وَذَهَبَتْ أَمْوَالُهُمْ،... فَهَلْ مِنْ أَمْرٍ لِي بِخَيْرٍ! قَالَ: فَأَمَرَ لَهَا بِخَمْسِمِائَةِ دِرْهَمٍ.^٤ ومن الشفاعة في الطواف ما روي أن حسن بن إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن حسن، كان متغيبا من المهدي أمير المؤمنين، فحج المهدي فبينما هو يطوف إذ عرضت له فاطمة بنت محمد بن عبد الله بن حسن في ستارة فقالت: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَسْأَلُكَ بِقُرْبَتِكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَا أَمَنْتَ زَوْجِي. قَالَ: وَمَنْ أَنْتَ؟ قَالَتْ: فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَزَوْجِي الْحَسَنُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ. قَالَ: وَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَتْ: مَعِي. فَأَمَنَهُ فَأَخَذَ بِيَدِهِ حِينَ فَرَّغَ مِنْ طَوَافِهِ.^٥

^١ الحلبي، السيرة الحلبية، ٣/٣٨٣.

^٢ الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ١/٢٨٤.

^٣ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ٧/٢٣٧.

^٤ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٣/٤٠٨.

^٥ البلاذري، جمل من أنساب، ٣/٧٦.

ومن البر بالأُم في الطواف مارواه الأصمعي ٢١٠هـ يَقُولُ: بينا أنا أطوف بالكعبة إذا رجل على قفاه كارة^١ وهو يطوف، فقلت له: أتطوف وعليك كارة، فقال: هذه والدتي التي حملتني أريد أن أؤدي حقها.^٢

١٠-١: صفة الطواف في بعض الشهور

١٠-١-١- الطواف في ليلة النصف من شعبان:

لاحظ بعض الرحالة اهتمام أهل مكة بهذه الليلة، فهم يبادرون إلى أعمال البر من الطواف والعمرة والصلاة أفراداً وجماعات، وقد شاهد ابن جبير ليلة السبت احتفالاً عظيماً في الحرم المقدس وشاهد طائفة من المالكية آثرت الطواف في أعمال البر والتقوى.^٣

١٠-٢- الطواف في شهر رمضان:

ومما شاهد الرحالة من اهتمام الناس بالطواف في رمضان انه إذا هلال رمضان ضربوا الطبول والدبابات عند أمير مكة. وبدأوا الاحتفال بالمسجد الحرام، من تجديد الحصر، وتكثير الشمع والمشاعل، حتى يتلأأ الحرم نوراً، ويسطع بهجة وإشراقاً، وتتفرق الأئمة فرقاً وهم الشافعية والحنبلية والحنفية والزيدية، وأما المالكية فيجتمعون على أربعة من القراء، يتناوبون القراءة ويوقدون الشمع ولا تبقى في الحرم زاوية ولا ناحية إلا وفيها قارئ يصلي بجماعة، فيرتج المسجد لأصوات القراء وترق النفوس وتحضر القلوب وتهمل الأعين. ومن الناس من يقتصر على الطواف والصلاة في الحجر منفرداً. والشافعية أكثر الأئمة اجتهاداً، وعاداتهم أنهم إذا أكملوا التراويح المعتادة، وهي عشرون ركعة، يطوف إمامهم وجماعته. فإذا فرغ من الأشواط السبعة ضربت الفرقة التي تكون بين يدي الخطيب يوم الجمعة، فكان ذلك إعلماً بالعودة إلى الصلاة. ثم يصلي ركعتين، ثم يطوف سبعا وهكذا إلى أن يتم عشرين ركعة أخرى. ثم يصلون الشفع والوتر، وينصرفون. وسائر الأئمة لا يزيدون على العادة شيئاً.^٤ ومنهم في شهر رمضان من يؤثر الطواف والصلاة في الحجر على التراويح.^٥

^١ ما جمع من ثيابه في ثوب واحد. ابن نشوان، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، ٥٩٢٦/٩.

^٢ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ٢٢٩/١٠.

^٣ ابن جبير، الرحلة، ص ١٢٠. ابن بطوطة، الرحلة، ص ٥٦.

^٤ ابن بطوطة، الرحلة، ص ٥٧.

^٥ ابن جبير، الرحلة، ص ١٢٢.

ويعود ذلك الاهتمام والتعظيم للطواف في رمضان امتثالاً لفضائل الحصول على الأجر الأكبر، فعن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمرة في رمضان تعدل حجة ومن صام شهر رمضان بمكة فصام كله وقام منه ما تيسر كتب الله له مائة ألف شهر رمضان بغيرها وكان له بكل يوم مغفرة وشفاعة وبكل ليلة مغفرة وشفاعة وبكل يوم وليلة حملان فرس في سبيل الله.^١ ومن التنظيمات في طواف البيت في رمضان ما روي ان المسجد الحرام الحرام كله ، وأن أول من أدار الصُّفوف حول الكعبة خالد بن عبد الله القسري^٢، وكان الناس يقومون قيام شهر رمضان في أعلى المسجد الحرام تركب حربة خلف المقام بربوة فيصلي الإمام خلف الحربة والناس وراءه، فمن أراد صلى مع الإمام ومن أراد طاف وركع خلف المقام، فلما ولي خالد بن عبد الله القسري مكة لعبد الملك بن مروان وحضر شهر رمضان أمر خالد القراء أن يتقدموا فيصلوا خلف المقام وأدار الصُّفوف حول الكعبة، وذلك أن الناس ضاق عليهم أعلى المسجد فأدارهم حول الكعبة فقليل له: يقطع الطواف لغير المكتوبة. قال: فأنا أمرهم يطوفون بين كل ترويحيتين بسبع. فقليل له: إنّه يكون في مؤخر الكعبة وجوانبها من لا يعلم بانقضاء طواف الطائف من مصل وغيره فيتهيأ للصلاة. فأمر عبید الكعبة أن يكبروا حول لكعبة يقولون: الحمد لله والله أكبر فإذا بلغوا الركن الأسود في الطواف السادس سكتوا بين الركنين سكتة حتى يتهيأ الناس ممن في الحجر ومن جوانب المسجد من مصل أو غيره فيعرفون ذلك

^١ الديار بكري، حسين بن محمد بن الحسن (المتوفى: ٩٦٦هـ)، تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، دار صادر - بيروت، ١٢٥/١. الحلبي، السيرة الحلبية، ٣/٣٦٨. القاري، علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي (المتوفى: ١٠١٤هـ)، جمع الوسائل في شرح الشمائل، المطبعة الشرفية - مصر، ٢٥٠/١.

^٢ خالد بن عبد الله القسري هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن كرز بن عامر بن عبد الله بن عبد شمس، كان أمير العراقيين من جهة هشام بن عبد الملك الأموي، ولي مكة سنة تسع وثمانين للهجرة وكان لجدّه يزيد صحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان خالد معدوداً من جملة خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة، ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، المحقق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ط٢، ١٩٠٠/٢٢٦.

بِإِنْقِطَاعِ التَّكْبِيرِ، وَيُصَلِّي وَيَخْفِ الْمُصَلِّي صَلَاتَهُ ثُمَّ يَعُودُونَ إِلَى التَّكْبِيرِ حَتَّى يَفْرغُوا مِنَ السَّبْعِ، وَيَقُومُ مَسْمَعٌ فَيُنَادِي الصَّلَاةَ رَحِمَكُمُ اللَّهُ.^١

وفي هذا العمل توسعة للطائفتين فعن أبي هريرة قال: إننا لنجد في كتاب الله تعالى أن حد المسجد الحرام من الحزورة إلى المسعى. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: أساس المسجد الحرام الذي وضعه إبراهيم عليه الصلاة والسلام من الحزورة إلى المسعى إلى مخرج سيل أجياد.^٢

١٠-٣- الطواف في شوال:

ومن عادات الطوافين في شوال، أن يوقدوا المشاعل ليلة استهلاله، ويسرجون المصابيح والشمع، على نحو فعلهم في ليلة سبع وعشرين من رمضان، وتوقد السرج في الصوامع من جميع جهاتها، ويوقد سطح الحرم كله وسطح المسجد الذي بأعلى أبي قبيس، ويقيم المؤذنين ليلتهم تلك في تهليل وتكبير وتسبيح، والناس ما بين طواف وصلاة وذكر ودعاء فإذا صلوا الفجر أخذوا أهبة العيد ولبسوا أحسن ثيابهم، وبادروا لأخذ مجالسهم بالحرم الشريف، به يصلون صلاة العيد، لأنه لا موضع أفضل منه. ويكون أول من يبكر إلى المسجد الشيبون فيفتحون باب الكعبة المقدسة، ويقعد كبيرهم في عتبتها، وسائرهم بين يديه، إلى أن يأتي أمير مكة فيتلقونه، ويطوف بالبيت سبعا، والمؤذن الزمزي فوق سطح قبة زمزم على العادة، رافعا صوته بالثناء على الأمير والدعاء له...^٣

١١- المعاهدات السرية في الطواف:

ومما جرى من اتفاقيات سرية اثناء الطواف لما مات مسلم بن عتبة سار حصين بن نمير حتى جاء مكة فدعاهم إلى الطاعة وابن الزبير يومئذ بمكة فلم يجيبوه وقاتله ابن الزبير فقتل يومئذ المنذر بن الزبير ورجلان من إخوته ومضعب بن عبد الرحمن بن عوف والمسور بن مخرمة وكان حصين بن نمير قد نصب المجانيق على أبي قبيس وعلى قعيقعان فلم يكدا أحد يقدر على أن يطوف بالبيت فأسند ابن الزبير الواحا من الساج على البيت وألقى عليها الفرش والقطائف فكان إذا وقع عليها الحجر نبا

^١ ابن الضياء، محمد بن أحمد بن الضياء محمد القرشي العمري المكي الحنفي، بهاء الدين أبو البقاء، (المتوفى: ٨٥٤هـ)، تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، تحقيق علاء إبراهيم، أيمن نصر، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، ط٢، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م، ١/١٥٠.

^٢ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ١٤/٢٤.

^٣ ابن بطوطة، الرحلة ٥٨.

عَنِ النَّبِيِّ وَكَانُوا يَطُوفُونَ تَحْتَ تِلْكَ الْأَلْوَابِ فَإِذَا سَمِعُوا صَوْتَ الْحَجَرِ حِينَ يَقَعُ عَلَى الْفُرْشِ وَالْقَطَائِفِ كَبُرُوا وَكَانَ طَوْلُ الْكَعْبَةِ يَوْمَئِذٍ فِي السَّمَاءِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا وَكَانَ ابْنُ الزُّبَيْرِ قَدْ ضَرَبَ فُسْطَاطًا فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ فَكَلَّمَا جُرِحَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ أَدْخَلَهُ ذَلِكَ الْفُسْطَاطَ قَالَ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ وَفِي طَرَفِ سِنَانِ رَمَحِهِ نَارٌ فَأَشْعَلَهَا فِي الْفُسْطَاطِ^١

فبيناهم كذلك إذ ورد على الحصين بن نمير موت يزيد بن معاوية، فأرسل الى عبد الله بن الزبير: ان الذي وجهنا لمحاربتك قد هلك، فهل لك في المودعة؟ وتفتح لنا الأبواب، فنطوف بالبيت، ويختلط الناس بعضهم ببعض. فقبل ذلك ابن الزبير، وامر بأبواب المسجد، ففتحت، فجعل الحصين واصحابه يطوفون بالبيت. فبينما الحصين يطوف بعد العشاء إذ استقبله ابن الزبير، فاخذ الحصين بيده، فقال له سرا: هل لك في الخروج معي الى الشام؟ فادعوا الناس الى بيعتك، فان امرهم قد مرج، ولا ارى أحدا أحق بها اليوم منك، ولست أعصي هناك. فاجتذب عبد الله بن الزبير يده من يده، وقال، وهو يجهر بقوله: دون ان اقتل بكل رجل من اهل الحجاز عشره من اهل الشام. فقال الحصين: لقد كذب من زعم أنك من دهاه العرب، اكلمك سرا، وتكلمني علانية، وأدعوك الى الخلافة وتدعوني الى الحرب. ثم انصرف في اصحابه الى الشام، ومر بالمدينة، فبلغه انهم على محاربتة ثانيا.^٢

وبذلك فقد برز الطواف كركن من اركان الحج من جهة وكموقع للالتقاء من مختلف المناطق والاطياف، ليحقق غايات إسلامية نبيلة خلد ذكرها.

الخاتمة:

توصلت هذه الدراسة لعدد من النتائج على النحو:

- ان صفة الطواف من الناحية الشرعية استمرت على ما كانت عليه منذ زمن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم باستثناء فترة القرامطة الذين أعادوا للطواف بعض مظاهر العصر الجاهلي كالطواف حول البيت العتيق.

^١ أبو العرب، محمد بن أحمد بن تميم التميمي المغربي الإفريقي، (المتوفى: ٣٣٣هـ)، المحن، تحقيق عمر سليمان العقيلي، دار العلوم - الرياض - السعودية، ط ١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ١/٢٠٣.

^٢ الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود (المتوفى: ٢٨٢هـ)، الأخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربي - عيسى البابي الحلبي وشركاه / القاهرة، ط ١، ١٩٦٠م، ١/٢٦٨.

- برزت بعض مظاهر التفاخر والتباهي في الطواف من خلال مشاهدات الرحالة كالموكب والاحتفال بقدم الوالي ودق الطبول واشعال الشموع كنوع من المفاخرة واللهو.
- أظهرت الدراسة بعض المتاعب التي قد تعترض الطائفين في البيت كالسيول ومخاطرها وما ينجم عنها من ملء صحن الطواف بالماء واستدعاء العوم في الطواف وهذا بشكل مؤقت لحين الخروج من سيلان الماء الناجم عن سرعة جريان السيول.
- عانى بعض الحجاج من تعديات السرو المائرون بما يمتازون به من قسوة وعنف وتدافع في الوقت الذي يعملون فيه تجارا في مكة المكرمة.
- كان للنساء دور مهم في الطواف كتقديم مظلمة وفرصة للمصاهرات.
- كان الطواف فرصة لعقد المعاهدات السرية وتبادل الآراء وتقديم النصح والمشورة.
- تحدثت كتب الرحلات عن عدد ممن اشتهر بكثرة الطواف ومن المشهود لهم بذلك.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين (المتوفى: ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
- البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، التاريخ الكبير، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد - الدكن.
- البعلي، محمد بن أبي الفتح بن أبي الفضل، أبو عبد الله، شمس الدين (المتوفى: ٧٠٩هـ)، المطلع على ألفاظ المقنع، تحقيق محمود الأرنؤوط وياسين محمود الخطيب، مكتبة السوادي للتوزيع، ط١ ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
- البغدادي، عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي البغدادي، الحنبلي، صفى الدين (المتوفى: ٧٣٩هـ)، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.
- برو، توفيق، تاريخ العرب القديم، دار الفكر، ط٢، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، ٣٠٠/١.
- البلأذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود (المتوفى: ٢٧٩هـ)، جمل من أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر - بيروت، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبد الله، (المتوفى: ٧٧٩هـ)، رحلة ابن بطوطة (تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧هـ.
- ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار صادر.

- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (المتوفى: ٥٩٧هـ)، مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن، تحقيق مرزوق علي إبراهيم، دار الولاية، ط١، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.
- الحرزي، يحيى بن أبي بكر بن محمد بن يحيى العامري (المتوفى: ٨٩٣هـ)، بهجة المحافل وبغية الأماثل في تلخيص المعجزات والسير والشماثل، دار صادر - بيروت.
- الحلي، علي بن إبراهيم بن أحمد، أبو الفرج، نور الدين ابن برهان الدين (المتوفى: ١٠٤٤هـ)، السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، دار الكتب العلمية - بيروت، ط٢، ١٤٢٧هـ.
- الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، تحقيق فريد عبدالعزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- الحنفي، رضي الدين الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر العدوي العمري القرشي الصغاني (المتوفى: ٦٥٠هـ)، العباب الزاخر واللباب الفاخر.
- ابن حوقل، أبي القاسم بن حوقل النصيبي، كتاب صورة الارض، دار الكتاب الاسلامي، القاهرة.
- ابن خردادبة، أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله، المسالك والممالك، وضع مقدمته وحواشيه وفهارسه محمد مخزوم، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- الخركوشي، عبد الملك بن محمد بن إبراهيم النيسابوري، أبو سعد (المتوفى: ٤٠٧هـ)، شرف المصطفى، دار البشائر الإسلامية - مكة، ط١، ١٤٢٤ هـ.
- خسرو، ناصر أبي معين الدين ناصر خسرو القبادياني المروزي، (ت ٤٨١هـ) سفرنامه، ترجمة وتقديم احمد خالد البدلي، جامعة الملك سعود، الرياض.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإبلي (المتوفى: ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، المحقق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ط٢، ١٩٠٠م.
- خليفة بن خياط، أبو عمرو خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفري البصري (المتوفى: ٢٤٠هـ)، طبقات خليفة بن خياط، رواية: أبي عمران موسى بن زكريا بن يحيى التستري (ت ق ٣ هـ)، محمد بن أحمد بن محمد الأزدي (ت ق ٣ هـ)، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٤ هـ = ١٩٩٣ م.
- الدمشقي، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَكَة الميداني (المتوفى: ١٤٢٥هـ)، البلاغة العربية، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط١، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.
- دُوَزي، رينهارت بيتر آن (المتوفى: ١٣٠٠هـ)، تكلمة المعاجم العربية، نقله إلى العربية وعلق عليه: جمال الخياط، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ط١، ١٩٧٩ - ٢٠٠٠ م.

- الديار بكري، حسين بن محمد بن الحسن (المتوفى: ٩٦٦هـ)، تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، دار صادر - بيروت، ١/١٢٥.
- الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود (المتوفى: ٢٨٢هـ)، الأخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربي - عيسى البابي الحلبي وشركاه / القاهرة، ط١، ١٩٦٠ م.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (المتوفى: ٧٤٨هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، دار الكتاب العربي، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، بيروت، ط٢، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.
- الرصاص، محمد بن قاسم الأنصاري، أبو عبد الله، التونسي المالكي (المتوفى: ٨٩٤هـ)، الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية. (شرح حدود ابن عرفة للرصاص)، المكتبة العلمية، ط١، ١٣٥٠هـ.
- أبو زرعة، عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان النصري المشهور بأبي زرعة الدمشقي الملقب بشيخ الشباب (المتوفى: ٢٨١هـ)، تاريخ أبي زرعة الدمشقي، رواية: أبي الميمون بن راشد، دراسة وتحقيق: شكر الله نعمة الله القوجاني (أصل الكتاب رسالة ماجستير بكلية الآداب - بغداد)، مجمع اللغة العربية - دمشق.
- السبتي، عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن يحيى، أبو الفضل (المتوفى: ٥٤٤هـ)، مشارق الأنوار على صحاح الآثار، المكتبة العتيقة ودار التراث.
- ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (المتوفى: ٢٣٠هـ)، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (المتوفى: ٩١١هـ)، تاريخ الخلفاء، تحقيق حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المخصص، تحقيق خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١، ١٤١٧ هـ ١٩٩٦ م.
- الشامي، محمد بن يوسف الصالحي (المتوفى: ٩٤٢هـ)، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود و علي محمد معوض، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (المتوفى: ٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث - بيروت، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- ابن الضياء، محمد بن أحمد بن الضياء محمد القرشي العمري المكي الحنفي، بهاء الدين أبو البقاء، (المتوفى: ٨٥٤هـ)، تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، تحقيق علاء إبراهيم، أمين نصر، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، ط٢، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤م.

- ابن العديم، عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي، كمال الدين ابن العديم (المتوفى: ٦٦٠هـ)، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر.
- أبو العرب، محمد بن أحمد بن تميم التميمي المغربي الإفريقي، (المتوفى: ٣٣٣هـ)، المحن، تحقيق عمر سليمان العقيلي، دار العلوم - الرياض - السعودية، ط١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف (المتوفى: ٥٧١هـ)، تاريخ دمشق، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
- علي، جواد (المتوفى: ١٤٠٨هـ)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقى، ط٤، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- العلمي، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الحنبلي، أبو اليمن، مجير الدين (المتوفى: ٩٢٨هـ)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس - عمان.
- عمر، أحمد مختار عبد الحميد (المتوفى: ١٤٢٤هـ)، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط١، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.
- العمرى، ابن فضل الله، مسالك الابصار في ممالك الامصار، تحقيق احمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٢هـ، ١٩٢٤م.
- العياشي، عبدالله بن محمد (ت ١٠٩٠هـ)، مقتطفات من رحلة العياشي (ماء الموائد)، دار الرفاعي، الرياض، ط١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- الفاصي، محمد بن أحمد بن علي، تقي الدين، أبو الطيب المكي الحسني (المتوفى: ٨٣٢هـ)، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، دار الكتب العلمية، ط١ ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، صاحب حماة (المتوفى: ٧٣٢هـ)، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، ط١.
- الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (المتوفى: ٨١٧هـ)، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط٨، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م.
- القسطلاني، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين (المتوفى: ٩٢٣هـ)، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، المكتبة التوفيقية، القاهرة - مصر.
- قلعجي، محمد رواس و قنيبي، حامد صادق، معجم لغة الفقهاء، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- القاري، علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي (المتوفى: ١٠١٤هـ)، جمع الوسائل في شرح الشمائل، المطبعة الشرفية - مصر.

- كبريت، محمد بن عبد الله بن محمد، من أحفاد شرف الدين بن يحيى الحمزي الحسيني المولوي المعروف (المتوفى: ١٠٧٠هـ)، رحلة الشتاء والصيف، حققها وقدمها وفهرسها: الأستاذ محمد سعيد الطنطاوي، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٣٨٥ هـ.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٦ م.
- الكرخي، ابن اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الاضطخري (ت ٣٢١هـ/٩٣٣م)، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبدالعال الحيني، مراجعة محمد شفيق غريال، دار القلم، ١٣٨١هـ/١٩٦١م.
- ابن المجاور، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تأريخ المستبصر، اعتنى بتصحيحها وضبطها اوسكر لوفقرين، طبعت في مدينة ليدن بمطبعة بريل، ١٩٥١م.
- المقدسي، المطهر بن طاهر (المتوفى: نحو ٣٥٥هـ)، البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد.
- المقدسي، شمس الدين ابي عبدالله محمد بن احمد بن ابي بكر (ت ٣٨٠هـ) أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، علق عليه ووضع حواشيه محمد امين الضناوي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت.
- المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين (المتوفى: ٨٤٥هـ)، إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تحقيق محمد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر - بيروت، ط٣، ١٤١٤ هـ.
- مهر، غلام رسول، يوميات رحلة في الحجاز ١٣٤٨ هـ، ١٩٣٠م، ترجمة سمير عبد الحميد ابراهيم، طبع على نفقة الملك سلمان بن عبدالعزيز آل سعود، دار الملك عبدالعزيز، ١٤١٧هـ.
- ابن نشوان، سعيد الحميري اليميني (المتوفى: ٥٧٣هـ)، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، المحقق: د حسين بن عبد الله العمري - مطهر بن علي الإيراني - د يوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر (بيروت - لبنان)، دار الفكر (دمشق - سورية)، ط١، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
- النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (المتوفى: ٦٧٦هـ)، تهذيب الأسماء واللغات، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (المتوفى: ٦٧٦هـ)، تحرير ألفاظ، تحقيق عبد الغني الدقر، دار القلم - دمشق، ط١، ١٤٠٨ هـ.

النويري، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين (المتوفى: ٧٣٣هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، ١٤٢٣ هـ.

اليافعي، أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان (المتوفى: ٧٦٨هـ)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

الحداقة : طقوس التخرج العلمي في العصور الإسلامية

Al-hezaqa: The Scientific Graduation Rituals in the Islamic Ages

د. عبدالله علي نوح

د. كريمة أحمد عوض الحاسي

جامعة بنغازي _ ليبيا

جامعة عمر المختار _ ليبيا

dr.karema552@gmail.com

aa24083@gmail.com

الملخص:

الحداقة مصطلح يعكس في مفاهيم الناس وعقلهم الجمعي إطاراً يحمل معنى الذكاء أو إتقان فرع من فروع العلم ، بيد أن الحداقة أيضاً طقس علمي إسلامي صاحب إعلان التخرج واكتساب حظ من المعرفة العلمية، وذلك عندما كان المسلمون في العصور الوسطى يميزون المتعلمين بنظام أطلقوا عليه مصطلح (الحداقة) المتضمن لنظمة أخرى عرفت باسم (الإجازة)، والتي تعني السماح للمتعلم بتدريس العلوم ، وذلك بإذن مشائخ العلم للمتعلم الذي تدرج على يديهم ، فتخرج وأكمل تعليمه.

فقد ترافقت الإجازة كإعلان عن التحصيل والتعلم والتخرج ، مع بعض الطقوس والمظاهر الاحتفالية منها الإقرار للمتعلم بكتابة رقعة من المعلم أو الشيخ أو الطبيب للطالب (شهادة التخرج)، والباسه الطيلسان وهو زي خاص بالخريجين، وعمل وليمة يوم التخرج ، وهذه مجتمعة هي (الحداقة) .

وهذا البحث محاولة لعرض نظمة التخرج العلمي (الحداقة) ووصف طقوسها، في تجربةٍ لذكر أمثيل الاحتفال بالتخرج العلمي ، ووصف مظاهر إعلان تحصيل العلوم في العصور الوسطى بين المسلمين.

الكلمات المفتاحية (الحداقة ، الإجازة ، التخرج ، طقوس احتفالية ، شهادة علمية)

Abstract:

Al-hezaqa (the cleverness) is a term that scholars have known within the framework of mastery in one of the branches of knowledge and science, but cleverness is also a ritual that accompanied the announcement of graduation and the acquisition of a share of scientific knowledge, when muslims in the middle ages distinguished the learners by a system they called (Al-ejaza) which meant allowing the learner to he teaches science, and that is

the permission of the elders and teachers to the learner that he has graduated and completed his education.

hezaqa was to accompanied by some ceremonial rituals and manifestations , including (the feast) on graduation day, and writing a graduation letter from the teacher to the student, with a special dress that is often represented in a dress called (the tailasan) which is the dress of graduates in the sciences of Islamic civilization.

this research studies the system of hezaqa and describes its rituals in an attempt to explain the rites of scientific graduation in the Middle ages among Muslims.

Key words: (Al-hezaqa, Al-ejaza, graduation, ceremonial rituals, academic degree)

المقدمة:

درج الناس في كل عصر فيه مظهر من مظاهر علم منتظم، أو ملمح من ملامح تعليم متواتر، أن يعترفوا للمتعلم بأنه أكمل نصيباً من التعليم، ويشهدوا له بأنه حصل قسطاً وافراً من المعرفة، فيما يعرف بيوم بالتخرج أو الحصول على الشهادة العلمية

ولما كانت حضارة الإسلام سبّاقة في كل بحر من العلوم، متفردة في كل عيلم من عيالم المعرفة، فالحري أن يكون لاكتمال التعلم شهادة، ولاستكمال المعرفة حفل وإشهار، ليعلم الناس أن فلاناً قد نال من العلم نصيباً، ومن الحكمة قدراً، ومن التعلم مقداراً.

لذا ظهرت أنظمة حضارية إسلامية بعد فشو العلم في دول الإسلام، وتمكن الاستتفاف من مجتمعاتهم، توطر لمزية علمية بزّت بها حضارة الإسلام في العصور الوسطى غيرها من حضارات الأرض، وهي أنظمة التخرج العلمي، ومنح الشهادات العلمية، والإقرار للمتعلم بأنه وصل لمرحلة يشهد له فيها معلموه ومؤدبوه ومن أخذ عنهم ومن سمع منهم ومن أجازوه، بأنه حريّ بتدريس العلوم، جدير بتعليم غيره، مستحق للتصنيف والتأليف في علمه الذي تفقه فيه، سيان كان حفظاً وتحفيظاً للقرآن أو

فقهاً أو أدباً أو روايةً أو تاريخاً أو نحواً أو طباً أو فلماً أو حرفةً أو صنعةً، أو غيرها من فروع العلم الإسلامي الغزير.

هذه النظمة التي هي أقرب للطقس الأكاديمي الحديث (متطلبات التخرج) أو احتفالية التخرج، كانت تسمى في عصر النهضة الإسلامية الحداقة بكسر الحاء، والحداق يحمل شمولية معاني التخرج أي التمكن من علمٍ أو صنعةٍ .

إشكالية البحث:

يعرض البحث إشكالية الظنية في العقل الجمعي الحديث، بأن جلّ أو أغلب الطقوس والمظاهر المتعلقة بالتحصيل العلمي، ذات منشأ أني حداثي، كتعبير عن مدى التطور الحاصل في صور التخرج العلمي ونيل الشهادات العلمية، وأن المجتمعات السابقة برغم حضارتها، لم تصل لمستوى إعطاء شهادات تخرج علمي، والحق الحاصل أن ذلك ليس كذلك، ففي حضارة الإسلام نظمة حضارية تسمى (الحداقة) تعكس تماماً طقوس التخرج العلمي بكل صورته الحداثية.

فهل كانت نظمة الحداقة العربية الإسلامية، تعكس ولو بصورة مقاربة طقوس التخرج ومنح الشهادات العلمية المعاصرة؟ وهل في ثنايا العقل الجمعي العلمي لأهل العلم في الحضارة الإسلامية، فكرة متكاملة عن منح الشهادات العلمية بكل متطلباتها تتماهى مع نظام التخرج العمي؟

أهداف البحث:

- _ رصد نظمة اختتام مراحل الاستتفاف والتعلم في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.
- _ تسجيل صور التخرج (استكمال المعرفة المتخصصة) في بعض فترات تاريخ الحضارة الإسلامية
- _ المقارنة بين صور التخرج والاحتفاء بها لدى المتعلمين في دول الإسلام في العصور الوسطى.

منهجية البحث:

سيركن البحث إلى اعتماد منهج السرد التاريخي، والجنوح إلى منهج الوصف باعتماد تسجيل بعض صور نظمة الحذاقة، ومحاولة مقارنة أنماطها التاريخية، وربطها بالفكرة العامة للبحث.

مفهوم الحذاقة:

يحمل معنى الحذق في لغة العرب مفهوم المهارة والتمكن من عملٍ بعينه، والتبحر في علم بذاته، جاء في كتاب كنز العمال " الحذق والحذاقة : المهارة في كل عمل، حذق الشيء يحذقه وحذقه حذقاً وحذقاً وحذاقاً وحذاقاً، وحذاقة وحذاقة، فهو حاذق"^(١)، وعند ابن منظور: " الحذق والحذاقة المهارة في كل عمل ، حذق الشيء يحذقه وحذقه حذقاً وحذقاً وحذاقاً وحذاقاً فهو حاذقٌ من قومٍ حذاقٍ"^(٢).

أما كيف تعلق مصطلح الحذاقة باستكمال درجة من العلم والتحصيل ، فأمر يرجع الفضل فيه إلى القرآن الكريم أولاً، لأنه أول كلام حرص المسلمون في صدر الإسلام أيما حرص على حفظه وفهمه، حتى اعتبروا أن الحذق كل الحذق في حفظه كاملاً^(٣)، كما أن الحاذق عندهم هو من أتقن قراءة القرآن ، مع تمكن الحفظ وجودة اللفظ^(٤).

ومنذ ظهور الإسلام درج المسلمون على تحفيز صبيانهم على حفظ القرآن والحذق فيه ، حتى كان ختم القرآن الكريم كاملاً ملازماً لصفة الحذق ، بل سمي الطعام الذي يصنع بمناسبة الاحتفال بختم

(١) علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين البرهان فوري ، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، ج١٠ ، ط٥ ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٥ ، ص٢٦٧.

(٢) جمال الدين أبو الفضل محمد بن منظور، لسان العرب ، ج١٠، تحقيق عامر أحمد حيدر، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٩ ، ص٤٨.

(٣) أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني، النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات، ج ٦ ، تحقيق محمد عثمان، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ٢٠١٠ ، ص١١٠.

(٤) علي بن سلطان محمد القاري ، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، ج٥، تحقيق محمد عيتاني ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ٢٠١٥ ، ص٨.

القرآن الكريم الحذاقة^(١) ، ويقول ابن طولون الدمشقي إن لفظ الحذاقة توسع فيما يخص حفظ القرآن كله أو بعضه ، فبات حفظ القرآن كاملاً أو نصفه أو ربعه أو ثمنه مناسبة يولم فيها وتسمى الحذاقة، فمما ذكره في هذا الصدد أن الحذاقة: "هي الإطعام عند ختم القرآن ، وكذا إذا ختم الثمن أو الربع أو النصف"^(٢)، ويضيف أن اليوم الذي تعمل فيه هذه الوليمة يسمى يوم الحذاق بالنسبة للحاذق الذي حفظ القرآن أو بعضه "ويقال لليوم الذي يختم فيه القرآن هذا يوم حذاقه"^(٣).

واعتبر الشيخ الرجراحي أن الحذاقة لا تتجاوز الجعالة التي تعطى للمحفظ نظير تحفيظه القرآن الصبية، ويسميتها الحذقة، ويجعلها قصراً على ختم القرآن كاملاً، فيقول: "الحذقة التي يأخذها المعلم... وقيل لا حذقة إلا حذقة الختمة، أعني ختم القرآن"^(٤).

ومع الوقت وتطور العلوم العربية في كنف الحضارة الإسلامية، بدت شعيرة الحذاقة تتخذ صوراً متنوعة، وفي غير علم من علوم الحضارة الإسلامية، فباتت الحذاقة متصلة بفهم أي فرع من فروع العلم ، والنهل من المعارف بدرجة يركن معها المقريء للقرآن أو الشيخ أو الفقيه أو الأديب أو المؤرخ أو الطبيب أو الفلكي وغيرهم ، إلى أن تلميذه أو طالب علمه ، قد وصل إلى مرحلة يمكنه من خلالها الجلوس للتدريس والتصنيف.

شهادة الحذاقة:

(١) أبو سعيد فرج بن قاسم بن أحمد بن لبّ الغرناطي ، تقريب الأمل البعيد في نوازل الأستاذ أبي سعيد ، ج ١، تحقيق حسن مختاري وهشام الرامي ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٤، ص ٧.

(٢) شمس الدين محمد بن علي بن طولون الدمشقي ، فص الخواتم فيما قيل في الولائم ، ط ١، تحقيق نزار أباطة ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٨٣، ص ٦٥.

(٣) نفس المصدر ، ص ٦٦.

(٤) أبو علي الحسين بن علي بن طلحة الرجراحي، الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة، تحقيق إدريس عزوزي، الدار البيضاء، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٨٩، ص ٢٨٧، ٢٨٨.

تتوزع كتب القراءات واللغة والأدب والتواريخ بصورٍ عديدةٍ لمنح شهادة الحذاقة، ويصرّح فيها المعلمون والمؤدبون كتابةً أن فلان بن فلان قد حذق العلم الفلاني، أو يكتب أحدهم أنه حذق عليّ فلان وبين يديّ الكتاب الفلاني، تصريحاً يفهم منه أن فلاناً هذا قد حفظ وفهم واستوعب المراد من حلقات الدرس التي ارتادها بين يدي معلمه أو مؤدبه.

فمنذ عهد الصحابة الكرام بدأت علائم الحذاقة وبوادرها الحسنة تظهر في سلوك الناس نحو أولادهم حين يحذقون، ونحو مؤدبي أولادهم، فقد أثار عن الحسن البصري أنه قال: " كانوا إذا حذق الغلام قبل اليوم، نحروا جزوراً، واتخذوا طعاماً"^(١).

وروى البيهقي في كتابه السنن الكبرى، أن أبا مسعود الأنصاري أقام حذاقة لصبي في الكُتّاب التي يتعلم فيها الصبيان حفظ القرآن، فقال: " إن غلاماً من الكُتّاب حذق، فأمر أبو مسعود فاشترى لصبيانه بدرهمٍ جوزاً"^(٢)، وفي رواية ابن عدي في كتابه (الكامل في ضعاف الرجال) أن الذي حذق هو ولد أبي مسعود الأنصاري نفسه، حيث كان نص روايته: "عن خالد بن سعد أن أبا مسعود الأنصاري حذق غلام في الكُتّاب، فأمر فاشترى لابنه جوزاً بدرهم"^(٣).

وذكر ياقوت الحموي في كتابه إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، أنه وجد في كتاب الفصيح للأخفش النحويّ شهادة حذاقة بخط يد الناسخ علي بن عبدالله العلوي، ونصها: "حذق عليّ هذا الكتاب وهو

(١) رضاء الحق المفتي، الدرة الفردة شرح قصيدة البردة، ج١، ترجمة وتحقيق أويس بن يعقوب، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٢٠، ص٢٢١.

(٢) أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، السنن الكبرى، ج٧، ط٢، تحقيق محمد عالقادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ص٤٦٨.

(٣) أبو أحمد عبدالله بن عدي الجرجاني، الكامل في ضعفاء الرجال، ج٧، ط١، تحقيق عادل أحمد عبدالموجود وآخرين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، ص١٦٠.

كتاب الفصيح، أبو القاسم سليمان بن المبارك الخاصة الشرفي-أدام الله أيامه- من أوله إلى آخره قراءة فهم وتصحيح^(١)، فالأخفش هنا شهد لابن المبارك بالحداقة في كتابه الفصيح.

وربما كان الحدق في حفظ القرآن يتجه لرواية بعينها، فقد ذكر في كتاب لأبي عمرو الداني في ترجمة القاضي أحمد بن محمد بن الأشعث البغدادي، أنه "قرأ القرآن على أبي نشيط وأحمد بن زرار صاحب سليم، وحدق في قراءة قالون"^(٢).

ويبدو أن طقس الحداقة بدأ يتضح أكثر بقيام نوي طلاب العلم بدفع الجعالة (الرسوم) ، حيث يدفعون رسوماً دراسية للمؤدبين مقابل تعليم أولادهم في الكتاب، فكانوا إذا حدق الصبي وتخرج في الكتاب أكرم أهله معلميه أيما إكرام، فهذا الإمام أبوحنيفة قام حين حدق ابنه حماد، فوهب لمعلمه خمسمائة درهم^(٣)، وكانت الحداقة المتمثلة في الجعالة التي تعطى للمؤدبين مثل الأجرة التي تؤخذ نظير التعليم والتأديب، وربما كان بعض المؤدبين لا يجيز لنفسه أخذ الجعالة عن تحفيظ القرآن، ويأخذها عما سواه من العلوم.

وروي أن المؤدب محمد بن سعيد الوراق الكوفي والد النحوي الشهير أبي العباس بن عقدة النحوي كان يؤدب ولداً لابن هشام الخزاز وهو تاجر ثري، " فلما حدق الصبي وتعلم، وجّه إليه ابن هشام بدنانير صالحة فردها، فظن ابن هشام أن عقدة استقلها فأضعفها له، فقال عقدة : ما رددتها استقلالاً،

(١) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج ٥، ط ١، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣، ص ١٩٥٨.

(٢) أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان الداني، التعريف في اختلاف الرواة عن نافع، ط ١، تحقيق محمد السحابي، الرباط، مطبعة وراقة الفضيلة، د.ت ، ص ٣١.

(٣) محمد بن عبدالحق بن شاه الحنفي، الإكليل على مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ج ١، تحقيق محي الدين أسامة البيرقدار، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٥، ص ٢٦٥.

ولكني سألني الصبي أن أعلمه القرآن، فاختلط تعليم النحو بتعليم القرآن، فلا أستحل أن آخذ منه شيئاً ولو دفع إلى الدنيا"^(١).

وكان الصحابة الكرام والتابعون من بعدهم قد انتهجوا سبيل استئان الحذاقة، وقرنوها باستكمال حفظ القرآن الكريم، فقد ثبت أنهم " كانوا يستحبون إذا جمع الصبي القرآن أن يذبح الرجل الشاة ويدعو أصحابه"^(٢)، ومن جميل صنعهم في الاحتفاء بحفظ القرآن، تفريقهم بين الحذاقة والإجارة على تعليم القرآن، فقد كانوا يرون أنه " تجوز الإجارة على تعلم القرآن مشاهرةً، أى قراءته في المصحف من غير حفظ، ولا يجوز الجمع بين المشاهرة والحذاق على المشهور"^(٣).

ومن صور الحذاقة المبكرة التي تحمل معاني التكريم للمتعلم إذا ظهر نبوغه، ما حدث للإمام الشافعي مع معلمه، ذلك أن الشافعي كان فقيراً، تعهدت أمه بتربيته وتقديم الجعالة لمعلمه، فلما لاحظ معلمه نجابته جعله " إذا فرغ من درسه يعلم صبيان الكُتاب، فنظر المعلم فإذا ما يكفيه من أمر الصبيان وينفعه أكثر من أجرته، فلم يأخذ من أمه أجراً، فلم يزل على ذلك حتى حذق"^(٤).

كما نلمس صوراً لتمييز بعض التلامذة عن أقرانهم، فيما يعرف الآن بالأوائل، وذلك بتكريمهم لتحفيزهم على مزيد التعلم، فقد روي أن بعض المؤدبين كانوا يهبون الجوائز للطلاب الذين يبرزون أقرانهم في الحفظ والنباهة، إما بالقرآن أو الحديث أو الشعر، أو يحفظون ديوان شعر أو كتاباً معيناً؛

(١) أبوبكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قطانها العلماء من غير أهلها ووارديها، ج٦، ط١، تحقيق بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠١، ص١٥٠.

(٢) ابن طولون، فص الخواتم، ص٦٦.

(٣) أبو الحسن علي بن أحمد بن مكرم العدوي، حاشية العدوي على شرح أبي الحسن لرسالة ابن أبي زيد المسمى كفاية الطالب الرباني لرسالة ابن أبي زيد القيرواني في مذهب مالك، ج٢، بيروت، دار إحياء الكتب العربية، ٢٠٠٩، ص١٨٠.

(٤) أبوبكر أحمد بن الحسين البيهقي، مناقب الشافعي، ط١، تحقيق أحمد صقر، القاهرة، مكتبة دار التراث، ١٩٧١، ص٩٤.

فقد روى الحافظ أبو تميلة يحيى بن واضح المروزي، أن والده وعبدالله بن المبارك المروزي _ وهو من أعلام علماء القرن الثاني الهجري _ كانا تاجرين موسرين، فكانا يرصدان لأولادهما جائزة عن كل شيء يحفظونه، واتصلت جائزتهما بالشعر كذلك، قال أبو تميلة: " وكانا قد جعلنا لكل من حفظ منا قصيدة درهماً، فكانت أتفظ أنا وابن المبارك القصائد"^(١).

كما حظي التمكن من كتب الفقه والحديث ونحوها بأوجه الحذاقة ، فكانت تقام الحذاقات إذا ختم أحد طلاب العلم كتب الفقه أو رواية الحديث، فقد روي الياضي في كتابه (مرآة الجنان) أنه أتم قراءة كتاب (التنبيه) في الفقه الشافعي لأبي إسحق الشيرازي، على شيخه جمال الدين البصالي، فجعل حذاقة ذلك أنه أولم "وليمة كبيرة، وذبج كبشين، وأطعم جماعة كثيرة"^(٢).

وفي مجال الحذاقة عن حفظ وفهم الحديث الشريف، روى الحافظ ابن حجر أن تاجراً موسراً من أهل حلب، وهو جمال الدين يوسف بن علي الدوري، جلس لسماع صحيح البخاري في جامع حلب، فلما أتم حفظه وفهم معانيه، وزع الخلع والهدايا على الناس إعلاناً بحذقه في صحيح البخاري^(٣).

وقد يقوم البعض ضمن الحذاقة بتزيين المسجد أو الكتاب الذي حذق فيه، تدليلاً على مظاهر الابتهاج، ومن ذلك أن أحد الحذاق لما أتم القرآن، قام والده عند ختمه بوقيد المسجد بالشموع بهذه المناسبة، والحكاية عند السخاوي في كتابه (الضوء اللامع) حيث قال في ترجمته للمحدث القاريء،

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام، ص ١٩٣.

(٢) أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي الياضي ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، ج ٤، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧، ص ٢٣٣.

(٣) محمد بن حسن بن عقيل بن موسى، المختار المصون من أعلام القرون، ج ١١، ط ١، جدة ، دار الأندلس الخضراء، ١٩٩٥، ص ٢٥٧.

عبد الواحد بن الزين أحمد بن الجمال الطبري أنه: " اعتنى به أبوه، فحفظه القرآن، واحتفل لصلاته به عند ختمه بوقيد المسجد والشموع"^(١).

وربما يمتد مظهر إيقاد المسجد بالشموع إلى إقامة احتفال بهيج، يدعا إليه أكابر البلد، فقد ذكر السخاوي، أن بعض الحذاق عقد مجلساً في الجامع الأزهر، تخلله احتفال كبير دعي إليه الناس من أكابر البلد والوجهاء^(٢).

وتزدان رحلة ابن جبير المشهورة بأخبار الصبيان الذين حذقوا، ومظاهر الاحتفاء بهم، خاصة لدى أهل الحجاز ومصر، فقد أورد ابن جبير في رحلته، أنه حضر ليلة في شهر رمضان المبارك في الحرم المكي " ختم فيها أحد أبناء مكة، وحضر الختمة القاضي وجماعة من الأسيخ، فلما فرغوا منها قام الصبي فيهم خطيباً، ثم استدعاهم أبو الصبي المذكور إلى منزله إلى طعام وحلوى قد أعدهما"^(٣).

ويظهر أن السماح للصبيان الحاذقين بإلقاء خطب يوم حذقهم، كان سمة من سمات الاحتفال في بعض أمصار الإسلام، حيث زاد ابن جبير أنه حضر في ذات الشهر المبارك حذاقة " كان المختتم فيها أحد أبناء المكيين ذوي اليسار، غلاماً لم يبلغ الخمس عشرة سنة، فاحتفل أبوه لهذه الليلة احتفالاً بديعاً، وذلك أن أعد له ثريا مصنوعة من الشمع، مغصنة، قد انتظمت فيها أنواع الفواكه الرطبة واليابسة، وأعد لها شمعاً كثيراً، ووضعه في وسط الحرم"^(٤).

وصنعت للحفل منضدة مزينة كبيرة، يصفها ابن جبير ببناء " شبيهه المحراب المربع، من أعواد مشرجبة، قد أقيم على قوائم أربعة، وربطت في أعلاه عيدان نزلت منها قناديل، وأسرجت في أعلاها

(١) شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج٥، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣، ص٨٥.

(٢) السخاوي، الضوء اللامع، ص٣٠.

(٣) أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير البلنسي، رحلة ابن جبير المعروفة باسم اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣، ص١١٩.

(٤) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١١٩.

مصباح ... وأوقدت الثريا المغصنة ذات الفواكه، وأمعن الاحتفال في هذا كله، ووضع بمقربة من المحراب منبر مجلل بكسوة مجزعة مختلفة الألوان، وحضر الإمام الطفل فصلى التراويح وختم، وقد انحشد أهل المسجد الحرام إليه رجالاً ونساءً، وهو في محرابه لا يكاد يبصر من كثرة شعاع الشمع المحدق به^(١).

كما كان بعض المؤدبين والمحفظين يضيفي نوعاً من البهجة على الحداقة بتكريمه النجباء من طلاب العلم عنده، كنوع من التمييز والتكريم والاعتراف لهم بالنجابة، ومما يروى في ذلك ما أورده الأصفهاني من أن الشاعر المعروف أبا نواس نشأ بالبصرة، وقرأ القرآن وحفظه على المقرئ يعقوب الحضرمي، فلما حذق أبو نواس أعطاه المقرئ يعقوب الحضرمي خاتمه جائزة له^(٢).
وينحو بعض المؤدبين إلى رصد جوائز تحفيزية لبعض مرديهم من باب التشجيع على نشر مذهب بعينه أو علم بذاته أو كتاب بنصه، من ذلك ما روي عن القاضي أبي زرعة النقي المتعصب للمذهب الشافعي، فكان يروم من طلابه نشر المذهب وإفشاءه بين الناس والمتعلمين، وجعل جائزة حذق الطالب إذا حفظ كتاب (مختصر المزني) في الفقه الشافعي للفقهاء إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل المصري المزني، مائة دينار كاملة^(٣).

حداقات الملوك والسلاطين:

سرت مع تقادم الأزمان وتتابع الأيام صور الحداقات، وبدأت تتسع من حفلات متواضعة بسيطة إلى صور من البذخ والتباهي، بحسب مكانة الحاذق ومنزلة ذويه، ففي زمن الخليفة المتوكل العباسي الذي كان ينتظر حذق ولده المعتز الذي أصبح خليفة فيما بعد بدأ يجهز للاحتفال بذلك، وعزم

(١) نفس المصدر ، نفس الصفحة.

(٢) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، الأغاني، ج١٣، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٨، ص١٣.

(٣) أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، تاريخ المقرئ الكبير المسمى المقفى الكبير، ج٥، تحقيق محمد السيد عثمان، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٠، ص٤٦٥.

على جعل يوم حذاقه مميزاً لأنه ابن الخليفة، ويورد ابن عساكر في كتابه (تاريخ دمشق) وصفاً كاملاً ليوم حذاق المعتز فيقول:

" لما حذق المعتز القرآن، دعا المتوكل شفيحاً الخادم بحضرة الفتح بن خاقان، فقال: إنني عزمت على حذق أبي عبدالله (يقصد ولده المعتز) في يوم كذا، وتكون خطبته عليّ وحذاقه... فأخرج من خزانة الجوهر جوهراً بقيمة مائة ألف دينار في صواني فضة للنتار على من يقرب من القادة مثل محمد بن عبدالله، وبغا، وجعفر الخياط، ورجاء الحصري... وأخرج مائة ألف دينار عدداً ، للنتار على القادة الذين هم دون هؤلاء... وأخرج ألف درهم بيضاً صحاحاً للنتار على من في الصحن من خلفاء القادة والنقباء"^(١).

وتم تكريم معلم المعتز_ وهو الشيخ محمد بن عمران_ بصينية من الذهب بها جواهر قيمته خمسة آلاف دينار، أعطيت له بعد أن ألقى خطبة في الاحتفال^(٢)، ثم أشعل الشمع الكثير، وكان " كله من العنبر، إلا الشمعة التي في الصحن، فإنه كان وزنها ألف من^(٣)، فكادت تحرق القصر"^(٤). وقد سبق توافد الناس والمدعوون إلى مكان الاحتفال الكبير، وبدأت المراسم بخروج المعتز من باب الإيوان، ومشى بين الناس " حتى صعد المنبر، فسلم على أمير المؤمنين وعلى من حضر، ثم خطب، فلما فرغ من خطبته، وقعت الصينية إلى محمد بن عمران، ونثر شفيح الخادم الصواني على من في

(١) أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر، تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من واردتها وأهلها، ج١٨، تحقيق محب الدين العمري، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٥، ص٣١٥.

(٢) أبو الفرج المعافى بن زكريا بن طرار الجريري، الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، تحقيق عبدالكريم سامي الجندي، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥، ص٤٦٥.

(٣) المنّ: وحدة وزن من وحدات التاريخ الإسلامي الوسيط، ويعدل المنّ الواحد ما يماثل مائتين وسبعة وخمسين درهماً: محمد بن يوسف بن عيسى المعروف باسم أطفيش، شرح النيل وشفاء العليل، ج١٠، ط٢، بيروت، مكتبة دار الفتح، ١٩٧٢، ص٦٨.

(٤) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ص ٣١٦.

الإيوان، ونثر الخدم الذين كانوا في الرواق والصحن ما كان معهم من العين والورق"^(١)، أما عامة الناس فقد توافدوا واحتشدوا في ساحة بالخارج، وعملت لهم الموائد، واستمرت الاحتفالات بتلك الساحة ثلاثة أيام متوالية، ضربت للناس فيها المضارب ليقيموا فيها تلك الأيام الثلاثة^(٢).

وهناك حفل حذاق آخر أورد خبره بعض المؤرخين من أمثال الذهبي والصفدي، عن آخر خلفاء بني العباس المستعصم، حين حذق القرآن الكريم قبل توليه الخلافة، فقد حفظ الكتاب على يد المقرئ الشيخ علي بن النيار الشافعي، فوصف الصفدي يوم حذاقه بقوله: "قرأ القرآن على الشيخ علي بن النيار الشافعي، وعملت دعوة عظيمة وقت ختمه، وخلع على الشيخ وأعطى من الذهب العين ستة آلاف دينار"^(٣)

منح الشهادة العلمية:

للحق والتاريخ، كان منح الشهادة العلمية سبقاً إسلامياً فريداً في تاريخ كل الحضارات الإنسانية فقد سبقت مزية منح شهادات التخرج في مدارس الإسلام جميع كليات وجامعات العالم بما ينيف على عشرة قرون كاملة، في نظمة فريدة اصطلح المسلمون على تسميتها بالإجازة.

والإجازة في اللغة: الإنفاذ، وإجازة الشيء^(٤)، وهي مشتقة من التجوز والإباحة والرخصة، فيقال "أجازته: أعطاه الإجازة أي الإذن"^(٥)، وعلى ذلك فالإجازة إذنٌ فعليٌّ لطالب العلم في الرواية لفظاً أو كتابةً^(١)،

(١) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(٢) نفس المصدر، ص ٣١٥.

(٣) صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٤، تحقيق أبي عبد الله الأسيوطي، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٠، ص ٢٧٩.

(٤) تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي السبكي، رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه، ج ٢، تحقيق محمد عبدالرحمن مخيمر عبدالله، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩، ص ١٣.

(٥) بطرس البستاني، محيط المحيط، ج ٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩، ص ٦٣..

إذنٌ بالإفتاء أو التدريس، وسماخٌ بالرواية والنقل للمجاز له لفظاً أو كتابةً، لذا فهي إذن الشيخ أو المعلم لتلميذه أو لتلاميذه برواية مسموعاته أو مؤلفاته^(١)، وعرفها البعض بقوله "الإجازة عند العلماء والمحدثين عبارة عن إذن الشيخ لتلميذه برواية على الإجازة"^(٢).

شروط منح الإجازة (متطلبات الحذاقة):

جرت الأعراف العلمية الإسلامية بدءاً من القرن الثاني للهجرة على تقنين وضبط منح الإجازة ، والتي تعني أهلية طالب العلم لأن يتعاطى نشر العلم، ويصنف ويملي ويعلم غيره، ولا تصح الإجازة عندهم إلا بشروط :

- _ أن تكون ممنوحة من عالم .
- _ أن يكون العالم المانح من أهل العلم المشهود لهم بالتبحر في فنه وتخصصه.
- _ أن يكون مدركاً لماهية وأهمية المنح والإجازة .
- _ أن يكون المجاز الممنوحة له الحذاقة من أهل المهارة في علمه.
- _ أن يمتحن المجاز في مسائل علمه وأركانه وخصائصه وطرائقه وفصوله ومجالاته وتفسيراته.
- _ أن تمنح الإجازة (الحذاقة) مشافهةً بشهود ، أو كتابةً بخط المجيز .

(١) محمد بن إبراهيم بن أبي الجود الأنصاري ، وصلة البداية لمقدمة النهاية في علم الرواية، تحقيق عصام أبو اليزيد محمد عبدالله، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٩، ص ٢٧٠.

(٢) محمد أحمد ربيع ، دراسات في الحضارة والفكر، بغداد، دار الكندي للنشر، ١٩٩٤، ص ١٠٩.

(٣) أبو العباس أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي، الإجازة البالغة، تحقيق حسين حسن كريم، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٢٠، ص ٩٦.

وهكذا أصبحت الإجازة تعني فعلياً منح الشهادة العلمية، حتى أن القلقشندي أفرد في كتابه المشهور (صبح الأعشى في صناعة الإنشاء) فصلاً عن الإجازات وأنواعها وصورها، جعل عنوانه (الإجازات بالفتيا والتدريس والرواية وعروضات الكتب وغيرها)^(١).

وبيّن في هذا الفصل أن الإجازة هي صورة المنح الخاص بالحقاقة العلمية، وأن العرف العلمي سرى على أن يجيز الشيخ أو المؤدب للمتعلم بأن يمتحن تدريسه وتعليمه لغيره ، إذ يقول: "جرت العادة أنه إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس، أن يأذن له شيخه في الفتيا والتدريس، ويكتب له بذلك"^(٢).
إذاً فنحن أمام صورةٍ جليةٍ لطريقة التحديق في الحضارة الإسلامية، فالظاهر أن الشيخ في القراءات والحديث والفقه والتفسير ونحوها، والمؤدب في اللغة والأدب والبديع وصنوها، والمعلم في علوم الكلام والتاريخ ونظيرها، والعالم في الطب والفلك والكيمياء ومثيلها، متى ركن بعد الاختبار الطويل، واطمئن بعد التمحيص والامتحان، إلى أن تلميذه أو مريده أو الآخذ عنه، قد وصل إلى درجة من التعلم والتحصيل والاستتفاف والحفظ والفهم، يكون قد استحق بها أن يشهد له بأنه حذق في تخصصه، ونال منه حظاً وافراً، ونصيباً واضحاً، وعليه فهو جديرٌ بالإجازة، حريٌّ بالاعتراف له بأنه قد حذق في علمه، ونال منه حظاً، وتمكن من أصوله.

ويفهم من كلام القلقشندي أن الحقاقة في غالب أمرها تكون كتابيةً من المعلم لطالبه، فلكانها أو هي هي ذات شهادات التخرج التي عرفها العالم فيما بعد، وتختلف الإجازات طولاً وقصراً، فبعضها يحتل صفحات عديدة ، وبعضها أسطر معدودة، لكنها تتشابه في المحتوى والهدف والمضمون^(٣)، وهذا لم يمنع البتة أن تكون الإجازة مشافهةً ، مجاهرةً ، وكأنها نوع من الغعلان والإعلام بجاذبة الحقاقة

(١) أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج١٤، شرح وتعليق محمد علي شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٢، ص٣٦٤.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ص٣٦٤.

(٣) أبوسالم عبدالله بن محمد العياشي، إتحاف الأخلاء بإجازات المشائخ الأجلاء، ط١، تحقيق محمد الزاهي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٩، ص٧١.

وحصولها، وربما في مجلس علم يحضره الناس، فقد كانت إجازة العلم في أول الأمر شهادة سماع تمنح شفوية^(١).

والفصل الفارق في الإجازات أنها إما أن تكون خاصة بكتاب بعينه، وهي هنا الإجازة الخاصة، فلا تعدوها إلى غير ما تمت الإجازة فيه، والغالب في الإجازة الخاصة أن تتعلق بكتاب أو موضوع محدد من موضوعات العلوم، وإما أن تكون إجازة عامة، وهي أشمل وأعم، وتتعلق بإجازة طالب العلم من لدن معلمه، تثبت أنه وصل إلى درجة كافية من العلم تؤهله لتدريس ونشر ما تلقاه عن شيوخه ومعلميه.

صيغة الإجازة:

تتخذ كتب التراث الإسلامي من مصنفات التاريخ والأدب والفقه والحديث والطب والفلك وغيرها، بعدد لا يحصى من صور الإجازات وبمختلف صنوف العلم، بحيث لا يتسع مجال لحصرها أو ذكرها، غير أن أغلبها يأتي في صورٍ متقاربة، وصيغٍ متشابهة، كأن يقول المجيز أو يكتب "أجزتك"^(٢)، أو "أجزت فلاناً فلاناً جميع روايتي"^(٣)، أو أن يقول المعلم لطالب العلم مثلاً "أجزت لك أن تروي عني ما صح من مسموعاتي أو مؤلفاتي أو كتاب كذا"^(٤)، علاوة على الكثير من صور الإجازة الأخرى، والتي تتفق في منح الإذن لطالب العلم بتدريسه.

(١) محمد بحتري، الجوانب التربوية في معجم الأدياء لياقوت الحموي، دمشق، دار البشائر، ٢٠٠١، ص ١٠.

(٢) عبدالهادي نجا بن رضوان الأبياري، نيل الأمان في توضيح مقدمة القسطلاني، شرح وتعليق أحمد معبوط، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١، ص ١٣٧.

(٣) أبو عبدالله محمد بن عمر بن رشيد، استدعاءات الإجازة، تحقيق عبداللطيف الجبلاني، الرباط، منشورات وزارة الأوقاف، ٢٠٠٧، ص ١٣٩.

(٤) جمال الدين عبدالرحيم بن الحسن الأسنوي، نهاية السؤل شرح منهاج الوصول إلى علم الصول، ج ٣، تحقيق محمد حسن اسماعيل وأحمد الفريدي، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩، ص ١٨٦.

الإجازة بامتحان:

مع اطراد العلوم، ونقشي التصنيف، وامتهان الصناعات المرتبطة بالعلم في دول الإسلام، دعت الحاجة إلى تقنين منح الإجازة العلمية، لمنع الادعاء بالإجازة، واحتراف ممارسة مهنة ما بغير علمٍ أو دراية أو إجازة، أو أن تكون الإجازة قد منحت لمن لا يستحقها، فبدأت الدول الإسلامية ومنذ مستهل القرن الثالث لهجري/ التاسع الميلادي، في امتحان المجازين، خاصة في العلوم التي تمس حياة الناس وصحتهم، كالطب والفلك والكيمياء ونحوها.

فقد ورد أن الخليفة العباسي المأمون، لما رأى كثرة الصيادلة، وادعاء أغلبهم بالحدق في علم الصيدلة والمعرفة بالكيمياء، أمر بامتحانهم جميعاً^(١)، وكذا جرى امتحان للصيدلة في عهد الخليفة المعتصم العباسي لكثرة ممتهني الصيدلة وبيع الدواء، فتم تكليف الطبيب زكريا الطيفوري باختبارهم جميعاً، وقيل له " امتحنهم حتى نعرف منهم الناصح من غيره، ومن له دين ومن لا دين له"^(٢)، وكذلك فعل الخليفة العباسي المقتدر الذي أصدر أمراً بمنع المتطببين من ممارسة مهنة الطب إلا بعد اجتياز امتحان يضعه كبير أطباء عصره (سنان بن ثابت)، بسبب خطأ طبي تسبب في موت رجل في بغداد، فكتب رقعة بخط يده تتضمن منع المتطببين من الطبابة إلا بعد اجتياز امتحان في الطب يضعه الطبيب سنان بن ثابت، "فامتحانهم، وأطلق لكل واحد ما يصلح أن يتصرف فيه"^(٣).

(١) زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون وكمال الدسوقي، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٣، ص ٣٣٤.

(٢) موفق الدين أبو العباس أحمد بن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ضبط وتصحيح محمد باسل، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨، ص ٢٠٢.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٧٨.

كما أمر الملك العادل الأيوبي عام ٦١٠هـ^(١)، الطبيب(مذهب الدين الحكيم) بامتحان الحكاليين (أطباء العيون)، "ففوض إليه النظر في أمر الحكاليين واعتبارهم، وأن من يصلح منهم لمعالجة أمراض العين ويرتضيه، يكتب له خطأ بما يعرفه منه، ففعل ذلك"^(٢).

التطيلس (ارتداء لباس التخرج):

ترافقت حفلات الحذاقة مع ارتداء زيّ خاص يسمى(التطيلسان)، وهو نوع من الأكسية على شكل مربع، وربما مدور، يوضع على الأكتاف والرأس ويتدلى طرفه على الظهر، ووصفه "كساء مدور أخضر لا أسفل له، لحمته أو سداه من الصوف، يلبسه الخواص من العلماء والمشائخ"^(٣)، فهو لباس يلبسه العلماء على الرأس أو الكتف، وكان الفقهاء والكبراء يتطيلسون ، أما أنصاف العلماء فلا يلبسونه بل يضعونه على كتفهم ، فإذا أراد العلماء أن يرفعوا درجة أحدهم غيرهم أمروه بالتطيلس^(٤).

وصفة التطيلس أن يلبس المتخرجون التطيلسان على العمامة والكتفين ويتدلى على الظهر، بحيث "يلقون التطيلسان على الكتف أو الكتفين مطوياً طياً ظريفاً"^(٥)، وطريقته تفصيلاً بأن "يجعل على الرأس

(١) الملك العادل الأيوبي: هو سيف الدين أبو بكر أحمد بن أبي الشكر أيوب، الملقب بالملك العادل (٥٣٨-٦١٥هـ) وهو أخ شقيق لصلاح الدين الأيوبي، وأحد ملوك الدولة الأيوبية : أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج٤، تحقيق يوسف علي طويل ومريم قاسم طويل، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٢، ص٣٢٢.

(٢) نفس المصدر، ص٦٨١.

(٣) البستاني، محيط المحيط، ج٥، ص٤٨٧.

(٤) شمس الدين أبو عبدالله محمد البشاري المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ليدن ، مطبعة بريل ، ١٨٧٧ ، ص٣٢٨.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٢٦١.

فوق العمامة أو القلنسوة، ويغطى به أكثر الوجه، ثم يدار طرفاه من تحت الذقن إلى أن يحيط بالرقبة، ثم يلقيان على الكتفين، ويتدلّيان على الظهر"^(١).

وقيل إن أول من استنّ لباس العلماء في دول الإسلام هو القاضي أبو يوسف الذي ولي القضاء زمن الخليفة العباسي هارون الرشيد، ولقب بقاضي القضاة، حين غير لباس العلماء إلى زيّ متميز، "وكان ملبوس الناس قبل ذلك شيئاً واحداً، لا يتميز أحد عن أحد بلباس"^(٢).

وفي طور لاحق تميز كل أهل علم بلباس خاص، فالمجازين للقضاء في الأندلس ارتدوا زيّاً يسمى (الدلق)^(٣)، وهو لباس "متسع بغير تفريج، فتحته على كتفه"^(٤)، أما المجازون في الإفتاء عندهم فلبسوا زيّاً يسمى (الفرجية)، ويدل لبس الفرجية على أن مرتديه مجاز، لكنه دون درجة العالم والقاضي، وفي ذلك يقول ابن فضل الله العمري "أما من دون هؤلاء فالفرجية الطويلة الكم"^(٥).

وعندما أسس المسلمون أول جامعة في أوروبا وهي جامعة ابن رشد في قرطبة^(٦)، التي تعتبر امتداداً للجامعات العربية الإسلامية في الشرق، كان التطيلس زي المجازين منها (الحاذقين)، كما

(١) حسين إبراهيم محمد مصطفى الجبراني، دويلات المشرق الإسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة بين الوحدة والتنوع، عمان، دار غيداء للنشر، ٢٠١٦، ص ٢٨١.

(٢) نور الدين علي بن محمد الهروي، شرح الشفا للقاضي عياض، ج ٢، تصحيح عبدالله محمد الخليفي، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٨، ص ٤٧١.

(٣) الدلق: لباس من الصوف غالباً، متسع الأكمام، وكان غالب لباس القضاة في مصر في العصر الفاطمي: عبدالجواد إبراهيم رجب، المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث، القاهرة، دار الآفاق العربية، ٢٠٠٢، ص ١٧٧.

(٤) شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج ٢، تحقق مهدي النجم، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٠، ص ٣٠٣.

(٥) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(٦) محمد بشير العامري، ونهاد عباس زينل، الإنجازات العلمية للأطباء في الأندلس وأثرها على التطور الحضاري في أوروبا القرون الوسطى، ط ١، عمان، دار غيداء، ٢٠١٦، ص ١٧١.

أنشئت جامعات في طليطلة وأشبيلية وغرناطة، فارتادهاها الطلاب من الأندلس قاطبة، وكذا من بلاد الفرنجة، ثم يعودون إلى بلدانهم _ عرباً وعجماً _ يلبسون العباءة العربية والطيلسان، تأكيداً بأنهم خريجو تلك الجامعات العريقة.

وفي مخطوطة السيوطي (طي اللسان عن ذم الطيلسان) أن " الطيلسان من شعار أهل العلم، فينبغي ألا يشاركهم فيه من ليس في مرتبتهم"^(١)، بل وأكد أن إلباس الطيلسان صار علامة من علامات الإجازة، فيقول " إن العلماء فيما مضى كانوا يجيزون بلبس الطيلسان ما يجيزون بالإفتاء والتدريس، ما صورته (وقد أذنت له في لبس الطيلسان)، وذلك لأنه من شعار العلماء، فافتقد إلى إذن من المشائخ ليكون شهادة بالأهلية"^(٢).

الخاتمة:

وبعد، فقد استوى البحث على هذه الصورة التي أوصله إليها جهدنا المتواضع، فخلص إلى أن طقوس التخرج والمظاهر المتماهية معه، ليست حتماً مزية آنية، أو ميزة حدثية، فحضارة الإسلام حوت فيما حوت، وابتدعت ضمن ما أبدعت، نظمة الحذاقة التي تماهت مع وصول طالب العلم إلى مرحلة مرضية من تحصيل العلوم، جعلت من معلميه يعترفون بأن ما حصله من العلم يؤهله لتدريسه ونشره، وأنه وصل فيه غاية الفهم والحفظ والحدق.

وأظهر البحث معنى الحذاقة، وتفسيرها المتعلق بالتخرج، المتصل بالتحصيل العلمي، وأنها بدأت في صورة مبسطة، بحيث يصرح الشيوخ والفقهاء والمؤدبون لمريديهم وتلامذتهم، مشافهة أو كتابة، بأنهم مجازون في علم بعينه، أو رواية بذاتها، أو صنف من العلوم بكليته.

(١) أبو الفضل جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، طي اللسان عن ذم الطيلسان، مخطوط مصور عن نسخة محفوظة بدار الكتب القومية برقم ٤٤٨ حديث تيمور، القاهرة، ص ١١ ظهر.

(٢) السيوطي، طي اللسان، ص ١١ ظهر.

وترافقت تلك الإجازات والتصريحات بتقادم الأيام وتوالي الحقب، مع مظاهر احتفالية، اقتربت من الشكل الطقسي، تضمنت إشهار الخبر بأن فلاناً قد أجزى في علمه، وإعلان أنه أتم فهماً أو حفظاً أو ختمةً أو كتاباً أو تخصصاً.

ثم استلزم الأمر والحال هذه، أن يولم ليوم الإجازة (يوم الحذاقة)، وافترقت تلك الولايم بين بسيطة وباذخة، حسب منزلة الحاذق وثرائه، أو توسط حاله، لكن القاسم المشترك أن الحذاقة تستلزم إقامة الوليمة، وإعلام الناس بأن اليوم يوم الاحتفال بالحذاقة؟

وظهر من خلال البحث أن الحذاقة اشتملت كذلك على التزيي برسم خاص في اللباس، اشتهر منه التطليس، وهو ارتداء الطيلسان بطريقة خاصة، توميء إلى أن مرتديه قد حذق في علمه وأجزى، وقد لخص السيوطي نظرة تلك العهود للتطليس كشعار خاص بالعلم والعلماء، بأن جعله مزية لهم لا تعدوهم لغيرهم، وأن طقس إلباس الطيلسان للحاذق صار صورة رمزية في حد ذاتها، توميء بلا موارد إلى أن من تم إلباسه الطيلسان فقد حذق ، وبذا فتلك شهادة بالأهلية العلمية.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

- _ ابن أبي أصيبعة: موفق الدين أبو العباس أحمد ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ضبط وتصحيح محمد باسل، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨.
- _ ابن أبي الجود: محمد بن إبراهيم بن أبي الجود الأنصاري ، وصلة البداية لمقدمة النهاية في علم الرواية، تحقيق عصام أبو اليزيد محمد عبدالله، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٩.
- _ الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين ، الأغاني، ج١٣، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٨.
- _ أطفيش: محمد بن يوسف بن عيسى المعرف باسم أطفيش، شرح النيل وشفاء العليل، ج١٠، ط٢، بيروت، مكتبة دار الفتح، ١٩٧٢.
- _ الأسنوي: جمال الدين عبدالرحيم بن الحسن ، نهاية السؤل شرح منهاج الوصول إلى علم الصؤل، ج٣، تحقيق محمد حسن اسماعيل وأحمد الفريدي، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩.

- _ ابن أيبك: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٤، تحقيق أبي عبدالله الأسيوطي، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٠.
- _ البرهان فوري: علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين البرهان فوري، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ج١٠، ط٥، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥.
- _ البيهقي: أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي، السنن الكبرى، ج٧، ط٢، تحقيق محمد عالقادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ.
- _ _____، مناقب الشافعي، ط١، تحقيق أحمد صقر، القاهرة، مكتبة دار التراث، ١٩٧١.
- _ ابن جبير: أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير البلنسي، رحلة ابن جبير المعروفة باسم اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣.
- _ الجرجاني: أبو أحمد عبدالله بن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال، ج٧، ط١، تحقيق عادل أحمد عبدالموجود وآخرين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
- _ ابن حجر: أبو العباس أحمد بن محمد بن حجر الهيثمي، الإجازة البالغة، تحقيق حسين حسن كريم، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٢٠.
- _ الحنفي: محمد بن عبدالحق بن شاه الحنفي، الإكليل على مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ج١، تحقيق محي الدين أسامة البيرقدار، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٥.
- _ الخطيب البغدادي: أبوبكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قطانها العلماء من غير أهلها ووارديها، ج٦، ط١، تحقيق بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠١.
- _ ابن خلكان: أبو العباس أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج٤، تحقيق يوسف علي طويل ومريم قاسم طويل، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٢.
- _ الداني: أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان، التعريف في اختلاف الرواة عن نافع، ط١، تحقيق محمد السحابي، الرباط، مطبعة وراقة الفضيلة، د.ت.
- _ الجرجاني: أبو علي الحسين بن علي بن طلحة الجرجاني، الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة، تحقيق إدريس عزوزي، الدار البيضاء، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٨٩.
- _ ابن رشيد: أبو عبدالله محمد بن عمر، استدعاءات الإجازة، تحقيق عبداللطيف الحيلاني، الرباط، منشورات وزارة الأوقاف، ٢٠٠٧.

- _ السبكي: تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي ، رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه، ج٢، تحقيق محمد عبدالرحمن مخيمر عبدالله، بيروت ، دار الكتب العلمية،
- _ السخاوي: شمس الدين محمد بن عبدالرحمن ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج٥، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣.
- _ السيوطي: أبو الفضل جلال الدين عبدالرحمن ، طي اللسان عن ذم الطيلسان، مخطوط مصور عن نسخة محفوظة بدار الكتب القومية برقم ٤٤٨ حديث تيمور، القاهرة .
- _ ابن طرار: أبو الفرج المعافى بن زكريا بن طرار الجريري، الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، تحقيق عبدالكريم سامي الجندي، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥.
- _ ابن طولون: شمس الدين محمد بن علي بن طولون دمشقي ، فص الخواتم فيما قيل في الولايم ، ط١، تحقيق نزار أباطة ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٨٣.
- _ ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق ، ج١٨، تحقيق محب الدين العمري، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٥.
- _ العياشي: أبوسالم عبدالله بن محمد ، إتحاف الأخلاء بإجازات المشائخ الأجلاء، ط١، تحقيق محمد الزاهي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٩.
- _ ابن فضل الله العمري: شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج٢، تحقق مهدي النجم، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٠.
- _ القاري: علي بن سلطان محمد ، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، ج٥، تحقيق محمد عيتاني ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ٢٠١٥.
- _ القلقشندي: أحمد بن علي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ج١٤، شرح وتعليق محمد علي شمس الدين ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ٢٠١٢.
- _ القيرواني: أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني، النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات، ج ٦ ، تحقيق محمد عثمان، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ٢٠١٠.
- _ ابن لبّ: أبو سعيد فرج بن قاسم بن أحمد بن لبّ الغرناطي ، تقريب الأمل البعيد في نوازل الأستاذ أبي سعيد ، ج١، تحقيق حسن مختاري وهشام الرامي ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٤.
- _ شمس الدين أبو عبدالله محمد البشاري المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ليدن، مطبعة بريل ، ١٨٧٧.

- _ المقرزي: أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي، تاريخ المقرزي الكبير المسمى المقفى الكبير، ج٥، تحقيق محمد السيد عثمان، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٠.
- _ ابن مكرم: أبو الحسن علي بن أحمد بن مكرم العدوي، حاشية العدوي على شرح أبي الحسن لرسالة ابن أبي زيد المسمى كفاية الطالب الرباني لرسالة ابن أبي زيد القيرواني في مذهب مالك، ج٢، بيروت، دار إحياء الكتب العربية، ٢٠٠٩.
- _ ابن منظور: جمال الدين أبو الفضل محمد بن منظور، لسان العرب، ج١٠، تحقيق عامر أحمد حيدر، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩.
- _ اليافعي: أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، ج٤، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧.
- _ ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي، معجم الأدياء، ج٥، ط١، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣.
- ثانياً: المراجع:**
- _ الأبياري: عبد الهادي نجا بن رضوان، نيل الأمان في توضيح مقدمة القسطلاني، شرح وتعليق أحمد معبوط، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١.
- _ بحتري: محمد، الجوانب التربوية في معجم الأدياء لياقوت الحموي، دمشق، دار البشائر، ٢٠٠١.
- _ البستاني: بطرس، محيط المحيط، ج٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩.
- _ بن موسى: محمد بن حسن بن عقيل، المختار المصون من أعلام القرون، ج١١، ط١، جدة، دار الأندلس الخضراء، ١٩٩٥.
- _ الجبراني: حسين إبراهيم محمد مصطفى، دوليات المشرق الإسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة بين الوحدة والتنوع، عمان، دار غيداء للنشر، ٢٠١٦.
- _ رجب: عبدالجواد إبراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث، القاهرة، دار الآفاق العربية، ٢٠٠٢.
- _ ربيع: محمد أحمد، دراسات في الحضارة والفكر، بغداد، دار الكندي للنشر، ١٩٩٤.
- _ العامري: محمد بشير، ونهاد عباس زينل، الإنجازات العلمية للأطباء في الأندلس وأثرها على التطور الحضاري في أوروبا القرون الوسطى، ط١، عمان، دار غيداء، ٢٠١٦.

_ المفتي: رضاء الحق ، الدرّة الفردة شرح قصيدة البردة، ج١، ترجمة وتحقيق أويس بن يعقوب، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٢٠.

_ الهروي: نور الدين علي بن محمد ، شرح الشفا للقاضي عياض، ج٢، تصحيح عبدالله محمد الخليلي، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٨.

_ هونكه: زيغريد ، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون وكمال الدسوقي، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٣.

إيالة طرابلس أثناء حكم علي باشا القرمانلي ١٨٣٢-١٨٣٥

(انهيار العهد القرمانلي وعودة السلطة العثمانية)

Ayla Tripoli during the reign of Ali Pasha Karamanli 1832-1835

(The collapse of the Karamanli dynasty and the return of the Ottoman's authority)

د. أحميدة سالم حماد

أستاذ مساعد / تاريخ حديث وعاصر

كلية الآداب/ جامعة طبرق/ليبيا

و

د. السنوسي يونس علي

أستاذ مساعد / تاريخ حديث وعاصر

كلية الآداب/ جامعة طبرق/ليبيا

Ahmeda Salem Hammad

Assistant Professor / Modern and Contemporary History

Faculty of Arts / Tobruk University- Libya

hmeda223@gmail.com

Al Senussi Younis Ali

Assistant Professor / Modern and Contemporary History

Faculty of Arts / Tobruk University- Libya

ملخص

تميزت إيالة طرابلس بأهميتها الكبيرة المتمثلة في موقعها الاستراتيجي المطل على البحر المتوسط والتي كانت حلقة وصل بين اشمال والأوروبي والجنوب الأفريقي، فقد خضعت طرابلس للحكم العثماني قرابة الأربعة قرون، حكم فيها القرمانليون الإيالة مدة ٢٤ عاماً حاولوا فيها تثبيت حكمهم بصورة شبه مستقلة عن الدولة العثمانية ما بين عامي ١٧١١م-١٨٣٥م، كانت هذه الفترة حافلة بالصراعات الأسرية بغية الوصول للسلطة، واكب ذلك عدة ثورات وكثر التمرد على السلطة من السكان للتخلص من اضطهاد الحكام، وعلى الصعيد الخارجي كان النزاع شديد بين الحكام القرمانليين والدول الأوروبية التي استغلت بدورها الانقسام الداخلي، فأخذت كل منها في تقديم الدعم لطرف معين ضد الطرف الأخر، ولقد أسهمت هذه التدخلات في تأجيج الصراع فترة حكم علي باشا القرمانلي، والذي حاول بكل السبل القضاء على تلك الثورات والاضطرابات من جانب، ومن جانب التدخلات الخارجية، ولكنه لم يفلح في ذلك حتى عام ١٨٣٥م عندما رسا الأسطول العثماني في ميناء طرابلس ووضع حداً لحكم الأسرة القرمانلية وعودة السلطة العثمانية المباشرة من جديد.

الكلمات الافتتاحية: إيالة طرابلس _ علي باشا القرمانلي - انهيار العهد القرمانلي - السلطة العثمانية.

Abstract

During the Ottoman rule, Tripoli distinguished by its great importance represented in its strategic location that overlooks the Mediterranean Sea, which was a linked the North European wick, Southern Africa.

Karamanli dynasty, which ruled Tripoli province for 24 years 1711 – 1835 AD, they tried to establish their rule almost independently from the Ottoman Empire.

This period was fraught family struggles for power, as well as accompanied by several revolutions against the rid of the persecution of the Karamanli rulers, on the other hand, the conflict of the Karamanli dynasty with the European countries which exploited

the internal division of the Karamanlis, so some of them began to support to a specific part against the other, as a consequence this policy contributed to firing the conflict during the rule of Ali Pasha Karamanli, who tried to eliminate these revolutions and trouble, and including the external interventions, but he failed, until the Ottoman fleet arrives at Tripoli port and put an end to the Karamanli dynasty in 1835 AD

Keywords: Ayla Tripoli- Ali Pasha Karamanli - The collapse of the Karamanli dynasty- Ottoman's authority.

المقدمة:

اتسمت إيالة طرابلس الغرب بأهميتها على ساحل البحر المتوسط الجنوبي، فكانت مركزاً استراتيجياً واقتصادياً لتجارة القوافل التي كانت تسير منذ أقدم العصور بين أوروبا وبلدان جنوب الصحراء الأفريقية الكبرى عبر البحر المتوسط، وقد كانت مركز التبادل الأبرز في عموم الشمال الأفريقي، إذ تُنقل إليها البضائع والصناعات الأوربية لمبادلتها بمنتجات جنوب الصحراء من الذهب والرقيق والجلود وغيرها، مما أورثها ثراءً أسطورياً، فكانت تعج بالتجار الكبار من مختلف الأمم والطوائف.

وكان الثراء الذي تميزت به المنطقة والأهمية الإستراتيجية البالغة، والفراغ السياسي الذي كانت تعانيه جعلها محط أطماع الطامعين، فغزاها الأسبان في مطلع القرن السادس عشر، ثم منحها هؤلاء لفرسان مالطة بعد عقد من الزمن، وفي منتصف القرن طرد العثمانيون الفرسان وأخضعوها لأشكال مختلفة من سلطانهم.

خضعت طرابلس الغرب للحكم العثماني بين ١٥٥١ - ١٩١٢م وقسمت هذه الفترة الزمنية التي تجاوزت ثلاثة قرون ونصف إلى ثلاثة أقسام وفقاً للتطورات السياسية وشكل العلاقة مع الدولة العثمانية، فمن ١٥٥١م وهي بداية السيطرة العثمانية حتى العام ١٧١١، سميت هذه الحقبة التي امتدت مائة وستين عاماً بالعهد العثماني الأول وتميزت بسيطرة الإنكشارية على السلطة وفرض ضرائب متعددة على

الناس، الأمر الذي أدى إلى قيام عدة انتفاضات ضد الحكم العثماني، فكان التوتر السياسي وتعدد مراكز القرار وتدني الأوضاع الاقتصادية وتباطؤ نمو قوى الإنتاج من أهم سمات هذه الفترة، ليس في إيالة طرابلس فحسب بل كان الترددي على مستوى الدولة العثمانية التي أصبحت تعاني من الهرم على كافة الأصعدة، وكان ظهور الأسرة القرمانيية على الساحة السياسية في نهاية هذه الحقبة في طرابلس الغرب، نتيجة منطقية وربما كان رداً طبيعياً على ترددي الأوضاع العامة فيها ، فلقد شعر أحمد باشا القرمانيي مؤسس الأسرة القرمانيية بعدم الاستقرار وسوء الأوضاع، بسبب الصراعات على السلطة، فتمكن من الوصول إلى السلطة في عام ١٧١١م ويعد المؤسس الأول للحكم القرمانيي في طرابلس.

ويعد قيام حكم الأسرة القرمانيية بداية لتحولات كبيرة شهدتها طرابلس الغرب، فقد توالى على الحكم خمسة حكام تميزت فترات حكمهم بين الضعف والقوة، وكانت قاعدة الحكم الأساسية كراغلة الساحل والمنشئية القريبة من مركز القرار السياسي، هذه الفئة تنحدر من امتزاج جنود الانكشارية الوافدين من مناطق مختلفة من الإمبراطورية العثمانية ومن نساء محليات عربيات أو الجواري المسيحيات الأصل، وهناك من يرى إنهم جنود محليون مهمتهم مساندة الدولة في جمع الضرائب وفض المنازعات القبلية مقابل الإعفاء من الضرائب، إذ تم الاعتماد على هذه الفئة الاجتماعية في إرساء دعائم السلطة من خلال تأليفها للقوة الرئيسية في الجيش أثناء تأليف الحملات العسكرية لسيط نفوذها، والقضاء على حركات التمرد، ولاسيما في المناطق الداخلية لقاء منحهم امتيازات مهمة، مثل إعفائهم من الضرائب والرسوم، واستمر ذلك حتى نهايات الحكم القرمانيي عندما حدث خلل في العلاقة بين الطرفين، بسبب فرض الضرائب عليهم، الأمر الذي أدى بهم إلى الانتفاض على الحكم القرمانيي الذي فقد دعامة الأساسية بهذه الانتفاضة .

كان من أسباب اختيارنا لموضوع البحث توفر عدد لا بأس به من المصادر والمراجع غير أن معظمها تتحدث عن جزء معين من تلك الفترة الزمنية موضوع الدراسة ، وقد حاولنا من خلال ما توصلنا إليه من حقائق تاريخية إثراء المكتبة العلمية بنتائجنا العلمي.

ولقد قسمنا البحث إلى ثلاثة محاور ومقدمة وخاتمة وقائمة المصادر والمراجع ، على النحو التالي:

١- أحوال إيالة طرابلس في عهد يوسف باشا القرمانلي

٢- حكم علي باشا القرمانلي

٣- العلاقات الخارجية ونهاية الحكم القرمانلي

ولقد اعتمدنا في هذه الدراسة على مجموعة من الوثائق وعدة مصادر ومراجع ، وما توفيقي إلا بالله العظيم.

أولاً : أحوال إيالة طرابلس في عهد يوسف باشا القرمانلي

عانت الأسرة القرمانلية من الصراعات الداخلية بين أبنائها من أجل الوصول للحكم، وهي آفة لم تتمكن هذه الأسرة من التخلص من تبعاتها، فضلاً عن أن أبناء هذه الأسرة لم يترفعوا عن اضطهاد الشعب الأعزل من أجل مآربهم الشخصية وجشعهم وإسرافهم الإقطاعي وكانت التمردات لا تهدأ للتخلص من اضطهاد الحكام من أبناء هذه الأسرة، لاسيما في عهد يوسف باشا^(١)، والتي كانت سبباً في انهيار حكمها، حيث كان الناقمون كثيراً ما يؤيدون المتمردين هنا وهناك، ولما كانت الخزينة خاوية نتيجة مواجهة حركة الغارات البحرية في البحر المتوسط وعلي سواحلها من قبل الأساطيل الغربية فلم يكن باستطاعة يوسف باشا أن يرسل جيوشه إلى مختلف الجهات، لذلك كان كثيراً ما يلجأ إلى المهادنة، ويعترف بالزعيم المتمرد حاكماً لمنطقة الانتفاضة^(٢).

١- الضغط الاقتصادي

أرعى يوسف باشا القرمانلي العنان لأبنائه وأصهاره وقسم الإيالة بينهم فأعطى غريان لأكبر أولاده علي بك، وأعطى مصراتة لمصطفي، وأقطع الخمس لعثمان بك وورفلة لعمر بك وزليتن لإبراهيم

(١) محمد رجب الزايدى ليبيا في العهد القرمانلي، بنغازي، دار الكتاب الليبي، ١٩٧٤م، ص ١٣٣-١٤٠.

(٢) محمد أحمد الطوير، " زعماء أانتفاضة التي وراء الإطاحة بحكم الأسرة القرمانلية سنة ١٨٣٥م"، مجلة الوثائق

والمخطوطات، العدد الثاني، السنة الثانية، طرابلس، مركز الدراسات التاريخية، ١٩٨٧، ص ١٧٠-١٧٤.

بك وهكذا، فأرسلوا العمال من طرفهم وساءت سيرهم وعظم ظلمهم واتخذوا طرقاً ملتوية لجباية الضرائب وفق مصالحهم الذاتية بما يوفر لهم مقادير كبيرة من الأموال ويلحق أكبر الأضرار بالقاعدة الاقتصادية الضعيفة أصلاً^(١).

كانت الأوضاع الاقتصادية في إيالة طرابلس في هذه الفترة محركاً للأوضاع الأخرى، فقد كان المصدر الوحيد لدخل للسلطات هو الضرائب، التي شكلت عبئاً كبيراً على سكان الإيالة، من خلال ما كان من ممارسات المكلفين بجمعها الأمر الذي أدى إلى استنزاف قدرات الإيالة الاقتصادية، فأصبح غالبية السكان في حالة من الفقر والبؤس، لم تتح لهم الفرصة لتطوير أنفسهم في مختلف الجوانب الاجتماعية والثقافية، وما التمردات والانتفاضات التي قام بها هؤلاء بقيادة الزعماء المحليين، إلا ردود أفعال على سياسات ولاية طرابلس الضريبية الغاشمة .

٢-الصراعات السياسية والقبلية

لقد شهدت نهاية حكم يوسف باشا القرماني انتفاضة مسلحة عمت أنحاء البلاد^(٢) ويرجع ذلك إلى أن هذه الأسرة كانت من فئة عسكرية، وبسبب السياسة العسكرية فشلت في الحفاظ على ولاء الأهالي، بسبب فرض الضرائب والخدمة العسكرية^(٣)، وكانت بوابة هذه الانتفاضة منطقة الساحل والمنشية معقل القرمانيين الرئيسية المجاورة لمدينة طرابلس والتي ولدت فيها سلطتهم قبل أكثر من قرن ونصف من الزمن^(٤)، امتدت الانتفاضة بعد ذلك إلى مناطق أخرى مثل انتفاضة الشيخ الوافي في غريان وانتفاضة أحمد سيف النصر في سرت وانتفاضة قبائل نالوت التي رفعت راية العصيان ضد

(١) أحمد النائب الأنصاري، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ط ٢، الناشر دارف المحدودة، لندن، ١٩٨٤م، ص ٣٣٢.

(٢) محمد أحمد الطوير، زعماء الانتفاضة ... ، مرجع سابق، ص ١٧٠.

(3) K. S. McLachlan, Tripoli :Conflict and Cohesion during the Period of the Barbary Corsairs (1551-1850), Transactions of the Institute of British Geographers, Vol. 3, No. 3, (1978), p.290.

(٤) وثيقة رقم (٣٠) ملف الأسرة القرمانية، شعبة الوثائق، مركز الدراسات التاريخية ، طرابلس .

الباشا^(١)، وامتدت الانتفاضات والتمردات إلى كافة مناطق الزاوية والتي تسببت في حرب أهليه^(٢)، و لم يركن سكان الدواخل إلى الهدوء حتى في أيام قوة الدولة في الأيام الأولى من حكم يوسف باشا القرماني، وأصبحت هذه المناطق مع بداية عام ١٨٢٧م تثير المتاعب والقلق في وجه يوسف باشا، فقد سادت الفوضى في الجبل الغربي بعد مقتل شيخ النواوير أبي القاسم ، فاستعان يوسف باشا من أجل تهدئة الأوضاع بنفوذ شيوخ أولاد أبي سيف، وعين غومة بن خليفة أخ أبي القاسم شيخاً على قبيلة نوير، مع تكليفه بحفظ النظام بالجبل، وانقسمت ترهونة إلى فريقين، فريق بزعامة أحمد المريض وكان مناصراً للقرمانيين، وآخر بزعامة عبدالصمد بن سلطان وكان معادياً لهم، لذلك نهض محمد بيت المال على رأس حملة وهزم الفريق المعادي للقرمانيين^(٣)، وكان على الباشا أن يستفيد من هيمنة بعض القبائل القوية في المنطقة بالتحالف معها^(٤).

وسئم أهل البلاد الفوضى التي عمتها، ولم يثوروا على الحاكم إلا بعد أن أرسلوا إلى السلطان العثماني شكوى من سوء الأحوال التي عمت البلاد ونزوح بعض القبائل إلى تونس بحثاً عن أسباب العيش الكريم، وطالبت قبائل أخرى بالإصلاحات^(٥)، بيد أن ما زاد من الأوضاع سوءاً اشتداد الصراع بين أفراد الأسرة الحاكمة، فكانت العلاقات بين الأب وأبنائه وبين الأخوة متوترة للغاية، فكان لا يثق بعضهم في بعض، وكان الأب لا يجرؤ في أي ظرف من الظروف على رؤية أولاده دون أن يكون

(١) محمود ناجي، تاريخ طرابلس الغرب، ت عبد السلام أدهم والأسطى، طرابلس، دار الفرجاني، ١٩٩٥م، ص١٦٨.

(٢) وثيقة رقم (٥) ملف عبد لكريم ابوشويرب، ١٤٦، شعبة الوثائق، مركز الدراسات التاريخية ، طرابلس.

(٣) أتوري روسي ، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١م، ت خليفة محمد التليسي، ط٢، بيروت، الدار العربية للكتاب، ١٩٩١م، ص٣٨٢.

(4) K. S. McLachlan, Op. Cit., p. 291.

(٥) وثيقة رقم (٤٨) ملف الأسرة القرمانية، شعبة الوثائق ، مركز الدراسات التاريخية ، طرابلس.

محاظاً بحراسة، كما كان الإخوة لا يتحدث بعضهم إلى بعض دون أن يكون خلف كل منهم عدد من الرجال المسلحين^(١).

٣-انتفاضة عبدالجيليل سيف النصر وموقف السلطات منها

ومن الأسباب الأخرى التي فعلت فعلها في انهيار هذا الحكم، انتفاضة عبدالجيليل سيف النصر في فزان ، التي بدأت في عام ١٨٣١م ، وقوية شوكتها عندما اتحد مع قبائل ورفلة، ودخل مدينة بني وليد ونودي به في محضر من شيوخ ورفلة والقذافة المقارحة في سرت رئيساً لجميع مناطق ورفلة وسرت والشاطي^(٢)، ولقد ساعده على ذلك انه كانت له دراية تامة بمدى تردي وضع الحكومة في طرابلس، ذلك لأنه نشأ في البلاط القرمانلي، وشارك في العديد من الحملات ضد مناطق الدواخل .

كان لنجاح ثورة عبد الجليل آثار بعيدة المدى، فقد تعززت قواته إلى أن بلغت مابين عشرين ألف وخمسين ألف مقاتل ، طبقاً لتقديرات القنصلين البريطاني والفرنسي في طرابلس^(٣)، حيث استطاع احتلال مرزق عاصمة فزان التي حاول حاكمها محمد بيت المال الاستجد بالباشا في رسالة أرسلها إليه يخبره فيها بتطور الأحداث مع عبد الجليل ومقتل الأغا خليل في المعركة التي نشبت بينهما وطلب منه إرسال نجدة إليه^(٤)، فضلاً عن ذلك أعلنت كامل قبائل مقاطعة الجبل ولاءها لعبد الجليل سيف النصر في ثورته^(٥).

(١) مراسلات قنصلية مملكة سردينيا من طرابلس مع وزارة الخارجية، الخطاب رقم ٢٦ بتاريخ ٤/١١/١٨٢٦م، انظر ميكاي، مرجع سابق، ص ٢٠٨.

(٢) إسماعيل كمال، وثائق عن نهاية العهد القرمانلي، ت محمد مصطفى بازامة، دار لبنان، ١٩٦٥، ص ٤٥-٤٦.

(٣) كولافولايان، ليبيا أثناء حكم يوسف باشا القرمانلي، مركز الدراسات التاريخية، طرابلس ، ١٩٨٨م، ص ١٥٧.

(٤) وثيقة رقم (٦٥) ، ملف محمد بيت المال ، شعبة الوثائق ، مركز الدراسات التاريخية ، طرابلس.

(٥) كولافولايان ، مرجع سابق ، ص ١٥٨.

ومن الإجراءات السريعة التي اتخذها يوسف باشا للقضاء على انتفاضة عبدالجليل سيف النصر، حتى لا تمتد نيرانها إلى المناطق المجاورة، قيامه بتعيين ابنه المسمى أعمورة حاكماً على مصراتة وابنه علي حاكماً على غريان، وأوصاهما بالعمل بكل قوة على منع الأهالي هناك من الانضمام إلى الثوار ببني وليد، غير أن أعمورة نظراً لما كان يفتقر إليه من خبرة في الإدارة والسياسة، فقد تسبب في ازدياد سخط الأهالي في مصراتة على حكم والده، لما قام به من التصرف بقسوة وعنف ضد الأهالي مما دفع والده إلى استدعائه وإحلال الشيخ محمد المكنى حاكم فزان السابق بدلاً منه، لما يتمتع به هذا الشيخ من خبرة طويلة في حكم المناطق الخاضعة لحكم يوسف باشا، كما عاد علي أيضاً من غريان عقب وصوله إليها بأيام قليلة، على أثر اندلاع انتفاضة فيها، لاسيما بعد أن شنق عدداً من أعيانها الذين كانوا يكرهونه، واخذ معه أكثر من ثمانية أشخاص رهينة، وذلك في محاولة منه للحد من اتساع نطاق روح التمرد، وقد ادخلوا السجن بمدينة طرابلس، ولكنهم استطاعوا الهرب، ولجأوا إلى القنصل الإنجليزي في طرابلس وارنجتون وبمساعده استطاعوا الوصول إلى غريان^(١).

لم تكن انتفاضة عبدالجليل أول تمرد يواجهه يوسف باشا، فقد سبقته تمردات وصدامات في غريان ودرنة وبنغازي وغدامس وترهونة، لكن انتفاضة عبدالجليل كانت ضد باشا واهن على رأس إيالة ذات اقتصاد متدهور، فضلاً عن أنها هددت مصالح أعيان طرابلس بقطع خط التجارة مع السودان، فالتفوا حول يوسف باشا في بداية الأمر وأيدوا قراره بإرسال حملة بقيادة ابنه علي لإخماد الانتفاضة، وفعلاً وقعت معركة بين الطرفين، انتهت بهزيمة سيف النصر، وكانت نتائجها بشعة، كما ورد في رسالة بعث بها يوسف باشا إلى وزيره محمد بيت المال الذي كان في بنغازي، جاء فيها: "أنه قتل في

(١) رودلفو ميكاكي، طرابلس الغرب تحت حكم الأسرة القرمانيية، ترجمة طه فوزي، القاهرة، منشورات معهد البحوث الدراسات العربية، ١٩٦١م ص ص ٥٨٨، ٥٨٩.

المعركة من أتباع سيف النصر مائتان وأثنا عشر شخصاً وثلاثمائة جريح، وشرع العسكر في تقطيع الأشجار وتهديم البيوت، وقبل الباشا بالهدنة وبشروط اقترحها مشايخ قبيلة أولاد بوسيف^(١).

غير أن في ظل هذه الظروف كانت السلطة عاجزة عن تقديم أية تجهيزات للجيش الذي يتكون من الكراغلة وبعض السكان المحليين، ولم تكن الدولة قادرة على سد حاجة هذا الجيش من المواد الغذائية، فكان على أفرادهم تدبير مؤونتهم واحتياجاتهم بأنفسهم، وغالبا ما كان هذا على حساب الأهالي الذين يمر الجيش بأراضيهم، الأمر الذي أرقق الأهالي وسبب لهم الضنك^(٢)، وانعكس ذلك في خلق حالة من عدم الرضى، بل السخط وإعلان العصيان ضد الحكم القائم، فقد شلت الأزمة المالية تفكيره لدرجة لم يعد في وسعه القيام بأي عمل من شأنه إصلاح الحالة الاقتصادية، وتحول من حاكم يدير أمور البلاد إلى حاكم منغمس في ملذاته وشهوته^(٣).

أراد يوسف باشا في رسالة أرسلها إلى السلطان العثماني في عام ١٨٣٢م، أن يبرر سبب قيام التمرد ضده، فأرجع ذلك إلى رغبة المتمردين في إزالة النظام العسكري الجديد، الذي أراد أن يطبقه على جنده بناء على أمر من السلطان محمود الثاني، وذلك لإيمانه بأن هذا السبب سيكون غير مقبول عند السلطان، وبذلك يمعن في الإيقاع بين المنتفضين والسلطان، واخبره بأن هؤلاء المنتفضين فضلاً عن رغبتهم السابقة، كانوا يرغبون أيضاً في إعلان الانفصال التام عن الدولة العثمانية وتأسيس حكومة على غرار حكومة مراكش^(٤).

وحين اقتنع يوسف باشا بأن محاولة دفع القبائل المعادية لأولاد سليمان لشن الحرب على هذه القبيلة قد باءت بالفشل، قرر إرسال حملة عسكرية لإعادة السيطرة على فزان بقيادة محمد المكنى،

(١) إسماعيل كمالى ، مرجع سابق ، ص ص ٥٦، ٥٧.

(٢) كامل على الويه، العثمانية في طرابلس الغرب ١٨٤٢م - ١٩١١م، مركز الدراسات التاريخية، ٢٠٠٥، ص ٢٨، ٢٧.

(٣) الهادي مصطفى بولقمة ، دراسات ليبية، ط٣، بنغازي، مكتبة قورينا، ١٩٧٥م . ، ص ٢٥٠ .

(٤) عمر على بن إسماعيل، انهيار الأسرة القرمانلية في ليبيا ١٧٩٥-١٨٣٥م، مكتبة الفرغانى، ١٩٦٦م، ص ٢٧.

واستطاع جيش يوسف من تحقيق النصر والاستيلاء على مرزق، ولما كان قائد الحملة قد تكبد خسائر كبيرة، فإنه طالب يوسف باشا بإرسال الإمدادات والذخائر، بسبب وقوف سكان غريان إلى جانب عبدالجليل وتمردهم على الباشا إلا أن الأخير لم يتمكن من تقديم معونته المرجوة^(١).

ساعات الأحوال في أواخر حكم يوسف القرمانلي لكثرة ما كان يرهق كاهل السكان من مختلف أنواع الضرائب، لتوفير احتياجات ومطالب القصر، لاسيما حينما بدأت السلطات باحتكار تجارة الحبوب، واضطراره في كثير من الأحيان إلى بيع المحاصيل مقدماً لتسديد ما عليها من ديون، كما شارك أفراد الأسرة القرمانلية في تدني هذه الأوضاع باشتراكهم في التعاملات التجارية^(٢)، فضلاً عن ذلك حالة الإسراف والبخ التي كان عليها يوسف باشا في نهاية فترة حكمه، دون أن يأخذ في الاعتبار تزدى الأوضاع الاقتصادية في البلاد، حيث كانت الزراعة والصناعة والتجارة تعاني حالة من الضعف والاضمحلال، ولم تكن واحده منها بقيادة على أن تفي بحاجات الباشا المالية الكبيرة^(٣).

ولمحاولة يوسف باشا الخروج من الأزمة التي كان يعيشها، حاول السيطرة المباشرة على كل من غدامس وفزان وضمهما إلى طرابلس بهدف الاستفادة من عوائد تجارة القوافل التي كانت تستأثر بها الأسر الحاكمة في هاتين المنطقتين، بإرسال حملة عسكرية بقيادة ابنه على، واستطاع بالفعل السيطرة على المنطقتين وعين عليهما حاكماً من قبله، ولكن حالة عدم الاستقرار وانتشار الفوضى أدت إلى شل الحركة التجارية بين طرابلس وأقاليم السودان الأوسط والشرقي والغربي، وأصبح تجار القوافل العائدون من هذه الأقاليم يتوجهون بقوافلهم إلى أسواق الدول المجاورة في مصر وتونس والجزائر،

(١) ن. أ. بروشين، تاريخ ليبيا في العصر الحديث، ت عماد حاتم، مركز الدراسات التاريخية ، طرابلس، ٢٠٠٥م ص ص٢٥٣، ٢٥٢.

(٢) الهادي مصطفى بولقمة دراسات ليبية ، ط٣، بنغازي ، مكتبة قورينا ، ١٩٧٥، ص٢٤٩.

(٣) محمد أحمد الطوير، " زعماء الانتفاضه التي وراء الإطاحة بحكم الأسرة القرمانلية سنة ١٨٣٥م"، مجلة الوثائق والمخطوطات ، العدد الثاني، السنة الثانية ، طرابلس، مركز الدراسات التاريخية ، ص ١٧٠ .

تجنباً لغارات القبائل المتمردة ضد السلطات، وتوقف التبادل التجاري بين الطرفين، فحرمت بذلك طرابلس من أهم مواردها الاقتصادية^(١).

وخلال هذه الأزمة لجأ يوسف باشا نحو دعامة نظام الأسرة القرمانلية الأساسية وعمقها الإستراتيجي (إذا جاز لي القول) فئة الكراغلة، وطالبهم لأول مرة بتحمل جزء من نفقات حربه ضد القبائل المتمردة ودفع الضرائب الاستثنائية لخزينة الدولة الخاوية، حيث كان الكراغلة قبل ذلك في حالات التهديد الحربي وإخماد الاضطرابات يقدمون المحاربين دون تكليف خزانة الدولة نفقات رواتب أو تسليح لهؤلاء، كما هو الحال في الأنظمة الإقطاعية عوضاً عن الضرائب والفروض المالية، لذلك رفضوا رفضاً قاطعاً دفع الضريبة وتحركوا لإعلان تمردهم على الباشا، دون أن يقدروا عاقبة استخدام القوة ضدهم، وصار سكان المنشية والساحل يطالبون بإسقاط الحكم الذي طالما تمتعوا في ظله بالامتيازات والإعفاءات الضريبية، واشتعل التمرد أيضاً في القرى القريبة من طرابلس، واختار المتمردون لقيادتهم في طرابلس محمد بن محمد حفيد يوسف باشا، فهاجموا منزل يوسف باشا بضاحية المنشية ونهبوه، وحاول يوسف القضاء على التمرد ولكنه فشل لأن المتمردين طوقوا المدينة واستعدوا لحصارها^(٢)، وأصبح وضع يوسف باشا يزداد سوءاً فاتجه إلى باي تونس طالباً منه النجدة، لكن الأخير لم يتعجل بالرد^(٣)، ذلك لان يوسف باشا رفض أن يدفع الأموال التي كان على الأسرة القرمانلية أن تعيدها إلى التونسيين لتغطية نفقات إعادة هذه الأسرة إلى العرش، أيام سقوطها على يد علي برغل في نهاية القرن الثامن عشر^(٤). فلم يعد أمام يوسف باشا بداً من التنازل عن الحكم لابنه علي بك

(١) سعيد عبدالرحمن الحنديري ، " تطور تجارة القوافل في ولاية طرابلس ١٨٣٥ - ١٩١١ م " أعمال ندوة المجتمع

الليبي ١٨٣٥ - ١٩١١م ، مركز الدراسات التاريخية ، طرابلس، ٢٠٠٠ ، ص ٦٩٣-٦٩٥ .

(٢) عمر علي بن إسماعيل ، مرجع سابق، ص ٢٦٥.

(٣) بروشين ، مرجع سابق، ص ٢٥٧.

(٤) أحمد النائب الأنصاري، مصدر سابق، ص ٣٥٢.

طمعاً منه في قدرته على إخماد التمرد^(١)، مع أن أهالي المنطقة رغبوا في أن يتولى العرش ابن يوسف محمد لأنهم اعتقدوا أنه الأصلح للحكم، لما يتمتع به من صلاح وسداد، هذا ما أوضحتها رسالة وجهها مشايخ عدد من القبائل والمدن إلى يوسف باشا^(٢).

ثانياً: حكم علي باشا القرمانلي (١٨٣٢ - ١٨٣٥)

في ١٢ اغسطس ١٨٣٢م استدعى يوسف باشا الديوان إلى الانعقاد ودُعي للحضور وجهاء المدينة وممثلو الفئة العليا من الجند ورجال الدين وأمام الديوان ، أعلن حاكم الإيالة أن بالنظر إلى كبر سنه تنازل عن العرش لابنه علي بيك وتعيين ابنه الآخر إبراهيم ولياً على العرش^(٣).

تولى علي باشا الحكم ، وكان تمرد عبدالجليل سيف النصر لم يهدأ بعد، وكان المتمردون على أبواب المدينة، وانضم إليهم أيضاً عثمان أغا الأدغم رئيس كراغلة مصراتة وغومة بن خليفة زعيم المحاميد، وهكذا اتسع التمرد فشمّل على ما يبدو جهات البلاد المختلفة، ولم يبق على ولائه للبasha والأسرة القرمانلية سوى أهالي مدينة طرابلس عدا الساحل والمنشية ، وذلك ما ورد في رسالة علي باشا القرمانلي إلى الحاج عمران دازه أحد أعيان مدينة طرابلس^(٤).

حاول علي باشا إعادة الهدوء والاستقرار إلى طرابلس من خلال إصدار عدة قوانين لتحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وتنظيم جباية الضرائب^(٥)، كما أصدر منشورات إلى جميع السكان داعياً إياهم إلى الهدوء ومعبراً عن رغبته الصادقة في إقرار السلام، فأعلن عفواً عاماً بهذه المناسبة، ثم

(١) محمد أمحمد الطوير ، زعماء الانتفاضة ... ، مرجع سابق ، ص١٠٩ .

(٢) وثيقة رقم ٧ ملف عبد الكريم ابوشويرب، شعبة الوثائق، مركز الدراسات التاريخية ، طرابلس .

(٣) بروشيين ، مرجع سابق ، ص٢٥٧

(٤) ابن غلبون، التنكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، بنغازي، دار الكتب الوطنية، ٢٠٠٢م، ص٣١٧ - ٣١٨؛ وثيقة رقم ٢٩ ملف حسن الفقيه، شعبة الوثائق، مركز الجهاد، طرابلس .

(٥) كامل على مسعود الوبيه ، الإدارة العثمانية في طرابلس الغرب ١٨٤٢م - ١٩١١م، ٢٠٠٥م. ص١٩ .

أعلن أنه سيسير في حكمه طبقاً للشرع، وأنه سيعزز أمن البلاد وسيعمل على تخفيف الأوضاع العامة الصعبة للشعب^(١)، إلا أن ضعف شخصيته وضآلة قدرته الإدارية والعسكرية منعه من إيجاد حلول سريعة وناجعة للمشكلات والصعاب الجمة المستعصية التي خلفها له والده، وفي هذه الظروف ظل عبدالجليل سيف النصر يراقب ما كان يجري من أحداث حول مدينة طرابلس، مفضلاً ألا يورط نفسه فيها، مما دفع بعلي باشا إلى الاعتراف به حاكماً على فزان وسرت، مكافأة له على هدوئه المؤقت وعدم انضمامه إلى جانب المتمردين، وعدم اشتراكه في معركة ضد القرمانيين حتى ١٨٣٥م^(٢).

وقد كان يوسف باشا بسبب الضغوط الأوروبية عقد اتفاقية مع فرنسا في عام ١٨١٦م، والتي أقر فيها فضلاً عن تقديم الاعتذار لفرنسا، بالتنازل لها بصفة تامة ونهائية بالنسبة له ولمن يخلفه في الحكم عن حق القيام بالهجمات البحرية على السفن التابعة للدول الكبرى، في مقابل أن تتنازل هي الأخرى عن استعمال هذا الحق تجاه السفن التجارية الطرابلسية^(٣)، وبذلك تحطم اقتصاد طرابلس تقريباً بنهاية الغارات البحرية، وتلا ذلك تحول التجارة عبر الصحراء نحو الغرب والجنوب إلى موانئ المستعمرات الأوروبية على ساحل الأطلسي^(٤).

أما كراغلة الساحل والمنشية فلم يبقوا على ولائهم لعلي باشا القرماني، ربما بدافع من القوى الأجنبية، أو بسبب الريب الناشئة بين الطرفين من اعتقاد علي باشا بأن الكراغلة لم يظهروا الحماس اللازم في القتال ضد عبد الجليل سيف النصر، لذا لجأ علي باشا إلى تهدئة الصراع مع عبد الجليل

(١) بروشين ، مرجع سابق، ص٢٥٨.

(٢) محمد أحمد الطوير ، ثورة عبد الجليل سيف النصر ضد الحكم العثماني في ولاية طرابلس الغرب ١٨٣١-١٨٤٢ م ، بنغازي ، دار الكتب الوطنية ، ٢٠٠٣ م ، ص١١٠، ١٠٩.

(٣) أتوري روسي، مرجع سابق، ص٤٠٢ - ٤٠٣؛ شارل فيرو، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ت محمد عبد الكريم الوافي، بنغازي، منشورات جامعة قاريونس ، ط٤، ١٩٩٨م، ص ٤١٩ .

(٤) جون رايت، تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور، ت عبد الحفيظ الميار، طرابلس، مكتبة الفرجاني، ١٩٧٢م، ص ٩٩ .

وملاحقة هؤلاء المتخاذلين الذين رأوا في ذلك التحول في سلوك علي باشا إزاءهم مبرراً في الانسحاب من جيشه ثم الخروج عليه^(١).

وانقسم أهالي طرابلس إلى فريقين، أحدهما داخل أسوار المدينة، وكان مناصراً لعلي باشا بدعم من الفرنسيين، والثاني خارج أسوار المدينة ومعظمه من أهل الساحل والمنشية والفئة الأخرى من القرمانيين يناصرون محمد بك بدعم من البريطانيين، ويمثلهم في الصراع ضد علي باشا وحلفائه محمد بيت المال^(٢)، وكانت كل من المجموعتين تحاول أن تجتذب إلى صفها سكان الدواخل، في الوقت الذي كان فيه الكراغلة أجنب بالنسبة لأهالي الجبل ، كذلك أهالي فزان، لهذا ليس بالضرورة أن تتطابق مصالح الطرفين^(٣).

في هذه الظروف المعقدة قام علي القرماني بمناورات يائسة لشق صفوف المتمردين واجتذاب القوى المحايدة إلى صفه، فبدأ بالتهديد بمصادرة ممتلكات أولئك المناحزين إلى صفوف المتمردين، إلا أن التهديدات بالمصادرة لم تتجح ، فحاول أن يؤثر على غومة بن خليفة وأحمد المريض، فأرسل إليهما رسائل وعدهما فيها بإطلاق أيديهما بحرية مطلقة في طرابلس الغربية وفي ترهونة ، لقاء معونتهما ومشاركتهما الفعالة في الصراع ضد المتمردين، فأعلنوا ولاءهما له، وإن لم يقوموا بأية حركة عسكرية فعالة لتأييده ، إلا أنه نجح في جعلهما يركنان إلى السكون، إلا أن الوضع ظل مضطرباً بشكل عام^(٤).

في هذه الأثناء انضم محمد بيت المال إلى المتمردين بعد عدة محاولات من علي باشا لجره إلى جانبه ولكنها محاولات باءت بالفشل، واستقر محمد بيت المال في مالطا، معلناً تأييده لهم، وأخذ

(١) إسماعيل كمال ، مرجع سابق ، ص ٦٣ .

(٢) عمر علي بن إسماعيل ، مرجع سابق ، ص ٢٧٥ .

(٣) بروشين ، مرجع سابق ، ص ٢٦٤ .

(٤) روسي ، مرجع سابق ، ص ٤٠٨ ..

يقترض الأموال من المالطين ويشترى بها السلاح والقنابل ويرسلها إلى المتمردين، وكان لهذه الأسلحة الأثر الكبير في زيادة وشدة حصار مدينة طرابلس، فلم تقتصر نيران مدافع المتمردين على ذلك المدينة، بل إنهم كانوا يقومون بضرب سفن على بابا الأشا بالمدافع أيضاً^(١)، وكان لمجيد محمد بيت المال أهمية كبيرة بالنسبة للمتمردين لما يتمتع به من مكانة بين الأهالي من ناحية، ومن ناحية أخرى كان يعد زعيم الكراغلة، وعن هذا الرجل قال ميكاي "ساعد وجود محمد بيت المال الثائرين أكثر من مساعدة الأسلحة والذخائر لهم فقد كان للرجل أتباع كثيرون بسلطة واسعة كما كان ذا أهمية عالية أهله لأن يصبح الزعيم الحقيقي للثورة"^(٢) وحتى حسين باي تونس لم يتأخر عن دوره في هذا الصراع، فهو في الظاهر يبدي من تصرفاته ما يجعله مؤيداً للمتمردين، ولكنه في الواقع كان ضد الفريقين ويسعى لدى الباب العالي مطالباً بتعيين أخيه مصطفى باي وولي عهده حاكماً على طرابلس وهو يهدف من هذا إلى إبعاده عن تونس حتى يضمن لابنه حمودة باي خلافة على العرش^(٣).

أما الباب العالي فكان يراقب الأحداث التي ألمت بإيالة طرابلس بارتياح، فقد كان يأمل في أن تؤدي إلى انهيار الأسرة القرمانلية وبالتالي تمكينه من إقامة حكومة عثمانية بدلاً منها، ومن ثم إقامة حاجز منيع بين إيالة تونس وبين الدولة المصرية^(٤)، مما جعل سكان طرابلس والمتمردين يرسلون التماساً إلى الباب العالي، يلحون عليه بالتدخل لحسم الأمر، فبعث رئيس الأسطول العثماني طاهر باشا الذي كان يتولى شؤون إيالات الشمال الأفريقي كاتبه شاكراً أفندي للوقوف على الوضع، وقد وصل إلى طرابلس في ١٨ أغسطس ١٨٣٣م، وأجرى محادثات مع علي باشا وزعماء المتمردين،

(١) عمر على بن إسماعيل، مرجع سابق، ص ٢٧٩، ٢٨٠.

(٢) ميكاي، مرجع سابق، ص ٢٤٧.

(٣) إسماعيل كمالي، مرجع سابق، ص ١١٤، ١١٣.

(٤) شارل فيرو، مرجع سابق، ص ٤٣٢، ٤٣١.

وحاول التوفيق بينهم وتوحيد كلمتهم للاعتراف بعلي باشا، وحين فشل في ذلك، توجه إلى الأستانة حيث قدم تقريراً مفصلاً عن الوضع^(١).

وفي محاولة للسيطرة على الوضع أصدر الباب العالي فرماناً بتعيين علي باشا حاكماً لطرابلس، ومن أجل تفريق المترددين أرسلت نصوص فرمان ليس فقط إلى القادة بل إلى عدد من قادة القبائل المتعاطفين معهم مثل غومة بن خليفة وأحمد المريض، يضاف إلى هذا أن السلطان أرسل إليهم هدايا آملاً بذلك أن يستميل قلوبهم إلى التأييد الفعلي لعلي القرمانلي^(٢)، وبأدركت فرنسا إلى الاعتراف بعلي باشا والياً على طرابلس، وتظاهر قنصل بريطانيا وارنجتون بالاعتراف به ولكنه في نفس الوقت ترك ابنه وسط المترددين لدعمهم، وهذا الدعم من قبل القنصل المذكور دعا لدفع المترددين إلى رفض أوامر الباب العالي^(٣)، حيث حاول من خلال ذلك الحصول على تأييد بريطانيا للمتمردين، وأصبح يعطي توجيهاته ونصائحه إلى مشايخ المنطقة الذين كانت لهم سلطة كبيرة على الأهالي تزيد عن سلطة محمد بك الذي كان شاباً عديم الخبرة ضعيف الهمة، لذلك استمر المتوردون في حصار المدينة براً^(٤).

ثالثاً: العلاقات الخارجية ونهاية الحكم القرمانلي

كان القنصل الأمريكي يؤيد المترددين أو الثوار ضد السلطات في إيالة طرابلس ، حيث اتخذ مقتل ترجمانه فرصة لإعلان تأييده لهم ، فأنزل علم بلاده من فوق مقر القنصلية، واتخذ مسكناً له في المنشية وسط الثوار واستمر هناك إلى أن وصلت فرقة بحرية أمريكية إلى طرابلس، فلم يوافق قائدها

(١) روسي ، مرجع سابق ، ص ٤٠٩ .

(٢) بروشين ، مرجع سابق ، ص ٢٦٧ .

(٣) شارل فيرو، مرجع سابق، ٤٣٣ .

(٤) ميكاكي ، مرجع سابق ، ص ٢٤١ .

على مسلك هذا القنصل فأمره بالسفر معه وعهد إلى قنصل سردينيا برعاية مصالح الحكومة الأمريكية^(١).

ونتيجة لهذا توقف كثير من الزعماء المؤيدين لهم عن المقاومة، وانتقلوا إلى صف علي باشا، إلا أن القسم الرئيس من كراغلة المنشية والساحل أصر على مواصلة الصراع، وبذل شاكر أفندي جهوداً كبيرة لدى المتردين، لكنهم أصرروا على المطالبة بتتحية على القرماني^(٢).

وعلى صعيد آخر ، فقد كان الصراع الداخلي الأوربي طيلة القرن الثامن عشر قد منح القرمانيين فرصة السيطرة على البحر المتوسط من خلال الجهاد البحري واتخاذ سياسة اقتصادية مستقلة^(٣)، حتى أصبحت طرابلس بفضل أسطولها القوى لا تقل مرتبة عن تونس والجزائر، والذي انعكس على الأوضاع الاقتصادية والعمرائية لطرابلس التي أخذت في الانتعاش، كما نشطت الحياة الدبلوماسية وتتابع الوفود للتفاوض أو التصالح أو التهديد بالحرب ولقد أحسن يوسف باشا استغلال هذا التفوق في زيادة النشاط البحري ومهاجمة السفن الأجنبية لأغراض اقتصادية صرفة^(٤)، ولكن مع بداية القرن التاسع عشر حدثت متغيرات دولية كان لها الأثر في إنهاء وتصدع السلطة القرمانية ، حيث تحالفت الدول الأوربية للقضاء على طموحات نابليون واتفقت أيضاً على توجهات موحدة ضد إيلات الشمال الأفريقي، كان ذلك في مؤتمر فيينا ١٨١٥م، الذي نصت بعض مقرراته على محاربة ما أسماه القرصنة البحرية وإلغاء تجارة الرقيق، وتم تكليف بريطانيا وفرنسا بإنذار تلك الدول وتنفيذ التهديد في حالة الضرورة^(٥)، وبدأت التدخل في الشؤون الداخلية في طرابلس، وقد اشتد الصراع في

(١) عمر على بن إسماعيل ، مرجع سابق ، ص ٢٨٥.

(٢) روسي ، مرجع سابق ، ص ٤١١، ٤١٠.

(٣) الهادي مصطفى بولقمة ، مرجع سابق ، ص ٢٤٨ .

(٤) خليفة محمد التليسي ، حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة ، الدار العربية للكتاب، ١٩٧٤م ، ص ١٤٠ .

(٥) محمد الهادي أبوعجيلة، النشاط الليبي في البحر المتوسط في الأسرة القرمانية ١٧١١م-١٨٣٥م وأثره على

العلاقات بالدول الأجنبية، بنغازي، منشورات جامعة قاريونس، ١٩٩٧م، ص ٢٤٨ .

عهد يوسف باشا، وأدى ذلك إلى تدهور الأسطول القرمانلي، والذي كان يعد من أهم مصادر الدخل، وبلغ التنافس بين القنصليتين البريطانية والفرنسية من أجل السيطرة والنفوذ مداه، فساعد ذلك على تردى الأحوال الداخلية للبلاد، إذ استغلت هذه القنصليات الانقسام الداخلي بين الأسرة الحاكمة، فأخذت كل منها تقدم الدعم لطرف معين ضد الطرف الآخر^(١)، وأسهم التدخل الأجنبي في هذه النزاعات، في إيجاد حالة من عدم الاستقرار السياسي في الإيالة، مما نتج عنه عدم وجود فرصة كافية لتنفيذ أي برنامج إصلاحى من شأنه أن يحقق درجة معينة من الرقى والتطور في شتى الميادين^(٢).

إن مصير إيالة طرابلس الغرب لم يعد في يد علي باشا القرمانلي، ولا في يد منافسه محمد بك القرمانلي، ذلك أن احتلال الجزائر في عام ١٨٣٠م قد وجه اهتمام الدول الأوروبية إلى تونس وطرابلس، مما دفع الأستانة إلى التعجيل باتخاذ قرارها بعودة طرابلس إلى السيادة العثمانية دون إبطاء^(٣)، وإزاء هذا الوضع قرر شاكر أفندي الرجوع إلى الأستانة في نهاية ١٨٣٤م وكتب تقريراً بكل ظروف الأزمة وتطوراتها، وقدمه إلى السلطان العثماني لأخذ رأيه فيما يجب القيام به من عمل لإنهاء هذه الأزمة التي استفحل أمرها، فأمر السلطان الصدر الأعظم لاتخاذ ما يراه مناسباً، وبعد نقاش طويل تقرر ضرورة القيام بعمل حاسم يعيد إيالة طرابلس إلى السيطرة العثمانية^(٤).

وفي مايو من ١٨٣٥م رسى أسطول عثماني في ميناء طرابلس مؤلف من اثنتين وعشرين سفينة بقيادة نجيب باشا ومعه أمر من السلطان العثماني بتوليته إيالة طرابلس ودعي علي باشا إلى الأسطول، وبعد أن صعد إلى السفينة القائد نجيب باشا أبلغه أنه معزول، وأنه يجب عليه أن يذهب

(١) ميكاكى، مرجع سابق، المقدمة .

(٢) آمال أحمد الطالب، الحياة الأسرية في ولاية طرابلس الغرب في العهد العثماني الثاني (١٨٣٥م-١٩١١م) طرابلس، مركز الدراسات التاريخية، ٢٠٠٦م، ص ٣٣.

(٣) روسي، مرجع سابق، ص ٤١١، ٤١٠.

(٤) عمر على بن إسماعيل، مرجع سابق، ص ٣٠١.

إلى القسطنطينية هو وأسرته ومن يريد أن يصطحبه معه ونزل نجيب باشا إلى المدينة وتسلم مقاليد الحكم وقراه على الناس أمر تعيينه ، وقتل محمد القرمانلي نفسه وفر أخوه أحمد إلى مالطا^(١)

الخاتمة

وخلاصة القول إن استمرارية حكم الأسرة القرمانلية يرجع إلى العامل الاقتصادي الذي كان له الدور الأكبر في الحفاظ على السلطة، وذلك بفرض الضرائب أو عن طريق الغارات البحرية، والتي لم تكن هناك استفادة منها بالمستوى الذي تتطلبه أوضاع طرابلس الاقتصادية، نظرا لسوء سياسة الولاية والتي ارتكزت على إظهار القوة العسكرية على حساب تحسين أوضاع الولاية، وإتباع سياسة التبذير والإسراف حتى في سنوات الضعف الاقتصادي، إن هذه السياسة أثرت على التأييد الشعبي، ولاسيما بسبب التعسف الضريبي، فإذا استفادت في بداية الأمر من التنوع القبلي والذي لم يكن يشكل قوة موحدة تستطيع مواجهة السلطات، فإن سياستها أثرت في مستوى تأييدها وفي بقائها وانهايار قوتها، فضلاً عن أن السلطة وجدت نفسها في مواجهة قوة كانت تعتمد عليها وهي قوة الكراغلة، بعد أن أضرت بمصالحها، وذلك عندما فرضت عليها الضرائب بعد أن كانت معفية منها من قبل.

وهكذا أصبح علي القرمانلي فاقد للتأييد الشعبي من جهة ومن جهة أخرى عجزه عن فهم التحولات الدولية، وما ترتب عليها من كبح الغارات في مياه البحر المتوسط وإلغاء تجارة الرقيق، وتحول تجارة الصحراء إلى مناطق أخرى بسبب حالة عدم الاستقرار التي شهدتها المنطقة ، بسبب جائحة الأوبئة ونتائجها المدمرة، مما أدى إلى أن تعيش طرابلس في آخر أيام حكمه فترة من الضيق والاضطرابات والقلق من جراء تردي الأوضاع الاقتصادية، وبسبب إفلاس الخزينة وتراكم الديون التي حاول تسديدها بزيادة الضرائب التي ضاعفت من تدمير الأهالي، كذلك اتساع الهوة التي كانت تفصل بين الأسرة الحاكمة والسكان بسبب تسلط وتعالى أبناء هذه الأسرة على السكان، ساعد هذا

^١ الطاهر احمد الزاوي ، ولاية طرابلس ،ليبيا، ط١، دار الفتح للطباعة، ١٩٧٠م،ص٢٣٤-٢٣٥.

أيضا على تصاعد الغضب ضد الباشا علي، الذي لم يطل به العهد، ولم تفلح إجراءاته التي اتخذها، لإصلاح الأمور، ومحاصرة المتمردين وسحب الأنصار من جانبهم، كان ذلك بسبب ضعف الفئات الاجتماعية في طرابلس، وعجزها عن الظهور والسيطرة على الأحداث، أو القيام بدور متميز فيها، على الرغم من أن الفرصة كانت سانحة أمامها في ظل الصراعات بين أفراد الأسرة الحاكمة، يرجع ذلك إلى غياب النخبة المحلية الفاعلة، مما حال دون أخذ زمام الأمور وجعلها بعيدة المنال، واكتفى قسم من هذه الفئة في ظل هذه الأوضاع بتأجيل هذه الصراعات، والقسم الآخر وقف متفرجا عما يحدث، وعول قسم ثالث على طلب المساعدة من الدولة العثمانية لحسم الأمر، والذي أدى في النهاية إلى عودة السلطة العثمانية من جديد على الإيالة.

أولاً الوثائق:

- وثيقة رقم (٣٠) ملف الأسرة القرمانيّة، شعبة الوثائق ، مركز الدراسات التاريخية ، طرابلس .
- وثيقة رقم (٥) ملف عبد الكريم ابوشويرب، شعبة الوثائق، مركز الدراسات التاريخية ، طرابلس.
- وثيقة رقم (٧) ملف عبد الكريم ابوشويرب، شعبة الوثائق ، مركز الدراسات التاريخية ، طرابلس.
- وثيقة رقم (٤٨) ملف الأسرة القرمانيّة، شعبة الوثائق ، مركز الدراسات التاريخية .، طرابلس.
- مراسلات قنصلية مملكة سردينيا من طرابلس مع وزارة الخارجية، الخطاب رقم ٢٦ بتاريخ ٤/١١/ ١٨٢٦م. مركز الدراسات التاريخية ، طرابلس.
- وثيقة رقم (٦٥) ، ملف محمد بيت المال ، شعبة الوثائق ، مركز الدراسات التاريخية ، طرابلس.
- وثيقة رقم (٢٩) ملف حسن الفقيه، شعبة الوثائق، مركز الدراسات التاريخية ، طرابلس

ثانياً : الكتب

- ابن غلبون، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، بنغازي، دار الكتب الوطنية، ٢٠٠٢م.
- أتوري روسي ، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١م، ت خليفة محمد التليسي، ط٢، بيروت، الدار العربية للكتاب، ١٩٩١م.
- إسماعيل كمال، وثائق عن نهاية العهد القرماني، ت محمد مصطفى بازامة، بيروت، دار لبنان، ١٩٦٥م.
- أحمد النائب الأنصاري، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ط ٢، الناشر دارف المحدودة، لندن، ١٩٨٤.
- الطاهر احمد الزاوي ، ولاية طرابلس ،ليبيا، ط١، دار الفتح للطباعة، ١٩٧٠م.
- الهادي مصطفى بولقمة دراسات ليبية ، ط٣، بنغازي ، مكتبة قورينا ، ١٩٧٥.

- آمال أمحمد الطالب ، الحياة الأسرية في ولاية طرابلس الغرب في العهد العثماني الثاني (١٨٣٥م-١٩١١م) طرابلس، مركز الدراسات التاريخية، ٢٠٠٦م.
- جون رايت، تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور، ترجمة عبد الحفيظ الميار واحمد اليازوري، طرابلس، مكتبة الفرجاني، ١٩٧٢م.
- خليفة محمد التليسي ، حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب، مالطا، الدار العربية للكتاب، ١٩٧٤ .
- رودلفو ميكاكي، طرابلس الغرب تحت حكم الأسرة القرمانيية، ترجمة طه فوزي، القاهرة، منشورات معهد البحوث الدراسات العربية، ١٩٦١م
- سعيد عبدالرحمن الحنديري ، ((تطور تجارة القوافل في ولاية طرابلس ١٨٣٥ - ١٩١١ م)) أعمال ندوة المجتمع الليبي ١٨٣٥ - ١٩١١م ، تحرير محمد الطاهر الجاربي ، طرابلس ، منشورات مركز الدراسات التاريخية ، ٢٠٠٠ .
- شارل فيرو، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الايطالي، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، بنغازي، منشورات جامعة قاريونس ، ط٤، ١٩٩٨م
- كامل على الوييه ، العثمانية في طرابلس الغرب ١٨٤٢م- ١٩١١م ، طرابلس ، مركز الدراسات التاريخية ، ٢٠٠٥ .
- كامل على مسعود الوييه ، الإدارة العثمانية في طرابلس الغرب ١٨٤٢م- ١٩١١م، طرابلس، منشورات مركز الدراسات التاريخية ، ٢٠٠٥م
- كولافولايان، ليبيا أثناء حكم يوسف باشا القرماني، طرابلس، منشورات مركز الجهاد، ١٩٨٨م.
- عمر على بن إسماعيل، انهيار الأسرة القرمانيية في ليبيا ١٧٩٥-١٨٣٥م، طرابلس، مكتبة الفرجاني، ١٩٦٦م .
- محمد رجب الزايدى ليبيا في العهد القرماني، بنغازي، دار الكتاب الليبي، ١٩٧٤م.
- محمد أمحمد الطوير، " زعماء ألفتاضه التي وراء الإطاحة بحكم الأسرة القرمانيية سنة ١٨٣٥م"، مجلة الوثائق والمخطوطات، العدد الثاني، السنة الثانية، طرابلس، مركز الدراسات التاريخية، ١٩٨٧م.
- محمد أمحمد الطوير ، ثورة عبد الجليل سيف النصر ضد الحكم العثماني في ولاية طرابلس الغرب ١٨٣١- ١٨٤٢ م ، بنغازي ، دار الكتب الوطنية ، ٢٠٠٣ م.
- محمد الهادي أبوعجييلة، النشاط الليبي في البحر المتوسط في الأسرة القرمانيية ١٧١١م-١٨٣٥م وأثره على العلاقات بالدول الأجنبية، بنغازي، منشورات جامعة قاريونس، ١٩٩٧م.
- محمود ناجي، تاريخ طرابلس الغرب، ترجمة عبد السلام أدهم ومحمد الأسطى، ط٢، طرابلس، دار الفرجاني، ١٩٩٥م.

- ن. أ. بروشين، تاريخ ليبيا في العصر الحديث، ترجمة عماد حاتم، ج ١، طرابلس، مركز الدراسات التاريخية، ٢٠٠٥م
- (1) K. S. McLachlan, Tripoli :Conflict and Cohesion during the Period of the Barbary Corsairs (1551–1850), Transactions of the Institute of British Geographers, Vol. 3, No. 3, (1978).

مكافحة الفقر في موريتانيا

دراسة في رهانات وانعكاسات السياسة الاجتماعية والاقتصادية للدولة الوطنية

Combating Poverty in Mauritania: Studying the Challenges and Implications of The Socioeconomic Policies Within the National State

محمد يحيى حسني

باحث - موريتانيا

Mohamed YahyaHasni

Mauritanian Researcher

medyaah@gmail.com

ملخص:

تحاول هذه الورقة تشخيص وضعية الفقر في موريتانيا عبر تتبع وتقييم مسارالسياسة الاجتماعية والاقتصادية للدولة الوطنية في مجال مكافحة الفقر، وذلك منذ فترة الاستقلال وحتى وضع ما يعرف بالإطار الاستراتيجي لمكافحة الفقر الذي يُعتبر اليوم الموجّه الرئيس للسياسات التنموية في موريتانيا. وقد انطلقنا في هذه الدراسة من فرضية تعتبر الفقر حرمانا من التمكين، وأنّ الاستراتيجيات المتبعة في مكافحة الفقر من طرف الدولة لا تلامس بدرجة كبيرة حاجيات مجتمع الفقراء، خاصة منها رهان السياسة الاقتصادية على النمو الذي لا يتساقط في محيط الفقراء، لأسباب بنيوية واقتصادية عديدة، لكن أيضا بسبب الفساد وسوء توزيع الثروة، وهذا هو الأهم في الحالة الموريتانية الراهنة. كلمات مفتاحية: الفقر، موريتانيا، التمكين، مكافحة الفقر.

Abstract

This paper attempts to diagnose the state of poverty in Mauritania via an assessment of the social and economic policies in the field of Poverty Combatting. The assessment starts from the independence era until the agreement of the “strategic framework”, considered as the core determinant of the development policies in the Country. The main hypothesis of the study

is that the poverty can be shortly defined as Deprivation of empowerment. Moreover, we consider that the strategies to deal with poverty do not meet poor classes needs due to structural and economic factors, corruption, and uneven distribution of wealth. This latter is considered as the most relevant factor the current situation in Mauritanian.

Keywords: Poverty, Mauritania, Empowerment, Combatting Poverty.

مكافحة الفقر في موريتانيا: دراسة في رهانات وانعكاسات السياسة الاجتماعية والاقتصادية للدولة الوطنية

<> إن مآزق موريتانيا الكبير ومشكلتها الكبيرة التي تتطلب حلا سريعا وعميقا هي مشكلة الفقر <<'.¹

Pierre Bonte

١- المقدمة: نبذة تاريخية عن الفقر في المجتمع الموريتاني

تغطي الصحراء ثلاثة أرباع مساحة موريتانيا، وإلى حدود السبعينيات لم تكن نسبة السكان الحضريين تتجاوز ٧% من مجمل السكان الذين كانت غالبيتهم حينها بدوا رحلا. وهاتان سمتان أي "البداءة والصحراء" ترتبطان بالندرة والقساوة وشظف العيش، فالبيئة الموريتانية في مجملها بيئة فقيرة، والموارد التي تمثل مصدر غنى فيها، ظلت إلى عهد قريب مجهولة لدى الموريتانيين.

ومنذ دخول الاستعمار الفرنسي للتراب الموريتاني سنة ١٩٠٢، والبلد يشهد - بوتيرة متزايدة - عمليات تفجير واسعة للمجتمع، سواء عن طريق الضرائب المجحفة، أو عن طريق نهب الثروات المعدنية^٢، وبالرغم من أن دولة الاستقلال شكّلت فرصة لوقف نزيف استغلال الثروات الوطنية والشروع في عملية

¹Pierre Bonte, "L'évolution de la société rurale mauritanienne: Le pari de la sécurité alimentaire," *Politique Africaine*, N°55, (Octobre 1994), P.78.

^٢المقصود أساسا البحر بثرواته السمكية إضافة للثروة المعدنية.

فرانسيس دي ساشيه، موريتانيا من ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٧٥، ترجمة محمد بوعليبة الغراب، (نواكشوط: جسر للنشر، ٢٠١٣)، ص ٦٤.

بناء وطني شامل، إلا أن جلّ سياساتها الاقتصادية والاجتماعية "أخفقت" في تحقيق التنمية المنشودة، بفعل عوامل عديدة منها على سبيل المثال لا الحصر:

* عدم ملائمة السياسة الاجتماعية والاقتصادية لطبيعة الاقتصاد الفتّي، وقد حدث ذلك، كما سنرى لاحقاً، مع السياسة الاقتصادية والاجتماعية الأولى التي أُقرّت في الفترة ما بين ١٩٦٣ - ١٩٦٦م.

* العشوائية في البرامج والخطط التنموية، بسبب الارتباك الذي سببه الجفاف الكبير الذي ضرب موريتانيا مطلع السبعينيات واستمر حتى منتصف الثمانينيات وأدّى إلى نفوق الثروة الحيوانية التي كانت تمثل عصب اقتصاد الريف حيث كانت تقطن غالبية السكان، وهو ما تسبب في موجات هجرة كثيفة أثقلت كاهل المدن الناشئة حينها، وفي مقدمتها العاصمة نواكشوط، كما أدّت موجات الهجرة الكثيفة نحو المدن من الريف، إلى تشوه المجال الحضري وتشكل ظاهرة الفقر الحضري الواسع النطاق.

* ومؤخراً الفساد الذي نخر مؤسسة الدولة منذ فترة ما بعد انقلاب العاشر يوليو ١٩٧٨ وسيطرة المؤسسة العسكرية على الحكم بعد الهزيمة في حرب الصحراء التي كبّدت موريتانيا خسائر اقتصادية كبيرة وأنهت فترة. ورافق هذا المعطى الارتهان لسياسات مسقطه كسياسات الإصلاح الهيكلية التي فرضها البنك الدولي على الدول التي فشلت في تحقيق التنمية بمفردها.

فضلا عن هذه المحدّات الرئيسية في مسار سياسات مكافحة الفقر في موريتانيا، فإن السياق الاجتماعي فاقم من إشكال الفقر في المجتمع الموريتاني، بسبب التفاوتات الحادة، وملف الإرث الإنساني المرتبط بممارسة العبودية على فئات واسعة من المجتمع ما تزال إلى الآن تعاني من مخلفات تلك الممارسة، وتُمثّل بؤر الفقر الرئيسية داخل المدن والريف على حدّ سواء.

بناء على ما سبق ذكره يمكن القول بأن الفقر يعدّ التحدي الأبرز لموريتانيا منذ نشأتها وحتى اليوم، فعلى الرغم من مرور أكثر من ٦ عقود على استقلال موريتانيا ما زالت نسبة الفقر تربع على ٤٠% بحسب الإحصائيات الرسمية.

هذه الوضعية إن دلت على شيء فإنما تدل على وجود جملة من الأعطاب في السياسات الاقتصادية والاجتماعية التي راهنت عليها الدولة الوطنية في مكافحة الفقر وتحريك عجلة التنمية في البلاد. ننتقل في هذه الدراسة من فرضية تعتبر الفقر حرمانا من التمكين، وأن الاستراتيجيات المتبعة في مكافحة الفقر من طرف الدولة لا تلامس درجة كبيرة حاجيات مجتمع الفقراء، خاصة منها رهان السياسة الاقتصادية على النمو الذي لا يتساقط في محيط الفقراء، لأسباب بنيوية واقتصادية عديدة، لكن أيضا بسبب الفساد وهذا هو الأهم في الحالة الموريتانية.

منهجية البحث:

إن الظاهرة مهما كانت هويتها لا تُقرأ إلا في سياقها الإبستيمي والمنهجي، أخذ بعين الاعتبار أهمية الخصوصيات كمعطى حضاري وثقافي واجتماعي^١، ونظرا إلى أن ظاهرة الفقر في موريتانيا تكتسي طابعا مركبا من حيث المضامين والأبعاد، فإنها تتطلب أيضا "منهجية مركبة" تتضمن مجموعة من التقنيات التي طورتها العلوم الاجتماعية، مثل تقنية الملاحظة المباشرة^٢، وتقنيات المقابلة الموجهة وشبه الموجهة، وتقنية دراسة الحالة لعينة من الفقراء كعينة مقيدة عمدية لعدم وجود دليل إسمي لكل الفقراء، وأخيرا اعتماد تقنية الاستمارة التي تم عرضها على عينة من المستفيدين من تدخلات الدولة. وبالتالي يمكن القول بأن منهجية البحث تراوحت بين مستويين:

المستوى الأول: يتمثل في المنهج الوصفي والتحليل الماكرو - سوسيولوجي، الذي يضع الظاهرة في إطارها الاجتماعي العام ضمن رؤية متكاملة لنسق تطور الحاجيات الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع وأشكال الاستجابة المختلفة من طرف الفاعلين المعنيين^٣.

المستوى الثاني: هو مستوى ميكرو - سوسيولوجي عبر دراسة الحالة التي نرمي من خلالها إلى معرفة نجاعة التدخلات التي تقوم بها الدولة في مكافحة الفقر إلى جانب تقييم سياسات مكافحة الفقر التي تنهض بها السياسات الاجتماعية والاقتصادية للدولة الوطنية.

^١ المنصف ونّاس، الحياة الجمعياتية في المغرب العربي: التاريخ والواقع والآفاق، (تونس: ألتالير، ١٩٩٧)، ص ٩.
^٢ Henri Peretz, *Les méthodes en sociologie L'observation*, (Paris: La Découverte, 2004), pp. 50 - 52.

^٣ فتحية السعيد، "الجمعيات والمنظمات غير الحكومية وثقافة المجتمع المدني في تونس"، أطروحة دكتوراه، جامعة تونس، تونس، ٢٠٠١ ص ٢٣.

٢ - خلفية نظرية ومفاهيمية:

حظي موضوع الفقر باهتمام كبير من طرف علماء الاجتماع والاقتصاد، وانعكس ذلك في غزارة المقاربات النظرية حول ظاهرة الفقر. ولإحاطة بما يشبه فهما متكاملًا للفقر لا بد من تخصيص جانب من الدراسة لأبرز المقاربات والتفسيرات التي فسّرت هذه الظاهرة. علما وأن هنالك نمطين من التفسيرات، يمكن أن نطلق على الأول التفسير الاجتماعي للفقر وعلى الآخر التفسير الاقتصادي المادي للفقر.

٢. ١. التفسير السوسيولوجي للفقر وأبرز مقارباته:

الفقر في المنظور السوسيولوجي متنوع ومتعدد، ومن التعسف تعميم محدّد واحد، كالمحدد الاقتصادي مثلا، لتفسيره وقياسه، مع إهمال خصوصيات المجتمعات ووضعياتها التاريخية والراهنة، وبناء عليه لا ينبغي أن يتأسس مفهومنا للفقر على التعميم وحده وإنما ينبغي أن يتأسس أيضا على التخصيص المستند إلى مجموعة من الأعراف السوسيو - ثقافية ومنظومة القيم والتصورات، فكما يقول جيان لابانس "الفقر هنا يتنقل في سيارة ذات عجلات مستعملة، والفقير هناك يمشي حافي القدمين أو بقنقاب"^١ ونفس المنحى أكد عليه تاونسند عندما ربط الفقر بالعادات الخاصة بالمجتمعات، حينما اعتبر الشاي وعدم الاحتفال بعيد الميلاد والخروج مرة على الأقل في الشهر للعشاء في مطعم من ضمن العادات الضرورية للإنجليزي، ويُعتبر فقيرا من لا يمكنه توفير ذلك، وبهذا يكون الفقر حسب عالم الاجتماع الإنجليزي بيتر تاونسند هو العجز عن عدم تمتع الناس بالمستوى الأساسي المتعارف عليه من الغذاء وظروف المعيشة وأنشطة الفراغ وأسباب الراحة المعروفة اجتماعيا بكونها "متعارفاً عليها"، فتعريف الفقر حسب تاونسند يجب أن يتسع ليشمل بالإضافة للحاجيات المادية والبيولوجية الحاجيات الاجتماعية أو الأشياء المطلوبة اجتماعيا. إذن فالفقر يتحدّد، وفق هذه المقاربة التي يدمجها البعض ضمن مقاربة الحاجات الأساسية، باعتباره شكلا من أشكال الحرمان النسبي المادي والاجتماعي^٢.

^١Jean Labbens, *Sociologie de la pauvreté: Le Tiers monde et le quart monde*, (Paris: Gallimard, 1978,) p. 83.

^٢ أندرو ويبستر، مدخل لسوسيولوجية التنمية، ترجمة حمدي يوسف، (بغداد: ١٩٨٦)، ص ٢٨.

والرهان في مثل هذه المقاربات لمكافحة الفقر لا يركز على النمو الاقتصادي، وإنما على استراتيجيات تنموية قاعدية تنطلق في معالجة الفقر من تمكين الفقراء وذلك بعمل شئيين هما: أولاً معالجة الفقر المطلق من خلال المساعدة الكبيرة والمباشرة للفقراء، وثانياً سد الحاجات المادية الأساسية (الملابس، الطعام، المأوى) والاجتماعية (التعليم، الحقوق الإنسانية أو ما يسمى بالمشاركة في الحياة الاجتماعية من خلال العمل والالتزام السياسي والجمعياتي)^١.

إلى جانب هذه المقاربة توجد مقاربة أخرى تدور حول مفهوم "ثقافة الفقر"، وهي مقاربة تعتبر الفقراء مسؤولين بدرجة أولى عن فقرهم وعن إعادة إنتاج أوضاعهم حيث "الوضع الاجتماعي للفرد يعتبر مرآة لما يتمتع به من مواهب وكفاءات ولما يقوم به من جهة ثانية"^٢ فوقاً لمنظور ثقافة الفقر لدى أوسكار لويس مثلاً فإن الفقر "ليس نتيجة لنواحي القصور والعجز الفردية، بل هو محصلة لبيئة اجتماعية ثقافية واسعة تجري فيها التنشئة الاجتماعية للأطفال وتنتقل ثقافة الفقر عبر الأجيال، لأن الأطفال يدركون في وقت مبكر أن لا معنى للطموح أو للتطلع لحياة أفضل، ويستعيضون عن ذلك بالاستسلام والتواكل والرضى بأوضاع الفقر والعوز"^٣. ومن هنا يكمن التحدي في مكافحة الفقر في محاربة ثقافة الفقر التي تعتبر إزالتها أصعب من إزالة الفقر نفسه.

لكن بالرغم من أن أوسكار لويس بنى استنتاجاته تلك من خلال دراسات ميدانية، إلا أن نظريته كانت محط العديد من الانتقادات، لعل أهمها تلك التي وجهها توماس غلادوين الذي اعتبر أن نتائج دراسات لويس حول فقراء المدن المكسيكية لا تنطبق على كل فقراء المدن، كما أن السمات التي اعتبرها لويس خصائص لثقافة الفقر والفقراء ليست نتاج ثقافة أو ثقافة فرعية تخلق نفسها بنفسها، وإنما هي انعكاس لبعض جوانب الثقافة السائدة، كما لا يختلف الفقراء في أهدافهم ولا في قيمهم ولا في اتجاهاتهم عن أبناء الثقافة المهيمنة "فكل ما في الأمر أن الفقراء يشعرون بالإحباط ويُمنعون من

^١ نفس المرجع، صص ١١٢ - ١١٣.

^٢ أنتوني جندز، علم الاجتماع، ترجمة فايز الصياح، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٥)، ص ٣٤٨.

^٣Oscar Lewis, *Five Families Mexican: case studies in the culture of poverty*, (New York: London House, 1959.)

تحقيق أهدافهم، ومن ثمّ يسعون لتحقيق أهداف بديلة قد لا يفهمها أو يُقرّها أبناء الثقافة المسيطرة^١. فلويس حسب عالم الاجتماع الأميركي بورتس ينظر إلى التكيف الانتقالي المؤقت مع الظروف الصعبة التي تكتنف الحياة الحضرية الصعبة على أنها سلوك مقنّن، وبذلك يكون مفهوم ثقافة الفقر مجرد وسيلة تعمل على زيادة السلبية السياسية تجاه الفقراء.

وقد كان هذا النقد مدخلا نحو تبلور مقاربة بنوية تؤكّد على العمليات الاجتماعية العريضة التي تنتج الفقر ويتعذر على الأفراد تجاوزها أو التغلب عليها، فهناك قوى هيكلية في المجتمع مثل: الطبقة والجنوسة والإثنية والمنزلة الاجتماعية هي التي تشكل أسلوب توزيع الموارد، وبالتالي فإن تخفيف الفقر، وفق هذه المقاربة، لا يعتمد على تغيير توجهات الناس ونظرتهم للحياة بل على وضع السياسات الهادفة إلى توزيع الدخل والموارد بصفة أكثر إنصافا في المجتمع.

٢.٢ التفسير المادي للفقر أو الفقر البيروقراطي:

ينطلق هذا النمط من التفسيرات من أرضية اقتصادية وإحصائية بحتة، تُحدد الفقر عبر متغيرات مادية صارمة، تتمثل أساسا في متغير الدخل اليومي أو السنوي، إضافة لمتغيرات مكملّة على غرار مؤشر الاستهلاك ونصيب الفرد من الدخل القومي.. إلخ. وهي ذاتها المتغيرات التي تقوم عليها كل مسوحات ظروف المعيشة.

يرتبط هذا المنظور الإحصائي أو المادي للفقر بمجموعة مفاهيم إجرائية طوّرتها بيروقراطية الدولة، وأصبحت حاليا تشكل جزء من المفردات التنميطية والمعيارية للفقر، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر: مفهوم خط الفقر، وخط الفقر المطلق والنسبي، وشدة الفقر، ومفهوم فجوة الفقر، وجيوب الفقر، ومفهوم السكان المستهدفون.. إلخ. ويسمّي جون فريدمان خطاطة هذه المفاهيم بالفقر البيروقراطي، وهو مفهوم نقدي يعني به "الفقر الذي يتم تعريفه من غير الفقراء بل ممن يعتبرون أنفسهم متفوقين على الفقراء اجتماعيا"^٢. بناء على ما سبق بالإمكان أن نعمد إلى تأليف مفهوم إجرائي

^١ إسماعيل قيزة، "من هم فقراء الحضر؟ قاع المدينة العربية نموذجا"، مجلة المستقبل العربي، العدد ٢٠٥، (مارس ١٩٩٦)، ص ٨١.

^٢ جون فريدمان، التمكين سياسة التنمية البديلة، ترجمة ربيع وهبة، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١١)، ص ١٠٤.

للفقر يحدد أبعاده والمؤشرات الخاصة بكل بُعد على حدة استنادا إلى التفسيرات السابقة أعلاه. فالفقر ظاهرة متعددة الأبعاد ولا ترمز فقط إلى مجرد نقص الدخل^١.

المؤشرات	الأبعاد
قلة الدخل + انعدام المدّخرات وهو ما ينعكس على المسكن والمقدرة على تلبية الحاجيات الأساسية	البعد الاقتصادي للفقر
قبول المساعدات الاجتماعية + ضعف هامش المساومة + ضعف المشاركة	البعد الاجتماعي للفقر
الأمية + الوعي السلبي لأوضاع البؤس الاجتماعي	البعد الثقافي للفقر
انعدام وسائل التمكين وأسس القوة الاجتماعية الضرورية.	البعد الشامل للفقر

المصدر: من إعداد الباحث

٣- الفاعل الرسمي وعلاقته بالفقر في موريتانيا:

٣.١ السياسات الاقتصادية والاجتماعية الموجهة لمكافحة الفقر في موريتانيا من ١٩٦٣ إلى ١٩٨٥: مع تأسيس العاصمة نواكشوط سنة ١٩٥٨، ونيل البلاد لاستقلالها عن فرنسا ٢٨ نوفمبر ١٩٦٠، لم تكن نسبة السكان الحضريين في موريتانيا تتجاوز ٧% داخل العاصمة وخارجها، وعلى الرغم من هذا الاختلال الديمغرافي الصارخ بين الريف والحضر، قامت الدولة الوطنية على مساحة تتجاوز المليون كلم² بسكان بدو غير مستقرين تتجاوز نسبتهم حيز ال ٩٠% من مجموع السكان.

* السياسة الاقتصادية والاجتماعية الأولى من ١٩٦٣ إلى ١٩٦٦

^١ نفس المرجع، ص ١١٩.

على الرغم من أن العالم الريفي - مع فترة استقلال البلاد - كان يمثل المجال الأوسع لنشاط السكان، إلا أن الخطة التنموية الأولى للدولة الوطنية، أغفلته بشكل تام، بل واعتبرته عامل إفقار للمجتمع، حيث تنص المادة ٧ من هذه الخطة على التالي <نظرا للتحديات الجمة التي يواجهها اقتصاد البلاد، والمتمثلة في محدودية الموارد الزراعية وما تتعرض له الثروة الحيوانية من تهديد بسبب شح المياه واستنزاف المراعي جزاء الرعي المجحف - مما أفقر المجتمع - فلا مجال لتحقيق أي نهضة اقتصادية، إلا عبر استغلال الثروتين المعدنية والسمكية الواعدتين>> إذن فالرهان في نهضة اقتصاد ناشئ ودولة ناشئة - يعتمد جل سكانها على أنشطة القطاع الريفي - هو على مقومات اقتصاد عصري، ليس من بين السكان حينها من يصلح للعمل فيه، لغياب أي تكوين سابق عليه. ليس هذا فقط، بل إن هذه الخطة أيضا جاءت والبلاد لم تعرف حينها أي إحصاء عام للسكان، وبالتالي فهي على غير أساس من حيث البيانات، نظرا إلى أن أول تعداد عام للسكان تم سنة ١٩٧٧م وبذلك ظلت البيانات الديمغرافية والاقتصادية للسكان، ناقصة بشكل مخل، مما انعكس بطبيعة الحال، على تقديرات الاستثمار وجدوى المشاريع^١

جدول توزيع الاستثمارات في الخطة الاقتصادية الأولى

النسبة المئوية	المبلغ بالأوقية	طبيعة الاستثمار
٥,٧ %	١,٥٨٠,٨٠٠,٠٠٠	دراسات عامة
١٢,١ %	٣,٣٥١,٠٠٠,٠٠٠	البنى الأساسية للنقل والمواصلات
٨,٦ %	٢,٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠	المنتجات الريفية
٣٣,٨ %	٩,٣٨٠,٠٠٠,٠٠٠	المنتجات المعدنية
٦,٩ %	١,٩١٠,٠٠٠,٠٠٠	صناعات الصيد
٤,٦ %	١,٢٧٠,٠٠٠,٠٠٠	الخدمات والتجارة
٣,٣ %	٩٢٢,٥٠٠,٠٠٠	التعليم وتكوين الأطر

^١ سيدي عبد الله المحبوبي، الهجرات الداخلية والتنمية في الجمهورية الإسلامية الموريتانية، جامعة تونس، أطروحة دكتوراه دولة، ١٩٩٧، ص ٢٦٨.

الصحة العامة والوقاية	٧٧٠,٤٠٠,٠٠٠	٢,٨ %
التحضر والإسكان	٤٠٢٣٠٠٠٠٠٠	١٤,٥ %
الإدارة والسيادة	٢٧٧٥٤٧٠٠٠٠٠	١٠٠ %

Ministère du plan et de l'aménagement du territoire, direction de la planification, 1^{ém} Plan, 1966.

كما أن تمويلات هذه الخطة، في معظمها، كانت تمويلات خارجية، وهو ما انجر عنه عدم تحكّم كبير في مصير المشاريع وتوجيهها^(١). ينضاف إلى ذلك أيضا، غياب شبه تام للمعدات اللازمة لاستخراج واستنصاع وتسويق ونقل هكذا ثروات، وهو ما جعل عائدها على خزينة الدولة ضعيفا ولا يكاد يذكر. وفي ظل التثبث بما تضمنته بنود هذه الخطة " لم يدم الوقت طويلا، حتى أصبح سكان العالم الريفي، عالة على قطاع عصري ضعيف البنية، محدود الطاقة الاستيعابية غير قادر على توفير فرص للعمل، لضعف قاعدته الاقتصادية"^(٢).

* السياسة الاقتصادية والاجتماعية الثانية ١٩٧٠ - ١٩٧٣: إخفاق آخر رغم محاولة إصلاح

المسار

في البداية جاءت هذه الخطة كمحاولة لتعديل الخلل الموجود في سابقتها، من حيث تهميش العالم الريفي بأنشطته وقطاعاته الاقتصادية، التي تستوعب معظم السكان النشيطين، هذا من جهة. ومن جهة أخرى أيضا شكلت محاولة لتعديل الكفة في موازين تحركات السكان الذين اتجهوا بكثافة إلى المناطق الحضرية الكبرى خاصة العاصمة نواكشوط، بيد أن هذه الخطة - وبفعل موجات الجفاف التي ضربت البلاد في أوائل السبعينيات - تحولت من منظور استراتيجي، يحاول إنقاذ البلاد من الفقر الذي رافقها منذ نشأتها، إلى مجرد برنامج للتدخل السريع.

ونظرا لنفوق الماشية وشح المياه حتى لصالح الاستخدام المنزلي في الريف، تسارعت وتيرة عمليات الهجرة واشتدت خاصة على العاصمة نواكشوط، التي أصبحت - انطلاقا من هذا الاختلال الكبير في توزيع السكان الذي تم في فترة قصيرة - مدينة مثقلة بالسكان الوافدين من الريف، في المراحل الأولى،

^١ سيدي عبد الله المحبوبي، الهجرات الداخلية والتنمية في الجمهورية الإسلامية الموريتانية، ص ٢٦٩.

^٢ عبد الله محمد فال، السكان والتشغيل في موريتانيا، جامعة تونس، أطروحة دكتوراه، ١٩٩٦، ص ١٣٠.

دون أن تكون التهيئة الحضرية قد عرفت طريقها إليها، مما أضاف تعقيدات جديدة إلى واقعها الأصلي، الذي لم يضع أصحابه في الاعتبار، انعكاسات النمو المستقبلي للسكان وتوزعهم عبر المكان.^(١) وعلى حد تعبير الديمغرافي جون آرنود أصبحت العاصمة "أشبه بمدينة أشباح، نتيجة لتدني مستويات الحياة بها، جراء تراكم المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية وغياب الخدمات القاعدية الأساسية، وتكدس مساكن المهاجرين في أحياء مبعثرة"^(٢) عُرفت لاحقا بأحياء "الكبة" التي طوقت العاصمة وشوهت مجالها الحضري، الذي لم يكن مصمما حسب الدراسات لاستيعاب تلك الأعداد من السكان.

وهكذا تكامل في العاصمة نواكشوط وجها الفقر الريفي والحضري، فالهجرة "عملية كلية لا تقتصر على مجرد تغيير الإقامة من مكان لآخر، وإنما هي كذلك تغيير في حجم السكان وبنياتهم المختلفة، ضمن مناطق المغادرة والوصول، كما أن عواملها ودوافعها المتعددة وانعكاساتها على المناطق المهاجر عنها وإليها، لن تخرج عن كونها مجرد ترجمة للواقع التنموي والمعيش على مستوى الوطن الأصلي والمهجر"^(٣). في هذه المرحلة وصلت حدة الفقر إلى ذروتها، وبدأت انعكاساتها وتجلياتها واضحة على البيانات الاحصائية لتلك الفترة، حيث وصلت نسبة الفقر إلى ٨٦ % ووصلت نسبة الأمية إلى ٨٢ % عام ١٩٧٧، ووصلت المساكن العشوائية في نواكشوط إلى ٥٧,٩ % من مجمل المساكن^(٤) وتضاعفت أعداد السكان عشرات المرات في العاصمة نواكشوط.

التطور السكاني لمدينة نواكشوط

سنة التعداد	العدد الإجمالي
١٩٥٩	٤٨٠٠ نسمة

^١ سيدي عبد الله المحبوبي، مرجع سبق ذكره، ص ١١.

^٢ Jean Arnaud, "Profil démographique des villes de Mauritanie d'après l'enquête urbain de 1975," *Bulletin de L'institut Fondamental d'Afrique noire*, T.38.B. N°3, (Dakar1976), P.619.

^٣ سيدي عبد الله المحبوبي، مرجع سبق ذكره، ص ٢.

^٤ السالك مولاي أحمد الشريف، التحضر غير القانوني ودوره في دينامية مدينة نواكشوط، جامعة تونس، أطروحة دكتوراه ٢٠٠٨، ص ٦٥.

٧ آلاف نسمة	١٩٦٠
١٠ آلاف نسمة	١٩٦٧
٢٢٠ ألف نسمة	١٩٧٠
٣٠٠ ألف نسمة	١٩٧٨
٣٣٠ ألف نسمة	١٩٨٣
٥٠٠٠٠٠ ألف نسمة	١٩٨٦
٨٠٠٠٠٠ ألف نسمة	٢٠٠٠
٩٥٨٣٩٩ ألف نسمة	٢٠١٣

المصدر: المكتب الوطني للإحصاء

أمام هذا الوضع الكارثي، تحولت سياسات الدولة التنموية، إلى مجرد تدخلات سريعة راكمت عجز الاقتصاد وأودت بمسار خطط تطوير الصناعات الاستخراجية، وأيضاً بمسار خطط التهيئة العمرانية لواجهة البلاد: "العاصمة نواكشوط"، كما لم تتفد أيّ من المشاريع الخاصة بالصحة والإسكان والتعليم^(١).

* السياسة الاقتصادية والاجتماعية الثالثة ١٩٧٦-١٩٨٠:

بعدما تكامل مشهد الفقر في العاصمة نواكشوط، وبات خطراً مهدداً للدولة في تماسكها واستمرارها، جاءت الخطة التنموية الثالثة، بعد أن بقيت البلاد في حالة طوارئ لمدة ثلاث سنوات، بغير سياسة اقتصادية واجتماعية، بفعل ناقوس الخطر الذي دقّه الجفاف والضرر الذي تسبب به. وتعتبر هذه الخطة الثالثة بمثابة، أول خطة خمسية، حاول من خلالها صانع القرار الموريتاني، أن يتجاوز مساوئ الخطط السابقة، والمتمثلة أساساً في غياب تنمية عادلة ومتوازنة المساعي. ووضعت هذه الخطة نصب عينيها هدفان أساسيان: أولهما يتمثل في وضع حلّ عاجل لأزمة العالم الريفي، وثانيهما يتمثل في وضع حد لسرعة وتيرة نمو المراكز الحضرية بالبلاد، وإضاعة عدة سبل لتحقيق ذلك، تتمثل في الآتي: أولاً: رفع مستوى الدخل، ثانياً: الاستغلال الأمثل للمصادر البشرية والمحافظة

^١ محمد اعبيد، الفقر في مدينة نواكشوط: دراسة في الجغرافيا الاجتماعية، جامعة تونس، أطروحة دكتوراه، ٢٠١٤، ص٤٧٩.

على التوازن السليم للوسط البيئي، ثالثاً: الرفع من مستوى طاقة الأجهزة المركزية للدولة، حتى تتمكن من توفير فرص العمل لامتصاص الأعداد المتزايدة من الباحثين عن الشغل. وقد استفادت هذه الخطة من معطيات أول تعداد عام للسكان والمساكن في موريتانيا ١٩٧٧ الذي تم من خلاله تسليط الضوء على المقومات الاقتصادية للبلد، ومعرفة عدد سكانه وخصائص كل منطقة على حدة. واعتبرت الجهات الرسمية أن هذه الخطة، هي بداية للكف عن الحلول التلقائية، لأنها تأخذ بعين الاعتبار، ضرورة تجاوز السياسات الإسعافية السطحية، إلى الغوص في أعماق مشكل الفقر ومشاكل العالم الريفي. وجاء حجم الاستثمار في هذه الخطة عادلاً في توزيعه على قطاعات السياسة الاقتصادية والاجتماعية للبلد، مع إعطاء أهمية كبرى للبنى الأساسية (المرافق، الطرق، البنى التحتية.. الخ) من أجل تحقيق تنمية عادلة ومتوازنة المساعي، يُستفاد فيها من كل مقدرات البلاد، حيث كانت محصلة الاستثمارات في هذه الخطة كالتالي:

النسبة في جملة الاستثمارات	حجم الاستثمار	القطاع
١٨%	٥٩٨٣ مليون أوقية	القطاع الريفي
١٩,٩%	٦٥٩٤ مليون أوقية	قطاع الصناعة
٤٣%	١٤٢٥١ مليون أوقية	قطاع البنى الأساسية
١٦,١%	٥٣٤٤ مليون أوقية	التعليم والشؤون الاجتماعية
٣%	١٠٠٠ مليون أوقية	البرنامج الخاص بتيرس الغربية
١٠٠%	٣٣١٧٢ مليون أوقية	المجموع

Ministère du plan et de l'aménagement du territoire, direction de la planification, 3ém plan 1976 – 1980. P.176.

لكن على الرغم من أن هذه الخطة الخماسية الأولى في السياسة الاقتصادية والاجتماعية، أخذت في اعتبارها المتغيرات الجديدة للوضع الاقتصادية للبلاد وسكانها، وعلى الرغم من استفادتها من نواحي الخلل التي أجهضت سابقتها، فإن عدة صعوبات واجهتها، وعصفت في الأخير بها وبمطامحها، نذكر منها:

أولاً: دخول البلاد في حرب الصحراء التي بدأت مع أول سنة لإقرار الخطة والتي ترتب عليها، توقف عمليات استخراج الحديد لوجود مناجمه على جبهة القتال،
ثانياً: دخول البلاد في جو من الاحتقان السياسي، والذي لم ينته إلا بانقلاب عسكري هو الأول في موريتانيا، ومنه بدأت مشوارها مع الانقلابات العسكرية، ومع الخطط والسياسات الاقتصادية الأحادية والمرجلة..
ثالثاً: تفاقم أزمة الجفاف إلى حد أوصل البلاد إلى المجاعة، الشيء الذي عمق الفقر وجذره وجعله السمة البارزة لموريتانيا.

* السياسة الاقتصادية والاجتماعية الرابعة ١٩٨١ - ١٩٨٥:

تتطلب هذه الخطة حسب منطوقها "من ضرورة تحول ملحوظ في العقليات والبنى والمؤسسات الكفيلة بتغيير حقيقي، يسمح بالانتقال من مرحلة اقتصاد معتمد على الخارج، لا يزيد السكان إلا فقراً، إلى مرحلة اقتصاد داخلي قوي يستطيع ضمان الاستقلال الاقتصادي"^١. لقد كان الرهان في هذه الخطة بالدرجة الأولى، على العالم الريفي، الذي حظي بأكثر نسبة استثمارات حينها، حيث وصلت إلى ٣٤,٩١ % من مجمل الاستثمارات، كانت موجهة بالأساس إلى إقامة البنى التحتية لاقتصاد العالم الريفي والمتمثلة في إنشاء السدود، وتهيئة الأراضي، وحفر الآبار، واقتناء المعدات والتجهيزات اللازمة لذلك.. وجاء هذا الرهان على القطاع الريفي، مصحوباً بهدف أساسي آخر لصانع القرار حينها، يتمثل في تثبيت السكان في الدواخل، وتعديل ميزان كفة تحركات السكان.

الجدول رقم ٤ الاستثمارات المتوقعة في الخطة ١٩٨١ - ١٩٨٥ وتوزيعها على القطاعات

القطاع	الاستثمار بالمليون أوقية	النسبة المئوية
التنمية الريفية (الزراعة، الرعي، المياه، البحث والتكوين ومساعدة الفقراء)	٣٧٤٦٩ مليون أوقية	٣٤,٩١ %
الصيد	٥٦٦٩ مليون أوقية	٥,٢٨ %

١ سيدي عبد الله المحبوبي، الهجرات الداخلية والتنمية في الجمهورية الإسلامية الموريتانية، مرجع سبق ذكره، ص ٢٩٢.

الطاقة والمعادن	٣١٧٠٩ مليون أوقية	٢٩,٥٤ %
الصناعة	٢٤٩٥ مليون أوقية	٢,٣٢ %
البنى الأساسية للمدينة (الطرق، الموانئ، المطارات، السكن والتحضر)	١٩٨٩٩ مليون أوقية	١٨,٥٤ %
البنى الأساسية الاجتماعية والسيادة الوطنية (الصحة، التعليم، والسيادة)	١٠٠٨٨ مليون أوقية	٩,٣٩ %
المجموع	١٠٧,٣٢٩ مليون أوقية	١٠٠ %

لكن هذه الخطة، رغم طموحها، إلا أنها "أساءت تقدير العوامل الخارجية، ولم تضع في الحسبان المعوقات الهيكلية، ولا الضعف المؤسسي للاقتصاد"^١ على الرغم من تحقيقها لبعض أهدافها الجزئية. بعد هذا الفشل المتوالي، من الدولة، في تطوير مظاهر الفقر، وفي العجز عن تحقيق التنمية - التي كانت شعار تلك المرحلة - أخذت سياسات الدولة منحى جديدا، تمثل في الارتهان لبرامج الإصلاح الهيكلية وسياسات التقويم المالي، التي تم فرضها من طرف البنك الدولي على الدول ذات المديونية العالية.

ونتيجة لما يرافق هذه الإصلاحات عادة من سلبيات خاصة على الفقراء، بسبب رفع الدعم والتقليل من القطاع المدعوم، فقد أصبحت الفئات الفقيرة في المجتمع الموريتاني، عرضة للفقر المدقع، وهو ما نبّه إليه برنامج الدعم والدفع ١٩٨٩ - ١٩٩١، الذي جاء فيه أن "الآثار الاجتماعية لتطبيق برامج الإصلاح الهيكلية، تحتاج إلى عمليات مؤازرة للتخفيف من حدتها"^٢ على الفقراء وغير الفقراء حتى، وهو ما لم يتم بفعل العجز المتسارع، الذي دبّ في ميزانية الدولة، وبفعل الفساد الذي تنامي تدريجيا، مع برامج الإصلاح الهيكلية.

^١ سيدي عبد الله المحبوبي، الهجرات الداخلية والتنمية في الجمهورية الإسلامية الموريتانية، ص ٢٩٥،

^٢ نفس المرجع، ص ٣٠٠.

كما حثت سياسات الإصلاح الهيكلية على الدولة ترك هامش من مجال تدخلاتها للقطاع الخاص، ومنحه صلاحيات واسعة عبر تشريكه في اتخاذ القرارات وإعداد الاستراتيجيات، خاصة بعد تراجع التمويل الخارجي، الذي كان معوّلاً عليه في هذه السياسة، الشيء الذي عصف تدريجياً بها وبأهدافها، المتمثلة أساساً في رفع النمو بما لا يقل عن ٤% والرفع من مستوى الاستثمارات في البلد. وأمام هذه الوضعية الحرجة التي أصابت اقتصاد البلد، والتي تضرر منها في المقام الأول الفقراء، ودخل بمقتضاها العديد من السكان ضمن خط الفقر، لجأت الدولة إلى برنامج جديد من برامج الإصلاح الهيكلي تم تسميته حينها بـ "برنامج الاستثمار العمومي" الذي رفع شعار، ضرورة اقتصار الاستثمار العمومي على القطاعات الاجتماعية والبنى القاعدية، بما يسمح به من تنمية المصادر البشرية، ومحاربة الفقر، وتحسين استغلال الموارد الطبيعية، ودعم القطاعات الاجتماعية ذات الأولوية. لكن مرة أخرى تبين أنه لا نجاح لأي من هذه السياسات إلا بالدعم المالي الخارجي، وهو ما لم يتوافر حينها، بفعل ملف الإرث الانساني، على خلفية تهجير غالبية المواطنين الأفارقة إلى السنغال، إثر ادعاء محاولة ضباط منهم الانقلاب على السلطة حينها ١٩٨٧م. كحصلة طال الفقر أكثر من نصف المجتمع، بل لو خضعت خطوط الفقر لمؤشرات أكثر موضوعية واستجابة لمتطلبات العيش الكريم، لغطى الفقر أكثر من ثلاثة أرباع المجتمع، وهو ما تثبتته نسب الشعور بالفقر، حسب آخر معطيات لمسوح الظروف المعيشية. والجدول التالي يبين نسب الفقر في موريتانيا مع إقرار برامج الإصلاح الهيكلي^١:

السنة	خط الفقر للسنة	نسبة الفقر في السكان	نسبة الشعور بالفقر
١٩٨٧	٣٠٠٠٠ ألف أوقية أي ما يقارب ٣٥٠ دولار	٦٠ %	إجابة على سؤال "هل تشعر بالفقر أو هل تعتبر نفسك فقيراً؟"
١٩٩٠	٣٢٨٠٠ أوقية أي	٥٦,٦ %	" "

^١ المصدر: المكتب الوطني للإحصاء: مسوحات ظروف المعيشة لسنوات ١٩٩٦ و ٢٠٠٠ و ٢٠٠٤ و ٢٠٠٨

		٣٥٥ دولار	
١٩٩٦	٥٠,٥ %	٥٨٤٠٠ أوقية	٨٠,٦ %
٢٠٠٠	٤٦,٣ %	٧٢٦٠٠ أوقية	٨٢,٢ %
٢٠٠٤ - ٢٠٠٨	٤٦,٧ %	٩٤٦٥٠ ألف أوقية	٨١,٢ %
٢٠١٤ إلى ٢٠١٨	٤٢ %	١٢٩ ألف أوقية أي ما يعادل ٦٥٠ دولار	٨٠ %

المصدر: المكتب الوطني للإحصاء ١٩٨٧ إلى ٢٠١٨

مع هذه الأرقام المخيفة، عن مدى انتشار الفقر في المجتمع، ستعتمد الدولة إلى الانتقال، من الاستراتيجية القطاعية المعدة سنة ١٩٩٠، لمحاربة الفقر، إلى الاستراتيجية الشاملة في محاربة الفقر، المعدة سنة ٢٠٠٠. التي بموجبها تصبح سياسة مكافحة الفقر سياسة كلية تعنى وتنهض بها كل قطاعات الدولة، مع إشراك الفاعلين غير الرسميين فيها. وفي هذه المرحلة بالذات تم إعداد الإطار الاستراتيجي لمكافحة الفقر ليغطي الفترة ما بين ٢٠٠٠ و ٢٠١٥ باعتباره المرجع الأوحده في مجال التنمية الاقتصادية والاجتماعية في موريتانيا. ويعين هذا الإطار هدفا كبيرا بمقتضاه تتراجع نسبة الفقر في ٢٠١٥ إلى ٢٥%. فما هي رهاناته وهل تحققت أهدافه؟

٤- الفقر في موريتانيا في ظل الاستراتيجية الشاملة لمكافحة الفقر أو ما يعرف بالإطار

الاستراتيجي لمكافحة الفقر:

أعد الإطار الاستراتيجي لمكافحة الفقر في موريتانيا ضمن "المبادرة المدعومة لتخفيف ديون الدول الفقيرة، ذات المديونية العالية"^١. ويقر هذا الإطار في مقدماته بأن الفقر "يظل ظاهرة تبعث على القلق في موريتانيا، وتؤكد هذه الوضعية على ما يبدو أن مختلف الإجراءات والسياسات المطبقة، لم تفلح حتى الآن في تخليص بعض فئات السكان من دائرة الفقر"^٢، وبما أن هذا الإطار يرمي في بعده

^١ الجمهورية الاسلامية الموريتانية، الوزارة الأولى، الإطار الاستراتيجي لمكافحة الفقر، المجلد الثاني: خطة العمل ٢٠١١ - ٢٠١٥، (نواكشوط: ٢٠١١)، ص ٤.

^٢ الجمهورية الاسلامية الموريتانية، الوزارة الأولى، الإطار الاستراتيجي لمكافحة الفقر: حصيلة ٢٠٠٦ - ٢٠١٠، ص ٧.

الاستراتيجي، إلى القضاء على الفقر، فإنه يؤكد على البعد التشاركي في السياسات الموجهة لمكافحة الفقر، فيُعيّن دورا بارزا للقطاع الجمعياتي، الذي هو مدعوٌ حسب هذا الإطار "إلى التشاور حول السياسات العمومية، والنهوض بثقافة النقاش الديمقراطي، والبناء والتنمية القاعدية وحماية المستهلك"^(١) في حين أن القطاع الخاص مدعوٌ "إلى الإسهام في خلق مناصب الشغل والمشاريع، التي توظف أكبر قدر من الأيدي العاملة" مع تركيز الدولة لجهودها على "ضبط النشاط الاقتصادي والإشراف والتصميم وتنفيذ السياسات الاقتصادية واستراتيجيات التنمية، مع إيجاد مناخ ملائم لتطوير الفرص الاقتصادية"^(٢). كما ينطلق هذا الإطار من تشخيص لطبيعة الاقتصاد الموريتاني، الذي يرى أن له طابعين، ربما أثرا سلبا عليه وهما كونه أولا: اقتصاد عصري (معادن، صناعات استخراجية، صيد بحري) يفترض فيه أنه منظم، ويحرك النمو، ويرتبط إلى حد كبير بالصادرات وله طابع غير توزيعي. ثانيا: اقتصاد إعاشي يعتمد أساسا على الزراعة المطرية وتنمية المواشي والصيد التقليدي الساحلي والقاري، وهو لا يغطي احتياجات السكان في مجال الغذاء، ويمثل أهم أسباب الفقر في الريف^(٣). كما يؤكد هذا الإطار في مقدماته على تعقيد ظاهرة الفقر^(٤)، وبالتالي تعدد مستوياتها >فالفقر ظاهرة متعددة الأبعاد، فهو في نفس الوقت نقدي واجتماعي، فالفقر النقدي يتعلق بدخل الفرد وقدرته على تلبية حاجاته الأساسية، وهكذا فإن الأشخاص الذين يعانون من الفقر المطلق، يتسمون بكون استهلاكهم ومصروفهم، غير كاف مقارنة مع عتبة حرجة تتمثل في الحد الأدنى الضروري للحياة، ولا تقتصر هذه العتبة على الحاجيات الغذائية الدنيا، بل تتجاوز ذلك إلى الحاجيات الأساسية الأخرى. أما الفقر الاجتماعي فهو مرتبط بالحصول على الخدمات الاجتماعية الأساسية، وفي هذه الحالة فإن الأشخاص الفقراء، هم الذين لا يحصلون إطلاقا أو يحصلون بصفة محدودة على الخدمات الأساسية كالصحة والتعليم والمسكن والماء الصالح للشرب والكهرباء، كما يمتد هذا الفقر الاجتماعي أو الفقر البشري إلى الرصيد الاجتماعي والتهميش. وهذان البعدان للفقر لهما روابط وثيقة فيما

^١ الجمهورية الإسلامية الموريتانية، الإطار الاستراتيجي لمكافحة الفقر: المجلد الثاني، مصدر سبق ذكره، ص ١٦.

^٢ نفس المرجع، ص ١٦.

^٣ نفس المرجع، ص ١١.

^٤ الجمهورية الإسلامية الموريتانية، الإطار الاستراتيجي لمكافحة الفقر: حصيلة ٢٠٠٦ - ٢٠١٠، سبق ذكره، ص ٧.

بينهما.>>^(١) وقد عيّن الإطار الاستراتيجي - في مرحلتيه الأولى والثانية - الترفيع في معدلات النمو الاقتصادي وسيلةً لمحاربة الفقر وتقليص نسبته إلى حدود ٢٥ % فالرؤية العامة للإطار تنطلق من أن "النمو الاقتصادي المطرد والمستدام، هو قوام أي تخفيف للفقر"^(٢). وقد كان الرهان في تحقيق مثل هذا النمو في المرحلة الأولى من الإطار على القطاع الأول أي "زيادة الطلب على الموارد الأولية: النحاس والذهب، الحديد، السمك، وارتفاع أسعارها" لكن مع تذبذب أسعار هذه الموارد الأولية ودخول منافسين فيها مع السوق الموريتانية، تراجعت إسهاماتها في ميزان النمو، مما اضطر الدولة إلى رهان آخر لتحقيق النمو المطلوب، هو هذه المرة قطاع الخدمات "النقل، المواصلات، التجارة، الفنادق، خدمات البنوك والتأمينات" لكن هذه العمليات والرهانات ككل، لم يكن الفقراء هم المستفيدون منها، "فالنمو لا يتساقط في محيط الفقراء" - كما يدّعي أصحاب منطق السوق الحرة والاقتصاد الحر - بفعل عوامل الاختلال في توزيع عوائده. وهو ما تقطنت له الدولة في المرحلة الأخيرة من تقييم نتائج السياسة الاقتصادية والاجتماعية للإطار الاستراتيجي لمكافحة الفقر "فإنجاز نمو متسارع لا يكفي بالضرورة لتراجع الفقر، وذلك لسببين رئيسيين هما: ١ كون قطاعات الاقتصاد الموريتاني - التي تعتبر المحركات الكلاسيكية للنمو - على ارتباط قوي بالعوامل الخارجية، ولا تؤثر سوى بقدر قليل على الفقراء. ٢ كون مناطق تواجد الفقراء والنشاطات الاقتصادية التي يعتمدونها هؤلاء في معيشتهم لا يمكنها - نتيجة عدد من مكامن النقص الهيكلية - أن تستفيد من النمو الذي يتحقق بحكم معوقات هيكلية وتقنية وتنظيمية">>^(٣) فالسياسات القائمة على محاربة الفقر بآلية النمو الاقتصادي، تغفل عن أن المستفيد الأوحد من عائدات النمو هم غير الفقراء، بل الأغنياء والمتحكمون في رأس المال عموماً، وهو ما زاد من حدة التفاوتات الاجتماعية في موريتانيا، وجعل الفقراء يزدادون فقراً والأغنياء يزدادون غنى. وأمام هذه الوضعية المحرجة، تم تعيين ثلاثة أهداف عاجلة للإطار الاستراتيجي لمكافحة الفقر في مرحلته الثالثة، وهذه الأهداف هي كالتالي: ١. تقوية فعالية الأنشطة المدرة للدخل. ٢. مواصلة

١ الجمهورية الاسلامية الموريتانية، وزارة الشؤون الاقتصادية والتنمية، المكتب الوطني للإحصاء، ملامح الفقر في موريتانيا: مشروع المسح الدائم حول الظروف المعيشية للأسر ٢٠٠٠، إبريل ٢٠٠٠، ص ١٩.

٢ الجمهورية الاسلامية الموريتانية، الإطار الاستراتيجي لمكافحة الفقر: المجلد الثاني مصدر سبق ذكره، ص ١٤.

٣ نفس المصدر، ص ٣١.

تنفيذ البرنامج الوطني لدعم المقاولات الصغيرة. ٣. تنمية مشروع دعم قدرات قطاع التمويل الخفيف. مع اعتماد مقارنة الحماية الاجتماعية القائمة على العمل الاجتماعي، من توفير رعاية صحية وتعليمية للمجموعات الأكثر هشاشة^(١). ومن اللافت للانتباه في هذه الخطة العاجلة لتدارك خطر الفقر، أن سياساتها هي في مجملها نفس السياسات التي يراهن عليها القطاع الجمعياتي ويتخذها وسائل لمكافحة الفقر، فكأن الدولة بذلك "تستسلم" أو تنقاد لمنطق العمل الجمعياتي المباشر للفقراء، والموجه لمجالات نشاطهم. والذي تبين أن مردوديته على الفقراء أكبر بكثير من مردودية سياسات الترفيع في معدلات النمو، التي سيطرت على التوجهات التنموية لدول العالم الثالث، والقائمة على ما بات يعرف بمنطق "تسليم المفتاح" بتبني استراتيجيات مسقطة لم تسبقها خبرة، ولم يدفع إليها تراكم تاريخي، ولا بدعم من إرادة التحدي لدى البشر...، بحيث انقضت عقود التنمية بنتائج سلبية أولها: تبديد الثروات الخام. وثانيها: سفه استهلاكي أتى على عوائدنا". وهو ما حصل بالضبط في موريتانيا منذ الاستقلال وحتى الآن.

أمام هذا الإخفاق في سياسات وخطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وعجز المقاربة الكلية لمكافحة الفقر، عن تحقيق مطامحها، المتمثلة، في تخفيض نسبة الفقر إلى ٢٥ % لأسباب عزتها الدولة إلى <ضعف التحكم في النمو الديمغرافي، والتوزيع غير المتكافئ لثمار النمو>^(٢). وعزاها البعض الآخر لأسباب عديدة تتمثل أساسا في: الارتجالية وعدم الجدية في تنفيذ الخطط والبرامج التنموية واتخاذ الفقر شعارا للحصول على التمويلات الخارجية من جهة واتخاذ ورقة رابحة في الانتخابات من جهة أخرى، ثم حجم الفساد الكبير الذي تقشى في كل قطاعات الدولة من القمة إلى القاعدة، وأخيرا ارتفاع حدة التفاوت في المجتمع مما أنتج ظاهرتين متناقضتين أولاها تتمثل في طبقة ثرية متورمة تسيطر - على الرغم من قلتها - على كافة دواليب الدولة وقطاعاتها، في مقابل غالبية فقيرة معدمة لا تتمكن من تلبية أبسط حاجياتها الأساسية. أمام هذه الوضعية المحرجة والخطيرة على الوضع الاجتماعي في البلد، بات من الضروري أن يتدخل فاعلون جدد وباستراتيجيات فعل جديدة للحد من اتساع دائرة الفقر

^١ نفس المصدر، ص ٣٤ و ٣٥ و ٣٦.

^٢ نفس المصدر، ص ٤.

وخاصة في العاصمة نواكشوط التي تحتضن "بؤر الفقر الخطيرة" اجتماعيا. ويتعلق الأمر هنا أساسا بالفاعل الجمعياتي والفاعلين في القطاع الخاص.

خاتمة

حاولنا من خلال هذا البحث أن نسهم ولو بقدر قليل في توفير تصور علمي عن تعاطي الدولة الموريتانية، من خلال سياساتها الاقتصادية والاجتماعية، مع ظاهرة الفقر التي تعتبر مكافحتها أولوية الأولويات بالنسبة للفاعل الحكومي منذ الاستقلال وحتى اليوم.

وقد راهنا في البحث على أطروحة بسيطة تعتبر أن الفقر ما هو إلا شكل من أشكال الحرمان من التمكين ووسائله. وأن السياسات الاقتصادية والاجتماعية المتبعة من الدولة في مكافحة الفقر لم تحقق أهدافها نظرا لاستنادها في أحيان كثيرة، خاصة مع نهاية فترة الثمانينيات والشروع في سياسات الإصلاح المالي، على فلسفة النمو الاقتصادي الذي لا تتساقط عوائده بالضرورة في محيط الفقراء. ويُعزّز من هذا الاستنتاج النتائج التي بيّنت "إخفاق" السياسات الاقتصادية والاجتماعية المتلاحقة من طرف الدولة، في مقاومة الفقر والحد من انتشاره. فعلى الرغم من اختلاف الرهانات في كل سياسة اجتماعية واقتصادية إلا أن الحصيلة كانت دائما دون المستوى المرجوّ، وفي بعض الأحيان كانت تقود إلى نتائج معاكسة.

ولذلك يبدو خيار تمكين الفقراء عبر إشراكهم في العملية التنموية وإعطائهم زمام المبادرة في إدارة مشاريعهم الخاصة، ضمن منظور جديد للتنمية البديلة، يبدو الخيار الأنجع في مكافحة الفقر وكسر الصور النمطية التي تُحمّل الفقراء المسؤولية عن فقرهم، من خلال اتهامهم بالكسل والخمول، على غرار ما تروّجه نظرية ثقافة الفقر، أو ما تقود إليه بعض المقاربات التنموية الأخرى التي تحول مجتمع الفقراء إلى مجتمع انتظاري ينتظر ريع الدولة أو ريع العمل الخيري.

المراجع:

المراجع العربية

أفهيلا، هوست. اقتصاد يغدق فقرا: التحول من دولة التكافل الاجتماعي إلى المجتمع المنقسم على نفسه، ترجمة عدنان عباس علي، الكويت، عالم المعرفة، ٢٠٠٧.

بوخريص، فوزي. مدخل إلى سوسيولوجيا الجمعيات، الرباط، دار إفريقيا الشرق، ٢٠١٣.

جدنز، أنطونيو. علم الاجتماع، ترجمة فايز الصياغ، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٥.

جينكنز ستيفن بي وجون مايكلرايت، منظور جديد للفقر والتفاوت، ترجمة بدر الرفاعي، الكويت، عالم المعرفة، ٢٠٠٧.

الخطيب عبد الله وآخرون، الاسهام الاقتصادي والاجتماعي للجمعيات الأهلية في الدول العربية: حالة مصر والأردن ولبنان وتونس، القاهرة، الشبكة العربية للمنظمات الأهلية، ١٩٩٩.

دوركاييم، أميل. قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة محمود قاسم، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٨. دي ساشيه، فرانسيس. موريتانيا من ١٩٠٠ إلى ١٩٧٥، ترجمة محمد بوعليبة الغراب، نواكشوط، دار جسر، ٢٠١٣.

ليلة، علا. دور المنظمات الأهلية في مكافحة الفقر، القاهرة، الشبكة العربية للمنظمات الأهلية، ٢٠٠٢.

النحوي، الخليل. شنقيط: المنارة والرباط، تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٧.

الفارس، عبد الرزاق. الفقر وتوزيع الدخل في الوطن العربي، بيروت، مكر دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١.

فريدمان، جون. التمكين: سياسة التنمية البديلة، ترجمة ربيع وهبة، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠.

وناس، المنصف. الجمعيات في موريتانيا: التاريخ والتشريع والأنشطة، نص كتاب مرقون، ٢٠٠٢.

—، الحياة الجمعياتية في المغرب العربي: التاريخ والواقع والآفاق، تونس، ألتاير، ١٩٩٧.

ويبستر، أندرو. مدخل لسوسيولوجية التنمية، ترجمة حمدي يوسف، بغداد، ١٩٨٦.

أطاريح:

محمد فال، عبد الله. السكان والتشغيل في موريتانيا، أطروحة دكتوراه، جامعة تونس، تونس، ١٩٩٦.

مولاي أحمد، الشريف السالك. التحضر غير القانوني ودوره في دينامية مدينة نواكشوط، أطروحة، جامعة تونس، تونس، ٢٠٠٨.

عبد الله المحبوبي، سيدي. الهجرات الداخلية والتنمية في الجمهورية الاسلامية الموريتانية، دكتوراه دولة، جامعة تونس، تونس، ١٩٩٦.

عبيد، محمد. الفقر في مدينة نواكشوط: دراسة في الجغرافيا الاجتماعية، أطروحة دكتوراه، جامعة تونس، تونس، ٢٠١٤.

السعيد، فتحية. الجمعيات والمنظمات غير الحكومية وثقافة المجتمع المدني في تونس، أطروحة دكتوراه، جامعة تونس، تونس، ٢٠٠١.

تقارير رسمية:

الجمهورية الاسلامية الموريتانية، وزارة الشؤون الاقتصادية والتنمية، الإطار الاستراتيجي لمكافحة الفقر في موريتانيا، حصيلة ٢٠٠٦ - ٢٠١٠، نواكشوط، يونيو ٢٠٠٧.

—، الإطار الاستراتيجي لمكافحة الفقر في موريتانيا، خطة عمل ٢٠١١ - ٢٠١٥.

٢٠٠٠. ، المكتب الوطني للإحصاء، ملامح الفقر في موريتانيا: مشروع المسح الدائم لظروف المعيشة ٢٠٠٠، نواكشوط،

٢٠٠٤. ، المسح الدائم حول الظروف المعيشية ٢٠٠٤، نواكشوط،

٢٠٠٨. ، المسح الدائم حول الظروف المعيشية ٢٠٠٨، نواكشوط،

١٩٦٧. ، نواكشوط، ١٩٦٧. الجمهورية الإسلامية الموريتانية، وزارة الشؤون الاقتصادية والتنمية، الخطة الاقتصادية والاجتماعية الأولى، ١٩٦٣.

١٩٧٣. ، الخطة الاقتصادية والاجتماعية الثانية ١٩٧٠. ١٩٧٣، نواكشوط، ١٩٧٣.

١٩٨٥. ، الخطة الاقتصادية والاجتماعية الثالثة ١٩٨٠. ١٩٨٥، نواكشوط، ١٩٨٥.

مقالات:

قيزة، إسماعيل. "من هم فقراء الحضر؟ قاع المدينة العربية نموذجاً." مجلة المستقبل العربي. العدد ٢٠٥، (مارس ١٩٩٦).

المراجع الأجنبية:

Bonte,Pierre. 'L'évolution de la société rurale mauritanienne: Le pari de la sécurité alimentaire,' Politique Africaine, N°55, (Octobre 1994).

Arnaud, Jean. "'Profil démographique des villes de Mauritanie d'après l'enquête urbain de 1975,'" Bulletin de L'institut Fondamental d'Afrique noire, T.38.B. N°3, (Dakar 1976).

Labbens Jean, *Sociologie de la pauvreté: le tiers monde et le quart monde*, Paris: Gallimard, 1978.

Laroussi, Houda. *Micro crédit et lien social en Tunisie: la solidarité instituée*, éditions, Paris: Karthala et IRMC, 2009.

Lewis, Oscar. *Lavida une famille Portoricaine dans une culture de pauvreté*, Paris: Gallimard, 1969.

_____, *Les enfants de chancez: Autobiographie d'une famille mexicaine*, Paris: Gallimard, collection du monde, 1964.

_____, *Five Families Mexican: case studies in the culture of poverty*, New York: London House, 1959.

Peretz, Henri. *Les méthodes en sociologie; L'observation*, Paris: La Découverte, 1988.

النمو الحضري ومشكلات النقل بالمدن الجزائرية

Urban growth and transport problems in Algerian cities

الاسم و اللقب: بوتلجة الحاجة

الدرجة العلمية: سنة الخامسة دكتوراه " ل.م.د." الطور الثالث في علم الاجتماع

التخصص: البنيات الأسرية و أنماط التربية في الوسط الحضري

الجامعة: عبد الحميد ابن باديس - مستغانم - الجزائر

UNIVERSITY, ABDEL HAMID IBN BADIS- MOSTAGANEM-ALGERIA

مخبر البحث في الخلدونية الجديدة والمؤسسات العمرانية والسلطة

Research laboratory in the new khaldounia, urban institutions and authority

E-mail : hadjatita1427@gmail.com

الهاتف: 00213771164793

الدولة: الجزائر

أستاذ دكتور: مخلوف البشير

الدرجة العلمية: أستاذ محاضر قسم "أ" قسم علم الاجتماع

E-mail : eneshafidahalima@gmail.com

UNIVERSITY, ABDEL HAMID IBN BADIS- MOSTAGANEM-ALGERIA

مخبر البحث في الخلدونية الجديدة والمؤسسات العمرانية والسلطة

Research laboratory in the new khaldounia, urban institutions and authority

جامعة عبد الحميد ابن باديس - مستغانم -

الدولة: الجزائر

ملخص

تسعى هذه الدراسة إلى توضيح مدى تأثير النمو الحضري على المدن ، من خلال تسليط الضوء على مشكلة النقل نتيجة ما تشهده المدن الجزائرية من امتدادات عمرانية و تحولات اقتصادية واجتماعية و ثقافية منذ استقلالها و اتجاهها نحو التنمية و التطور في وسائل النقل بمختلف أنواعه.

لهذا سوف نتطرق لموضوع النمو الحضري و تأثيراته المباشرة على وسائل النقل الجماعية و الفردية، بالإضافة إلى توسع ظاهر النمو الحضري داخل المدن و الذي أفرز عنه عدة مشكلات أثرت على حركة التنقلات سواء كانت فردية أو جماعية، داخلية أو خارجية، وهذا نظرا لما تشهده المدن من تطورات في وسائل الترفيه و خلق العمل والراحة مع توفير متطلبات الحياة الكريمة التي ساهمت بشكل كبير في تزايد سكانها وتوسع نطاق وسائل النقل في تحقيق تكامل بين النشاط البشري والاقتصادي. **كلمات مفتاحية:** النمو الحضري، النقل، التحضر، الحضرية، المدينة.

Abstract

the present research work is in an attempt to analyses and clarify the impact of urban growth on cities .Its main objective is to identify and understand the problem of transport and features characterizing it . The term of transport and urbanization of Algerian cities have appeared together frequently in recent studies; even so the economic, social and cultural transformation since the Algerian independence, through the revolution and the development of means of transport.

This study seeks to find out to what existent this urban growth could effect the mass and Individual transport. Although there are varying concerns behind the phenomenon of urban growth that made significantly interesting by the diversity of people's backgrounds and cultures .Furthermore investigating direct impact of the development of cities on different perspectives by creating work opportunities that leads to the development of human and economic activities.

Keyword : Urban growth , Transport, Urbanization ,Urban, City.

تمهيد

شهد العالم نمو حضري كبير كان له دور مهم في توسع المناطق الحضرية بداخله، وقد صاحب ذلك توسع كبير للمدن وامتد مجالها وتزايد عددها نتيجة اتجاه السكان نحو الضواحي والاتجاهات المختلفة المتمثل في التنقل الداخلي والهجرة بأشكالها إلى هذه المدن، فقد انعكست رغبة الإنسان في التجديد الذي كان وليد تأثيرات الاجتماعية والاقتصادية و الثقافية والسياسية، بما في ذلك حركة التقدم العلمي و التكنولوجي، وبما أن النمو الحضري لا يزال يفرز العديد من المشكلات المختلفة والتي تمس

مختلف جوانب الحياة، فمشكل النقل في المدينة تندرج ضمن جملة من الأسباب كالهجرة و البطالة وغيرها من الأسباب و يشير في هذا الصدد "ميردال" Merdel إلى أن مجتمعات العالم الثالث لا تعيش مشكلات اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية فقط، بل تعدت ذلك إلى مشكلات معقدة مست مختلف جوانب الحياة وما لم يتحقق فهم هذه المشكلات في شتى جوانبها لذلك سوف يبقى الفهم قاصرا، بالرغم من أن النمو في العالم لا يعرف توقف، مع اختلاف هذه الحركة من مجتمع لأخرى وحتى داخل المجتمع الواحد، فهناك مدن تكاد تختنق من الازدحام و سوء التسيير والتنظيم والتنقل في حين هناك مدن لا تزال تعاني التهميش والفقر والحرمان وهذا ما شجع السكان على الهجرة إلى أماكن تتوفر فيها الحياة الكريمة.

يعد النقل من بين مظاهر التطور خاصة نهاية القرن العشرين ، نتيجة تطور و تنوع وسائله وخدماته خاصة في المناطق الحضرية، نظرا لأهميته في حياة البشرية مما جعل الطلب عليه من الضروريات التي تتزايد بشكل مستمر، والبحث في سياسات النقل تتطابق والواقع المعاش من أجل خلق خدمة نقل مثالية انطلاقا من الاستغلال العقلاني لما هو متوفر من إمكانيات بشرية واقتصادية وطبيعية، تهدف إلى تحقيق التكامل في النشاط البشري والاقتصادي كتبادل المنتجات والأنشطة ونقل الأشخاص والربط بين الضواحي والمدن ، والعمل على خلق فرص العمل والترفيه والراحة وجذب للسكان والتمسك بحياة المدينة كونها تمثل مركز تلبية وقضاء الحاجات الضرورية للفرد. لذا تركز هذه الدراسة على مدى تأثير النمو الحضري على وسائل النقل بالمدن، مع محاولة فهم الظاهرة مع تقديم توصيات وحلول مستقبلية.

كما يهدف البحث إلى إبراز خطورة يجب الانتباه لها ومعالجتها وهي: أثر النمو الحضري على النقل و التنقل داخل المدن الجزائرية،

ولكي تتحقق هذه الأهداف سابقة الذكر وجب اعتماد منهج، فقد اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي لفهم الظاهرة من خلال الرجوع إلى المصادر والمراجع العلمية المرتبطة بالموضوع، وبالتالي تحليلها والاستفادة مما له علاقة بموضوع الدراسة.

الإطار النظري للنمو الحضري

١- تعريف النمو الحضري

هو عملية انتقال إلى حالة التحضر، ويعني عمليا التحلي عن الصفات والخصائص الريفية وانتقاء صفات التحضر، وعليه فهو التحلي عن خصائص واكتساب أخرى.^(١) ويعرفه الديموغرافيون على أنه حركة الناس في المجتمعات التي تقوم أساسا على خدمة الأرض (النشاط الزراعي) فقط إلى مجتمعات أكثر تحضرا وتنوعا نشاطاتها (تجارة- صناعة- خدمات) وغيرها من الأعمال المرتبطة بها.^(٢)

وتشير تعريفات بعض الباحثين والمهتمين إلى أنه العملية التي يتم بها زيادة سكان المدن من خلال تغيير الحياة الريفية البسيطة إلى حياة حضرية أكثر تطورا، أو عن طريق الهجرة إلى المدينة التي تتضمن جملة من التغيرات التي تمس طرق العيش سواء كانت اجتماعية، ثقافية واقتصادية... حتى يستطيع الفرد التكيف ونمط العيش في المدينة.^(٣)

- ويرى الدكتور السيد عبد العاطي السيد من خلال إبرازه أوجه الاختلاف بين المجتمعات المتقدمة والنامية في عملية النمو الحضري، حيث توصل إلى أن هناك اختلاف في معدلات التوازن بين سكان والموارد على عكس من النمو الحضري الغربي، حيث هناك توازن نسبي بين الزيادة السكانية والموارد المتاحة مبرزا أهمية الجانب الريفي، باعتباره عامل جذب لهم، نظرا لما يقدمه من توفر للمراكز الصناعية من الموارد و فرص العمل الذي وجد فيه فائض سكاني أوسع للهجرة لمناطق أخرى لم تستغل، بعد أن كان النمو الحضري في الدول النامية يتماشى طرديا مع دفع سكان الريف للإقامة بالمدن.

- رغم تنوع التعاريف واختلقت بين العلماء حول إعطاء تعريف شامل ودقيق للنمو الحضري إلا أنهم يتفقون في معناه الذي يقصد به الزيادة الطبيعية والهجرة، وهي من أهم ملامح النمو الحضري حسب ما جاءت به مختلف التعريفات.^(٤)

- يشير مفهوم النمو الحضري إلى مجموعة من عوامل التي تساهم في تعقيد الحياة الحضرية وتطورها في شتى ميادين الحياة سواء من الناحية الكمية أو النوعية أو في شكل ثنائي.

١ - عبد الباقي زيدان : علم الاجتماع الحضري و المدن المصرية، ص١٤.

٢ - فاروق زكي يونس: علم الاجتماع، الأسس النظرية و أساليب التطبيق، علم الكتب، القاهرة، ١٩٧٢، ص٢٣.

٣ - عبد المنعم شوقي: مجتمع المدينة و الاجتماع الحضري، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٦٦، ص٢٣.

٤ - عبد المنعم أنور: الحضارة و التحضر، دراسة أساسية لعلم الاجتماع الحضري ، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٧٠، صص ٥٧- ٩٠.

- كما يشير النمو الحضري إلى معدلات الزيادة في السكان، نتيجة ارتفاع نسبة الخصوبة أو الهجرة سواء من الريف إلى المدينة أو العكس.

- ييصاحب النمو الديموغرافي اتساع المساحة التنظيمية للمدن نتيجة للامتداد الأفقي من اجل تلبية احتياجات السكان الأساسية مثل (المساكن والطرق والخدمات بمختلف أشكالها).

٢- تعريف النقل:

يعتبر النقل من الموضوعات المهمة التي حظيت باهتمام الباحثين و المهتمين، ويمكن تلخيص أهم التعريفات التي تناولت موضوع النقل وهي على النحو الآتي:

- يعرفه سكوت جريير SCOTT GREER النقل أنه دورة الأفراد أو الطاقة والبضائع والخدمات يقوم بها أشخاص فاعلون اجتماعيون لتحقيق أهداف اجتماعية.^(١)

- كما يعرف النقل على أنه جزء حيوي من الحياة اليومية لمعظم الناس إذ يوفر لهم الحركة والانتقال بين الأماكن المختلفة من الداخل و الخارج بكل حرية.^(٢)

في حيت يعرفه البعض النقل على انه نشاط اقتصادي مرتبط بحركة الأشخاص والأشياء من مكان لأخر، فهو خدمة إنتاجية، لأنه في بعض الأحيان يكون هدفه في حد ذاته مثلما يحدث للمسافر للتنزه أو المتعة وبالتالي يندرج النقل ضمن مخطط الخدمات الاستهلاكية.^(٣)

ونجد في هذا الصدد "هانز إدلر" وهو خبير في شؤون النقل لدى البنك الدولي للإنشاء والتعمير « BIBA » يعرف النقل على أنه عبارة عن خدمة أو حدث لإيصال مراكز الإنتاج والمناطق الأهلة بالسكان مع بعضها البعض، أي مع مراكز الاستهلاك.^(٤)

كما ركز الفكر الاشتراكي بشكل كبير على أهمية قطاع النقل، ونجد على رأسهم "كارل ماركس" الذي يعتبره العنصر الرابع في الإنتاج المادي أي بعد الصناعة الإستخراجية والتحويلية والزراعة، ويرى أن قطاع النقل نوعين هما:

١- نقل الإنتاج الداخلي: وهو يمثل جزء من عملية الإنتاج كنقل المواد الأولية.

١- السيد عبد العاطي السيد: علم الاجتماع الحضري ، ج٢، دار المعرفة الجامعية ،٢٠٠٠، ص٢٩٧.

٢- زين العابدين علي: مبادئ تخطيط النقل الحضري ، ط١، صفاء للنشر، ٢٠٠٠، ص٦٥.

٣- علي الحسن عبد الغني، اقتصاديات النقل، جامعة البصرة ، العراق، ١٩٧٩، ص٢٥.

٤- هانز إدلر، التخطيط في قطاع النقل و مشاريع النقل . ترجمة عبد القادر ولي، (د،د،ن) ، بغداد، ١٩٧٠، ص٧.

٢- نقل العام: وهو الذي يقوم بعملية الإنتاج الاجتماعي، كونه فرع مستقل عن فروع الاقتصاد الوطني.^(١)

٣- تعريف التحضر

اشتقت كلمة التحضر من الكلمة اللاتينية Urbs وهي كلمة رومانية استعملت للدلالة على المدينة خاصة مدينة روما، لقد جاء في لسان العرب أن مفهوم التحضر يقصد به " التواجد والحضور الدائم والاستقرار والإقامة في المدن والقرى وهذا خلافاً للبداءة".^(٢)، أما منجد علم الاجتماع يُعرف هذا المفهوم على أنه: "الانتقال من الحياة الريفية إلى المدن للعيش ويكون هذا الانتقال بسبب الهجرة، حيث ينبغي على الشخص أو الجماعة أن تتكيف مع النظم والقيم السائدة في المدينة، وقد يترتب على حالة انعدام هذا التكيف تدهور الحالة المادية والمعنوية ومن هناك العودة إلى القرية".^(٣) وعليه يعتبر التحضر العملية التي تتم بها، زيادة سكان المدن عن طريق هجرة القرويين للمدن، المقصودة بها كذلك التغيرات التي قد حدثت لطبائع وعادات وطرق معيشة سكان الريف حتى يتكيفوا للمعيشة في المدن.^(٤)

٤- تعريف الحضرية

يعني مصطلح الحضرية عند علماء الاجتماع و الأنتروبولوجيا الحضرية على أنها أسلوب أو نمط حياة يتميز بها سكان المدن تفرضه الطبيعة الإيكولوجية الاجتماعية والثقافية للمدينة التي تكسب المدن ثقافة خاصة تسمى بالثقافة الحضرية، كما أصبح واضحاً أن الحضرية هي الحصيلة النهائية لعملية التحضر، أي تلك التغيرات الاجتماعية المصاحبة للتحضر بسبب إقامة الأفراد في المدن، ويعرفها لويس ويرث على أنها نمط أو أسلوب حياة في مقاله الشهير المنشور عام ١٩٨٣ بعنوان " الحضرية نمط الحياة" وأصبح مرجعاً أساسياً في علم الاجتماع الحضري في الخمسينات والستينات من القرن العشرين وهو أن إيكولوجية المدينة بما تفرضه من تفاعلات وعلاقات تنتج عنها سلوكيات وذهنيات

^١ - سعد الدين عشاوي، تنظيم وإدارة النقل، د د ن، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ٥٢.

^٢ - أحمد بوزراع، التطور الحضري والمناطق المختلفة في المدن، منشورات طبعة باتنة، ب، س، ص ١٣٤.

^٣ نفس المرجع السابق، ص ١٣٤.

^٤ عبد المنعم شوقي، مجتمع المدينة، دار النهضة العربية: بيروت، ط٧، ١٩٨١، ص ٢٣.

تطبع حياة الفرد الحضري وتكسبه ثقافة خاصة تنعكس على سلوكه، كما يمكن أن تطلق عليها الثقافة الحضرية، حيث يكتسبها الفرد من خلال الإقامة في المدينة ويؤدي سلوكه بلونها.^(١)

٥- تعريف المدينة:

حظي مصطلح المدينة باهتمام كبير من طرف المهتمين و الدارسين السوسولوجيين، ونجد على رأسهم "لويس ويرث" الذي يعتبر المدينة عبارة عن المكان الذي يحتوي على تجمعات هائلة من السكان، التي تنشأ فيها مراكز محددة تعمل على إشعاع الأفكار والممارسات التي تنمي أسلوب ونمط حياة الحضرية الحديثة.^(٢)

ويعرفها "روبارت بارك" في مقاله المعنون "مقترحات حول دراسة السلوك الإنساني في البيئة الحضرية" يعتبر المدينة وحدة اقتصادية يقوم تنظيمها الاقتصادي على تقسيم العمل، وهذا ما يشجع نطاق المهن و الحرف داخل المناطق الحضرية، أي أن المدينة في نظره منطقة ثقافية تتميز بنمطها الثقافي المميز لها.

وعليه فإن المدينة بهذا المفهوم عبارة عن اتجاه عقلي و مجموعة من العادات والتقاليد بالإضافة إلى الاتجاهات المنظمة والعواطف المتأصلة، كونها عبارة عن إقامة طبيعية للإنسان المتمدن، وعليه فهي منطقة ثقافية تتميز بنمطها الثقافي المتميز.

يتفق أغلب العلماء الاجتماع على أن المدينة عبارة عن فكرة مجردة، وتعتبر العناصر التي تتكون منها كالبناءات الداخلية ووسائل المواصلات كلها موجودات مشخصة لها طبائع مختلفة، وما يجعل المدينة شيئاً محددًا هو ذلك التكامل الوظيفي لعناصرها المختلفة على هيئة واحدة كلية، وهذا ما يدل على أن المدينة ليس لها وظيفة واحدة، بل قد دلت العديد من البحوث على أن لها عدة وظائف وهذا لا يفسر بالضرورة أن وظائف المدينة موجودة في كل المدن بلا استثناء.^(٣)

٦- المداخل النظرية لتحليل النمو الحضري:

١- محمد بومخلوف، التحضر، دار الأمة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، ط١، ٢٠٠١، ص٢٠.

٢- محمد عباس إبراهيم، التصنيع والتحضر دراسة أنثروبولوجية لمدينة كيمابأسوان، دار المعرفة الجامعية، مصر، الإسكندرية، ٢٠٠١، ص٣٧.

٣- محمد عاطف غيث، علم الاجتماع الحضري مدخل نظري، دار النهضة العربية، لبنان، بيروت، ب، ص١٣٢.

إنّ دراسة النموّ الحضري والتحصّر في البلدان العربيّة وبقية أجزاء العالم، لا يعتمد على مجرّد وصف الظواهر المصاحبة لهما والناجمة عنهما. كما أنّ نموّ أعداد أحجام المدن، ليست في نظر الكثير من الباحثين المختصين مجرّد تغير وتبادل عشوائي، بل إن هذه التغيرات والتبادلات ترتبط حسب آرائهم بقواعد وقوانين و عوامل ومتغيرات تتحكم باتجاهات ومقادير هذه التبادلات في خصائص المدن والتجمعات الحضريّة، وحتى لا تبقى عمليّة تقصص ودراسة المدن وأحجامها وأعدادها مجرد دراسات وصفية قائمة على الملاحظة الساذجة، فقد طور عدد من الباحثين مجموعة نظريات ونماذج وقواعد لتفسير العوامل المؤثرة في مواقف المدن وفي أحجامها وأعدادها، وفي الكيفية التي تتوزع بها هذه المراكز الحضريّة في أقاليمها والدول الخاصة بها، ومن أهم هذه النظريات والدراسات في النموّ الحضري هي:

* **نظرية الدوائر المتركزة:** لقد قدم برجس (BURGESS) إسهاماً متميزاً أثري به المعرفة العلمية بشكل كبير، حيث جاء هذا الإسهام عبر دراسة أقيمت في مدينة شيكاغو، و التي حاول من خلالها معرفة الأنماط التي تعترى نمو المدينة وتركيب الوظائف بها. جاءت هذه الدراسة في شكل كتاب تحت عنوان "نمو المدينة"، وكانت انطلاقة المنهجية تعتمد على نموذج لنمو المدينة وتنظيمها المجالي مستخدماً مخطط مدينة شيكاغو كأساس لبحثه^(١)، وكانت دراسته مرتكزة على متابعة النمو الفيزيقي للمدينة وتمايزها مجالياً^(٢)، انطلق من فكرة أساسية مفادها أن أسعار الأراضي ترتفع بشكل تدريجي كلما اقتربنا من مركز المدينة ليؤكد أن أقصى الأسعار تتركز في قلب المدينة. أين توصل أن المدينة في نموها تأخذ شكل حلقات ودوائر متناقصة ومتعددة المراكز وهي^(٣).

أ - **منطقة الأعمال المركزية:** تقع هذه المنطقة في مركز التوزيع الإيكولوجي للمدينة حيث تشكل النواة الأساسية لمختلف النشاطات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، إضافة إلى كونها ملتقى لطرق

^١ - إسماعيل قيرة، علم الاجتماع الحضري ونظرياته، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، ٢٠٠٤، ص ٥٦-٥٩.

^٢ - السيد عبد العاطي السيد: علم الاجتماع الحضري - مدخل نظري-الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٧٤، ص ٤٠٣.

^٣ - محمد حافظ: النمو الحضري في المجتمع المصري، دراسة بنائية تاريخية: القاهرة، دار سعيد رفت للطباعة والنشر، ١٩٨٧، ص ٢٩.

المواصلات، حيث تكثر فيها المرافق الإدارية و الخدماتية، هذه الخاصية جعلت منها محل اهتمام وطلب متزايد وهو ما أدى إلى ارتفاع أسعار الأراضي الشيء، ما جعل " بروجس" يرى أن الأعمال التي تؤدي إلى تحقيق الأرباح باستخدام الأرض بكثافة تجعل من المنطقة المركزية محطة نشاطها.

ب - **المنطقة الانتقالية أو منطقة التحول:** تتميز بالتغير المستمر والكثافة السكانية العالية وضعف المستوى المعيشي وانتشار الأمراض الاجتماعية وتدهور المساكن وانتشار المخازن والملاهي... الخ. بمعنى آخر هي منطقة الوافدين الجدد إلى المدينة والتي تعتبر من الأقليات العنصرية والإثنية، يعتبر "برجس" هذه المنطقة الأكثر تعرضاً لعمليات الغزو والاحتلال التي تمارسها منطقة الأعمال المركزية الدائمة على النمو والتوسع.

ج- **منطقة سكن العمال:** كما يشير عليه المصطلح ذاته، فهي منطقة العمال وأصحاب المهن الكتابية والأطفال المهاجرين، ما يميز هذه الفئة هو تطلعهم الدائم إلى تحسين مستوى معيشة أطفالهم ودفعهم إلى مستوى أعلى في السلم الاجتماعي.

د- **منطقة سكانية ذات مستوى أرقى:** تتكون من مساكن تقطنها أسر وحيدة، إلى جانب الشقق والعمارات الراقية وبعض فنادق، كما تعتبر هذه المنطقة ملجأ للفئات ذات الدخل المتوسط.

هـ - **منطقة الضواحي:** تقع في حدود المدينة، حيث يسكنها ذوي الدخل المرتفع في حين أن معظم سكانها يعيشون تنقل يومي في اتجاه أماكن العمل، وعلى هذا الأساس فقد قدم "برجس" تفسيره لنمو المدينة وتوسعها من خلال حلقات ودوائر متتابعة، معتبراً أن عمليتي الغزو والاحتلال هي النقطة المركزية في ديناميكية التوسع من منطقة إلى أخرى.

استطاع "برجس" من خلال ما قدمه من دراسات حول المدينة استنتاج مايلي:

- المدينة في نموها و توسعها تأخذ شكل حلقات دائري تمثل مناطق متتالية من الامتداد الحضري.
 - فكرة النمو و التوسع عنده عامل ساعده في دراسة عملية الغزو والاحتلال.
 - كلما زادت المسافة عن مركز المدينة، كانت هناك زيادة في أحجام الأراضي، في مقابل انخفاض نسبة التملك.^(١)
- * **نظرية القطاع: هومرهويت:** لقد ظهرت هذه النظرية في ١٩٣٩ كرد فعل على الانتقادات التي تعرضت لها نظرية الدوائر المتركرة، حيث ارتكزت هذه النظرية على مفهوم جديد جاء به "هومرهويت"

^١ - السيد الحسيني: المدينة دراسة في علم الاجتماع الحضري، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١، صص: ١٣١-١٣٤.

كبدل لمفهوم الدوائر، فقد ربط مفهوم القطاع بمتغير الدخل، ليتضح له في نهاية الأمر أن انتشار المناطق السكنية يخضع لدخل الأفراد ومستواهم المعيشي إلى جانب مناطق النشاطات التجارية بمركز المدينة، يميز "هومرهويت" ثلاث قطاعات أساسية هي:

أ - قطاع الإيجارات المنخفضة ب- قطاع الإيجارات المتوسطة ج- قطاع الإيجارات المرتفعة. ويؤكد هويت أن النمو الحضري يتحدد في ضوء امتدادات النمط السائد من أنماط استخدام الأرض، كما أوضح أن نمو المدينة يكون متسارعا على المحاور الرئيسية وعلى طول المحاور الأقل مقاومة، خلاصة أفكاره تتضح في انقسام بعض المدن الأمريكية إلى قطاعات كسان فرانسيسكو، فرجينيا وريشمووند.

* نظرية النويات المتعددة : لهاريس وألمان: لقد ظهرت هذه النظرية بعدما تعرضت كل من نظرية الدوائر المتركزة ونظرية القطاع إلى انتقادات عديدة، تعود بدايات هذه النظرية إلى منتصف الأربعينات، أين اعتمدت على فكرة أساسية مفادها أن نمو المدينة لا يعتمد بالضرورة على نواة واحدة بل نويات متعددة، يشير "هاريس وألمان" أن نمو المدينة يتشكل عبر أنماط عديدة منها:

أ- نواة النشاطات التجارية (بالمركز).

ب- نواة تجارة الجملة والصناعات الخفيفة.

ج- نواة الصناعات على أطراف المدينة.

كما يعتبر أن مسألة تعدد النويات يختلف باختلاف المدن وتطورها التاريخي وتخصصاتها المختلفة هذا من جهة، وربط توزيع المناطق السكنية حول هذه النويات بمسألة الدخل (دخل الأفراد) من جهة أخرى.

ويشير باحث إسماعيل قيرة في كتابه معنون بعلم الاجتماع الحضري ونظرياته أن العوامل الرئيسية المؤثرة في قيام النويات حسب "هاريس وألمان" هي:

أ- بعض الأنشطة تتطلب تسهيلات خاصة (منطقة الأعمال المركزية).

ب- بعض الاستخدامات تستفيد من وجودها في مكان واحد (الصناعة وإقامة طبقة العمال).

ج- بعض الاستخدامات تميل إلى التعارض (المصانع ومساكن الطبقة الراقية)، لا تستطيع بعض الأنشطة الحصول على مواقع متميزة (مناطق التخزين)

من خلال عرض للنظرية الإيكولوجية الكلاسيكية يتبين وأن التصور الإيكولوجي يستند إلى مجموعة من المقولات والقضايا النظرية و الإمبريقية... الخ.

في هذا الإطار تقدم النظرية الإيكولوجية الكلاسيكية تصورا في كيفية دراسة وتطوير المجتمع الحضري الذي يخضع لتأثيرات النمو والهجرة الريفية وتزايد حاجات الاجتماعية بكل مستوياتها، لذا ترى هذه النظرية أن التنمية الحضرية تنطلق من مراكز تركز الأنشطة والخدمات لتمتد فيزيقيا على شكل دوائر متلاحقة.

تعتبر هذه النظرية مثلها مثل نظرية النويات والقطاع تعتمد على العمليات الإيكولوجية في التغيير الحضري والتنمية من خلال المتغيرات التالية^(١):

أ- التركز: ويعني تركز أو تكدس الأنشطة والخدمات مما يؤدي إلى تغير المناطق وتأثيرها في المناطق المحيطة والتي تتسع على حسابها، وبالتالي يمكن أن ننظر إليه على أنه الميل نحو الزيادة العددية للوحدات الإيكولوجية والتوطين في أجزاء المدينة.

ب- التشتت: وهو أن تتركز الأنشطة عند مرحلة الإشباع بحيث يفقد مدلولها الاجتماعي والاقتصادي في إشباع الحاجات الاجتماعية المتنامية، الأمر الذي يدفعها إلى الانتقال إلى أماكن وأجزاء أخرى من المدينة قصد تتميتها، فالتركز والتشتت عمليتان تساهمان في توازن النسق الفيزيقي، فإذا كان التركيز يؤدي إلى زيادة الإنتاج فإن التشتت يؤدي إلى إحداث التوازن في توزيع الأنشطة والسكن.

ج- المركزية واللامركزية: إن المركزية واللامركزية عمليتان إيكولوجيتان، يساهمان في فهم نمو وتطور المدينة، بمقتضى أن المركزية تتجمع فيها المؤسسات ذات الوظائف المتشابهة في نطاق معين من المدينة، وتكون عادة حوله المحاور الأساسية للنقل والتنقل، أما اللامركزية فهي تشير إلى ميل الأفراد أو الوظائف نحو تركز النقاط الحيوية في المدينة واللجوء إلى أماكن معينة، بحيث تحافظ على سيطرتها وتأثيرها في التنمية الحضرية للمدينة.

^١ - جيرالد بريز، مجتمع المدينة في البلاد النامية: دراسة في علم الاجتماع الحري (ترجمة محمد الجوهري)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩، ص ٥٥.

د- الفصل أو العزل: وهو بعد تنموي يشير إلى تجمع وحدات ايكولوجية وانفصالها مجاليا، كأحياء الراقية والصناعات المختلفة والأنشطة والخدمات، وهذا الفصل يتم بالنسبة للجماعات الاجتماعية في ضوء الدخل واللغة والثقافة... الخ، أما بالنسبة للأنشطة فتتشكل حسب تشابه أو تماثل وظائفها.

هـ- الغزو والاحتلال: فهما عمليتان تستخدمان في تغيير البيئة الحضرية فهما أداتان من أدوات التهيئة والتعمير، فالأولى تشير إلى توسع سكاني أو خدمي يتم من خلال انتقال جماعة إلى منطقة منفصلة أو إدخال نمط جديد في استخدام الأرض، أما الاحتلال فيتحول بمقتضاه الغزو إلى سيطرة على المنطقة المحتلة من حيث السكن أو النشاطات.

إن هذه المتغيرات الإيكولوجية هي في الواقع الأدوات الأساسية التي اعتمدت عليها النظرية الإيكولوجية الكلاسيكية في تنمية المجتمع المحلي الحضري. وهذه المتغيرات يمكن التطرق إليها بالمدينة الجزائرية في محاولة لتحديد مستوى التنمية الحضرية بها.

* **النظرية الإيكولوجية المحدثة:** تمثل نموذج جديد للنظرية الإيكولوجية الكلاسيكية حيث تبنى الباحثون المحدثون فكرة أساسية جديدة، وهي أن النظرية الإيكولوجية يجب أن تشمل كل الظواهر الاجتماعية و تبرز هذه الإسهامات الجديدة من خلال النموذج المحدث في شكل مجموعتين وهما إسهامات كل من كوين (Quin) وأموس هاولي (A.Aauley) وهي على النحو الآتي^(١):

أ- **تقييم العمل والتوزيع المجالي:**

يحصر هذا الباحث موضوع الإيكولوجية الحضرية في إشكالية تقسيم العمل وتأثيره على التوزيع المجالي هذا من جهة ، أما Quin يرى أنه لا يمكن إقامة تحليل إيكولوجي شامل لكل المشكلات الحضرية، بل يجب التركيز أولا على العلاقات الجدلية بين الجماعات والبيئة ، وبالتالي فقد قدم مفاهيم جديدة تمثلت في البيئة والمجتمع المحلي الحضري ومنطقة المركز الحضري.

ب - **المجتمع المحلي الحضري:**

يجب الإشارة إلى أن إسهاماته هي في الواقع حلقة وصل بين النظرية الإيكولوجية الكلاسيكية والمحدثة ،بحكم تركزها على جملة من المواضيع ذات الصلة وهي:

^١ - فادية عمر الجولاني: علم الاجتماع الحضري ، الرياض، دار عالم الكتب للنشر و التوزيع، ١٩٨٤، ص ٧٦.

إن موضوع الإيكولوجية هو الطريقة الوحيدة التي من خلالها يحافظ الأفراد على أنفسهم داخل بيئة دائمة التغير.

المجتمع المحلي هو وحدة التحليل. الأفراد أعضاء داخل الجماعات. الاهتمام بالبعد المكاني. الاهتمام بالبعد الزمني. التكامل بين العوامل السيكولوجية والأخلاقية. الأنشطة ترتبط بنسق القيمة السائدة. عدم الفصل بين الظواهر شبه اجتماعية والثقافية والاجتماعية. اعتبار التكيف الثقافي إحدى مواضيع الأساسية في التحليل الإيكولوجي.

ما أدى إلى تطور النظرية الإيكولوجية و تكيفها مع المتغيرات الحضرية، أين أصبحت تنظر إلى الفرد كعضو في التشكيلة الاجتماعية تتأثر بعلاقاته التي تشكله وتهيؤه، بمعنى أنه ليس فردا منعزلا، تمثل قفزة نوعية في الدراسات الإيكولوجية التي كانت تركز على المكان وتتنظر إلى المشاكل الحضرية على أنها نتاج طبيعة المكان ليس إلا، لتنتقل إلى فكرة نوعية جديدة تعتبر من خلالها هذه المشاكل الاجتماعية على أنها أيضا ناجمة عن طبيعة الجماعة وبناءها وتفاعلها مع الوسط الاجتماعي ومنها تظهر أهمية المشاركة الجماعية.

٧- مظاهر النمو الحضري في الجزائر و عوامله

إن الذي ينظر إلى المدن ومظهرها العام وتطورها وفق التكنولوجيا الحديثة يرى تغير في أشكال المجتمعات وانتشار التحضر والمراكز الحضرية التي انطلقت من المدن الصغيرة إلى المتوسطة وصولا إلى المدن الكبيرة ، مثل هذه الأمور كانت انعكاسا لعملية التطور لتصبح الشغل الشاغل لذوي الاختصاص سواء كانوا مخططين أو اجتماعيين ، والبحث فيه بعلاقات متباينة من الدراسات والبحوث التي تناولت من قريب أو بعيد موضوع النمو الحضري وتأثيراته على المدينة ووسائل الاتصال والتواصل بمختلف مستوياتها وجوانبها، وعليه يمكن تحديد مظاهر النمو الحضري في المدينة التي اختلفت طريقة تناولها من دراسة لأخرى من خلال ثلاث مظاهر وهي:

***المظهر الديمغرافي:** يعتبر من أهم مقاييس عملية التحضر والنمو الحضري على أساس أنه يشير إلى تجمعات سكانية ذات أحجام معين، فقد ركزت الحضرية في هذا المظهر في حدود ارتباطها بالتركيز السكاني وكذا الاتجاه نحو زيادة التركيز السكان في المدن والمناطق الحضرية ونجد هوب **تيسدال H.Tisdal** في تحليلاته للتحضر كعملية للتركيز السكاني مستندا على عنصرين هما:

- تعدد نقاط التركيز - زيادة المراكز الفردية.

وعليه فإن تزايد السكان المقيمون في المناطق الحضرية مؤشر إحصائي دقيق لقياس عمليات التحضر والنمو الحضري، وتعد دراسة وارن تومسون التي أجراها على ٤٤ منطقة ميتروبوليتية في و.م.أ و التي حاول من خلالها مقارنة معدل النمو السكاني بين أجزائها المختلفة خلال القرن ١٩ حيث توصل إلى ما يلي:

- تزايد سكان المناطق الخارجية للمدن المركزية - ارتفاع معدلات نمو السكان في المناطق الريفية بسبب زيادة معدلات النمو في المناطق الحضرية بالنسبة للمناطق الميتروبوليتية.^(١)

* **المظهر الإيكولوجي:** يرتكز العامل الإيكولوجي في صورته التقليدية و المحدثه على مؤشر السكان والمكان، أو متغير الحجم والكثافة كأهم معايير لقياس درجة التحضر، أي التي تقاس في ضوء وضوح سيطرة الإنسان على البيئة الطبيعية واستخدامها الرفاهية وعلى الطابع الفيزيقي للمجتمع الحضري، حجمه خصائصه، أساسه الوظيفي، ونمط توزيع السكان والنشاطات واتجاهات نموه.

ولقد كانت خصائص الأساس الوظيفي للمدن تتعكس على بنائها الإيكولوجي وعلى نوعية التتميط المكاني للسكان والنشاطات المختلفة فمن حيث الموقع لعبت العوامل الاقتصادية والقوى الاجتماعية و السياسية دورا مهم في تحديد مواطن المدن، أما بالنسبة للتوزيع المكاني للسكان والأنشطة داخل المدن فقد تأثرت بخصائص التنظيم الاقتصادي والاجتماعي، فقد انقسمت المدينة ايكولوجيا إلى أحياء منعزلة ذات أسس مختلفة و هذا كنتيجة لطبيعة الوضع المتخلف للتكنولوجيا النقل، وكذا بساطة وسائل النقل وميل السكان للإقامة بالقرب من مواقع أعمالهم ، وزيادة التزاحم السكاني والالتصاق الشديد للمباني، ما أدى إلى ضيق الشوارع و تعرجها، ومع دخول النمو الحضري مرحلة متقدمة من الحداثة عرفت المدن تغيرات ايكولوجية واسعة النطاق من خلال جملة العمليات الايكولوجية تمثلت في:

***العزلة:** وتعني الفصل الفيزيقي بين مختلف أوجه النشاطات و التجمعات السكانية ويتضح هذا العامل من خلال ثلاث عناصر مهمة وهي:

- انفصال الموقع السكني عن مواقع الأعمال والأنشطة.
- تنوع الأنشطة الحضرية مظهر من مظاهر التغير الإيكولوجي.
- سير الانفصال المكاني جنبا إلى جنب مع تنوع النشاطات الاقتصادية في المدينة.

^١ - السيد عبد العاطي السيد: علم الاجتماع الحضري، ج٢، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٠، ص: ١٣٢-١٣٥

***الامتداد الحضري:** ركز عامل الزيادة السكانية المقترن بالمنافسة على المواقع المركزية للمدن الكبرى بين أنماط مختلفة لاستخدام الأرض و المرتبطة بعدم ملائمة المناطق الحديثة للمساكن مع ما كان قائم من قبل من قصور ومباني أدى إلى نتائج كشفت عنها اتجاهات حديثة للنمو الحضري والمتمثلة في:

- اتساع دقعة الامتداد العمراني الحضري.

- التغلغل السكاني في المدن المركزية.

- اتجاه النمو الحضري إلى تطوير مناطق الضواحي والأطراف المحيطة بالمدن.

* **المظهر التنظيمي:** لم تقتصر مظاهر النمو الحضري على عامل الديمغرافي والايكولوجي أو تطوير النسق الاقتصادي فحسب، بل تعدى ذلك ليشمل التنظيمات الاجتماعية أكثر تعقيدا، بالإضافة إلى تطوير وسائل الاتصال وميكانيزمات الاجتماعية والسياسية التي تسمح بإمكانية الربط والتنسيق بين مجالات وبيانات متخصصة ومتمايزة.

وعليه يشير السيد عبد العاطي السيد إلى أن النمو الحضري هو الانتقال من مجتمع بسيط إلى مجتمع أكثر تعقيداً، يشمل ذلك التعقيد النظامي على تطوير الحكومات المركزية القوية وتطوير الأسواق والانتشار الواسع للتنظيمات الرسمية وغير الرسمية، ولقد ارتبطت هذه التنظيمات مع التطور التكنولوجي والتحول الديمغرافي، لهذا كان تعدد التنظيمات الحضرية و تنوعها عبر مراحل متتالية مرتبط بتطوراتها مع التقدم التكنولوجي وتعددت مظاهر التغير التنظيمي المصاحب للنمو الحضري.

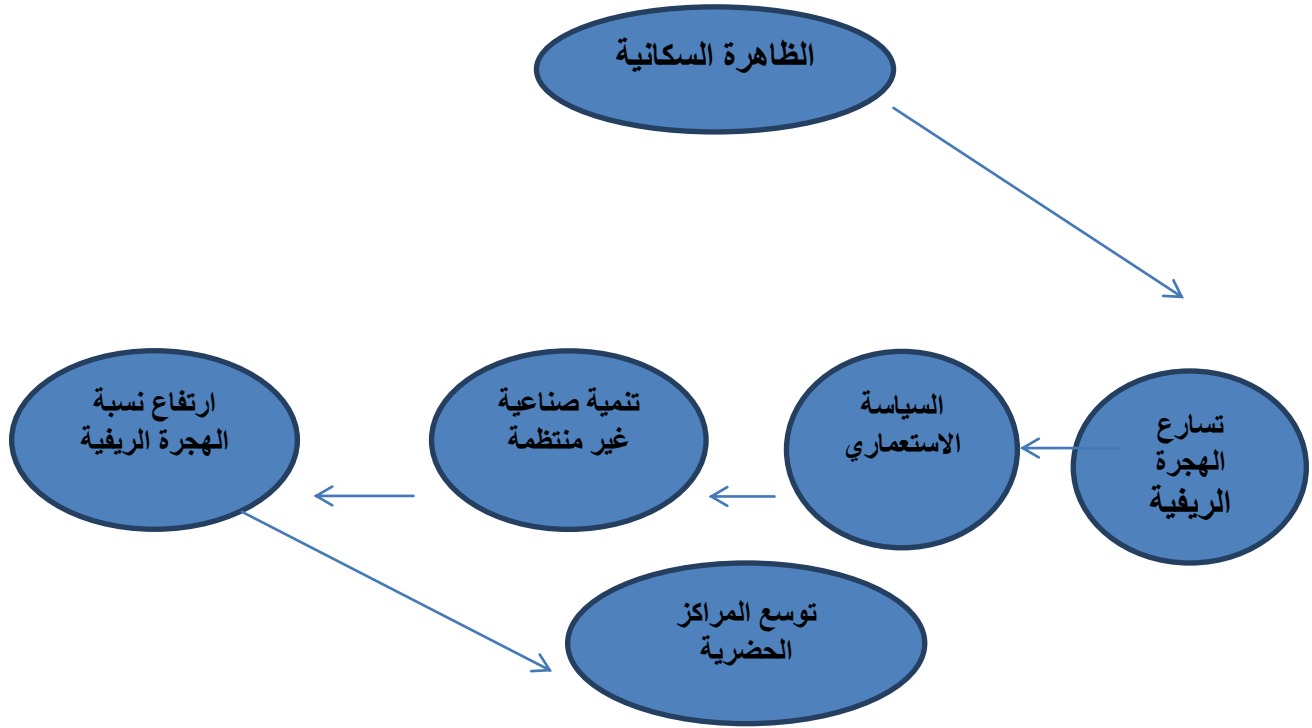
٨- النمو الحضري في الجزائر

إن واقع النمو الحضري في الجزائر ارتبط بعاملين رئيسيين هما: الأول مرتبط بالسياسة الاستعمارية التي تظهر من خلال قوانين الاستيطان ونزع الأراضي، ثم الحرب التحريرية وسياسة تجميع السكان، هذا ما أدى إلى تخلي الريفيين عن أراضيهم و اتجاههم نحو المدن.^(١)

أما العامل الثاني فيتمثل في **تطبيق مخططات التنمية الاقتصادية** منذ الاستقلال من تطوير التعليم والثورة الزراعية والإسراع في وتيرة التصنيع، مقابل ذلك شهدت المدن الجزائرية الكبرى توسع حضري

^١ - عبد العزيز راسمال: الحراك الاجتماعي في الجزائر، دبلوم دراسات معمقة، معهد العلوم الاجتماعية، ١٩٩٣، ص: ١٥٦.

واسع النطاق، كحوصلة عن النمو الحضري في الجزائر يوضح الشكل رقم (٠١) مراحل التي مر بها النمو الحضري.



الشكل رقم (٠١)

٩- عوامل النمو الحضري في الجزائر

***الزيادة الطبيعية**: نعني بها الفرق بين معدل المواليد وبين معدل الوفيات، وقد عرفت المدن الجزائرية الكبرى خلال فترة معينة زيادة طبيعية للسكان بنسب متفاوتة.

***الهجرة**: تشكل الهجرة أحد العناصر الأساسية للنمو السكاني في الجزائر وقد استقطبت المناطق الحضرية نطاق واسع خاصة في الخمسينات والستينات يقول في هذا الصدد الدكتور عبد اللطيف بن أشنهو "برزت عملية التحضر عام ١٩٦٢ كظاهرة سكانية في البلديات نتيجة تسارع الهجرة الريفية بسبب الحرب وسياسة تجميع السكان إلى المدن عام ١٩٦٦، كما ترجع دوافع ذلك إلى الاحتلال الفرنسي، استلاب الأراضي من أصحابها الشرعيين وتسليمها للأوروبيين.

وعليه فقد شهدت المدن الجزائرية نمو حضري كبير كانت نتيجة عملية التحضر التي تعتبر حركة اقتصادية واجتماعية وثقافية، ومن ثم وجدنا أنفسنا أمام ظاهرة التكديس السكاني^(١).

الإطار النظري للنقل

تعرفه المنظمة العربية للعلوم و الثقافة تحويل الشيء من مكان لآخر، أي هو عملية تحريك وانتقال من مكان لآخر^(٢)، أما اصطلاحا: يعرف النقل على أنه دورة الأفراد أو الطاقة أو البضائع والخدمات التي يقوم بها الأفراد لتحقيق أهداف اجتماعية^(٣)، أما قانونيا فقد ورد تعريفه في القانون الجزائري من المادة ١٦ من القانون رقم ١٧/٨٨ المؤرخ في ١٠ مايو سنة ١٩٨٨ بأنه "يعد نقلا كل نشاط ينتقل بواسطة شخص طبيعي أو معنوي أشخاصا أو بضائع من مكان لآخر على متن مركبة مهما كان نوعها"^(٤).

يعد النقل وسيلة ربط بين مختلف نقاط التجمع الحضري، يخص تنقل الأفراد وفقا لخطة تغطي احتياجات وتحقق التكامل والانسجام والهدف منه إعطاء ديناميكية للحياة في المدينة لكل المستعملين^(٥)، نظرا لما ينتجه من منفعة في الزمان و المكان بواسطة شخص طبيعي أو معنوي يضمن التحول الفيزيائي للأشخاص في مجال المحيط الحضري، وذلك على متن مركبة معدة لهذا الغرض ولمسافة مقبولة^(٦).

^١ - الجيلاني بن عمران: أزمة السكن أفاق التنمية الاشتراكية في الجزائر ، ترجمة منصور عبد الغني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص ٢٧٣.

^٢ - المنظمة العربية للعلوم و الثقافة ، المعجم العربي الأساسي، مطبعة لاروس، ١٩٨٩، ص ١٢٢٥.

^٣ - السيد عبد العاطي السيد، علم الاجتماع الحضري، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ٢٠٠٠، ص ٢٩٩.

^٤ - الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية ، قانون رقم ١٧/٨٨ يتضمن توجيه النقل البري و تنظيمه، الجزائر، ١٩٨٨، ص ٧٨٥.

^٥ - روابحي سناء، النمو الحضري و علاقاته بمشكلات النقل الحضري، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع الحضري، قسم علم الاجتماع و الديموغرافيا، جامعة الحاج لخضر، باتنة، / الجزائر، ٢٠٠٨-٢٠٠٩، ص ٦٤.

^٦ - فارس بوباكور، سليم بوقفة، ملتقى وطني بعنوان المداخلة: "استعمال الأساليب الكمية في دراسة سلوك المستهلك نحو خدمات النقل الحضري"، دراسة حالة النقل الحضري في قسنطينة، كلية العلوم الاقتصادية و علوم التسيير، جامعة ٢٠ أوت ١٩٥٥، سكيكدة، الجزائر، جانفي ، ٢٠٠٩، ص ٣.

١- أهمية وسائل النقل

يشير "بوباكور فارس" على أن وسائل النقل بمختلف أنواعها تساهم في نقل أو توصيل مجموعة سلع أو أشخاص من مكان لآخر مقابل أجر مدفوع أو متفق عليه من أجل تحقيق هدف معين، بحسبه وسيلة النقل جهاز ميكانيكي ذو حركة يستخدم في نقل الأشخاص أو البضائع يتميز بسرعته وحمولته المختلفة و يسلك شبكة الطرق.^(١)

لذا يعد النقل ضرورة ملحة في طبيعة الحياة الحضرية كونه يمثل خدمة اجتماعية، كما أنه مصدر من مصادر الرفاهية، ومؤشر من مؤشرات تحسن المستوى المعيشي وهذا من خلال ما يقدمه من خدمات خاصة إشباع حاجات الفرد عن طريق التنقل، ويشير في هذا الصدد "كيبلينج" Kipling أن النقل يمثل الحضارة ، بالإضافة إلى أنه أهم ثورة تكنولوجية في العصر الحديث ، إذ يقول "ألفريد مارشال" أن النقل عبارة عن ثورة تكنولوجية ذلك أن وسائل النقل المعروفة بمختلف أنواعها شهدت في القرن العشرين تطورات تكنولوجية غير مسبوقه في التاريخ الإنساني ككل.^(٢) هذه الثورة التكنولوجية في النقل ساهمت في التقدم الفني لوسائل النقل، كما ساهمت في تجاوز عقبات كبرى كالظروف الطبيعية والجغرافية لبعض المناطق والمسافات الطويلة، ويبرز دور التقدم التكنولوجي في وسائل النقل من خلال سهولة احتكاك الأفراد فيما بينهم، و تبادل الخبرات والمعارف وهنا تكمن أهميته، إذ تتجلى تأثيراته على الفرد من خلال عنصرين هما:

- تعتبر وسائل النقل عاملا محددًا له أهمية قصوى في تحديد اختيارات الأفراد وأسرههم للمكان الذي يعيشون فيه والمكان الذي يعملون فيه.

- تؤثر وسائل النقل بدرجة أو بأخرى على القدرات الشخصية للأفراد من خلال رفع أسعار السلع التي تنقلها هذه الوسائل، و التي تدخل تكاليفها في أسعار بيعها.

ونظر لأهمية النقل في حياة الأفراد والمجتمعات فإن الجزائر كباقي دول العالم تسعى إلى تحسين الخدمة كميًا ونوعيًا من خلال توفير عدة أهداف أهمها:

^١ - بوباكور فارس، محاضرات اقتصاد النقل البري، غ م، المدرسة الوطنية لتطبيق تقنيات النقل البري، الجزائر، ١٩٩٩.

^٢ - حمادة فريد منصور، مقدمة في اقتصاد النقل، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر، ١٩٩٨، ص ١٢.

أولا من حيث النوعية: توفير الأمان و تحسين نوعية الخدمة في قطاع النقل، من خلال وضع ضوابط أساسية كتحديد السرعة و المستوى الفني للسيارة، زيادة عدد الحافلات والرحلات وإلزام الناقلين باحترام مواعيد الانطلاق والوصول وهذا لزيادة الثقة في وسيلة النقل، نظافة مركبات النقل والتأكيد على أهمية ذلك.

ثانيا من حيث الكمية: تعمل الدولة على حسن توزيع العرض والطلب لخدمة النقل، فهي تتدخل من خلا التأثير على العرض والطلب في ظل الإطّلاع على نقاط الاختلاف وفترات الذروة والركود وكذا مواقع النشاط الاجتماعي والتمركز السكاني وتحليل عامل التأخر والبحث في الأسباب كالازدحام، الخطوط الفردية، السرعة البطيئة، وغيرها من الأسباب التي تعتبر كنتائج للتأخير، ويبرز دور الدول في قطاع النقل من خلال ضوابط منها:

- تحديد عدد الرحلات في كل خط خلال فترة زمنية معينة.
- ضرورة التوفيق بين السرعة والأمان.
- تنظيم النقل ووضع قوانين التشريعية، كما يحق للدولة استعمال قوتها المالية والأدوات المالية بفرض الضرائب وتقديم الإعانات للتأثير على هذا القطاع.
- الاهتمام بالنقل الجماعي لأهميته الكبير في النهوض بالتنمية الاجتماعية والاقتصادية نحو الأعلى، وذلك من خلال نقل المواطنين وفك العزلة عن المناطق النائية، وإعطائه الأفضلية، كونه يعمل على تقليص الفوارق الاجتماعية في ميدان استغلال المجال الحضري، مع إمكانية تنقل السكان، أما في حالة غياب هذا القطاع (النقل الجماعي) أو تجاهله من طرف الدولة ، فإنه ينجر عنه زيادة في السيارات الفردية، ومنه اكتظاظ داخل المحيط الحضري، استهلاك كبير للطاقة وما ينتج عنه من مشاكل كالتلوث، حوادث المرور.^(١)
- على هذا الأساس يمكن القول أن التنمية الاقتصادية والحضرية والاجتماعية ترتبط أساسا بتوفير تسهيلات وإمكانيات تنظيم النقل المناسبة، الأمر الذي يتطلب ضرورة وجود تخطيط علمي سليم، انطلاقا من الواقع الفعلي وعلى أساس التوازن بين التطور السريع لنظام النقل من جهة والظروف الاقتصادية والاجتماعية من جهة أخرى بفعل التوسع الكبير للمدن.^(٢)

^١ - قانون ١٣/٠١ المؤرخ في ٠٧ أوت ٢٠٠١، يتضمن توجيه النقل البري و تنظيمه، الجريدة الرسمية، الجمهورية الجزائرية، العدد ٤٤، ص ٨٥.

^٢ - محمد توفيق سالم، هندسة النقل و المرور، دار الراءب الجامعية، بيروت، ١٩٨٥، ص ٩-١٣.

٢- دور النقل في نمو و توسع المدن

تظهر الوظيفة الأساسية للنقل على أنها تكامل للنشاط البشري في المكان من خلال عدة أعمال منها (التبادلات التجارية، تجميع وتوزيع الأشخاص والطاقة والبضائع)، ولأنه ميكانيزم رئيسي لتكامل نتائج التقسيم الإيكولوجي للعمل والنشاط، تشير بعض الشواهد التاريخية أن بعض المدن ازدهرت حضارتها نتيجة اختراع وتطوير ميكانيزمات النقل الملائمة، في مقابل عزوف بعض المدن الأخرى عن الحضارة الإنسانية بسبب عزلتها المكانية ، ومع تطور وسائل النقل بدأت فعالية هذه التجمعات المعزولة في اتصال مع بعضها من خلال عملية التجارة بمختلف أنواعها.

وتعد الثورة التكنولوجية بمثابة نقطة انطلاق للنمو الحضري في العصر الحديث وكذا الثورة التنظيمية، وترجع أسباب الأولى لنمو المدن وتحضرها إلى الاكتشافات العلمية والاختراعات، حيث ساهمت في الارتباط بين النمو الحضري في مرحلته الحديثة وبين زيادة كفاءات وسائل النقل وهي حقيقة ملموسة كان لها دافع قوي في تجاوز النمو الحضري أبعد مراحلها. كما أدت السكك الحديدية كأحد أنواع النقل دورا هاما في تشكيل البناء الإيكولوجي الحضري الذي تأثر بدوره بالتغيرات الجذرية في الأساس الوظيفي للمدينة، والتي يحتل فيها التصنيع مركز الصدارة نتيجة عوامل النمو الحضري من جهة والتغير الإيكولوجي من جهة أخرى.

فقد شكلت وسائل النقل ميكانيزمات التكامل، إذ أن تطورها ساهم في تحويل المكان الجغرافي إلى مكان اجتماعي، وبالتالي ترجمت المسافات الجغرافية إلى معادلات مكانية وزمنية، كانت لهذه التغيرات في معدل المكان والزمان تأثيرات عميقة الاختلافات الإقليمية، كما ساهمت في بناء المجتمع المحلي وقللت من العزلة الإقليمية والمحلية لبعض المناطق وصولا إلى زيادة توسع المؤثرات الحضرية.

وبالتالي تكمن أهمية النقل الحضري الذي يضم جميع وسائل النقل التي تتلائم مع خصائص الوسط الحضري كالكثافة السكانية التي تتطلب تنظيما جيدا لحركة الأشخاص والبضائع وتواجد الأنشطة الاقتصادية الرئيسية التي تجعل من المدينة مكانا لبت واستقبال الحركة، وغيرها من الخصائص التي تشكل قيودا من شأنها التأثير على سياسة النقل الحضري المتبعة.^(١)

^١ - شاكر بلخضر، مرجع سابق، ص ٣٥.

للإشارة فان تسيير النقل الحضري بشكل عقلاني لا تتوقف على مستوى وسائل النقل فقط، بل يتعدى ذلك إلى العمران وتسيير المدينة، فعملية ضبط النقل الحضري وتسييره تبدأ من مرحلة إعداد المخططات الخاصة بالتهيئة العمرانية للمدينة .

٣- مشكلات النقل والتنقل بالمدينة

يعتبر النقل ضرورة ملحة تفرضها طبيعة الحياة الحضرية داخل المدينة ومن دونه تصاب المدينة بالشلل، إذ أن حياة الأفراد داخل المدينة قوامها الوقت لكن النقل الحضري في الجزائر يعاني مشاكل و التي تعتبر عامة على مستوى العالم وهي متداخلة، يحدد الباحث السيد عبد العاطي السيد البعض منها وهي على النحو الآتي:

الاختناق المروري - حوادث المرور - مشكلة الانتظار - مشكلة عبور المشاة - التلوث البيئي
إذ يعاني النقل بالجزائر نقائص على مستويات مختلفة (اجتماعية، اقتصادية، سياسية، تنظيمية) والتي تنوعت أبعادها و مظاهرها بين الأفراد ويمكن اختصارها كما يلي:

- عدم إعطاء أهمية لنوعية الخدمة المقدمة للمواطن في مجال النقل الجماعي.
- تجاوز المفرط للسرعة. - نقص الخبرة و التكوين في مجال النقل - تزايد الازدحام.
- سيطرة الفئة الشبانية على ممارسة نشاط النقل الحضري ما يؤثر على أمن و سلامة المتقنين.
- عدم التوزيع المتكافئ في الخطوط- الاستغلال العشوائي للخطوط لدرجة عجز الإدارة في التحكم في عدد الحافلات وتنظيمها - سهولة الدخول إلى النشاط بحيث لا تشترط وجود معايير انتقاء الناقلين الأكفاء.

٤- أسس نظرية في مواجهة مشكلات النقل

*التدخل الحكومي: تهتم الحكومة بشكل كبير في مسألة تخطيط سياسة النقل وهذا لأسباب اقتصادية و سياسية و اجتماعية، فهو يعتبر مقوما مهم من مقومات النسق الاقتصادي للبلد، كونه يشكل الجانب الأكثر أهمية في تكوين البنية الأساسية للمجتمع الذي يضم كل من النشاط الاقتصادي والاجتماعي خاصة ما تعلق بمسألة الربح و المنفعة الاقتصادية، وتتمثل كذلك في النقاط التالية:

- تدخل الحكومة في توجيه سياسة النقل في البلاد مثلا (تحديد أسعار تعريفية النقل)
- الحسم في مسألة التنافس بين مختلف خدمات النقل.

- وضع قيود صارمة على أصحاب السيارات الخاصة.
- وضع برامج و خطط عملية لمواجهة مشكلة النقل.
- ضرورة تقييد المسارات و ضبط سيولة المرور على الطرقات الحرة مع وضع جدولة زمنية لتسيير العربات عن طريق الحساب الآلي.

*** النهوض بمستوى النقل الجماعي:** لتحسين مستوى إجراءات خدمات النقل العام و النهوض بمستوى التشغيل والأداء من خلال تطوير أنساق النقل الجماعي مثل مترو الأنفاق بأمريكا، الاهتمام بالأنساق الإقليمية للنقل السريع، على أن الحلول التكنولوجية لمشكل النقل دائما تلجأ إلى قدر من الخيال العادي هذا في الوقت الذي كانت فيه التحولات التكنولوجية الأولى تميل إلى أن تكون هامشية و تطويرية أكثر من أن تكون جذرية و ثورية، لهذا وجب أن تكون هناك خطة لتنظيم حركة النقل في المدينة كما يجب أن تكون خطة تسترشد بها أي حركة إصلاح أو تخطيط للمدينة، إلى أن تصمم هذه الخطة ويبدأ تنفيذها فإنه من الضروري أن تقدم حلول كعلاج مبدئي للمشكلات ،فمثلا الاختناقات المرورية يجب أن تعالج في المناطق أكثر تسببا، من أجل خلق نوع من السيولة في الحركة، وهنا يصبح مشكل النقل في المدينة يتطلب ضرورة إعداد خطة لإيجاد نقل متوازن.

خاتمة

إن تسيير المدينة يتطلب البحث عن طرق لتسيير النقل الحضري والتمكن من الاستفادة من هذا البعد لتحسين الأداء على أن تكون خطط مبنية على قراءات صحيحة في ظل التزايد السكاني المذهل الذي يشهده العالم و الذي صاحبه تطورات متسارع للمدن من حيث امتداد مجالاتها، و زيادة عددها، والمدن الجزائرية مثلا على استثمار في هذا المجال خاصة في الحواضر الكبرى، بهدف التحكم في التقلات داخل المدينة وتسييرها في زيادة البنيات التحتية و الوسائل مع اختلاف أنواعها، إلا أن المشكل ما فتئ يزداد تأزما من يوم لآخر.

وعليه تسيير النقل الحضري تسييرا عقلانيا يتطلب التحكم في عدة عناصر أهمها:

- اختيار المسارات بدقة و بالتوافق مع مخطط التعمير للمدينة
- الاختيار الأمثل لكل من أماكن الانتظار والمحطات لتفادي الاختناقات المرورية والنقاط الساخنة المؤدية لحوادث المرور .

- تسخير أداة قانونية و تقنية مدروسة بعناية فائقة من خلال الاعتماد على النماذج الرياضية للتحكم في سيولة الحركة وانتظامها والاقتصاد في الجهد والوقت والتكلفة بالإضافة إلى ضمان الحد الأدنى من الراحة للمتقلين وهي مخطط الحركة والتنقل.
- طريقة التنبؤ السكاني التي تقوم على اعتبار السكان أهم عنصر وأكثر ديناميكية في تحليل المؤثرات على الرحلات الموجودة في المدينة.

قائمة المراجع

- ١- عبد الباقي زيدان(ب،س)، علم الاجتماع الحضري و المدن المصرية.
- ٢- فاروق زكي يونس(ب،س)، علم الاجتماع، الأسس النظرية و أساليب التطبيق، علم الكتب، القاهرة.
- ٣- عبد المنعم شوقي(ب،س)، مجتمع المدينة و الاجتماع الحضري، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة.
- ٤- عبد المنعم أنور(١٩٧٠)، الحضارة و التحضر، دراسة أساسية لعلم الاجتماع الحضري، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة.
- ٥- السيد عبد العاطي السيد(٢٠٠٠)، علم الاجتماع الحضري ، ج٢، دار المعرفة الجامعية.
- ٦- زين العابدين علي(٢٠٠٠)، مبادئ تخطيط النقل الحضري ، ط١، صفاء للنشر.
- ٧- علي الحسن عبد الغني(١٩٧٩)، اقتصاديات النقل، جامعة البصرة ، العراق.
- ٨- هانز إدلر(١٩٧٠)، التخطيط في قطاع النقل و مشاريع النقل . ترجمة عبد القادر ولي، (د،د،ن) ، بغداد.
- ٩- سعد الدين عشاوي(٢٠٠٧)، تنظيم وإدارة النقل، د د ن، القاهرة، ص ٥٢.
- ١٠- محمد عباس إبراهيم(٢٠٠١)، التصنيع والتحضر دراسة أنثروبولوجية لمدينة كيمابأسوان_ دار المعرفة الجامعية، مصر، الإسكندرية.
- ١١- محمد عاطف غيث(ب،س)، علم الاجتماع الحضري مدخل نظري، دار النهضة العربية، لبنان، بيروت.
- ١٢- محمد سيد نصر(١٩٥٩)، جغرافية النقل، ط٣، المكتبة المصرية، الإسكندرية، ص١٥.
- ١٣- محمد خميس الزوكة(٢٠٠٦)، جغرافية النقل، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ص ٤٠-٥٠.
- ١٤- عبد المنعم شوقي(١٩٨١) مجتمع المدينة، دار النهضة العربية : بيروت ، ط٧، ص ٢٣.
- ١٥- السيد عبد العاطي السيد(١٩٧٤)، علم الاجتماع الحضري- مدخل نظري-الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية.
- ١٦- محمد حافظ(١٩٨٧)، النمو الحضري في المجتمع المصري، دراسة بنائية تاريخية:ا لقاهرة، دار سعيد رفت للطباعة و النشر.
- ١٧- عبد المنعم شوقي(١٩٨١)،مجتمع المدينة،دار النهضة العربية،بيروت،ط٧.
- ١٨- محمد بومخلف(٢٠٠١)،التحضر،دار الأمة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر،ط١.
- ١٩- السيد الحسيني(١٩٨١)، المدينة دراسة في علم الاجتماع الحضري، دار المعارف، القاهرة.

- ٢٠- جيرالد بريز، مجتمع المدينة في البلاد النامية (١٩٨٩)، دراسة في علم الاجتماع الحري (ترجمة محمد الجوهري)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
- ٢١- فادية عمر الجولاني (١٩٨٤)، علم الاجتماع الحضري، الرياض، دار عالم الكتب للنشر و التوزيع.
- ٢٢- السيد عبد العاطي السيد (٢٠٠٠)، علم الاجتماع الحضري، ج٢، دار المعرفة الجامعية .
- ٢٣- عبد العزيز راسمال (١٩٩٣)، الحراك الاجتماعي في الجزائر، دبلوم دراسات معمقة، معهد العلوم الاجتماعية،.
- ٢٤- الجيلاني بن عمران (ب،س)، أزمة السكن أفاق التنمية الاشتراكية في الجزائر، ترجمة منصور عبد الغني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
- ٢٥- إسماعيل قيرة (٢٠٠٤)، علم الاجتماع الحضري ونظرياته، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر،.
- ٢٦- أحمد بوزراع (ب،س)، التطور الحضري و المناطق المختلفة في المدن، منشورات طبعة، باتنة .
- ٢٧- حمادة فريد منصور (١٩٩٨)، مقدمة في اقتصاد النقل، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر.
- ٢٨- قانون ١٣/٠١ المؤرخ في ٠٧ أوت ٢٠٠١، يتضمن توجيه النقل البري و تنظيمه، الجريدة الرسمية، الجمهورية الجزائرية، العدد ٤٤، ص ٨٥،
- ٢٩- رشيد زرواني (د،ت) مدخل الخدمة الاجتماعية، جامعة المسيلة، الجزائر..
- ٣٠- كمونة حيدر، أهمية قطاع النقل و المرور في التنمية الاقتصادية و الاجتماعية - بحث منشور على موقع جريدة المدى على الرابط:
- <http://www.almadapaper.com/sub/06-405/p19.htm>
- ٣١- الوكالة الوطنية لتطوير الاستثمار، تقرير حول قطاع النقل في الجزائر.

سامراء في معجم البلدان لياقوت الحموي ت ٦٢٦هـ

Samarra in the dictionary of countries Hamwi sapphire t 626 AH

د. عبد الكريم جعفر الكشفي

مدير عام تربية محافظة ديالى السابق

Dr. Abdul-Karim Jaafar Al-Kashfi

former Director General of Diyala Governorate Education

ملخص البحث

تعد مدينة سامراء مدينة التاريخ الوليد، والحاضر العتيق، والتي تزخر بالمآثر التاريخية والحضارية الكبيرة، جعلتها محط أنظار العالم اجمع، كما جعلتها محط أنظار البلدانين والسواح البلدانين (قديماً وحديثاً، داخلياً وخارجياً)، وهذه المكانة دفعت منظمة اليونسكو ان تدرجها ضمن قائمة التراث العالمي، لكن سامراء المجد والتاريخ لم تحضّ بمزيد من الدراسات الأكاديمية المتنوعة.

فضلاً عن هذه المكانة، فقد شرف الله ارضها وترابها من خلال احتضانها ضريحي الإمامين علي الهادي، والحسن العسكري (عليهما السلام) وهما سبطا رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) ، مما جعلها محجاً ومزاراً لكثير من المسلمين ومن مختلف المشارب، كما تتمتع سر من رأى بوجود المنارة الملوية أو اللولبية، وقصور الخلافة العباسية، وعدد كبير من الأسوار مثل سور سامراء وجامع أبي دلف والتي تعد من أشهر الآثار العباسية، وهناك آثار مسيحية ويهودية كمعبد التوراة وغيرها، مما جعلها مدينة التنوع والآخر؛ فزادها هذا الأمر ألقاً وسمواً.

لقد كانت سامراء التاريخ والتراث المزدهر عبر العصور ذات فيض عاطر، حاضرة الزمان، سليلة مجد مكلل بالفخار والعز، والسيرة الزاهرة المعطرة بعبق التاريخ، فشذى هذه المدنية يصوع من بين رحابها ليروي للأجيال عظمة وسمو هذه المدينة، على الرغم من المحنة وكر الجديدين وطوارق الحدثان .

ان الرحالة المسلمين وغير المسلمين الذين جابوا الارض، ودونوا بأقلامهم تاريخ المدن والحواضر، لم تخف عليهم سامراء، فقد زارها العديد من البلدانين والرحالة، وكتب عنها كثير من أصحاب المعاجم، وسجلوا ملاحظاتهم عنها، ومن اشهر من كتب عنها شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي(٥٧٤-٦٢٦هـ) صاحب كتاب معجم البلدان، وأن ما كتبه الحموي عن هذه الحاضرة العظيمة هو محور بحثنا المتواضع الذي دار حول المحاور الآتية :-

- المبحث الاول/ سامراء ألق الحضارة العربية ومدينة التسامح والآخر .
- المبحث الثاني/ ومضة من حياة شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي(٥٧٤-٦٢٦ هـ).
- المحور الثالث/ سامراء في معجم البلدان لياقوت الحموي .

الكلمات المفتاحية : سامراء ، معجم ، الحموي ، ياقوت ، البلدان ، مدينة.

Abstract

Samarra was a prosperous history and heritage throughout the ages with a fragrant abundance, the metropolis of time, a descendant of glory crowned with pottery and glory, and a blooming biography fragrant with the scent of history, so the scent of this city was lost from among its spaces to tell for generations the greatness and sublime of this city, despite the ordeal and den of the two new and Touareg events.

The Muslim and non-Muslim travelers who roamed the earth and wrote down in their pens the history of cities and metropolitan areas, Samarra did not fear for them, as many countrymen and travelers visited it, and many dictionaries wrote about it and recorded their observations on it, and from the most famous of those who wrote about it Shihab al-Din Abu Abdullah Yaqut bin Abdullah Al-Hamwi (574-626 AH) is the author of the book Mujam al-Buldan, and that what al-Hamwi wrote about this great city is the focus of our humble research, which revolved around the following axes:

Topic One / Samarra, he highlighted the Arab civilization, the city of tolerance, and the other.

- The second topic / A flash from the life of Shihab al-Din Abu Abdullah Yaqut bin Abdullah al-Hamwi (574-626 AH).

- The third axis / Samarra in the dictionary of the countries of Yaqut al-Hamwi.

Key words: Samarra, Lexicon, Hamwi, Yaqut, Balad, Madinah

مقدمة :

نعيش اليوم في عالم التصور والعولمة وكلنا يسعى لتشكيل مستقبل جماعي لمجتمعاتنا على المستوى المحلي أو العالمي، ولا بد من مشاركة المدينة، وبخاصة الكبيرة منها كسامراء في الأنشطة الاجتماعية التي يسهم فيها المواطنون، فالمدينة اليوم ليست بجدران ومساحات زراعية، وإنما وعاء كبير، وذاكرة حية لتاريخ المجتمع في الاقتصاد والاجتماع ، والفن والثقافة والعمارة، وهي بارومتر يقاس من خلاله تطور الشعوب وثقافتها، فالمدينة هي ظاهرة اجتماعية خلاقية، وهي التعبير والتطور العقلي للإنسان، وهي لا محالة المكان الطبيعي لإقامة الإنسان المتمدن، وإن سمة المدينة تجعلها مغايرة لباقي المدن الأخرى.

ان نمو المدن وتطورها يؤثر في عادات الناس وأنماط ممارساتهم وسلوكياتهم وتصرفاتهم وشكل تفكيرهم، ومنظومة القيم التي أصبحوا يتشبعون بها، والتي اكتسبوها من تاريخ المدن التليد ، والذي هو انعكاس لشخصيتها ولروحها التي تميزها عن باقي المدن تبعاً لتمايز عاداتهم وتقاليدهم ونشاطاتهم التي اكتسبوها من تاريخ المدينة

ان تاريخ مدينة سامراء حاضرة الخلافة العباسية وذات التاريخ المشرق والتي شرف الله رقعته بالإمامين العسكريين لم تعد مكاناً مطوقاً بالأسوار فحسب، ولم تعد مدينة لاستقبال الزائرين والمهاجرين فقط، بل صارت المدينة حاضرة كبيرة تمثل تاريخ المسلمين وحضرتهم وقلبتهم، إذ تضم سهولاً مترعة، وبساتين غناء، وأناساً طبيين فضلا عن مكانتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ونظراً لكون هذه المدينة صاحبة الديانات الابراهيمية الثلاث، فقد زادها هذا الأمر ألقاً وشموخاً، وأصبحت تضم في ثناياها الجوامع والمدارس والأسواق والأماكن المخصصة للزائرين القادمين من خارجها، فضلاً عن كونها مدينة التنوع والآخر، هذا الأمر مكن سامراء من تحقيق التقدم والتعايش المشترك؛ كونها حاضنة لا يستهان بها، قدمت للبشرية الكثير والكثير، ولتبقى على قيد الحياة مدينة عتيده، ولا فرق بينها وبين المدن الاخرى.

المبحث الأول

سامراء ألق الحضارة العربية ومدينة التسامح والآخر

تمثل مدينة سامراء حاضرة التاريخ والتليد والحاضر العتيده ، وهي حالة خاصة ومهمة من حالات التلاقح الاجتماعي والتواؤم والتسامح والآخر في تاريخ العراق، فقد كانت (شامرا أو سامرا) مركزاً مشهوراً من مراكز الديانة المسيحية الآرامية في بلاد الرافدين قبل الاسلام، ضمت اديرة وصوامع وكنائس كثيرة، اضفت عليها ألقاً وسمواً وقداسة مشهودة، استمرت هذه المكانة بتواصل جديد حتى العصور الاسلامية، وبقيت هذه المدينة العظيمة شاهداً ومنازلاً للأمم الاخرى، وحاضرة انصهرت فيها كل الخلافات، وعاش اهلها فيها بمحبة وتراحم، فاذا اشتكى منها عضو تداع له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، ومع أهمية سامراء عاصمة الدولة العربية والإسلامية في أزهى عصورها، ودورها الكبير في بناء الحضارة العربية، فإنها لم تنل ما تستحقه من عناية المؤرخين واهتمامهم^١.

١- سامراء عاصمة الدولة العربية في عهد العباسيين : أحمد عبدالباقي، دار الشؤون الثقافية، بغداد-١٩٨٩م، ص ١١

ومما زاد في القوقدسية هذه المدينة أنها ضمت ضريحي الإمامين علي الهادي والحسن العسكري (عليهما السلام)، فللضريحين مكانة دينية كبيرة عند عامة المسلمين، فضلاً عن اضرحة السيدة حكيمة أخت الإمام الحسن العسكري (عليه السلام)، والسيدة نرجس أم الإمام المهدي المنتظر (عج)، وقد كان موقع العتبة العسكرية المقدسة بوابة فكرية وثقافية متنوعة تهدف إلى نشر التراث العلمي والعقائدي للمسلمين عامة، ومن معالمها المشهورة أيضاً مئذنة الملوية، وهي عبارة عن زقورة حلزونية كبيرة متكونة من خمس لفات عظيمة، تتحرف انحرافاً تدريجياً متوسطاً حتى تصل إلى قمته، ويبلغ ارتفاعها اثنين وخمسين متراً .

لقد كانت مدينة سامراء القديمة عاصمة العباسيين خلال ثلاثة وثمانين عاماً، إذ بسطت سلطانها على مساحة واسعة من العالم المتمدن، وامتدت أقاليمها من افريقيا إلى آسيا الوسطى، لتشكل امبراطورية إسلامية كبيرة في تلك الحقبة، فسامراء هي الوحيدة من بين العواصم الإسلامية التي احتفظت بهندستها المعمارية وفنونها ومخططاتها الأصلية، كالأواوين والنقوش والزخرفة الفسيفسائية، فغدت سامراء مركزاً جذبت إليها الفنانين والصناع من جميع أنحاء المعمورة، وبلغ من ذلك فن جديد هو فن الريادة العربية^١.

فبعد ان كانت بغداد عاصمة العباسيين ومدينة المنصور وام الدنيا وقبلة اهل الغرب والشرق، وبين عشية وضحاها أفل نجم بغداد وضاعت معالمها ولحقها الدمار بسبب كر الجديدين وطوارق الحدثنان، وصارت سامراء بانتقال الخلافة العباسية إليها المنار المادي البارز على رقي الخلافة العباسية وصولاً الى أوج عزها وازدهارها، فقد بني في سامراء أكبر المساجد في العالم الإسلامي (المسجد الجامع) المعروف، وكذلك بني أكبر القصور في العالم الإسلامي (قصر الجعفري، وقصر المشتاق) العائدين للخليفة المتوكل العباسي، فضلاً عن الآثار الأخرى، وقد تجلت المهارة والدقة والإبداع في البناء والرسم وفي التلوين، وجميعها تنطق بأن المصور العراقي في عصر سامراء قد بلغ درجة نضوج عالية^٢.

ولا بد ان نلقي نظرة تاريخية على مدينة سامراء التي بناها المعتصم العباسي .

فبعدما ضاقت بغداد بجنود المعتصم، والذين كان اغلبهم من الأتراك الذين افسدوا وعاثوا فيها، فثار الناس ضد المعتصم، وطلبوا منه إيجاد مكان آخر لجنده، وبعد محاولات بحثية وقع اختياره على سرّ من رأى،

١- دائرة المعارف الإسلامية، ت. هوتسما، وت. و. ارنولد، و. ر. باسيت، ترجمة إبراهيم زكي خورشيد وآخرون، مركز الشارقة

للإبداع الفكري، ١٩٩٨م، ج ١١، ص ٨٧

٢- العراق مهد الفن الاسلامي، د. محمد عبد العزيز مرزوق، مطبعة ثنيان، بغداد ١٩٧١م، ص ٥٠

وكانت يومها أرضاً قفراً لا سكن فيها ولا عمران إلا ديراً للرهبان، فاستحسن المكان لطيب هوائه وكثرة مائه وحسن أرضه، وسأل بعض أهل الدّير عن اسم المكانوسبب تسميته بهذا الاسم ، فقالوا اسمه: يُعرّف(سامرا)، ، فاستطاب الموضع ، ودعا بأهل الدّير فاشترى منهم أرضهم بأربعة آلاف دينار، واختار موضعاً لبناء قصره فيها، وهذا الموضع المعروف بالوزيرية (بسرّ من رأى) فارتفع البنيان، وأحضر الصنّاع، وجلب أهل المهن من سائر الأمصار، وغرس الأشجار وشق الأنهار وبنى الحير، واختطت الخُطط، واقتطعت القطائع، وشقت الشوارع، وبنيت الاسواق، وشيّدت الدُور والقصور، وارتفع البناء، وكثرت العمارة، وكثُر العيش، واتّسع الرزق، وكان ذلك في سنة إحدى وعشرين ومائتين للهجرة، بعد ذلك اختار اماكن للجيش والعسكر، وبنى دوراً لقادة العسكر والكتّاب وعامة الناس، واختط المسجد الجامع، وبنى الأسواق حوله، ووسّعت صفوف الأسواق، وسار كل شيء بحسب ما خطط له .يقول اليعقوبي((واتسع الناس في البناء بسر من رأى أكثر من أتساعهم ببغداد، وبنوا المنازل الواسعة، حتى بلغت غلة ومستغلات سر من رأى واسواقها عشرة آلاف ألف درهم))^١ .

لقد بُنيت (سرّ من رأى) بمدة قياسية قصيرة، فقد بدأ بناؤها سنة ٢٢١ هجرية واكتمل بناؤها في حوالي سنة ٢٣٢ هجرية ، وبسرعة فائقة جداً، وقصدها الناس وشيّدوا فيها المباني، وعُرفت سامراء أول الأمر بالعسكر؛ نظراً لكثرة من تواجد فيها منهم، وبلغ عدد سكّانها أكثر من ١٠٠ ألف نسمة، وصارت خلال مدة قياسية عاصمة جديدة للخلافة العباسية بدلاً عن بغداد، وامست أم الدنيا، وبقيت كذلك في عهد سبعة خلفاء، كان آخرهم المعتمد العباسي الذي وافته المنية في سنة (٢٧٩) هجرية، الذي أعاد بغداد عاصمة لحكمه؛ بسبب بعض الضغوط .

يقول ابن الأثير : ((أن المعتمد على الله كان في خلافته محكوماً عليه، قد تحكّم فيه اخوه ابو احمد الموفق وضيق عليه))^٢ .

١- كتاب البلدان، أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي ت ٢٩٢هـ، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٢هـ، ص ٢٦٣

٢- الكامل في التاريخ، عزالدين ابو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني المشهور بابن الاثير، ت ٦٣٧هـ، دار صادر، ١٩٦٥م، ج ٧، ص ٤٥٥

وبمرور الزمن صارت مدينة سرّ من رأى في خبر كان، وهي اليوم عبّرة لمن اعتبر، فأين بحترتها؟ وأين أبو تمامها؟ وأين خلفاؤها الذين أقاموا الدنيا ولم يقعدوها؟ ولم يبق إلا الأثر من محاسنها، وإن الله وارث الأرض ومن عليها .

لقد كان لسامراء أيام مجدها وعزها سورٌ بُني بالآجر والجصّ، ارتفاعه يصل إلى سبعة أمتار، وكان لها تسعة عشر برجاً وأربعة أبواب هي: (الناصرية، وبغداد، والقاطول، والملطوش)، وقد اندثرت كل هذه المعالم، ولم يبق منها إلا باب بغداد الذي صار متحفاً تُعرض فيه بعض الآثار المُستخرجة من الحفريات الأثرية . هذه نبذة مختصرة عن تاريخ سامراء الحافل بالأمجاد تناولناه بإيجاز .

ولا بد أن نمر على أشهر الحوادث المهمة التي مرت على سامراء:

ففي سنة ٢٤٧ هـ أمر الناس جميعاً بالانتقال من سامراء، فهدمت الدور والمنازل، وخربت القصور ومنها الجعفري، وعم الخراب والدمار هذه المدينة .

وفي سنة ٢٥٤ هـ توفي فيها الامام علي الهادي (عليه السلام)، ودفن في داره .

وفي سنة ٢٥٥ هـ ولد فيها الامام المنتظر (عج)، وفي سنة ٢٦٠ هـ سجن بها الامام الحسن العسكري (عليه السلام)، وفي السنة نفسها توفي فيها ودفن الى جوار ابيه .

وفي سنة ٤٤٥ هـ وقعت حرب بين السلجوقيين واليساريين في المدينة .

وفي سنة ١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩م أصدر المصلح العثماني مدحت باشا والي بغداد أمراً بتحويل مدينة سامراء النضاء تابع إلى بغداد، وفي سنة (١٢٩٢ هـ) شرفها العالم الكبير الميرزا محمد حسن الشيرازي الذي هاجر من النجف إلى سامراء وعاش فيها ٢١ عاماً، إذ اسس حوزة علمية كبيرة، بعد ان نقل اجتهاده من إيران إلى مدينة سامراء، وكان والي بغداد يومذاك الوالي حسن باشا، وتوفي الاخير الامام الشيرازي رحمه الله في سنة ١٣١٢ هجرية، وفي سنة ١٣٣٥ هـ / ١٩١٧م رجعت أبايل الظلام باحتلال سامراء مرة أخرى من قبل المحتل البريطاني البغيض، فدخل المدينة إبان الحرب العالمية الاولى، وفي سنة ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٤م ضربها وباء الكوليرا، واثّرت الاصابات وارتفعت الوفيات، وهجر أكثر الناس سامراء، وفي سنة ١٩٢٠م اشتعلت ثورة العشرين التحررية في سامراء، وشارك أهلها بقوة بقيادة العالم الجليل السيد محمد الصدر، وقد ذكر علي الوردي في كتابه اللحات : ((في ٢٨ آب ١٩٢٠م تعرضت بلدة سامراء لهجوم عام، شارك الكثير من

١- تاريخ علماء سامراء، يونس الشيخ إبراهيم السامرائي، مطبعة دار البصري، بغداد، ١٩٦٦م، ص ٨

العشائر القريبة لغرض السيطرة على حامية سامراء البريطانية، والتي كان فيها بالإضافة إلى حاكمها السياسي الميجر جري ضابط بريطاني برتبة ملازم، وثلاثة عشر جندياً بريطانياً مع عدد من السواق الهنود الذين وصلوا إليها من كركوك. ان السيد محمد الصدر كان يقود الهجوم بنفسه^١

لقد تجسد التسامح والآخر في سامراء قديماً وحديثاً، من خلال تعايش الأديان والطوائف فيها، فقدمت لنا جوامعها ومعابدها وصوامعها صورة مثلى لذلك، فقد ورد بالآثر ان ديراً للنصارى بالموضع الذي بني به دار السلطان المعروفة بدار العامة، ونقل ياقوت الحموي عن البلاذري: أن (دير مرجرجيس) موقعه في سامراء شمال مدينة بلد بـ ١٥ كلم، وكذلك دير (عبدون) في المنطقة نفسها، وذكر الشابشتي في كتابه المعروف الديارات: ان بسامراء (دير السوسي) و (دير مرمار) الذي يقع عن قنطرة ورصيف، وهو دير عامر كثير الرهبان، حوله كروم، وهو من مواقع النزهة والبقاع الطيبة الحسنة^٢. وهذا الأمر يمثل قمة التسامح والآخر.

أما عن التسامح والآخر السامرائي فحدث ولا حرج، فقد باتت ثقافة التسامح عند اهل سامراء اليوم ضرورة انسانية وطنية ملحمة ومطلوبة، سواء داخل المجتمع المتنوع دينياً وأثنيياً، أو على صعيد كل العلاقات الإنسانية.

إننا اليوم مدعوون إلى البحث عن ما يوحدنا، وعن اساليب جديدة للتعايش السلمي المشترك؛ لأن الزمن لا يمكن أن يعود الى الوراء، وأننا اليوم بأمس الحاجة لثيوع وتعزيز ثقافة التسامح والآخر، فالتسامح والآخر لغة: هو التَّسَاهُلُ، والحِلْمُ، والعَفْوُ، والصفح، والمغفرة، وتسامحوا تساهلوا^٣.

وان التسامح والآخر في نظر أهل سامراء هي منظومة اجتماعية ثقافية متعددة المعاني والأوجه، تتضمن جوانب: (اجتماعية، ودينية، وسياسية، وتربوية، وثقافية)، وهي من أهم الضرورات الأخلاقية الإنسانية في عالمنا المنشود اليوم، فالتسامح والآخر ليس إرضاء عن أخطاء الآخر، بل التعايش معه واحترام رأيه، وعقيدته وأفكاره، استناداً على مبدأ العدالة، المساواة التي أقرها إسلامنا المحمدي، الذي يسامح الناس جميعاً بحق تبني مواقف متباينة تحتل الخلافات، ومهما بدت لنا خاطئة أو صحيحة، وان لكل فرد حرية في اعتقاده

١- لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، د. علي الوردي، مطبعة الأديب البغدادية، بغداد، ١٩٧٨م، ج ٥، القسم ٢، ص ٩٩

٢- الديارات، أبي الحسن علي بن محمد المعروف بالشابشتي، تحقيق كوركيس عواد، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٦م، ص ١٦٣

٣ القاموس المحيط، العلامة اللغوي مجد الدين بن يعقوب الفيروزآبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٩م، ص ٢٥٠

سواء كان دينياً أم ثقافياً أو سياسياً بعيداً التعصب، الذي يقر بان آرائنا التي نؤمن بها، صحيحة وأن آراء الآخرين خاطئة. ولهذا عد الآخر والتسامح حجر الزاوية في الاتفاقات الثنائية أو المتعددة الأطراف للتعايش السلمي والتي أعلنتها الصين وميانمار في عام ١٩٥٤م والقائمة على عدة مبادئ من أهمها: (الاحترام المتبادل ، والمساواة ، والتعايش السلمي)^١.

حينما امتدت يد القاعدة المجرمة بتاريخ ٢٢/شباط/٢٠٠٦ الموافق ٢٣/محرم/١٤٢٧هـ، على ضريحي الإمامين العسكريين (عليهما السلام) ، وعلى رأس ذلك ملوية سامراء الشامخة، هب كثير اهل سامراء للدفاع عن ارض المقدسات، ولربما كان هناك صلة بين المحتل الأمريكي القذر الذي هدم وسرق آثار بابل ، وبين المغول الذي فجر الامامين وهدم رأس ملوية سامراء، فكلاهما منقطعان عن التاريخ ومعاديان للإسلام ، بقدر انقطاعهما عن الحاضر، فخلال ثلاثة عشر قرناً كانت سامراء حاضرة الامامين وملوية سامراء شاهقة تقبل وجه التاريخ، فحين هدم المجرمون المتأسلمون قبة الإمامين عليهما السلام وقطعوا رأس الملوية، حاولوا أن يهدموا مجد العراق، و يقطعوا رأسه، ويفرغوه من ذاكرته، ليبقى بلا ذاكرة ولا وعي وهذا هو هدفهم القذر، ولا بد ان تعود حاضرة الامامين وتعود ملوية سامراء لتشمخ، ولتنطلق منها كلمات الأذان مباشرة بتحرير العراق، وما فعلته أمريكا في ملوية سامراء لن يمر من دون حساب ان شاء الله ، وسنطرد الغزاة وأعوانهم ومشاييعهم يوماً إن شاء الله ، ومع الأسف إن كل ما يحصل في العراق اليوم، هو جزء من مخطط لقهر العراق ومحو تاريخه وذاكرته، وهو جزء من الهجوم العلني والتآمر الخفي على الأمة الاسلامية من الخارج والداخل^٢.

لقد كانت سامراء الخضراء قبلة وصلة مميزة للمسلمين، لا يمكن الغاء مكانتها ودورها وهيبته الى قيام الساعة ، انها مدينة الشموخ والعزة العربية الإسلامية، التي بسطت أجنحة نورها فوق هامات الأجيال المتطاولة، وان سامراء التي كانت تسر من يراها ستبقى خالدة في رحم العراق، ولا بد أن تعود تسر كل من راها، إنها حاضرة الخلفاء العباسيين الذين رفعوا راية الوجود المعرفي الحضاري ، ورسوموا خارطة التسامح والتفاعل ما بين بني البشر ، وأسسوا لمنطلق الركب الحضاري الدافق المتنامي ، لقد كانت هذه المدينة العصية على الاعداء قديماً وحديثاً، أكبر حاضرة تاريخية عراقية أثرية على أديم البطحاء، ففيها من الآثار ما لا تحويه

١- موسوعة المصطلحات السياسية والفلسفية والدولية، أ.د.ناظم عبدالواحد الجاسور، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠٠٨م، ص ٥٢٢

٢- التطرف والغلو والارهاب، د. بسام الصباغ، ديوان الوقف السني، بغداد، ٢٠١٠م، ص ٢٩

أي مدينة أخرى على المعمورة ، فأصبحت كنزا تراثيا للبشرية ، والانسانية جمعاء ، كانت تلك بعض الومضات المشرقة من تاريخ سامراء وفي تاريخنا الاسلامي .

لقد احتضنت سامراء أحفاد رسول الانسانية محمد (صلى الله عليه واله ، وسلم) ، واحتضنت الشاعر العربي الكبير أبا تمام (حبيب بن أوس الطائي) ، والذي نظم فيها اجمل قصائده الخالدات التي مطلعها :-
السيف أصدق أنباءً من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
وقد احتضنت شاعر الوصف والجمال البحثري الجميل الذي وصف محاسن هذه المدينة العتيقة والذي قال بحق سامراء :-

كل شعب كنتم فيه آل وهبفهو شعبي وشعب كل اديب^١ .

وفيهما ولد شاعر المحسنات البديعية الخليفة ابن المعتز الذي صور أروقة قصورها وخيرها ومنتزهاتها وعلى ضفاف دجلة الرقراق بمياهه العذبة، وقد استضافت هذه المدينة المعطاء في القرن العشرين أدباء وشعراء كثر منهم الجواهري الكبير الذي انشد لها عدداً من قصائده الجميلة ، وكذلك زارتها الشاعرة نازك الملائكة التي كانت لها معها صولات ، وتقاعلات ، وتأملات وغيرهم، ولا غرابة في ذلك ؛ لأن لهذه المدينة مستقبلها المتألق وصيرورتها الإنسانية المبدعة، تمنحها الرقي والدعة ، والتواصل مع الانسانية. ان هذه المدينة الوديعه تتكلم عن قيمتها: (الروحية ، والحضارية ، والمعرفية)، بفخر وشموخ ؛ لأنها تمتلك دوراً إنسانياً لا يمكنه أن يأفل أو ينطفئ في يوم من الايام .

وإن أهلنا في سامراء هم من العشائر العربية الأصيلة المنبت شريفة الأصل، عرفوا بالأمانة وقرى الضيف وكرم الاستقبال وحسن المعشر، فقد فرض عليهم الواقع ان يكونوا على مدى التاريخ أصلاء وأمناء وأوفياء لهذه المدينة المقدسة، لما تتمتع به من مكانة مقدسة ومشرفة فريدة في قلوب المسلمين والانسانية، فكانت مرابعهم عامرة ومضيافة، ومشرقة وزاهرة ومزدهرة ، كما كانت ايام عزها ومدها السومري العراقي الأصيل . لقد كان لأبناء سامراء الأصلاء وقفتهم الفريدة ايام الاحتقان الطائفي الذي سببه نفس المرقدين عام ٢٠٠٦ م من قبل العصابات الإجرامية، فقد وقف ودافع السامريون عن ارض المقدسات ومرافد الأولياء ، وأثبت أهل سامراء الأبطال للإنسانية بان هذه المرافد والمقدسات عراقية بحتة ولكل العراقيين، فذادوا عنها وقفزوا على كل المسميات الأخرى غير أن يكونوا عراقيين أولاً .

١- ديوان البحثري، طبعة دار صادر، بيروت، ١٩٦٢م، ج٣، ص١٥٧٩

إن دفاع أهل سامراء ، وذودهم عن مقدساتها، جاء من كونهم يحسبون أنفسهم أحفادا لهذين الإمامين تاريخاً وحاضراً ومستقبلاً ودينياً، وهو في رقابهم لقد كانت وقفة السامريين مثالا يحتذى به لنضال الشعب العراقي، فحين يلتزم المجتمع بقيم الإسلام ويطبق تعاليمه وآدابه تسود حالة الانسجام والتعاون والتعايش^١. لقد كانت هذه الوقفة المثل الوطني الأروع للانتماء للهوية العراقية الأصيلة، والقفز الرائع على كل الهويات الأخرى التي اراد لها المتأسلمون السياسيون ودهاقنة التعصب الطائفي أن ينسخوا هويتنا المشتركة المتسامحة هوية الانتساب لأرض الأجداد والانبياء العراق العظيم، وسبقى مرقد العسكريين (عليهما السلام) شامخاً كل الشموخ لأهل سامراء، وستبقى المنذنة الملوية تُفصح عن ألقها وعزها وشموخها وسر حفظها من الفناء، فمن يرتقي طريقها الشاهق ويُدقق في أحجارها وهيئتها يجدها خارج الزمن بالفعل، وكأنها سُيِّدت بالأمس القريب، وأن كل محدث من تطورات محزنة يقع عاتقه على الحاكمين في العراق والبلاد الإسلامية، فهم يتحملون مسؤولية رئيسية في توحيد شعوبهم وتوفير أجواء التعايش والانسجام، على اساس الحق والعدل ومنع اي تمييز قومي أو طائفي، فقد روي عن رسول الانسانية محمد (صلى الله عليه واله وسلم) قوله: ((خير الولاة من جمع مختلف وشر الولاة من فرق مؤتلف))^٢.

المحور الثاني :

سامراء في معجم البلدان لياقوت الحموي المتوفى ٦٢٦هـ

اعتمدنا في دراستنا هذه على كتاب (معجم البلدان) للشيخ الامام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦)، الذي اصدرته دار إحياء التراث العربي ببيروت - لبنان، سنة ١٩٧٩م. يقول الحموي في ص ١٧٣ : سامراء: ((لغة في سرّ من رأى: مدينة كانت بين بغداد وتكريت على شرقي دجلة وقد خربت))^٣.

نعم تقع مدينة سامراء على بعد ١١٥ كم شمال بغداد، وتقع على ضفاف نهر دجلة، وأشهر مجالاتها هي الشرقية، الغربية، القاطول، القلعة، وفيها مرقد الامام علي الهادي والحسن العسكري عليهما السلام، وأن

١- التنوع والتعايش، الشيخ حسن الصفار، مطبعة العرفان، النجف، ٢٠٥م، ص ١٠٢

٢- السبيل إلى انهاض المسلمين، مؤسسة الفكر الاسلامي، بيروت، ١٩٩٤م، ص ٣١٢

٣- معجم البلدان، الامام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ، دار إحياء التراث العربي،

بيروت - لبنان، سنة ١٩٧٩م ص ١٧٣

الخليفة العباسي المعتصم بالله قضى ثلاث سنوات من فترة خلافته (٢١٨هـ - ٢٢١هـ) في بغداد، ثم اختار سامراء مكاناً للبناء، وهجر بغداد لأسباب سياسية تقترن باستخدام الجنود الاتراك، وكانت خلافته في سامراء بين السنوات (٢٢١هـ - ٢٢٧هـ).

تحتوي هذه المدينة على معالم أثرية عملاقة فنية وهندسية طوّرت محلياً قبل أن تنتقل إلى أقاليم العالم الإسلامي، وقد استوطنت سامراء منذ أقدم العصور أي في العصور التي سبقت عصر الإسلام، وتحديداً في الحقبة الرومية والساسانية، وقد اتخذت مواقع مدينة سامراء حصوناً استراتيجية وعسكرية أثناء احتدام الصراع بين الفرس والروم، وتبين من التحريات الأثرية في منطقة سامراء ان موضعها كان مستوطنات وقرى أثرية يرجع بعضها إلى ادوار ما قبل التاريخ في الالف الخامس قبل الميلاد.

وفي الصفحة نفسها يقول الحموي: ((وفيها لغات: سامراء ممدود، وسامراً مقصور، وسرّ من رأ مهموز الآخر، وسرّ من را مقصور الآخر))، لقد كانت سامراء مُستقر الخلفاء القديم، ومِصراً عظيماً اختطها الخليفة المعتصم بن هارون الرشيد واكمل بناءها جعفر المتوكل على الله، وكانت حسنة وعجيبة، واستمرت عاصمة الخلافة العربية الإسلامية لأكثر من خمسين سنة . لقد بنيت (سُرّ من رأى) في مكان أحد الاديرة في الصحراء، حيث اشتراها الخليفة العباسي المعتصم من أصحابها وبنائها، وهذه الأرض تقع على الضفة اليمنى من نهر دجلة، وأحضر المعتصم البنائين فاختراروا له مواقع القصور والدور لأصحابه، وبنى لكل واحد من أصحابه داراً عامرة، ثم خطط شوارع المدينة على أحسن وجه، وأحضر من كل بلد من يجيد هندسة البناء وفن العمارة والزراعة والصناعة، فاتباع البناء أكثر من اتساعه في بغداد، وبنوا القصور والمنازل الواسعة، ((فالبناء واختطاط المنازل هو من منازع الحضارة التي يدعو اليها الترف والدعة))^١ ، كما تقول العرب.

- لكن أصل تسمية سامراء أمر اختلف فيه، ففيه تسميات عدة سنمر عليها بإيجاز وهي:-
- ١-العسكر: سماها الناس بذلك بعدما تم بناؤها واتخاذها معسكراً للجيش من قبل المعتصم.
 - ٢- زوراء بني العباس: سميت بهذا الاسم لأن مساجد المدينة كانت مزورة اي مائلة.
 - ٣-سامرا: نسبة إلى اسم سام بن نوح عليه السلام الذي بناها فسميت باسمه.

١-معجم البلدان، مصدر سابق، ص ١٧٣

- ٤- سام راه: ومعناها بالفارسية : راه : طريق ، و سام ابن النبي نوح، ويلفظها الآخرون سامره، وقال ابن نوح: هذا وسط الدنيا فقبل سام راه. اي طريق سام .
- ٥ -سامراء: غيرت العامة اسم (سر من رأى) فقالوا سامراء.
- ٦ -سر من رأى: السر عند العرب السرور، وقد ظهر هذا الاسم على النقود المضروبة في سامراء.
- ٧ -سر من را: ذكر ذلك الحموي في معجمه استناداً على ذكر الحسين بن الضحاك في شعره: سر من لا أسر من بغداد خاله عن بعض ذكر المعتاد .
- ٨-سرور من رأى: لأنها كانت جميلة تسر من نظر اليها.
- ٩ -سامراً: بضم الميم ، وهي بالفارسية موضع الخراج.
- ١٠ -وقد أوردت الدراسات الحديثة أسماء أخرى بالبابلية باسم: سيمروم، وسومررم، سرمراته.
- ١١ -ساء من رأى: أطلق هذا الاسم على المدينة بعد أن لحقها الخراب وعم على أبنيتها . وهناك تسميات أخرى يطول الحديث عنها.

وفي ص ١٧٤ يقول الحموي: ((فقال له أبو الوزير: آخذ خمسة آلاف دينار وإن احتجت إلى زيادة استزدت، قال: فأخذت خمسة آلاف دينار وقصدت الموضع فابتعت ديراً كان في الموضع من النصارى بخمسة آلاف درهم وابتعت بستاناً كان في جانبه بخمسة آلاف درهم ثم أحكمت الأمر فيما احتجت إلى ابتياعه بشيء يسير فانحدرت فأتيته بالصكاك، فخرج إلى الموضع في آخر سنة ٢٢٠ ونزل القاطول في المضارب ثم جعل يتقدم قليلاً قليلاً وينتقل من موضع إلى موضع حتى نزل الموضع وبدأ بالبناء فيه سنة ٢٢١ هجري))^١ .

لقد ورد في الاثر ان المعتصم العباسي أقام في سامراء ثلاثة أيام، ليتأكد من طيبة المكان وحسنه، فلما استحسنته واستطاب ماءه وهواءه، اشترى أرض الدير بخمسة آلاف درهم . وما تميز به الموضع من مواصفات، هو المكان المرتفع، فكان واحداً من العوامل التي دفعت المعتصم لاختيار موقع المدينة الجديدة ودفع الناس إليها.

لقد بنى الخليفة المعتصم مدينة سامراء حينما اشتكى أهل بغداد من عنت الجنود الأتراك وتعسفهم بأهل بغداد، فقرر اتخاذ عاصمة جديدة يسكنها هو وجنده وحاشيته، فاخطت سنة ٢٢١ هـ مدينة سامراء، وجلب العمال

١-المصدر السابق ، ص ١٧٤

والصناع وأرباب المهن من سائر الأمصار الإسلامية لهذه المهمة، وخطط أول الامر أساس قصره الخاص، وجعل لجنده قطائع خاصة بهم، وبنى عدة قصور صغيرة للكتاب والقواد سماها بأسمائهم، وحفر الأنهار التي تأخذ الماء من نهر دجلة، ونُصبت الدوالي والدواليب على هذه الأنهار، وحملت المغروسات من سائر البلدان وخاصة النخيل، وبنى القرى وأمر الناس بالانتقال إليها من كل البلدان، وأمرهم أن يعمرُوا مدينتهم . يقول الحميري: ((واخذت مواد البناء تترى إلى سامراء من مناشئها المتنوعة، فسيح الساج وسائر الخشب والجزوع من البصرة وما والها من بغداد، ومن انطاكيا وسواحل الشام سيق الرخام والعمد.

يقول الحموي عن المعتصم في ص ١٧٥: ((ونزل سامراء وبنى بها دارا وأمر عسكره بمثل ذلك، فعمّر الناس حول قصره حتى صارت أعظم بلاد الله، وبنى بها مسجداً جامعاً في طرف الأسواق، وأنزل أشناس بمن ضم إليه من القواد كرخ سامراء، وهو كرخ فيروز، وأنزل بعضهم في الدور المعروفة بدور العرْباني، فتوفي بسامراء في سنة ٢٢٧ هجرية، وأقام ابنه الواثق بسامراء حتى مات بها))^١

لأبد أن نمر على أهم الأبنية التي بناها المعتصم، وهي:-

١- دار الخليفة (دار العامة) :وهي افخم واهم القصور التي بنيت في عهد المعتصم، وتقع على شارع السريجة، الشارع العام، وكان مكانها موضع الدير الذي اشتراه من النصارى، ويبلغ طول واجهته سبعمائة متر، وكانت به حديقة فسيحة تمتد حتى شاطئ دجلة، وكانت دار الخلافة وما يتصل بها أكبر مدينة قائمة بذاتها، وكانت به اووين، وباب للعامة، وقاعة العرش، وهي قاعة للاستقبال، وجناح الحريم، والساحة الكبرى، وهي قاعة كبيرة لها خمسة أبواب، طولها ثلاثمائة وخمسون متراً، وعرضها مائة وثمانون متراً، السرايات وهي من مشتملات قصر المعتصم وكانت كبيرة جداً، عمقه عشرة امتار، وطوله واحد وعشرون متراً، وبه ساحة للعب طولها خمسمائة وثلاثون متراً وعرضها خمسة وستون متراً، أما حلبة السباق فطول قطرها (١١,٥) كم، وكانت زخارف هذا القصر عظيمة تغطيها لوحات جدارية.

٢ -قصر الجوسق الخاقاني: بناه المعتصم عندما ارتحل إلى القاطول من سر من رأى، ولما توفي المعتصم دفن فيه، وقد اتخذ أغلب خلفاء سامراء هذا القصر سكناً لهم.

٣ -قصر الجص: يقع على الجهة الغربية من نهر دجلة، وقد بناه المعتصم للنزهة، وهو بناية مربعة طول كل ضلع فيها مائة واربعون متراً، وكان حوله سور مدعم بمائة برج، وكان المعتصم قد بلط ارضه بالأجر

١-المصدر السابق، ص ١٧٥

المربع (الفرشي)، اما الجدران فقد كانت مطلية بطبقة من الجبس، وقد احاطه بالحدائق والبساتين لتقليل اثر الرطوبة على الزخارف السطحية.

٤ - وهناك قصور أخرى بناها المعتصم، مثل القصر العمري، والوزير الذي بناه للوزير احمد بن خالد الوزير، كما بنى أيضاً معسكر الاصطبلات، وشق نهر الاسحاقى، وبنى جسر سامراء وغيرها. اما الخليفة الواثق، فيقول الحموي في ص ١٧٤: ((توفي المعتصم فيها سنة ٢٢٧هـ وأقام ابنه الواثق(ت ٢٣٢هـ) بسامراء حتى مات فيها، ثم ولي المتوكل (ت ٢٤٧هـ) ، فبنى أبنية كثيرة، وبنى مسجداً جامعاً فأعظم النفقة عليه، وأمر برفع المنارة لتعلو أصوات المؤذنين فيها، وحتى تُرى من بعيد، واشتق من نهر دجلة قناتين تدخلان الجامع وتتخللان شوارع سامراء))^١ والآن نمر على أهم اعمال الخليفة الواثق في سامراء وهي:-

١- بناء قصر على شط دجلة عندما انتقل من قصر أبيه سمي ب (الهاروني)، واتخذ سكناً له، وحين وفاته دفن فيه، قد بنى له مسناة كبيرة، واشتهر هذا القصر بالصلابة والمتانة وصار بذلك مضرب الامثال .

٢- كما بنى الواثق قصوراً وآثاراً كثيرة، من الصعب ان نجعلها في هذا البحث المتواضع. يقول الحموي في ص ١٧٥ : في زمن المعتصم ((اتسع الناس بذلك، وبنى مسجداً جامعاً، وأمر برفع منارة لتعلو أصوات المؤذنين فيها، واشتقّ من نهر دجلة قناتين، ولم يبين أحد من الخلفاء بسرّ من رأى من الأبنية الجليلة مثل ما بناه المتوكل، فمن ذلك: القصر المعروف بالعروس والقصر المختار، الوحيد والجعفري والشيطان، والبرج والصبح والخليج وقصر بستان الايتاخية والتلّ والجوسق والمسجد الجامع وقصر المتوكلية وهو الذي يقال له الماحوزة و اللؤلؤة))^٢ .

وقد آثرنا عدم الخوض عن هذه القصور خوفاً من الاطالة فذكر القصور يذكر بعظمة هذه المدينة . أما الخليفة المتوكل فقد كانت فاتحة اعماله توسيع سامراء وشق شارعين هما شارع الاسكر وشارع الخير الجديد، ويقعان شرق سامراء، وقد بنى فيها ما يقارب أربعة عشر قصراً منيفاً . وبلغ حب المتوكل للبناء واهتمامه به أنه أحيا طرازاً عربياً قديماً هو الطراز الحيري ذو الكمين والاروقة، وقد اتبع الناس المتوكل في اتخاذ هذا الطراز من البناء في بيوتهم في عهده وبعده .

١-المصدر السابق، ص ١٧٤

٢-المصدر السابق، ص ١٧٥

وفي عهد المتوكل أيضاً تم بناء ثلاثة مشاريع ري هي: قناة سامراء، وقناة المتوكل، ونهر النيزك، ومن أشهر آثاره الجامع الكبير الذي جعل الطرق اليه من ثلاثة صفوف واسعة، ويعتبر هذا الجامع من أروع المنشآت ذات الأثر في تلك الحقبة، اما الملوية فهي البناء العظيم الذي ان تراه من بعيد والتي تعتبر أضخم وأبرز الآثار الباقية في سامراء اليوم، وقد كان صحن الجامع الذي تقع الملوية جنبه واسعاً فسيحاً وفي وسطه نافورة، وكان للجامع سبعة عشر مدخلاً تختلف سعة كل منها باختلاف موقعها، أما الملوية فكانت مخروطية الشكل تستند على قاعدة مربعة، وتبعد عن الجامع مسافة قدرها خمسة وعشرون متراً، ترتبط بالجامع بممر عرضه اثني عشر متراً ، وقد بدأ البناء بهما سنة ٢٢٤هـ وانتهى سنة ٢٣٧هـ، وانفق في بنائهما خمسة عشر ألف درهم، ومساحة البناء وملحقاته تربو على سبعة عشر هكتاراً ، اي ستمائة وتسعة وثمانين دونماً عراقياً. ومن أشهر آثار المتوكل، إضافة للقصور، بناء مدينة المتوكلية التي تقع شمال سامراء، بينها وبين تكريت الماحوزة، وكذلك شق نهر الجعفري الذي يبلغ طوله من نهر دجلة حتى البركة ثلاثاً وستين متراً ، وكذلك بناؤه جامع (ابي دلف) في المتوكلية، وطول واجهته الكبرى (١٥٥) متراً وطوال واجهته الصغرى (١٠٤) متراً.

يقول الحموي في ص ١٧٦: ((ولم تزل كل يوم سر من رأى في صلاح وزيادة وعمارة منذ أيام المعتصم والواثق إلى آخر أيام المنتصر ابن المتوكل، فلما ولي المستعين، آخر من انتقل إلى بغداد من الخلفاء وأقام بها، وترك سر من رأى بالكلية المعتضد بالله)).^١

في سنة ٢٤٨هـ تولى المستعين الخلافة، لكنه ترك سامراء وعاد الى بغداد، وفي عام ٢٥٦هـ تولى الخلافة بعده المهدي الذي حارب الاتراك، ومنعهم من تعاطي المنكرات والمحرمات، ولكنهم تمكنوا من قتله عام ٢٥٦هـ، وبويع بعده المعتمد ابن المعتصم، وعلى الرغم من انه ولد في سامراء، لكنه تركها وعاد الى بغداد لاتخاذها مقراً للخلافة عام ٢٥٦هـ .

لقد كانت هناك عدة اسباب أدت الى ترك الخلفاء العباسيين سامراء منها : -

انشغال الدولة بسبب الحروب، الانهاك والارهاق من الناحية المادية، ثورة الزنج التي استمرت خمسة عشر عاماً، خروج الولايات الشرقية بين حين وآخر على سلطة الخلافة، فلم تزل سامراء في نقص إلى زمان المعتضد، فإنه انتقل إلى بغداد وترك سامراء بالكلية.

^١المصدر السابق، ص ١٧٦

وفي ص ١٧٨ يقول الحموي: ((وبسامراء قبر الإمام علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر، وابنه الحسن بن علي العسكريين، وبها غاب المنتظر في زعم الشيعة الامامية))^١، نعم لقد كانت مدينة سامراء مدينة التعايش والمحبة ومدينة تهوي القلوب إليها، مقرونة بالوفاء، مدينة القلوب الحرة والمتربة لغد افضل، ومما زاد هذه المدينة فضلاً وعلواً وقدسيتها أن شرف الله أرضها المعطاء بوجود قبر الإمام علي الهادي النقي عليه السلام الذي ولد بالمدينة المنورة سنة ٢١٢هـ والمقتول مسموماً سنة ٢٥٤هـ، وكذلك قبر الامام الحسن العسكري ابن الامام علي الهادي النقي عليه السلام المولود بالمدينة المنورة سنة ٢٣٢هـ، والمقتول مسموماً سنة ٢٦٠هـ ، وكذلك قبر السيدة نرجس أم الامام المهدي عجل الله فرجه، وكذلك بها سرداب الغيبة، وبها قبور عدد من الصالحين بما يزيد على خمسين صالحاً من الرجال، ومنهم الامام محمد الدراي (ت ٣٠٠هـ)، وكذلك قبر محمد بن عبدالملك الزياد (ت ٢٣٣هـ)، وفيها أيضاً اثني عشر مسجداً، منها مسجد حميد الحسون، وجامع الفاروق وغيرها، وفيها ثماني مكتبات عامة، منها مكتبة الفتح بن خاقان ومكتبة ابن بطوطة، أما الروضة العسكرية المطهرة فقد عمرت عدة تعميرات، أولى هذه التعميرات كانت على يد ناصر الدولة الحمداني عام ٣٣٢هـ، وكان آخر أعمار هو الذي تم بعد تفجير المرقد المطهر الذي وقع بتاريخ ٢٧/جمادي الاولي/١٤٢٨هـ ، الموافق ١٣/حزيران/٢٠٠٧م على يد الإرهاب الظلامي.

هذا غيض من فيض عن هذه المدينة المقدسة الخالدة .

لقد حبا الله مدينة سامراء المقدسة بنعمة المحبة والتآخي والسلاميين أهلها وعشائرها وعوائلها منذ عشرات العقود؛ لوجود نعمة الضريح المقدس للإمامين علي الهادي والحسن العسكري (عليهما السلام)، وكذلك بيت الامام علي الهادي (عليه السلام) الذي يعد رمزا مهماً من رموز الحضارة الاسلامية، فضلاً عن ذلك فقد تشرفت سامراء الخير والمحبة في حقبة من الحقب بأنها مقر للعلم، إذ كانت مقراً للحوزة العلمية الدينية بعد انتقالها من النجف في حقبة أيام المجدد العلامة محمد الشيرازي، وما تضمنته من مدارس دينية وفقهية عديدة على مر الزمان، وما تحمله هذه المدينة من مكانة تاريخية واضحة و متميزة، بوصفها مقراً لعاصمة الخلافة العباسية في زمن الخليفة المعتصم بالله، فأصبحت سامراء قبلة أنظار المسلمين، وبوصلة مميزة لهم، لا يمكن إغفال مكانتها ودورها الكبير وهبتها التاريخية، وهناك مزية أخرى انفردت بها هذه المدينة المعطاء وهي: ان عوائل وعشائر وبيوتات سامراء، ينحدر جذورها وأصولها من دوحة آل البيت الطاهرين (عليهم السلام)، مثل:

^١المصدر السابق، ص ١٧٨

(البو نيسان، والبو عباس، والبديري، والصدار، وغيرهم)، وقد تشرفت هذه العوائل بخدمة المرقدين الشريفين وإدارتها وحمايتها بالتناوب بين هذه البيوتات والعشائر بصورة دورية منذ زمن بعيد.

لقد اصاب هذه المدينة التهميش والإهمال وإلغاء مكانتها ودورها عندما جعلت تكريت وهي المدينة الصغيرة مركزاً للمحافظة، وصارت سامراء المدينة الكبيرة تابعة إلى تكريت، على الرغم من تاريخها الوضاء وأرثها الأصيل، كما أن التهميش والاعتقال طال بعض رجالها من علماء وسياسيين ورجال دين وقادة عسكريين .

ولابد لنا أن نمر على سامراء في السالنامات (الجرائد الرسمية، أو اليوميات الرسمية) العثمانية، والسالنامات هي الكتب الرسمية التي كانت تصدرها الدولة العثمانية، وتوزعها على الولايات العثمانية سنوياً، وهي تتضمن أوامر التعيينات وإصدار القوانين والعقوبات والتشكرات. وتعد السالنامات من المصادر المهمة الموثوقة، وتعتبر من مصادر للباحثين .

وقد اهتم الباحثون بدراسة السالنامات منذ الستينيات من القرن الماضي، ونشرت عدة دراسات وبحوث حول سامراء إرثاً وحضارة و تاريخاً وإدارة مدنية ومؤسسات مدنية، فضلاً عن إنها تناولت اقتصادها وتعليمها، وكل ما يتعلق بها كمدنية أزلية. لقد كانت هذه السالنامات من أهم مصادر الدراسة والبحث حول سامراء في تاريخها القديم والحديث^١

فمثلما تركت الولايات والحروب على العراق ونخله، والشجر ونهره والحجر، حاول الظلاميون التعرض لها، فجعلوا الملوية بلا رؤوس، مثلما نعثر يومياً على جثامين لبشر من دون رؤوس، وهنا يقاس حجم المحنة التي طالت تاريخ العراق وحاضره على يد شذاذ الآفاق.

لقد أقبل أمر الخليفة العباسي جعفر المتوكل قبل وفاته بعامين على بناء مدينته العظيمة المتوكلية الواقعة شمال سامراء، كما أبدع المعماريون العراقيون ببناء مئذنة الملوية لمسجد أبي دلف المشهور على وفق محاكاة لطرز زقورات المعابد التي كانت منتشرة في أرجاء العراق القديم. لقد ظلت ملوية سامراء عصية على أوكار الشروطوارق الحدثان، ولم تتعرض أحجارها إلى التهديم والسطو والنبش، مثلما تعرضت آثار أور وأحجار بابل ومدينة المدن المدائن التي شيد بها الحجاج بن يوسف الثقفي قصره، وشيد بالآجر أيضاً أبو جعفر المنصور مدينة بغداد المدورة، فكانت السفن الكبيرة تنقل من تلك الأحجار والحفائر والبوابات إلى هذه

١- سامراء، دائرة الآثار العراقية، بغداد، ١٩٣٨م، ص ٤٥

المدن العملاقة عبر دجلة، وعلى الرغم من السرقات وكل الحوادث، بقيت ملوية سامراء محتفظة بشموخها وقوامها وأدائها لمهمة الأذان والمراقبة لمدة طويلة من الزمن.

إن الملفت للنظر أن ملوية سامراء تدور من الأسفل إلى الأعلى، على العكس من سير عقارب الساعة، وبهذه الخاصية العظيمة تبدو في عناد مع وكر الزمان، وتصح عن سر ديموتها وحفظها من الفناء، ومن يدقق في هيئتها وأحجارها يجدها فعلاً خارج الزمن، وكأنها شيدت بالأمس القريب، وهذا ما لا نجد في معالم بابل العراق الأثرية، ولا في زقورة عقرقوف ببغداد، والتي لم يبقَ منها غير كتلة من الأحجار والأثرية، على الرغم من كثرة الاهتمام بها وترميمها وصيانتها، أما بوابة بابل الأصلية وبوابة عشتار، فقد صارت في طي النسيان. إن التجاسر على هيبة التاريخ بتفجير مرقد العسكريين وقطع رأس ملوية سامراء يندر بولادة زمن عسير، وفكر سقيم لا يقيم للتاريخ وزناً، ولا يعد بطوارق الحدثان.

لقد شهد بناء مأذنة الملوية، وعاش معها فقهاء أئمة يشار لهم بالبنان، منهم الإمام أحمد بن حنبل، والإمامان العسكريان، إذ طالما سمع المسلمون من على قممها أذان الصلوات، وأفتوا الناس وقضوا بينهم، وهم يجلسون تحت ظلها الوارف، لكن لم يفت أحد بزوالها أو بإيذائها والإساءة إليها، وما هي منذ ثلاثة عشر قرناً تعانق الشمم والمجد، وما زالت شاهقة سامقة في فضاء سامراء، كان ظلها لا زال.

ان أثراً حضارياً بحجم الملوية يعد وثيقة تاريخية ساطعة وصادقة على جبين التاريخ، لا تضاهي صدقها مراكب كبيرة أو قوافل جرارة محملة بكتب التاريخ ورواياته، لكن السراق واعداء الانسانية يتربصون بكل شيء ثمين ليسرقوه، مثلما نهب المتحف العراقي نهباً شاملاً، وبمباركة المحتل الأمريكي، وما زال السراق الناهبون يسيطون على حفائر وآثار أور وبابل، ومع ذلك فالأرض العراقية ما زالت تعطي النفيس والنفيس، فمثلما تطفو أرض العراق فوق حقول هائلة من الغاز وبحيرات من النفط، ووفرة كثيرة من الماء، فإنها تضم مخزوناً ضخماً لا ينضب من الآثار المتنوعة.

تعد حقبة السيطرة العثمانية من ١٥٥٣م إلى ١٩١٧م من أكثر الحقب التي زار فيها الرحالة الأجانب العراق، وبخاصة بغداد، وإن العديد من الرحالة الأجانب والعرب جاءوا تحت مسميات مختلفة، فالبعض منهم جاء بحثاً عن الآثار، والبعض الآخر جاء لجمع المخطوطات لصالح متاحف بلده، ومنهم من كانت رحلاته استكشافية للمنطقة، ومنهم من قدم للتجسس والبعض جاء للتبشير للديني المسيحي واليهودي، ومنهم جاء لأغراض خاصة سياسية، ولكن ما يهمننا من هذه الرحلات هو ان الجميع دونوا أدق التفاصيل، وإن طلائع الرحّالين العرب والأجانب أخذوا يصلون إلى بغداد وغيرها من المناطق، إذ شهدت القرون الخمسة التي حكم

العثمانيون فيها العراق تطورات اجتماعية وسياسية وإقتصادية مختلفة، بحكم الصراع الأجنبي الاستعماري الدولي على المنطقة، ولعل من أشهر الرحلات الذين زاروا العراق هو الرحالة الإيطالي سيزار فيديريشي التاجر المشهور، وبعده الطبيب الهولندي وليونهارتراوولف الذي قدم إلى العراق سنة ١٥٧٣م في عهد الوالي عبد الرحمن باشا، و تيكسيرواويدرو، وبيتروديلفال، وتافرنيه وغيرهم، وإن أغلبهم زار آثار العراق كلها، ولقد كانت لهذه الرحلات أهمية كبيرة، وبخاصة في تقديم الأوصاف العامة ووصف جوانب الحياة، مما وفر للباحثين فرصة للاطلاع، وثروة علمية تاريخية مهمة؛ لرفع الضبابية واللبس عن بعض المواقع والأحداث واستقرائها بشكل جلي وواضح، وإن هؤلاء الرحالة العرب والأجانب الذين زاروا بغداد ومدن العراق الأخرى، ودونوا في يومياتهم ومذكراتهم الآثار وعادات وتقاليد العراقيين، ورسوموا المواقع والخرائط وما وقع تحت أعينهم من مشاهدات، وما لفت أنظارهم من أمور مهمة وما أثار إنطباعاتهم، وعلى الرغم من تحامل البعض منهم أحياناً، فإن أهداف هؤلاء الرحالة تنحصر بتزويد دولهم بمعلومات، تكون إما اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو تجسسية أو عسكرية، وربما تكون أحياناً تبشيرية دينية مسيحية أو يهودية، متخذين من السياحة والتتقيب عن الآثار والتجارة عنواناً وستاراً لغاياتهم الحقيقية المخبوءة، والبعض من هؤلاء جاءوا أصلاً بعناوين رسمية، وصفات كالتمثيل السياسي والانتداب، أو لأغراض فنية أو تجارية أو عسكرية^١.

ولا بد في هذه العجالة أن نمر على دفناء مدينة سامراء من غير الذين ذكرناهم في صفحاتنا المتقدمة ومن أشهرهم:-

- ١- أم الإمام الهادي سمانه المغربية، وقبرها في نفس مرقد العسكريين جانبه.
- ٢- أم الإمام الحسن العسكري السيدة سوسن، وهي من بنات الكاظم (عليه السلام) في ناحية الدجيل.
- ٣- السيد محمد بن الإمام علي الهادي (ع)، (ت ٢٥٢ هـ)، والمدفون في مدينة بلد بالقرب من مدينة سامراء
- ٤- بنات الكاظم (عليه السلام) المدفونات في ناحية الدجيل .
- ٥- داود بن أبي هاشم، من ذرية عبد الله بن جعفر بن ابي طالب (ت ٢٦١ هـ)
- ٦- ابن الإمام الهادي المسمى بالحسين.
- ٧- بنات الحسن في منطقة الجلام
- ٨- السيدة آمنة بنت الإمام الحسن بن علي .

١- أحوال بغداد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، آفاق عربية، بغداد العدد ١٢٥، السنة ١٩٩٠م، ص ٩

٩- إبراهيم بن مالك الإشتري النخعي.

١٠- أبو هاشم جعفر، أحد أصحاب الأئمة ومحدثي الشيعة.

١١- أحمد بن علي النجاشي، المعروف بالنجاشي وابن الكوفي،

١٢- زيد بن موسى الكاظم، المعروف بزید النار

١٣- المحقق الكبير الآغا رضا الهمداني، من علماء القرن الثالث عشر الهجري .

وتحدث عن ثلاثة من أشهر الدفناء من الذين كانوا من الأعلام ، ولهم بصمات في كتب التاريخ ومن أشهرهم:-

أ- أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، المعروف بابن السكيت الالهوازيالدورقي، ولد في بلدة دورق من كور الأهواز عام ١٨٦هـ، وهو من علماء اللغة العربية وأديب شهير، وراو كبير ونحوي نحري، عاش في سامراء، وكان من أصحاب الإمامين علي الهادي ومحمد الجواد، وقد قُتل بسبب معارضته للسلطان العباسي، ومولاته للعلويين في أيام المتوكل العباسي. درس ابن السكيت على يد أساتذة كبار منهم : الفراء وعمرو الشيباني، وابن الأعرابي و نصران الخراساني الأثرم، وهؤلاء من مشاهير العلم والأدب أيام الدولة العباسية. لقد أمضى ابن السكيت مدة في البداية لتعليم اللغة العربية الفصيحة كما كان معروفاً آنذاك.

تولى مع أبيه تأديب صبيان العامة في منطقة درب القنطرة ببغداد، ثم انبرى لتعليم أولاد الخلفاء، ومنهم أبناء المتوكل العباسي، وقد درس مختلف فروع الأدب واللغة والشعر والنحو والرواية وعلوم القرآن، ولم يلبث طويلاً إذ أصبح من أكابر أهل اللغة والمنطق، ويرى اللغوي البارع أبو الطيب اللغوي أن زعامة علم الكوفيين قد انتهت إليه، وأنه أحسن من ثعلب، وقد نعت علماء عصره ابن السكيت بالعلامة، مع الإطراء على علميته الكبيرة في اللغة، وبالإضافة الى نشاطه الواسع في اللغة والنحو والصرف، فقد أدى دوراً مهماً في حركة تدوين الشعر وجمعه، والتي كانت قوية جداً في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، وقد تنقل بين بغداد والكوفة والبصرة حتى أواخر القرن الثالث الهجري.

لقد جمع ابن السكيت مع علماء عصره الآثار والداوين المبعثرة للشعراء القدامى الكبار الذين سبقوه، مثل امرؤ القيس، و النابغة الذبياني، والأعشى، وزهير بن أبي سلمى، وعنترة بن شداد، وعمرو بن كلثوم التغلبي، وطرفة بن العبد، وعدد كبير من شعراء العصر الجاهلي والأموي، والتي كانت تعدّ من الذخائر النفيسة في الأدب العربي، فانتشلوها من بحر الضياع والنسيان، فضلاً عن ذلك، فقد اهتم ابن السكيت أيضاً بتفسير وشرح بعضها، وبذلك قدّم خدمة عظيمة للأدب العربي، متمثلة بحفظه لهذه الثروة من الاندثار، وكان

ايضاً ينشد الشعر، وقد أثنى عليه طلابه، كما انه دَوّن السنة النبوية، وشرحها، وكذلك العقائد، ونقل الروايات والوقائع الدينية.

وعندما عاش ابن السكيت في سامراء حظي باهتمام الوزير عبدالله بن يحيى بن خاقان، الذي أطلع المتوكل على مكانته العلمية، فطلب المتوكل من ابن السكيت تأديب ولديه المؤيد والمعتز، إلا أن بعض اصحابه حذروه من الدخول إلى بلاط المتوكل، وقد أمضى مدة من حياته في ذلك البلاط، وذكر أنه كان يتقاضى أكثر من ألفي درهم شهرياً، فضلاً عن الهدايا الثمينة التي كان يمنحها له المتوكل بين حقبة وأخرى. لقد أجمعت أكثر المصادر على أنه قُتِل بسبب ولائه للعلويين أمام المتوكل، وقيل أن جماعته كانت تؤبّ المتوكل عليه مما تسبب في قتله، وكان استشهاده في الخامس من شهر رجب سنة ٢٤٤هـ^١.

ب- أبو النعمان إبراهيم بن مالك الأشتر النخعي، وهو وقائد عربي شهير وثائر، عرف بمعارضته للأمويين، ومؤيداً للمختار بن أبي عبيد الثقافي، فثار مطالباً بدم الإمام الحسين بن علي (عليه السلام)، وبعد فشل ثورة المختار، التحق بابن الزبير في الكوفة، ووقف معه في حربه، وقُتِل الأشتر وهو يقاتل مع مصعب بن الزبير في الكوفة على يد جيش عبد الملك بن مروان، له مرقد يُزار في مدينة الدُّجيل، على بعد ثمانية فراسخ من شمال سامراء.

لقد كان المختار الثقفي يدّعي أنه مبعوث محمد بن الامام علي بن ابي طالب المعروف بمحمد بن الحنفية في العراق ووكيله للنهوض ضد الأمويين مطالباً بدم شهداء كربلاء، وذلك عام ٦٤هـ، وقد أيدته بعض من الناس؛ لما عرف به من شخصية صادقة قوية، فقد روي أن الأشتر سلم المختار رسالة من محمد بن الحنفية قد كتبها له، وفيها يدعو إبراهيم الأشتر إلى مساندة المختار الثقفي، والنهوض معه ضد الأمويين، وقد شهد له أحمر بن شَمِيط البجلي، ويزيد بن أنس الأسدي، وعبد الله بن كامل الشاكري على ان هذه الرسالة هي من محمد بن الحنفية الى إبراهيم الأشتر، فلبى الدعوة وباع المختار، وكان الشعبي أحد أصحابه مشاركاً في الالتحاق بإبراهيم بمساندته المختار.

استقرّ المختار في الكوفة، واستطاع الاستيلاء على مدن قاتل بها الأمويين وقتله الحسين بن علي، بعدها سار ابراهيم الأشتر الى الموصل وصار والياً عليها، وقاتل عبيد الله بن زياد الذي سيّره عبد الملك بن

١- إنباه الرواة على أنباه النحاة، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القبطي ت٦٤٦هـ، تحقيق محمد أبو الفضل ، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٠٦هـ، ج١، ص٢٥٠.

مروان إلى العراق في تلك الحقبة، لكن أهل الكوفة تمردوا على المختار الثقفي متهمين إياه بأنه كاذب، فبادر المختار إلى استدعاء إبراهيم الأشتر لمساندته، وهذا يدلّ بوضوح على الدور الكبير لإبراهيم الأشتر في نهضة المختار ومكانته فيها، فسارع إبراهيم الأشتر إلى الالتحاق بالمختار، واستطاع بمعية المختار أن يقضي على التمرد، بعد سلسلة من المعارك في مدن مختلفة.

بعد القضاء على التمرد ضد المختار الثقفي، خرج إبراهيم الأشتر النخعي من الكوفة لمقاتلة عبيد الله ابن زياد في الموصل، فخرج في جيش تعداد هيتراوح من ثمانية آلاف إلى عشرين ألف مقاتل، فدارت معركة قوية بين الأشتر وعبيد الله بن زياد، على شاطئ نهر خازر على بعد (٥) فراسخ من الموصل، قتل الأشتر في هذه الحرب عبيد الله بن زياد وعدداً من قتلة الحسين بن علي، بعدها توجه الأشتر مع عدد من أنصاره للسيطرة على نصيبين وحران والرقا وغيرها، وفي هذه الأثناء هاجم مصعب بن الزبير الكوفة، وقتل المختار الثقفي في شهر رمضان سنة ٦٧ هجرية، ثم دُعي إبراهيم الأشتر إلى طاعة عبد الله بن الزبير، وبعد أحداث خطيرة قُتل مصعب بن الزبير، ودارت معركة بين إبراهيم بن مالك الأشتر ومحمد بن مروان الأموي، أبدى ابن الأشتر فيها شجاعة فائقة، لكنه قُتل لخيانة عتاب بن الوراق التميمي له،

وقد اختلف المؤرخون في تاريخ قتل إبراهيم بن مالك الأشتر، فقال الطبري وابن الأثير أنه قتل عام ٧٢ هـ.^١

ج- أحمد بن علي المعروف بالنجاشي وابن الكوفي، من أبرز علماء الإمامية في علم الرجال، ولد في صفر سنة ٣٩٢ هجرية، عاش في أواخر القرن الرابع الهجري، وينتهي نسب النجاشي إلى عدنان الجدّ العشرين للنبي الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم، وجدّه عبد الله النجاشي كان والياً على الأهواز، وكتب الرسالة المشهورة بـ(الرسالة الأهوازية)، يُكنى العلامة النجاشي بأبي العباس تارة وتارة بابي الحسين.

تتلمذ النجاشي على يد والده علي بن أحمد بن عباس النجاشي أول الأمر، ولما بلغ الثامنة عشر من عمره درس علم قراءة القرآن والحديث في مسجد اللؤلؤي، وهو مسجد النحوي والعالم الكبير نبطويه، فقرأ القرآن على يديه ومجموعة من أصحابه (كتاب الكافي) الشيخ محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي ت ٣٢٩ هـ - ٩٤١ م.

١- أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري ت ٢٧٩ هـ، تحقيق سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر - بيروت، ١٩٩٦ م، ج ٧، ص ٩٥.

كما تتلمذ العلامة النجاشي على يد كبار الأعلام والعلماء في عصره، كالشيخ المفيد، و الشيخ الصدوق، والسيد الشريف الرضي وأخيه الشريف المرتضى، وابن الغضائري، وابن الجندي أحمد بن محمد بن عمران، وابن نوح أحمد بن علي بن عباس السيرافي، وأبي إسحاق إبراهيم بن مخلد بن وصلة الأهوازي، وأحمد بن محمد بن موسى، والقاضي أبي عبد الله الجعفي، وابن عبدون أحمد بن عبد الواحد بن أحمد البزاز، وغيرهم.

لقد أمضى النجاشي جلّ عمره في بغداد، ولم يغادرها الا في سفرات قليلة، يغلب عليها زيارة العتبات المقدسة في النجف وسامراء، فضلاً عن سفره إلى البصرة ومكة المكرمة والمدينة المنورة. لقد كان النجاشي رجلاً جليل القدر طيب المعشر عظيم الشأن، متبحراً في أحوال الرجال معروفاً بدقته وتبحره، يرجع المتأخرون دوماً إلى تجريحاته وتعديلاته، فقد كان عالماً ثباتاً جليلاً، جلب انتباه الباحثين حول شخصيته؛ لاقتصاره في نقل الحديث على المعتبرين والثقة من الرواة، وكان لا يأخذ عن الضعفاء أو المتهمين بالضعف والمطعونين.

ترك النجاشي كثيراً من المصنفات، منها كتابها المشهور (رجال النجاشي)، فهرس فيه أسماء مصنفي الشيعة، ويعدّ من أهم المراجع والمصنفات التي كتبها النجاشي، ولم يفقد هذا الكتاب مكانته المرجعية، على الرغم من صدور أعداد كثيرة من الكتب الرجالية طوال تلك الحقبة.

توفي النجاشي عام ٤٥٠ هـ في العرافي منطقة مطر آباد بالقرب من سامراء. وكان العلامة الحلي أول من سجّل تاريخ ومكان وفاته في كتابه خلاصة الأقوال^١.

الخاتمة

لقد حبا الله سامراء، هذالمدينة المقدسة بنعمة الإسلام، والسلام والتسامح والمحبة والتأخي، بين اهله وعشائرها وعوائلها منذ مئات السنين، بفضل كونها مدينة التاريخ الموهل بالقدم، وكونها حاضرة الخلافة العباسية رداً من الزمن، كذلك ما أنعم الله عليها بنعمة الضريحين المقدسين للامامين العسكريين المعصومين الامام علي الهادي والامام الحسن العسكري (عليهما السلام).

فضلاً عن أنها أصبحت لحقبة زمنية مقراً للحوزة الدينية للمذهب الجعفري، وان ما تحمله هذه المدينة من مكانة تاريخية، أصبحت بوصلة ومنازة مميزة للمسلمين من مختلف المشارب، مما دعا عدداً كبيراً من البلدانيين والرحالة العرب والأجانب لزيارتها، إذ صارت قبلة لايمكن الغاء دورها التاريخي ومكانتها المقدسة

١- الذريعة إلى تصانيف الشيعة، آقا بزرك الطهراني، محمد محسن، ، بيروت، دار الأضواء، ط ١٩٨٣، ٣، ج ٤، ص ٣١٧

وهيبتها الى قيام الساعة، كما سكنتها عشائر عربية أصيلة، ينتمي قسم كبير منها إلى مذهب آل البيت عليهم السلام .

لقد حاول الظالمون أعداء الانسانية الغاء دورها ومكانتها العربية الإسلامية، وحاولوا إلغاء تاريخها العتيق، وأرثها المقدس، لكن سامراء التي كانت تسر من يراها لا بد يوماً ان تعود إلى سابق عهدها، مثلما سيعود عراقنا الأبى إلى نور الحرية وإشراقه الاستقلال كسابقة عهده.

فيا سامراء افتحي بابك واعلمي ان البلد الغالي يفتح ذراعيه لك، وان الذين يقرؤون خطابك التاريخي والوطني بصدق بعيداً عن الطائفية، يعرفون ألقك وزهوك، فامزجي عرك بركام ضريح الإمامين، واصنعي منه مناراً وقرميدياً، ترتفع به قبابك ومآذنك، لتصبغه بدماء الوطن الأعز. وتأكدي يا سيدة المدن بأنك فينا ومعنا دوماً، وسترتفع قبابك ومآذنك هذا العام والأعوام اللاحقة، وستعودين تسرين كل من رآك في يوم قريب، يرونه بعيداً ونحن بقوة الله نراه قريباً إن شاء الله .

التوصيات والنتائج :-

- ١- نلفت الإشارة إلى أن المسؤولية في عمليات التنقيب والبحث والحفر تقع على عاتق وزارة الثقافة والاعلام العراقية، ونوصي بضرورة بذل مزيد من التنقيب لمعرفة آثار هذه المدينة العتيقة واكتشافاتها.
- ٢- ضرورة صيانة الآثار الموجودة في سامراء والمحافظة عليها من العبث والسرقة.
- ٣- كانت سامراء مدينة معروفة قبل الإسلام ضمت الديانات الإبراهيمية.
- ٤- لقد شرف الله هذه المدينة بسكن الإمامين العسكريين فيها، فضلاً عن قبور الصالحين والأتقياء.
- ٥- كانت حاضرة عباسية مهمة اتخذها الخلفاء العباسيون ردياً من الزمن عاصمة لخلافتهم.
- ٦- كانت ولا زالت مدينة سامراء حاضرة اسلامية لكل الطوائف والمشارب.
- ٧- لقد أصبحت مدينة التسامح والأخر، فحباها الله بطيب الهواء والزرع والناس وجودة الأرض وكثرة المياه .

المصادر والمراجع :

- ١- أحوال بغداد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، آفاق عربية، بغداد العدد ١٢٥، السنة ١٩٩٠م.
- ٢- إنباه الرواة على أنباه النحاة، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القبطي ت ٦٤٦هـ، تحقيق محمد أبو الفضل ، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٠٦هـ.
- ٣- أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري ت ٢٧٩ هـ، تحقيق سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر - بيروت، ١٩٩٦م

- ٤- الذريعة إلى تصانيف الشيعة، آقا بزرك الطهراني، محمد محسن، بيروت، دار الأضواء، ١٩٨٣
- ٥- تاريخ علماء سامراء، يونس الشيخ إبراهيم السامرائي، مطبعة دار البصري، بغداد، ١٩٦٦ م .
- ٦- التطرف والغلو والارهاب، د. بسام الصباغ، ديوان الوقف السني، بغداد، ٢٠١٠م
- ٧- التنوع والتعايش، الشيخ حسن الصفار، مطبعة العرفان، النجف، ٢٠٠٥م، ص ١٠٢.
- ٨- دائرة المعارف الإسلامية، ت. هوتسما، وت. و. ارنول، د، ور. باسيت، ترجمة: إبراهيم زكي خورشيد وآخرون، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ١٩٩٨م.
- ٩- الديارات، أبي الحسن علي بن محمد المعروف بالشابشتي، تحقيق كوركيس عواد، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٦ م .
- ١٠- ديوان البحثري، طبعة دار صادر، بيروت، ١٩٦٢م.
- سامراء عاصمة الدولة العربية في عهد العباسيين، احمد عبدالباقي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٩ م .
- ١١- السبيل إلى انهاض المسلمين، مؤسسة الفكر الاسلامي، بيروت، ١٩٩٤م
- ١٢- العراق مهد الفن الاسلامي، د. محمد عبد العزيز مرزوق، مطبعة ثنيان، بغداد، ١٩٧١م .
- ١٣- القاموس المحيط، العلامة اللغوي مجد الدين بن يعقوب الفيروزآبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٩م.
- ١٤- الكامل في التاريخ، عزالدين ابو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني ت ٦٣٧هـ، دار صادر، ١٩٦٥ م .
- ١٥- سامراء، دائرة الآثار العراقية، بغداد، ١٩٣٨م
- ١٦- كتاب البلدان ، أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي ت ٢٩٢هـ، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٢هـ.
- ١٧- لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، د. علي الورد، مطبعة الأديب البغدادية، بغداد، ١٩٧٨م .
- ١٨- معجم البلدان، الامام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، سنة ١٩٧٩م .
- ١٩- موسوعة المصطلحات السياسية ، والفلسفية ، والدولية، أ.د. ناظم عبدالواحد الجاسور، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠٠٨م.

نصوص وشخصيات مطمورة في تاريخ غرب الصحراء

(الحاج أعمار التيشيتي ومؤلفاته نموذجاً)

Texts and figures buried in the history of West Africa

(El Hajd Amar Al-Tishiti and his books as a model)

محمد الحاج أعمار

باحث في مرحلة الدكتوراه بجامعة عبد الملك السعدي بتطوان

المملكة المغربية

الدولة: الجمهورية الإسلامية الموريتانية

Mohamed El-Hajd Amar

Researcher in the PhD at the University of Abd al-Malik Saadi in Tetouan,

Kingdom of Morocco

Country: The Islamic Republic of Mauritania

Elhadjamar@gmail.com

ملخص

يتمحور هذا العرض في عمومته حول أسرة (أهل الحاج أعمار) تثبت مخططاتها الوثائقية أنها أسرة ذات تاريخ في العلم والصالح، وقد قدمنا تعريفا موجزا لهذه العائلة وأفردنا بعض مشاهيرها بالترجمة كما بينا دورها العلمي وقمنا بتقديم نماذج من مؤلفاتها.

كلمات مفتاحية: مطمورة . تيشيت . التاريخ . الحاج أعمار . أزيير . الفقاري

Abstract

This research is generally focused on the family of (El Hajd Amar), whose documentary findings prove that it is a family with a history of knowledge and goodness.

Key words

تقديم:

يوجد التاريخ البشري حيثما وجدت حياة، فالإنسان يصنع التاريخ، والتاريخ يصنع الإنسان، وتحتضن الجغرافيا الجميع، فالتاريخ ابن الجغرافيا. كما يقال. وتتماهى هذه المنظومة مع الزمن بأبعاده الثلاثة، الماضي والحاضر والمستقبل، ووفق هذه الصيرورة يتشكل التاريخ، وتتوالى مراحلها مشكلة البوصلة والذاكرة الحية للأجيال فالجميع تائه إذا لم يعد إليه.

(....) إننا نعرف الأحداث المعاصرة لنا معرفة مباشرة ونذكرها في يسر وسهولة ولكن الأحداث التي انقضت وانصرمت لا نعرفها إلا بطريقة استقرائية وبصعوبة بالغة...^١.

إنه الماضي الذي بدون معرفة جيدة له لا يمكن أن نعتز به كما ينبغي، إن الدراسة الجيدة وغير المشوهة لهذا الماضي تستدعي استقراء مسطوره، وتدقيق وتشبيد منظوره، واستكشاف مطموره، ووفق هذا الأخير ينتزل هذا المجهود العملي الذي يتضمن التعريف بأسرة علمية من خلال تقديم مخطوطين من تأليفها في التاريخ لأول مرة، إضافة إلى قراءة في ثالث خاص بعلم التوحيد من الراجح أنه يعود إليها، وكانت هذه النصوص مطمورة إلى وقت قريب، فقد عرفت العديد من حواضر غرب الصحراء ازدهارا تجاريا وعلميا مكنها في نهاية المطاف من إنتاج ثقافة عالمة ونذكر من بين هذه الحواضر مدينة تيشيت^٢ العتيقة التي بلغت أوج ازدهارها الاقتصادي والعلمي منذ القرن التاسع الهجري حتى أواخر القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر ميلادي، مما أنتج طفرة كبيرة في هذا المجال فكثرت المؤلفات وتعدد المؤلفون وتنوعت الاختصاصات وإنطغى عليها نتاج الفقه والحديث واللغة وآدابها في حين كان نصيب التاريخ من هذه النهضة ضئيل يكاد يكون في حكم المعدوم.

^١ ليلة الصباغ، دراسة في منهجية البحث التاريخي، مطبعة خالد بن الوليد، ١٤٠٠/١٩٨٠، ص ١٨٧

^٢ تيشيت مدينة تاريخية تقع في غرب الصحراء وتحديدا بمنطقة تگانت بموريتانيا يرجع تأسيسها إلى النصف الأول من القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي مع اختلاف الروايات في أسماء المؤسسين الأوائل وكذا في تحديد سنة التأسيس ما بين ٥٣٦ هـ / ١١٤٢ م و ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م

ونظرا للأهمية البالغة لهذا العلم وندرة من ألفوا فيه فإننا نرى أن من الوارد تسليط الضوء ونفض الغبار عن شخصيات ونصوص اهتمت به بقيت في طي النسيان، وبمنأى عن أقلام الباحثين وذوي الاختصاص وتصورنا أن هذه الوثائق ستسد فراغا كبيرا في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية في بلاد السودان^١ الغربي عموما وبلاد شنقيط^٢ خصوصا، والطريف أن هذه النصوص تعود في مجموعها إلى أسرة واحدة الظاهر أنها حافظت على كتابة التاريخ كتقليد خاص بها، فقد ألف فيه الأب والابن ثم الحفيد.

وقبل تقديم هذه النصوص فإن منهجيتنا في هذا المقال تقتضي منا التعريف بهذه العائلة بما في ذلك جذورها الاجتماعية وإسهاماتها العلمية والثقافية في تاريخ غرب الصحراء عموما وفي حاضرة تيشيت خصوصا.

العرض:

الحاج أعر التيشيتي:

هو الفقيه الحاج أعر بن الفقيه أحمد بن الشيخ الضالع الفقاري^٣ الماسني^٤ التيشيتي وهو الجد الجامع لفرعه (أهل الحاج أعر) ولد بتيشيت على الأرجح سنة ١١٤٨ هـ . ١٧٣٦م وعاش فيها ربحا من

^١ تطلق بلاد السودان على إفريقيا جنوب الصحراء (مالي . السنغال وما جاورهما)

^٢ شنقيط واحة نخيل ومركز تجاري وعلمي قديم وباسمها عرفت البلاد لأن الحاج كانوا ينطلقون منها، تأسست سنة ٦٦٠ هـ على أنقاض قرية آبير التي يعود تأسيسها إلى العام ١٦٠ هـ، راجع بهذا الخصوص ابن الحاج ابراهيم في

صحيحة النقل في علوية ادوولي وبكرية محمد قلي (بحوزتنا نسخة منها)، ابن الأمين الشنقيطي في وسيطه، ص ٤٢٢

^٣ افقارن يقيم جمهورهم الآن جنوب منطقة گاوا وتحديدا في (تمسليت) ولهم وجود قديم تاد مكه (كل سوق) وكان

الفقاريون يشكلون عشيرة معتبرة من قبيلة إگلاذ قبل الفتنة التي حدثت في كل سوق ويعودون في غالبيتهم إلى أصول

عربية ومنهم من يرجع نسبه إلى الدوحة الشريفة، أما الفقاريون في تيشيت فهم مجموعة من عشائر ماسنه الصنهاجية

لكنهم يعودون في أصولهم إلى مجموعة أفقار (افقارن) ذات الأصول السوقية

^٤ ماسنه التيشيتية: من قبائل الزوايا المنحدرين من المرابطين لمعلومات أكثر يمكن الرجوع إلى المختار بن حامد الجزر

الجغرافي من موسوعته ص ٥٠

الزمن قبل أن ينتقل في أخريات أيامه إلى أروان^١، ويذكر القاضي محمد محمود بن الشيخ^٢ الأرواني أن ذلك كان في زمن الشيخ سيد احمد بن سيد صالح^٣ حاكم أروان وأحد شيوخها في ذلك الوقت والظاهر من خلال ما تم العثور عليه من مؤلفاته، وفحوى سيرته أنه كان عالما ومؤرخا من أهل الرواية والدراية سمي به علمه إلى درجة المشيخة، فلقب بالشيخ^٤، قبل حجته التي سيعرف بعدها بالحاج^٥، وقد أشار ولد حامد إلى ذلك بقوله في التاريخ السياسي^٥ أن الشيخ^٥ عمر هو الحاج^٥ عمر^٥ التشيتي.

^١ أروان هي حاضرة صحراوية عتيقة كانت ضمن المجال البيطاني سابقا وتقع حاليا ضمن أراضي جمهورية مالي للمزيد عنها راجع: فتح الرب الغفور في تواريخ الدهور لابن امبوجه التشيتي الجزء ٢، تاريخ التكرور من بلاد أقصى المغرب، تحقيق وتقديم محمد بن الحاج^٥ عمر، ط١، ٢٠١٩، الإيداع القانوني ٢١٠١/٢٠١٩، ص١٦٣

^٢ هو القاضي محمد محمود بن الشيخ الأرواني التبتكي وهو من أحفاد الشيخ الصالح سيد احمد بن آكه الأرواني وقد توفي محمد محمود ليلة الاثنين ٥ نغمبر ١٩٧٣م بتمبكتو ومن أهم مؤلفاته التاريخية كتاب الترجمان في تاريخ الصحراء والسودان وبلاد تنبكتو وشنقيط وأروان، للمزيد عنه يمكن الرجوع إلى المختار بن حامد حياة موريتانيا حوادث السنين أربعة قرون من تاريخ موريتانيا وجوارها، تقديم وتحقيق د. سيد احمد بن أحمد سالم، ط١، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (المجمع الثقافي) ص١٨٥

^٣ هو الشيخ سيد احمد بن سيد صالح بن الوافي بن سيد احمد بن آده من الأولياء المتقين والعلماء الصالحين فقيها ولغويا ترجم له صاحب فتح الشكور ولم يذكر تاريخ وفاته لكن الدكتور سيد احمد بن أحمد سالم ذكر أثناء ترجمته لابنه سيد محمد بوعمامه بن الشيخ سيد احمد بن سيد صالح أن هذا الأخير (الشيخ سيد احمد بن سيد صالح) تولى رئاسة أروان سنة ١١٨١هـ أي ١٧٦٨م في نهاية حياة أبيه (سيد صالح) ويعني ذلك أن الشيخ سيد احمد بن سيد صالح كان حيا سنة ١١٨١هـ للمزيد عنه يمكن الرجوع إلى حوادث السنين (مرجع سابق) ص٩٥، الترجمة ٤

^٤ المختار بن حامد، التاريخ السياسي، ج٢، ط١، ٢٠٠٠، بيروت، ص٢٣٩

^٥ التاريخ السياسي مرجع سابق، ص ٢٣٩

وتخبرنا المراجع المحلية^١ أنه حج إلى بيت الله الحرام سنة ١١٨١ أو ١١٨٢ هـ وهو خلاف بين المؤرخين المحليين في سنة حجه^٢، وقد ظلت هذه الحجة حاضرة في الذاكرة الشعبية خصوصا في تشيت وأروان لما حفلت به من البركة والكرامات التي كان لها أثرها المعنوي على الشيخ وأبناءه من بعده، ومن بين هذه الكرامات حادثة البضاعة المشهورة وملخصها استجداد أحد الأثرياء به بعد أن ضاعت منه بضاعته فأغاثه الله على يديه فوجد بضاعته المسروقة أو المغصوبة، فعندئذ قسم صاحب البضاعة بضاعته مع الشيخ نصفين وبثمن هذا النصف اشترى مكتبة ضخمة تزخر بمختلف المعارف والعلوم عاد بها إلى تشيت، وقد عثر على هذه المكتبة الضائعة مطمورة داخل أنقاض أحد المنازل المنهارة في تشيت^٣، وقدمت للمعهد الموريتاني للبحث العلمي لأول مرة يوم ١٥/٠٤/٢٠٠٦ م.

ومن محتويات هذه المكتبة تأليف منسوب لمؤلفه محمد بن عبد الله بن مومن الرماضي لقبا واسمه مصطفى أو المصطفى، وهو تأليف ضخم جيد في الفقه، وتأليف القوليتي على حاشية مختصر خليل، وهو مجلد ضخم، وتأليف جيد في التوحيد لمؤلفه سيد محمد وهو أحد أبناء الحاج اعمر، مكتوب في صفحته الأولى: "قال الشيخ الفقيه العالم العامل بدر الدين الجامع بين علم الشريعة والحقيقة سيد محمد بن الفقيه الحاج أعمر بن الفقيه أحمد بن الشيخ الفقاري التشيتي: الحمد لله الموصوف بالانفسية وبالمعاني والمعنوية...".

هذا إضافة إلى شرح عبد الباقي للشيخ خليل رحمه الله بخط المؤلف نفسه، وتنبئ هذه المكتبة عن مكانة صاحبها العلمية السامقة، وعن علو كعبه ورسوخ قدمه في حقل المعرفة والعلم.

^١ انظر المختار بن حامد في حوادث السنين، مرجع سابق، ص ١٨٥، والطالب احمد بن اطوير الجنة (تاريخ الطالب احمد بن اطوير الجنة) تحقيق سيد احمد بن أحمد سالم، منشورات الدراسات الإفريقية بالرباط، ط ١، ١٩٩٥، ص ٧٦، وحوليات تشيت، ص ١٤، تاريخ الادبيلي، مرقون بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي

^٢ جاء في تاريخ ولد اطوير الجنة (مرجع سابق) أنه حج سنة ١١٨١ هـ، وجاء في تاريخ الادبيلي أنه حج سنة ١١٨٢ هـ

^٣ مجلة الثقافة الشعبية فصلية علمية متخصصة، رسالة التراث الشعبي من البحرين إلى العالم، العدد ١٨، الصادر

بتاريخ ١٩/٠١/٢٠١٨

ويذكر السلف الصالح من التشيبيين الأوائل من كراماته ما صادفه في طريق عودته من الحج من ما أصبح معروفا عندهم ب(اشعير الحاج اعمر)، وقد ظلوا إلى وقت قريب يتبركون به ويعلقونه للحامل حتى تضع، وللمريض حتى يشفى بإذن الله، ومما ذكره عنه أنه ليلة دخوله إلى تشيت بعد عودته من الديار المقدسة تمت الزواج به في نفسها إحدى بنات الشرفاء فتزوجها فكانت أما لأولاده في تشيت.

أولاده:

أما أولاده في تشيت فأكبرهم محمد الأمين وهو عم مؤلف تاريخ وفيات الأعيان الذي هو ابن محمد الأمين بن سيد محمد بن الحاج أعمر سمي عمه محمد الأمين (المذكور)، حيث قال: "وفي ليلة الخميس الثامن عشر من الربيع النبوي العام الموفي ثمانين بعد المائتين والألف من هذا العام وقعت فيه وفاة المرحوم بكرم الله تعالى والدنا محمد الأمين بن سيد محمد بن الحاج اعمر".

وستعرض لاحقا بشيء من التفصيل لهذا المؤلف (وفيات الأعيان)، وسيدنا المتوفى سنة ١٢٤١هـ، وسيدي محمد المتوفى سنة ١٢٥٦هـ، والشيخ المتوفى سنة ١٢٦٢هـ حسب ما ورد في حوليات تشيت^١، وحوادث السنين^٢.

ومن ألقه أبناء الحاج اعمر وأعلمهم سيد محمد المتوفى سنة ١٢٥٦هـ . ١٨٤٠م، فهو العالم العلامة الولي القطب فريد عصره ووحيد دهره قطب رجاها وشمس ضحاها على حد تعبير الفقيه الحاج اعمر^٣ بن سيدنا بن الحاج أعمر، وقد كان سيدي محمد هذا رحمه الله عالما في الشريعة والحقيقة، فكان شيخا لمشايخ تشيت وعلماؤها وقضاتها من أمثال أحمد الصغير^٤ بن حمى الله، والقاضي سيد محمد بن

^١ حوليات تشيت تأليف في التاريخ على النمط الحولي لكل من محمد بن عشاى والشريف بوعسرية التشيتيان

^٢ مرجع سابق

^٣ مخطوط مرقون بحوزة المعهد الموريتاني للبحث العلمي

^٤ هو أحمد بن حمى الله بن أحمد الملقب أحمد الصغير المسلمي التشيتي المتوفى ١٢٧٢هـ ١٨٥٥م، الفقيه المؤرخ السياسي العلامة الموسوعة، للمزيد عنه يمكن الرجوع إلى حماه الله بن مايايا في كتابه مدينة تشيت رسائل وأشعار من القرنين الثاني والثالث عشر الهجريين، بدون تاريخ نشر، وهو في الأصل بحث لنيل شهادة الدكتوراه

محمد الصغير بن امبوجه^١ التشييتان^٢، ولهذا العالم العديد من المؤلفات الضائعة، ذكرنا منها مؤلفا في التوحيد قبل قليل، ونذكر مؤلفا آخر في النحوى يحمل الرقم ٣١٠٩ مكتبة أهل حمى الله، وعنوان الكتاب هو شرح الأجرومية لمؤلفه سيد محمد بن الحاج أمر، وناسخه هو عبد الرحمن بن محمد جد بن أمر بن السحون، كما كان له اهتمام واضح بشتى فنون علوم عصره، وقد سجلنا له اهتماما خاصا بعلم التاريخ، فقد كلف ابن أخيه الحاج أمر بن سيدنا بنسخ رحلة العالم العلامة الطالب احمد بن اطوير الجنه^٣ (المنى والمنة)^٤.

وهنا لا نستبعد أن يكون قد ألف في التاريخ وأن يكون مؤلفه هو المعروف بتاريخ بن الشيخ أمر خصوصا إذا علمنا أن لقب الشيخ أمر لقب أطلقه المرحوم ولد حامد على الفقيه الحاج أمر والد سيدي محمد المذكور، ونشير إلى أن سيدي محمد بن محمد الصغير كما في ضالة الأديب^٥ استشفى له عند مرضه بقصيدة رائعة من بحر البسيط، فقال:

يا عسر مالك عش عندنا فجع عنا ولج يال صباح اليسر وانبلجي
ويا نسيم الشفاء أهب بلينة واسبيلي يا ديمة الفرغ
ويا مزاج اعتدل حتى تعود كما كانت طبيعة جسم بالسقم فج

^١ سيد محمد بن محمد الصغير بن امبوجه المتوفى ١٢٧٥/١٨٥٨ الفقيه القاضي الشاعر العلوي الماسني التشييتي للمزيد عنه يمكن الرجوع إلى مدينة تشيت رسائل وأشعار، مرجع سابق، ص ٧٧ وما بعدها

^٢ يمكن الرجوع في ذلك إلى مدينة تشيت، رسائل وأشعار (مرجع سابق) ص ١٨٧

^٣ هو الطالب احمد بن اطوير الجنة الحاجي الوداني المتوفى في الثاني من شهر رمضان سنة ١٢٦٥هـ / ١٨٤٩م لمعلومات أكثر عنه انظر تاريخ ولد اطوير الجنة تحقيق سيد احمد بن أحمد سالم (مرجع سابق) ص ٢٥ وما بعدها

^٤ المنى والمنة عنوان لكتاب شهير للطالب احمد بن اطوير الجنة ضمنه تفاصيل مشاهداته أثناء رحلته الحجية ١٢٤٥/١٨٢٩ حتى عودته إلى الديار الشنقيطية ١٢٥٠/١٨٣٤

^٥ ضالة الأديب ترجمة وديوان سيدي محمد بن محمد الصغير بن امبوجه التشييتي، تأليف سيد عبد الله بن سيدي محمد بن محمد الصغير بن امبوجه، تحقيق ودراسة الدكتور أحمد بن الحسن، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الآيسيسكو) ١٤١٧/١٩٩٦، ط١، المملكة المغربية، ص ١١٥

طب يا هواء وزل يا داء وأدلج ويا عضال ارجعا من حيث كنت تجي
إلى أن يقول:

واذن لها في انتشار يا مفرج في داء عضال بجسم الشيخ ممتزجي
قد مسنا الضر فاكشف ضرنا وقتنا يا رحم الراحمين البؤس في الأبجي
إلى آخر هذه القصيدة.

ومن أولاد الحاج أمير نذكر الولي الورع أحمد الحاج دفين "الببيه" وصاحب المزار الشهير شرق مدينة
لعيون، وللحاج أمير عقب في منطقة أزواد تواجدوا أولا في منطقة أروان ثم ما لبثوا أن شكلوا مجتمعا
سيعرف لاحقا بأرقان^١ الغربي.

وتشير مراجعنا التاريخية^٢ إلى أن الحاج أمير هو نواة هذا المجتمع الأولى، حيث وفد إلى أروان عام
وفاة القاضي الطالب سمبير^٣ الأرواني ١١٨٠هـ، وغير بعيد من هذا التاريخ يذكر القاضي الشيخ
محمد محمود الأرواني أن مجيء الحاج أمير إلى أروان كان في زمن الشيخ سيد احمد بن سيد
صالح^٤، ذكر ذلك في كتاب الترجمان^٥، ومن المعروف أن الشيخ سيد احمد بن سيدي صالح حكم

^١ أرقان مجموعة بشرية ذات أرومة نسبية متعددة يتواجدون في وقتنا الحالي في منطقة أزواد بجمهورية مالي إضافة إلى
بعض الأسر الأرقانية المتواجدة في موريتانيا وكان لهم وجود قديم في تشيت وتنقسم أرقان إلى مجموعتين أساسيتين هما
أرقان الشرقي وأرقان الغربي، ويعتبر الحاج أمير بن أحمد المؤسس الفعلي للتجمع الأخير

^٢ ذكر ذلك محمد محمود بن الشيخ الأرواني في كتابه الترجمان (مرجع سابق) وأبي الخير الأرواني في كتابه نبذة من
تاريخ روان

^٣ الطالب سمبير أحد أعلام أروان وكان قاضيها توفي كما ذكرنا ١١٨٠هـ ومعنى سمبير بلهجة سونغاي الرجل الكبير
للمزيد عنه يمكن الرجوع إلى أبي عبد الله الطالب محمد بن أبو بكر الصديق البرتلي الولاتي في كتابه فتح الشكور،
تحقيق محمد ابراهيم الكتاني عضو أكاديمية المملكة المغربية، ومحمد حجي عميد كلية الآداب بالرباط، ط١،

١٤٠٢/١٩٨١ دار الغرب الإسلامي، ص٧٤

^٤ ترجمنا له سابق

^٥ الترجمان في تاريخ الصحراء والسودان وبلاد تمبكتو وشنقيط وأروان، هو كتاب في التاريخ من تأليف القاضي محمد
محمود بن الشيخ الأرواني

أروان من ١١٣٤هـ إلى ١١٨١هـ، ويتفق هذا أيضا مع ما ذكره الشيخ أبي الخير بن عبد الله في كتابه نبذة من تاريخ أروان.

ويذكر صاحب الترجمان أميرا من أمراء أرقان الغربي من أبناء الحاج أعمر وهو محمد جدو بن جد أهل، كما ذكر بول مارتية^١ أميرا آخر من أمراء أرقان من أبناء الحاج أعمر هو جد أهل بن أحمد ديدة، ومن المعلوم أن الحاج أعمر انتقل في أخريات أيامه من تشيت إلى أروان وتزوج من أهلها وخلف بها ولدان هما المختار ومولود ومنهما ينحدر أبناء الحاج أعمر في منطقة أزواد، وقد توفي عنهما وهما في سن الطفولة، وقبره في أروان معلوم المكان يزار^٢.

وقد خلد الأزيرون^٣ الأوائلي تشيت الجد الجامع لهذه الأسرة حين استقر به المقام بين ظهرانيهم في ما يعرف في أدبياتنا المحلية ب"التمجيدة"^٤ والظاهر أنه تولى القضاء في تشيت بدليل ما ذكره في هذه التمجيدة^٥ الأصيلة والعريقة، والتي هي بلهجة أزيرو، وهذه التمجيدة هي: مقنكل مقنفاه، أرمام أرمام آل النبي سبينه القائل^٦.

١ بول مارتية: من عرب مالي البرابيش (بنو حسان)، دراسة وتحقيق محمد محمود ودادي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، ١٤٠٥ . ١٩٨٥، ط١

٢ يوجد قبر الحاج أعمر بن أحمد قبالة قبر الشيخ سيد احمد آكاد في أروان

٣ أزيرو مجموعات تتحدث الأزيروية وهي مزيج من السنوكية والبربرية وهي لهجة بائدة انقرض معظم مفرداتها وكانت هذه اللهجة متداولة في القصور الموريتانية القديمة كولاته وتشيت وودان وشنقيط

٤ التمجيدة: ملحمة اجتماعية فخرية تتضمن في العادة نسب ومآثر المعني بها وهي معروفة في المجتمعات الصحراوية
٥ فعلا تولى أحمد (القاضي الفقاري) مهنة القضاء في تشيت أنظر فتح الشكور، ص٧٤، وضالة الأديب ص١١٥، (مرجعان سبق ذكرهما)

٦ مقنكل: بكاف معقودة ومعناها بالأزيروية البستان، ومقنفاه: تعني النخيل، ذكر د. حماد الله ولد السالم في كتابه تاريخ بلاد شقينط ص٤٢٥ أن كلمة أفقارن تعني ملاك قنوات الري (فتأمل) أما كلمة أرمام أرمام فتعني الإبن، يقول احميتي في نظمه المفسر لكلام أزيرو:

اسم السماك والابن رما ورجل يدعونه بما

ويمكن الرجوع أيضا إلى الخليل النحوي المنارة والرباط، ص٤١ والتي بعدها

فهذه التمجيدة اسم ووسم خاص بهذه العائلة في مجتمع أزيز دون غيرهم، والاسم الجامع الأصلي لهذه الأسرة قبل نقرعها هو أهل الشيخ حمى الله على أن بعض المصادر التاريخية تذكرهم باسم أهل الشيخ الظالع وأحياناً الضالع وأحياناً أخرى الشيخ الصالح، وكلها تسميات أطلقت على هذه الأسرة حسب مراجع نذكر منها على سبيل المثال حوليات تشيت^١، وتاريخ الطالب احمد بن اطوير الجنة^٢، هذا إضافة إلى وثائق المعاملات الأهلية^٣ في تشيت، ولهذه الأسرة تاريخ حافل احتفظت به الذاكرة الشعبية لتتشيت أزيز وما بعدها فكان منهم العلماء والفقهاء والقضاة والأعيان وأصحاب المشورة والرأي والنفوذ، وإلى هذه الأسرة ينتسب القاضي الفقاري^٤ (القاضي أحمد) أو (القالل)، كما هو معروف عندهم وتعني بكلام أزيز القاضي وبه يمر السند الخليفي في بلادنا وذلك على النحو التالي:

أيده القاسم الوداني^٥، فأبو الأوتاد الحنشي^٦، فأبو بكر بن أحمد بن الشقه المسلمي^٧، فالقاضي الفقاري، إضافة إلى كونه كان شيخاً لشيخ مشايخ علماء تشيت الحاج لحسن بن أغبدي الزيدي^٨، ولا نكاد نجد

والقالل: تعني هي الأخرى القاضي

^١ مرجع سبق ذكره

^٢ مرجع سبق ذكره

^٣ هي الوثائق التي كان الأهالي يدونون فيها كل ما جد في حياتهم كوثائق العقود والمعاملات

^٤ القاضي الفقاري هو الفقيه أحمد وهو أحد أجدادي أسرة الفقارية في تشيت (أهل الشيخ الظالع) ويسمى أحياناً قاضي تشيت وقد تولى القضاء فيها خلال الربع الأخير من القرن الحادي عشر الهجري السادس عشر الميلادي، وقد أخذ عن أبي بكر بن أحمد بن الشقه المسلمي وعنه هو أخذ الحاج لحسن بن أغبدي الزيدي لمعلومات أكثر أنظر فتح الشكور للبرتلي وضالة الأديب لابن امبوجه النيشني، وكذا ابن حامد في الحياة الثقافية ص ٢٠٢

^٥ هو سيد احمد بن أيديه القاسم الوداني الحاجي اليعقوبي (ومعنى أيده بالصنهاجية ابن) شيخ أسانيد الفقه في المدارس الحضرية المحظرة موريتانيا للمزيد عنه انظر البرتلي ص ٤٠، وضالة الأديب ص ١١٥ (مرجعان سبق ذكرهما)

^٦ أبو الأوتاد الحنشي هو أحد أعيان أهل الطالب هام وهو عالم جليل عاش ما بين القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين وهو أول من جاء بمختصر الشيخ خليل إلى تشيت

^٧ أبو بكر بن أحمد بن الشقه المسلمي التشيتي ترجم له البرتلي، بيروت، ص ٧٤، وأثنى عليه بالعلم والعمل وقال: (قرأ مختصر خليل على الفقيه سيد احمد ابي الأوتاد الحنشي ويقال إنه صار أعرف بالمختصر من شيخه)، ترجم له ابن حامد ترجمته في الحياة الثقافية، ص ٢٠٢، ونكر أنه توفي يوم الأربعاء ١٦ رجب عام ١٠٣٩ هـ

لهذا الشيخ ذكرا رغم كونه قامة علمية شامخة، على خلاف ما كان ينبغي فمثله يعتبر مظنة الاهتمام الباحثين والدارسين، وقد تولى رحمه الله القضاء في تشيت خلال الربع الأخير من القرن الحادي عشر الهجري ومن الراجح أنه توفي بها.

وقد نعتت هذه الأسرة (أهل الشيخ الظالع) في العديد من مصادر تاريخ المنطقة بأوصاف محمودة نذكر من ذلك ما أورده صاحب فتح الشكور أثناء ترجمته لأبي بكر بن عبد الله بن أحمد بن الشيخ الظالع الفقاري قال: "وبيته بيت علم وصلاح ودين"^٢.

ويتطابق هذا الوصف إلى حد بعيد مع الوصف الذي وصف به القاضي محمد محمود بن الشيخ الأرواني في كتابه الترجمان هذه الأسرة أثناء حديثه عن الحاج أعر في منطقة أراوان، فقد كتب هذا الشيخ واصفا الأسرة ب: (أهل الفضل والصلاح)، ومن أعلام هذه الأسرة أبو بكر بن عبد الله الملقب ببيانا، وقد ترجم له صاحب فتح الشكور ترجمة وافية على النحو التالي:

" أبو بكر بن عبد الله الملقب ببيانا بن أحمد الفقاري رحمهم الله تعالى، كان رحمه الله تعالى مفسرا للقرآن محدثا فقيها يدرس ألفية ابن مالك ويحفظ مقامات الحريري في اللغة ماها في العربية له حظ في المعاني والبيان والحساب والتنجيم شاعرا متوسط الشعر اشتغل في العلم من صغره وأول شبابه ما رآه أحد من أهل العلم وتذاكر معه في العلم إلا تعجب من فهمه وحفظه واستحضاره لما يعرفه من الفنون، وكان رحمه الله تقيا لما وقعت الفتنة في تشيت فر بدينه إلى البادية إلى قرب وفاته ارتحل منها راجعا لتشيت بيته بيت علم وصلاح، ودين، شرح ألفية الفقيه حمى الله بن محمد الأمين التشيتي الحنشي التي في ضبط الأسماء والأفعال المشتبهة الشكل، كما شرح مختصر خليل أخذ عن الشريف حمى الله بن أحمد بن الإمام رحمه الله تعالى، وأخذ عنه هو الشريف امحمد بن الإمام رحمهم الله تعالى ولعل الفرار من كل ما من شأنه إثارة الشحنة والبغضاء صفة لازمت هذه الأسرة أينما حلت

^١ الحاج لحسن بن أعبيد الزيدي (١٠٦٥ - ١١٢٣هـ) شيخ علماء تشيت المؤلف المفتي فعليه مدار الفتوى في الفقه المالكي في بلادنا، انظر فتح الشكور (مرجع سبق ذكره) ص ٨٧، وضالة الأديب (مرجع سبق ذكره ص ١١٤)

^٢ فتح الشكور، مرجع سابق، ص ٨٧

وارتحت (افريك الجنة)^١، ومن جيد شعره قصيدته الطويلة التي رثى بها أبا بكر بن الطالب هامة^٢ ومطلعها:

فصبرا آل بكر في قضاء به قدما قضى رب السماء
توفي هذا العلامة ١٢٠٩هـ / ١٧٩٥م، ولحد الآن تعتبر مؤلفاته في عداد المفقود.

المكانة العلمية للحاج أمير التشيتي:

لابد أن نسجل هنا أن كثيرا من المعلومات والمؤلفات التي تخص هذا الشيخ لا تزال مطمورة، وما دراسته وشيوخه عن ذلك ببعيد، فمصدرنا لا تزودنا بشاف عن ذلك، إلا أنه من الوارد جدا أنها قد شملت حفظ القرآن ودراسة المتون الدينية واللغوية جريا على عادة أهل زمانه وقصره، ومن مؤلفاته نظم شيق في التاريخ استكشفه أخونا الدكتور الباحث سيد احمد بن أحمد سالم^٣ في مخطوطات المكتبة الوطنية بباريس وسماه تاريخ بن الشيخ أمير، لعله نفس المخطوط الذي استكشفه المختار بن حامد^٤ واشتغل عليه وأحال إليه عدة مرات وسماه بتاريخ الشيخ أمير التشيتي.

والحق أنه من تأليف الحاج أمير بدليلين لم يعد الشك معهما ممكنا فقد جاء في حوادث ١٢١٦هـ من هذا التأليف:

شرب حزنا من له عقل لما سار الوجيب لديار الكرما
بيوم كط من ربيع الثاني بعام يرش سار للرحمان

^١ افريك الجنة بكاف معقودة كلمة عامية يرادفها بالفصحى المبالغة في حسن أخلاق وجوار القوم

^٢ أبا بكر بن الطالب هامة هو أحد أعيان قبيلة أهل الطالب هامة البكرية التي سكنت تشيت قديما انظر الجزء الجغرافي من موسوعة المختار بن حامد منشورات معهد الدراسات الإفريقية بالرباط، ط١، بيروت ١٤١٤/١٩٩٤م

^٣ سيد احمد بن أحمد سالم هو أحد القامات العالية في كتابة التاريخ تأليفا ودراسة وتحقيقا في موريتانيا وهو أستاذ جامعي وباحث أكاديمي

^٤ المختار بن حامد أحد أعيان قبيلة أولاد ديمان الموريتانية وهو الأب الشرعي للتاريخ الموريتاني المعاصر ولد سنة ١٣١٥هـ / ١٨٩٩م وتوفي رحمه الله يوم ٢٢ يونيو ١٩٩١م ودفن بالبقيع، لمعلومات أكثر يمكن الرجوع إلى حوادث السنين (مرجع سبق ذكره) ص ١٣ وما بعدها

محمد الحبيب أعني عمنا أتحفه بالرضوان يا إلهنا
فمحمد لحبيب^١ بن أحمد بن الشيخ الطالع وقد ذكر النظم أن وفاته في التاسع والعشرين من ربيع
الثاني عام ١٢١٦هـ بحساب الحروف، وقد جاء في تاريخ ابن اطوير الجنة أنه في سنة ١٢١٦هـ
كانت وفاة محمد لحبيب بن أحمد بن الشيخ الطالع، فمحمد لحبيب هو عم الحاج أمر كما هو واضح
في هذا النظم.

أما الدليل الثاني فهو استبعادنا أن يكون أحد أبناء الحاج أمر قد أدرك التلمذة على محمد بن أحمد
بن الطالب الأمين الحبيب الحرشي، فقد ذكر مؤلف هذا النص في حوادث ١١٦٦هـ ما نصه: " وسيد
محمد بن أحمد بن شيخنا الطالب الأمين^٢ بن الطالب الحبيب الحرشي، توفي لثلاث بقين من شعبان".
وبما أن المؤلف قال عن الطالب الأمين لفظ شيخنا يبقى من المستبعد جدا أن يكون أحد أبناء الحاج
أمر أخذ عن الطالب الأمين بن الطالب لحبيب الحرشي لأنه توفي سنة ١١٦٦هـ / ١٧٥٣م، وأولاد
الحاج أمر توفوا جميعا في القرن الثالث عشر الهجري.

وهنا نقطع الشك باليقين وننتقل إلى تقديم هذا النص مسطين الضوء على أهم ما ورد في ثناياه من
وقائع وأحداث كانت لها قيمتها التاريخية وأثرها المباشر في الأوضاع العامة للبلاد والعباد في هذه
البقاع والأصقاع النائية من بلاد الإسلام في الصحراء وعلى مشارف بلاد السودان بأرض تكرور^٣،
فالنص من حوليات منطقة تكانت وقد أتاحت منه نسخة كانت بين يدي المرحوم ولد حامد وقد أخذ
منه وأحال إليه مرات عديدة باسم تاريخ الشيخ أمر التشيتي.

^١ هو الطالب محمد بن أحمد بن الشيخ الطالع وهو عم للحاج أمر بن أحمد بن الشيخ الطالع

^٢ الطالب الأمين بن الطالب لحبيب الحرشي اشتهر بالولاية والسبق في علم التوحيد ومعرفة رسالة ابن أبي زيد القيرواني
توفي رحمه الله في يوم ٢٦ من صفر الآخر عام ١١٦٦هـ للمزيد عنه يمكن الرجوع إلى فتح الشكور (مرجع سابق)
ص ٦٤ وما بعدها

^٣ بلاد التكرور هو في الأصل اسم إمارة سودانية كانت عاصمتها تقع على ضفة نهر السنغال غير بعيدة عن مصبه
وتوسع المشاركة في إطلاق عبارة تكرور على كل إفريقية المسلمة للمزيد راجع فتح الرب الغفور في تواريخ الدهور ج ٢،
تاريخ التكرور من بلاد أقصى المغرب، (مرجع سبق ذكره) ص ١٢٩

والحوليات كما هو معروف هي تلك التأليف التاريخية التي تعتمد تسجيل الوقائع والأحداث مرتبة ترتيباً زمنياً دقيقاً حسب السنوات دون التقيد في أغلب الأحيان بالتفاصيل الجزئية لكل حدث أو واقعة، وهذا النص هو عبارة عن نظم مكون من ١١٠ بيتاً من الرجز الغاية في الروعة، وهو بخط مغربي جميل ومتوسط عدد الأبيات في الصفحة الواحدة هو ١٨ بيتاً، وعدد الصفحات هو ست صفحات، وأول حدث سجله هو فتح بلاد التكرور^١ وأرض السودان^٢ والبربر^٣، وآخر حدث سجله هو وفاة سيد عبد الله بن الحاج ابراهيم^٤، وقد تضمن المؤلف معلومات تاريخية لها أهميتها القصوى وتأثيرها المباشر على المنطقة مثل الحملة السعدية^٥ فسقوط تيمبكتو^٦، فانهيار دولة سونغاي^٧، فحكم الباشوات^٨، إضافة إلى جولات الرماة^٩، وصولاتهم داخل ديار بلاد التكرور، كما ذكر التتكيل الذي عاناه العلماء وفي مقدمتهم

^١ عرفنا بها قبل قليل

^٢ تطلق بلاد السودان على افريقيا جنوب الصحراء، وقد عرفنا بها سابقاً

^٣ البربر قبائل شتى من حمير ومضر والقبط وكنعان والعمالقة اجتمعوا بالشام فلقطوا فسامهم افريقيش البربر وقد عمروا شمال افريقيا منذ أمد بعيد

^٤ سيد عبد الله بن الحاج ابراهيم ١١٥٢ هـ ١٨٣٣م ابن الإمام محنض احمد العلوي علامة ذكره واسع الانتشار اشتهر بمؤلفاته العديدة وتفرغ لطلب العلم ما يقرب من ٤٠ سنة راجع عنه حوليات تجكجه وأحمد بن الأمين الشنقيطي في كتابه الوسيط ط

^٥ هي حملة عسكرية على منطقة السودان في عهد الملك السعدي المغربي المنصور الذهبي وقد تمكنت من السيطرة على مملكة سونغاي ودخول عاصمتها تيمبكتو بقيادة الباشا جؤذر قائد هذه الحملة سنة ١٠٠٢ هـ ١٥٩١م

^٦ تقع تيمبكتو حالياً في أراضي جمهورية مالي وكانت في الماضي جزء من وحدة جغرافية وثقافية وفكرية نعرف بالمجال البيظاني أو تراب البيظان ويعود تأسيسها الأول إلى القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي على يد قبيلة أمقجرن من نبلأ الطوارق المسوفيين

^٧ هي إمبراطورية عظيمة حكمت منطقة السودان لقرون عديدة وكانت عاصمتها كما أسلفنا تمبكتو وكان آخر ملوكها الحاج آسكيا محمد

^٨ الباشا كلمة تركية وتعني الوالي وقد تم استخدام هذا المصطلح على نطاق واسع في عهد الامبراطورية العثمانية التي حكمت العالم العربي والإسلامي لقرون متتالية

^٩ جمع رام وهو مصطلح يطلق على الجيش السعدي الذي أدخل البنادق النارية إلى السودان لأول مرة

العلامة أحمد باب^١ الماسني التنبكتي، وما رافق تلك الحملة من فراغ أمني كانت له مخلفاته الثقافية والعلمية والاقتصادية بعد انهيار الكيانات المحلية. وكذلك تضمن هذا النص ذكر تأسيس العديد من الحواضر والقصور لعل من أهمها تمبكتو^٢، وأروان^٣، ثم تدرج إلى أهم الوقائع والحروب الداخلية التي عاشتها المنطقة بدءا بوقعة بطحة^٤ ولاته وقد ذكر، هذه الوقائع بشيء من التفصيل الذي لا يخلو من دقة وقبل أن ينهي حديثه عن الوقائع الداخلية والصراعات والحروب الدامية التي عرفتها هذه البلاد السائبة^٥. ذكر الكثير من الوقائع كيوم "أغرنگ"^٦، ويوم "كغيفه"^٧، وقتال أهل القصر^٨، وكذلك أهل شنقيط^٩، والقائمة تطول...

^١ أحمد باب بن أحمد بن عمرو بن محمد أقيت بن عمرو بن علي بن يحيى الصنهاجي المسوفي الماسني، ولد بتمبكتو ليلة الأحد ٢١ من ذي الحجة عام ٩٦٣هـ الموافق ٢٦ تشرين الأول أكتوبر ١٥٥٦م وتوفي ٠٦ شعبان ١٠٣٦هـ ٢٢ نيسان ابريل ١٦٢٧م للمزيد عنه يمكن الرجوع إلى فتح الشكور مرجع سابق، ونزال حمى الله التشيتي جمع وتحقيق الدكتور محمد المختار ولد السعد مطبعة دار القلم للطباعة والنشر، دمشق، ط١، ١٤٢١هـ

^٢ عرفنا بها سابقا

^٣ تم التعريف بها سابقا

^٤ البطحاء أرض رملية منخفضة الشكل وهي مجرى مائي وقد وقعت هذه الواقعة سنة ١١٤٢هـ/١٧٣٠م وهي من معارك أولاد داوود محمد الداخلية للمزيد عنها يمكن العودة إلى حوادث السنين، مرجع سابق، النص المحقق، ص ١٠٤

^٥ اسم أطلقه الشيخ محمد المامي وهو أحد أعلام هذه البلاد على ما يسمى اليوم بموريتانيا

^٦ موضع على الحدود الموريتانية المالية وتحديدا شمال مقاطعة النواره وهو موقع أغار فيه أولاد امبارك على السودان،

أنظر الجزء الجغرافي لولد حامد، ص ١٢٢، مرجع سبق ذكره

^٧ موضع بلعصابه بين كرو وكامور به وقعة بين أولاد لغويزي بعضهم ضد بعضهم سنة ١١٤٩هـ انظر تاريخ ابن

اطوير الجنة، ص ٥٨، الإحالة ٨٧، وتاريخ ابن الطالب الصغير

^٨ قتال أهل القصر يعني قتال أهل تشيت بطرفيها الشمالي ممثلا في أبناء الشريف عبد المومن وأبناء محمد مسلم من

جهة والجنوبي ممثلا في ماسنه وحلفائها من جهة أخرى، ذكرت حوليات تشيت في حوادث ١١٥٧هـ أن ماسنه كسرت

دور أهل الإزاء الشمالي

^٩ مدينة تاريخية تم التعريف بها سابقا

ثم تناول المؤلف بعد ذلك التأريخ لوفيات أعيان هذه البلاد وغيرها وقد بدأهم بذكر وفاة يوسف بن تاشفين^١ القائد المرابطي الشهير، فالشريف أحمد الذهبي^٢، فأحمد باب التبتكتي^٣، وأحمد الحك^٤، والطالب محمد عم المؤلف^٥، وغيرهم كثير، كما ذكر النص العديد من الشخصيات التي اكتفى بذكر بعض المعلومات عنها، كالميلاد والذهاب إلى الحج والقدوم منه، وفي حقيقة الأمر فإن هذا التأليف لسانا لحالة عامة عاشتها المنطقة في وقت من أحلك أوقات تاريخها السياسي، وفي ذروة أزمات اقتصادية متتالية عصفت أو كادت ببنية المجتمع الأهلي في ذلك الوقت نتجت عنها أزمات متتالية في جو تسوده السيبة والأوبئة والجفاف، فهو إذا تعبير عن حالة معينة من لحظات التاريخ البشري التي تعرفها الأمم في أوقات كهذه.

ولم يصرح المؤلف إلا بمصدر واحد من مصادره هو الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي، قال المؤلف:

وبعد هاك نبذة عتيدة للطالبيين علمها مفيدة
منها بالاختصار مما قد جمع نجل الصديق مع زيد ما وقع
نقلا صحيحا أو عيانا أرتجي عفوا من الله قريب الفرج
فالنقل الصحيح والمعينة هي أهم مصادره، مما قد يجعل للنص معنا كبيرا وحظا وفيرا من المصادقية
فليس من رأى كمن سمع، وقد ختم الناظم مؤلفه بتنبيه جيد ذا مرجع ديني ينبئ عن مشاغل واهتمامات
دينية واضحة تستمد من الإخلاص لله الكريم قوتها وأمانتها في التعامل مع الخلق والخالق.

^١ هو أمير المؤمنين وباني مراكش القائد المرابطي الشهير

^٢ أحد أعيان الأسرة السعدية التي حكمت المغرب الأقصى لفترة طويلة من الزمن

^٣ تم التعريف به

^٤ أحد أعيان قبيلة لقلال، للمزيد عنه يمكن الرجوع إلى فتح الرب الغفور في تواريخ الدهور، ج ٢، تاريخ التكرور من بلاد أقصى المغرب، النص المحقق، مرجع سابق

^٥ تم التعريف به

ويبدو أن التأليف في التاريخ عادة حافظت عليها هذه الأسرة فنجد ابن محمد الأمين بن الحاج أمير (حفيد الحاج أمير) قد ألف كتابا سماه وفيات الأعيان بحوزتنا جزء معتبر منه، ولا يزال هذا الكتاب مخطوطا، ولا يبتعد كثيرا عن سابقه لا في الزمان ولا في المكان ولا حتى في طبيعة المنهج التاريخي الموظف لتدوين الأحداث وترتيبها فهو نص حولي بامتياز من نصوص حوليات تكانت وتحديدًا تشيت، كما أشرنا إلى ذلك وهو نص نثري ومؤلفه لم يسمي نفسه لكنه ذكر أنه ابن محمد الأمين بن الحاج أمير حيث قال في أحداث العام ١٢٨٠هـ: (وفي ليلة الخميس ثامن عشر من ربيع النبي العام الموفي ثمانين بعد المائتين والألف من هذا العام وقعت فيه وفاة المرحوم بكرم الله تعالى والدنا محمد الأمين بن سيد محمد بن الحاج أمير).

فهو إذا أحد أحفاد الحاج أمير كما ذكرنا، وقد سمي مؤلفه بوفيات الأعيان، وأول حدث دونه هو وفاة أم المؤمنين السيدة عائشة^١ رضي الله عنها ثم دون بعد ذلك وفاة خليل ابن إسحاق رحمه الله، وآخر حدث سجله هو وقوع الخلاف بين اترارزه^٢ ورئيسهم^٣، ويتكون النص من تسع صفحات تضم ما يقارب مائتي سطر، أي ما يعادل ٢٢ سطرا في الصفحة الواحدة، كما أنه لم يكن لناسخ واحد وقد كتبت

^١ عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها بنت أبي بكر الصديق بن بني تيم من قريش

^٢ فقيه مالكي ينسب إليه تأليفه (المختصر) من أهل مصر توفي ٧٦٧هـ.

^٣ اترارزه قبيلة من أشهر قبائل المغافرة وهم بنو تروز بن هداج بن عمران بن عثمان بن مغفر تمكنوا من تأسيس إمارة قوية تكاد تغطي منطقة الكبله المعروفة في موريتانيا وكان بيت الإمارة في أولاد أحمد بن دمان وخاصة ذرية علي شنظورة بن هدي بن أحمد بن دمان وأول أمراء هذه الإمارة هدي بن أحمد بن دمان المتوفى سنة ١٠٩٥هـ/١٦٨٤م، للمزيد يمكن العودة إلى كتاب التكملة في تاريخ اترارزه وجزء بني حسان من موسوعة حياة موريتانيا للمختار بن حامد، وإمارة اترارزه لبول مارتيه

^٤ هو محمد لحبيب بن أمير بن المختار بن الشرقي بن علي شنظورة الأمير الثاني عشر من أمراء أولاد أحمد بن دمان دامت إمارته زهاء ٤٠ سنة قبل أن يموت غدرا ليلة ٢٧ صفر ١٢٧٧هـ/ ١٥ سبتمبر ١٨٦٠م عندما تأمر عليه أبناء إخوته فاغتالوه عند موضع الدواره شرق انواكشوط، يمكن الرجوع في ذلك إلى كتاب الوسيط في تراجم أدياء شنقيط لمحمد بن الأمين الشنقيطي، ص ٤٨٢، وما بعدها، والمختار بن حامد في التاريخ السياسي، ص ١١٦، والجزء الجغرافي له، ص ٥٧٩

صفحته الأولى بخط مغربي في منتهى التناسق والحسن، وقد أرخ المؤلف في هذا المخطوط لكثير من علماء هذه البلاد وأعيانها وأمرائها ازديادا ووفاء، انتصارات وانكسارات، نذكر منهم على سبيل المثال الحاج ابراهيم^١، والطالب المصطفى القلاوي^٢، والشيخ السيد التنواجيوي^٣ (شيخ القراء سيدي عبد الله التنواجيوي)، وسيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم^٤، وأحمد دي بن بكار بن أعمرو، والشيخ سيدي محمود^٥، ومحمد شين^٦، والشيخ بن أحمد بن عثمان^٧، هذا بالإضافة طبعا إلى ذكر الوقائع الشهيرة كأم

^١ الحاج ابراهيم: هو الحاج ابراهيم بن الإمام عبد الرحمن بن الإمام محمد احمد العلوي والد العلامة سيد عبد الله بن الحاج ابراهيم اشتهر بالزهد والعلم له إجازة في الحديث من شيخه سيد عبد الله بن محمد بن القاضي المشهور بابن رازكه، وتوفي رحمه الله سنة ١١٥٧هـ عائدا من الحج عن عمر ناهز ٤٥ سنة للمزيد عنه راجع مثلا: حوادث السنين النص المحقق، وتاريخ التكرور من بلاد أقصى المغرب، ص ١٨٠

^٢ الطالب المصطفى بن الطالب عثمان بن المختار بن يعقوب بن أحمد القلاوي الأحمدي (فرع أولاد أحمد)، كان وليا رحمه الله، تقيا صالحا نقيا سنيا، فاضلا فارا بدينه من الفتن وكان من أهل الفقه، ذكر صاحب فتح الشكور أن وفاته كانت ليلة الاثنين بعد المغرب السابع من ربيع الثاني ١١٣٩هـ الموافق ٠١ دجمبر ١٧٢٦م، راجع عنه فتح الشكور، والجزء الثقافي لولد حامد

^٣ الشيخ التنواجيوي: وفي تاريخ ولاته توفي العالم العلامة الفقيه القارئ سيد عبد الله التنواجيوي، هو سيدي عبد الله بن أبي بكر عالم وقارئ ورحالة سافر إلى جنوب المغرب فوجد سيد احمد لحبيب اللمطي السجلماسي فتتلمذ عليه وأجازه في القراءات السبع توفي رحمه الله سنة ١١٤٥هـ

^٤ سبق التعريف به

^٥ أحمد دي بن بكار بن أعمرو بن محمد بن خونه الإدوعيشي قائد لامع وزعيم كبير من قبيلة إدوعيش المشهورة ينحدر مباشرة من الأمير بكار بن أعمرو، يذكر أنه من شجعان قبيلته وأبطالها وقد ترجم له سيد احمد بن أحمد سالم أثناء تحقيقه لحوادث السنين ترجمة وافية يمكن العودة إليها في الصفحة ٢١١

^٦ الشيخ سيدي محمود شيخ جليل وصالح فضيل عم نفعه وشاع ذكره وعلا صيته فتجمع الناس حوله من زوايا وحسان وغيرهم ومنه أخذت قبيلة أهل سيدي محمود اسمها مع أنهم لا ينحدرون جميعا منه واسمه سيدي محمود بن الطالب المختار بن عبد الله بن أبجه المشهور بلمرابط سيدي محمود علما وهو أحد أعيان وأشياخ بطن إدولحاج، أخذ العلم عن الطالب مصطفى القلاوي حيث ترك موطنه الأصلي (وادان) واستقر به المقام في قصر السلام وهو دفين وادي البركة قرب القدية، راجع عنه فتح الشكور ص ١٣٧، الترجمة ١٢٤

أعبانه^٣، و"أتواجه"^٤، وحصار "لحنيكات"^٥، وحصار "لكليتات"^٦، ووقعت "آكنيتير"^٧، وغيرها من الوقائع كثير.

وذكر أوبئة كالجدي وكوارث طبيعية كسيل حفار^٨، وحوادث فلكية ككسوف الشمس، فالنص في عمومه نص وثائقي بامتياز فهو وثيقة وكنز معرفي نادر يعبر عما آلت إليه الأمور في هذه البوادي السائبة من اضطراب وفوضوية، وما عانته الساكنة من ويلات الغضب وإكراهات التسلط والسلب

^١ محمد شين: محمد شين بن بكار بن أعر بن محمد خونه الإدوعيشي رابع أمراء إدوعيش تربع على عرش الإمارة من (١١٧٥ - ١٢٠٢هـ / ١٧٦١ - ١٧٨٨)، كان من أهل الاستقامة والأخلاق الرفيعة للمزيد عنه، راجع سيدي ولد الزين في كتابه النسب، وجزء إدوعيش، حياة موريتانيا للمختار بن حامد

^٢ الشيخ بن أحمد بن عثمان التتواجيوي: هو الشيخ سيد المختار بن عثمان بن أحمد بيتيت ترجم له صاحب فتح الشكور كان رحمه الله تعالى من عباد الله الصالحين والأولياء المعروفين ذا جد واجتهاد في العبادة وبحب أصحابه، وكثير الآخذون عنه.... للمزيد عنه يمكن الرجوع إلى حوادث السنين وضالة الأديب (مرجعان سابقان)

^٣ أم أعبانه مرتفع جبلي بتيرس الزمور في شمال موريتانيا وقعت به معركة شرسة بين أولاد أدليم ولبراكنه سنة ١١٠٧هـ ويقال إن سبب تسميتها بهذا الاسم عائد إلى كثرة القتلى، يمكن الرجوع في ذلك إلى صالح بن عبد الوهاب في حسوته، وولد حامد في جزئه الخاص ببني حسان

^٤ موضع غرب تجكجه وقعت فيه مواجهة بين إدوعيش وأولاد امبارك مات فيها من أولاد امبارك عثمان بن سيد احمد بن هنون وأخوه محمد، والنيني والخليل أبناء يوسف بن دخنان، أنظر الجزء الجغرافي ص ٢٢، والتاريخ السياسي ص ١٥، مرجعان سابقان

^٥ حصار لحنيكات هي أحنيكات بغداده موضع شرق مدينة تجكجه يبعد عنها ١٢ كم ضرب فيه المغافرة حصارا على إدوعيش في آخر حياة بكار بن أعر بن خونه، وهذه القبائل المغفرية هي أولاد امبارك وأولاد الناصر وأولاد يحيى بن عثمان ولبراكنه وقد تمكن الإيعيشيون من كسر الحصار والخروج من هذا المأزق بما حققوه من نصر مؤزر وحكمة وقدرة على المناورة، للمزيد راجع جزء إدوعيش لولد حامد، والجزء الجغرافي له، ص ٢١٢

^٦ حصار لكليتات: أو اكليتات اشبار موضع قرب أتواجه في واد القدية وقع به حصار تزعمه الأمير محمد بن محمد شين ومعه أولاد الناصر (بخواكه) ضد أعمامه ومعهم لبراكنه وأولاد لغويزي (مكروزه) راجع التاريخ السياسي ص ١٨٥، والجزء الجغرافي ص ٢٢٤ (مرجعان سابقان)

^٧ آكنيتير موضع معروف بتكانت أغار فيه أولاد امبارك على أهل أعلى أمبكه بن اسويد سنة ١٢١٣هـ

^٨ سيل حفار سيل قوي وجارف أتى على الدور والنخيل في تجكجه سنة ١٢٠٠هـ، راجع عنه حوليات تجكجة

والنهب، وما رافق ذلك من انعدام للأمن وانتشار للأوبئة والمجاعات، وما نتج عنه من خسائر بشرية وورزايا مادية ورد ذكرها بقضها وقضيضها في هذا المخطوط.

ولم تقتصر تأليف هذه الأسرة (أهل الحاج أعمر) على التأليف في التاريخ فقط وإنما كانت لها إسهاماتها في حقول معرفية علمية أخرى كالفقه والعقيدة والنحو والتوحيد، كما اشرنا إلى ذلك في بداية عرضنا هذا، وسيقتصر حديثنا هنا على تقديم كتاب سراج التوحيد.

يرجح أن يكون هذا المؤلف من تأليف الشيخ الحاج أعمر الضائعة، فالكثير من القرائن تدل على ذلك مثل التسمية واللقب، والموضع الذي عثر عليه فيه، وكذا تاريخ الانتهاء منه، وسراج التوحيد مخطوط ضخم استكشفه الباحث الشيخ ابراهيم بن آكيه^١ في إحدى المكتبات الأهلية في منطقة الحوض الغربي، وهي منطقة ارتادها وسكنها بعض أحفاد الحاج أعمر إلى يومنا هذا، وهو عبارة عن مخطوط يتضمن نظماً يتألف من ٤٦٥ بيتاً من بحر الرجز تحدث فيه عن العقيدة وعلم الكلام، كما تضمن العبادات والتصوف.

جاء في مقدمة هذا النظم:

قال أبو محمد الأمين عمر وهو نابد للدين
الحمد لله الذي قد شرفا بالدين من للمصطفى قد اقتفى
..... الخ

وقد أسماه سراج التوحيد قال المؤلف:

سميته السراج في التوحيد لأنه يجلو دجي التقليد
وقد نص على أن الفراغ منه كان في العام ١٢٠٢ هـ، ومن الواضح أنه لا يقتصر على قول واحد، وإنما يذكر عدة أقوال في المسألة ثم يبين أقربها للصواب، فمثلاً يقول:

^١ الشيخ ابراهيم آكيه: تقديم ودراسة حول نظم السراج في التوحيد، مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة انواكشوط، العدد ٤١، من ص ٢١٦-٢٣٤

ليس الوجود من ذه الصفات عند الإمام الأشعري هو عين الذات والفخر قد قال بأنها صفة ووفق القولين أهل المعرفة كما يقول في موضع آخر:

واختلفوا في أول الوجوب فقل قصد النظر المطلوب وقيل يكفي النظر الموصل وقيل معرفته والأجمل

وإذا كانت المصادر الكتابية قد تحدثت عن هذه الأسرة أهل الشيخ الظالع (باقتضاب) فإن الروايات الشفوية قد تحدثت عنها بإسهاب، قد لا يتسع المجال هنا للحديث عنه، لذلك نكتفي بما ذكرته مصادرنا ومراجعنا التاريخية عنها، على أن كتابة التاريخ في عمومها كانت نادرة جدا في هذه البلاد، وعلى نطاق ضيق يمكن وصفه بالمعدوم في حواضننا الصحراوية، فمن المعلوم أن جل نتاج هؤلاء المعرفي كان في الفقه وعلومه واللغة وفروعها، ولنتأمل على سبيل المثال ما جاء في مقدمة حوليات تشيت^١ بهذا الخصوص:

(وبعد فإني فتشت وسألت وأنا في قرينتنا تشيت عن كتب التواريخ وهل فيها كتاب مؤلف لتاريخ بناءها ومن كان فيها من العلماء والأولياء وما وقع فيها من وقائع الزمان كما كان العلماء المعتنى بهم يفعلون ذلك في بلادهم فلم أجد فيها شيئا من كتب التواريخ في شأنها إلا شيئا قليلا مكتوبا بعد انتهاء الكتاب المسمى "تنبيه الأنام في علو مقام سيدنا ومولانا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام"، ولم يسمي جامعه نفسه، ولم يكن تأليفا مستقلا ولم يكن لشخص واحد ولم يتكلم إلا في أهل المائة الثالثة بعد المائتين والألف).

وهي ملاحظة أثارت تعجب واستياء الشيخ سيديا باب: (... وكننت أتعجب من علماء هذه البلاد البيطانية الصحراوية المغربية وأدبائها على فضلهم ونبلمهم كيف لم يعتنوا بتاريخها في كتاب معتبر من

^١ مرجع سابق

أول الزمان إلى الآن مع كثرة ما وقع فيها من الأمور الكبار التي ينبغي الاعتناء بكتابتها وكثرة ما كان بها من الأكابر من كل صنف الذين لا ينبغي أن تترك أخبارهم نسيا منسيا على جاللتها..^١ وعلى ضوء ما تقدم تدعوا الحاجة إلى صياغة نظرة مستوحاة من ما هو متاح في هذا العصر حتى نتمكن من تشييد تواريخ تجعلنا ننظر إلى الماضي ونتطلع إلى المستقبل ومن هنا يستحسن أن نتعامل مع مصادرها ومراجعتها بتحفظ واحتراف فالتاريخ الموريتاني لم يكتب حتى وقتنا هذا، ويعود ذلك إلى أسباب عديدة - من وجهة نظرنا . منها ما هو متصل بوضعية تطور المعارف الإنسانية، ومنها ما يرجع لتكوين الوعي التاريخي لدى هذه المجتمعات، وكذلك ما اتسمت به الحياة البدوية في هذه الأصقاع من بدو واضطراب، لذا تبدو كتابة تاريخ هذا البلد مطلب اجتماعي ملح، وحق وطني مشروع، وهو لعمرى هدف عظيم وغاية أساسية لكنه في نفس الوقت يبدو طموحا قد لا يسهل تحقيقه في المدى المنظور على أقل تقدير، فالأمر يتعلق بمجتمعات كانت منتشرة في مجال جغرافي صحراوي في عموم مسالكة لم يعرف أهله تقاليد كتابية ولا حياة حضرية في الغالب الأعم، بل هي قبائل طاعنة تقوم حياتها اقتصاديا واجتماعيا على الرعي والترحال وإن كان لنا أن نستثني النخبة العالمية في المجتمع، والتي يتركز معظم أفرادها بالحواضر التي عرفتها البلاد خلال فترات متتالية من تاريخها، ومن المعلوم أن جل إنتاج هؤلاء المعرفي كما أسلفنا كان في الفقه وعلومه واللغة وفروعها، أما إنتاجهم في علم التاريخ كما مر بنا في بداية عرضنا هذا فقد كان محدودا مقتضبا لا يسعفنا بتفاصيل ذات قيمة مع أنه يشكل مصدرا لا غنى للباحث عنه، ويتميز أغلب هذه الكتابات تقريبا بهيمنة الغائية مما يجعله يفتقر إلى الموضوعية بل وإلى الحياد أحيانا، فهو في حقيقته القصى تعبير صادق عن مواقف من وثقوه، وليس بالضرورة دربا معبدا للوصول إلى الحقيقة، ومن هنا يستحسن أن نتعامل معه بتحفظ واحتراف، لنأخذ وثيقة ما كيف اختيرت الكلمات التي كتبت بها، كيف تظهر

^١ الشيخ سيديا باب بن الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا بن المختار بن هيبه، (١٢٧٧-١٣٤٤) الموافق (١٨٦٠ - ١٩٢٤)، عالم جليل، وشخصية شنقيطية بارزة، كان شديد الذكاء قوي الذاكرة، للمزيد عنه راجع إمارتا إدوعيش ومشظوف من تأليفه وتحقيق الدكتور إزيد بيه محمد محمود، مرجع سابق، ص ١٨ وما بعدها

الوثيقة وقائع وتخفي أخرى، وكيف تصنع الوثيقة صوراً نظيفة لأشخاص وتهمل آخرين، أو تصنع لهم صوراً باهتة أو منحطة انطلاقاً من مكر سياسي محبوب ومدروس، فليس المطلوب من كاتب التاريخ أن يصف الأحداث فحسب، إنما مطلوب منه أيضاً أن يفسرها عن طريق ربطها بما يعتقد أساساً لها بل إنه لابد أن يدلي بآرائه حول ما يعتبره أسباباً أساسية أو ثانوية لها يفسر الكتاب الأحداث بطرق مختلفة حسب انشغالات حاضرهم، وحسب درجة الاهتمام بجزئيات الحدث التاريخي بما في ذلك العلاقة فيما بينهم وبين الحكام، وحسب انتماءاتهم الأسرية والعقدية، لذا تتلون كتابة التاريخ^١.

ويمكن القول إن كتابة التاريخ جزء أساسي من سياسة رجال الدول وكأن امتلاك الدول زمام الملك أيديولوجياً وسياسياً يتوقف على امتلاك الماضي معرفياً ورمزياً:

(أعلم أن فن التاريخ فن غزير المواهب جم الفوائد شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم، وسياساتهم حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا)^٢.

إن معظم تاريخ بلادنا على أهميته بقي أفاصيص تروى ولا غرو والحال هذه أن تختلف الرواية من راوٍ لآخر ومن جيل إلى جيل، وربما أنسى فيها النسيان أو انتقصها أو نالت منها العواطف تضخيماً أو تقزيماً، لذا يتوجس كتاب تاريخنا خيفة من تدوين تاريخ هذا المجتمع البدوي الصحراوي، مجتمع لا يعرف في أوقات كثيرة الفرق بين الماضي والحاضر، وقد يضيق ذرعاً برواية لا تلاءم نظرتهم إلى الأسلاف، لذلك تعتبر كتابة التاريخ في هذا المحيط درياً من التهور والمجازفة، وبطبيعة الحال فإن الطريق أمام من يريد كتابة تاريخ هذا البلد يبدو شاقاً، فالمصادر شحيحة والمتوفر منها تصعب الاستفادة منه دون وجود مؤرخين محترفين، ومن هنا نعتقد أن فهم هذا التاريخ وكتابه تعتمد في

^١ محمد مفتاح وأحمد بو حسن، كتابة التواريخ، تنسيق مطبعة النجاح الجديدة البيضاء، ط١، ١٩٩٩، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

^٢ ابن خلدون، العبر في ديوان المبتدئ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، م١، المقدمة، دار الكتاب العلمية بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٢٧/٢٠٠٦، ص٩

الأساس على دراسة الزمان والمكان والإنسان، إذ لا يمكن فهم الحدث التاريخي خارج هذا الثالوث فالوثيقة تنطق بقدر ما يستتطقها الباحث، وبحسب المعارف والتقنيات الموظفة في القراءات والتحليل والربط، ومن هنا أهيب بباحثينا وأساتذتنا الفضلاء أهيب بهم لإعادة كتابة تاريخ هذا البلد كتابة محترفة تحمل في طياتها الاستقراء في نبش الماضي واستخراج المظمور، وفي حقيقة الأمر فإن هناك العشرات بل المئات من مؤلفات علماء وأعيان هذا البلد الذين يستحقون أن تكتب أسماؤهم بماء الذهب، لا زالت لحد الآن في طي النسيان وبمنأى عن أقلام الباحثين واهتمام المختصين.

خاتمة:

يبدو من المؤكد وتلخيصا لما تقدم أن أسلافنا تمكنوا فعلا من إنتاج ثقافة عالمة راقية في شتى فنون المعرفة، وإذا ما أحسنا التصرف فإنه يمكن لهذه الثروة (الكنز) أن تمكننا من تشييد تاريخ متماسك وحيوي، فتاريخنا لم يكتب بعد وما كتب مبدور يحتاج إلى تدقيق وتمحيص، ولن يكتمل دون استكشاف المظمور.

وبطبيعة الحال فإن من عليهم تجشم عناء كتابة تاريخ هذه الأمة هم أبنائها، وتحديدًا خيرة المثقفين والباحثين ممن تتوفر فيهم المعايير المؤهلة لتلك المهمة الجسيمة والنبيلة في نفس الوقت، كالصدق والأمانة والاحتراف فأكثر المساهمات حتى الآن في هذا المجال تعود في الأساس إلى من هم خارج الاختصاص، الأمر الذي يستدعي غربة وتنقية وتدقيق ما هو مكتوب وهي لعمرى غاية رهينة بوجود مؤرخين محترفين فهم وحدهم القادرون على قراءة سطوره والغوص في أعماقه وتمييز صحيحه من مصحفه.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن خلدون . العبر وديوان المبتدأ والمختبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر .
المجلد الأول . المقدمة . دار الكتاب العلمية بيروت . لبنان . ط٢ . ١٤٢٧ / ٢٠٠٦ .
ابن محمد الأمين ابن الحاج عمر (مخطوط بحوزتنا)

- المختار بن حامد . حوادث السنين . تحقيق وتقديم الدكتور سيد احمد بن أحمد سالم . دار الكتاب الوطنية . هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث . ط٢ . ٢٠١١
- الحاج أحمد بن أحمد بن الشيخ الظالم (تاريخ الحاج أمر التشيتي) . مخطوط بحوزتنا نسخة منه
- محمد محمود بن الشيخ الأرواني . الترجمان في تاريخ الصحراء وبلاد السودان وما جاورها وتينبكتو وأروان (مخطوط)
- الصادق الطالب محمد بن أبي بكر البرتلي الولاتي . فتح الشكور في معرفة أعيان علماء بلاد التكرور . تحقيق محمد ابراهيم الكتاني ومحمد حجي . بيروت . دار الغرب الإسلامي . ط١ . ١٩٨١
- الشيخ بن أبي الخير . نبذة من تاريخ أروان (مخطوط)
- ابن عشاى والشريف بو عسرية . حوليات تشيت (مخطوط بحوزتنا نسخة منه)
- ابن اطوير الجنه الطالب أحمد . تاريخ ابن اطوير الجنه . تحقيق الدكتور سيد احمد بن أحمد سالم . معهد الدراسات الإفريقية بالرباط . ط١ . ١٩٩٥
- ابن امبوجه سيد عبد الله بن محمد الصغير . فتح الرب الغفور في تواريخ الدهور . ج٢ . تاريخ التكرور من بلاد أقصى المغرب . تحقيق وتقديم محمد بن الحاج أمر . أطروحة ماستر للعام الجامعي ٢٠١٧ . ٢٠١٨
- المختار بن حامد . وفيات الأعيان . تحقيق الدكتور سيد احمد بن أحمد سالم وأحمد مولود ولد أيده وآخرون . ط١ . ٢٠٠٣ . مطبعة النجاح الجديدة . الدار البيضاء المملكة المغربية
- ابن امبوجه سيد عبد بن محمد الصغير . ضالة الأديب . تحقيق ودراسة أحمد (جمال بن الحسن) . منشورات المنظمة العربية للتربية والعلوم . ١٩٩٠
- الشيخ ابراهيم بن آكيه . مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية . كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة انواكشوط . العدد ٤١ . ٢٠٢٠
- الشيخ سيديا بن باب . إمارتا إدوعيش ومشطوف . دراسة وتحقيق الدكتور إزيد بيه بن محمد محمود . ط٢ . المعهد التربوي الوطني . شركة الكتب الإسلامية . ١٤١٥/١٩٩٤
- حماء الله ابن سالم . تاريخ بلاد شنقيطي (موريتانيا) . ط١ . ٢٠١٠ . بيروت . لبنان
- المختار ابن حامد . الجزء الجغرافي . منشورات معهد الدراسات الإفريقية بالرباط . ١٤١٤/١٩٩٤
- المصطفى السالك بن محمد . مجلة الثقافة الشعبية البحرينية . فلكور تشيت (مقال) . رسالة التراث الشعبي من البحرين إلى العالم . العدد ١٨ صادر بتاريخ ٠٩/٠١/٢٠١٨

أحمد أبو حسن ومحمد مفتاح . كتابة التواريخ . تنسيق مطبعة النجاح . الدار البيضاء . ط١ . ١٩٩٩ . منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ليلة الصباغ . دراسة في منهجية البحث التاريخي . مطبعة خالد بن الوليد . ١٩٨٠/١٤٠٠
نوازل حمى الله التشيتي . جمع وتحقيق الدكتور محمد المختار بن السعد . مطبعة دار القلم للطباعة والنشر دمشق . ط١ ، ١٤٢١ هـ

بول مارتية . من عرب مالي لبرابيش (بنو حسان) . دراسة وتحقيق محمد محمود ودادي . مطبعة زيد بن ثابت . دمشق . ١٩٨٥/١٤٠٥ . ط١ .

الفقهاء والإصلاح السياسي والإداري في مملكة سنغاي^١
(٨٦٩هـ - ١٠٠٠هـ / ١٤٦٤م - ١٥٩١م)

Jurists and political and administrative reform in the Kingdom of
Singhai² (869 AH-100 AH / 1464 CE-1591 CE)

د. مولاي محمد بن عبد القادر

جامعة وهران أحمد بن بلة، (وهران) - الجزائر

Dr. Moulay Mohamed

^١ - دولة سنغاي أو سنغي أو صنغي أو صنغاي، كما جاءت في المصادر المحلية عند كل من صاحب الفتاش محمود كعت، وتاريخ السودان عبد الرحمن السعدي، وقد أطلق إسم الدولة على شعب السنغاي الذي يسكن المنطقة الوسطى من نهر النيجر، وقد قامت دولة سنغاي بعد سقوط دولة مالي ابتداء من سنة ٨٦٩هـ واستمرت إلى سنة ١٠٠٠هـ / ١٤٦٤م-١٥٩١م، وقد تميزت بفترتين مختلفتين، فترة آل سني واشتهر منهم سني علي الذي سقط على يد أحد قادة جيشيه وهو محمد بن أبي بكر التوري ابتداء من ٨٩٨هـ/١٤٩٣م وأسس دولة سنغاي الثانية وتعرف بدولة الأساكي التي استمرت إلى سنة ١٠٠٠هـ/١٥٩١م. للمزيد ينظر: طرخان إبراهيم، دراسات في تاريخ إفريقية الإسلامية قبل عصر الإستعمار إمبرطورية صنغي الإسلامية، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٩٨١، ص ٧، و. إيهاب شعبان عبد الشافي ، القضاء في دولتي مالي وسنغاي وأثره الحضاري في المجتمع (٦٣٦هـ، ١٠٠٠هـ ، ١٢٣٨م، ١٥٩١م) ، الإفريقية الدولية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ، ط/١ ، ٢٠١٤ ، ص:٢.

² The state of SenghaiOsangiOsangiUsangai, as mentioned in local sources according to both the owner of Al-Fattash Mahmoud Ka'at, and the history of Sudan Abdul Rahman Al-Saadi, and the name of the state was given to the people of Senghai who inhabit the central region of the Niger River, and the state of Singhai was established after the fall of the state of Mali from a year ago. 869 AH and lasted until the year 1000 AH / 1464 CE-1591AD, and it was marked by two different periods, the period of the Sunni family and the most famous among them was a Sunni Ali, who fell at the hands of one of his army commanders, Muhammad ibn Abi Bakr al-Turi, starting from 898 AH / 1493 CE and established the second state of Singai, known as the state of Asaki, which lasted for a year 1000 AH / 1591AD. For more, see: Tarkhan Ibrahim, Studies in the history of Islamic Ifriqiya before the colonial era, the empire of Islamic Senghi, Journal of the College of Arts, University of Riyadh, Kingdom of Saudi Arabia, 1981, p. 7, and IhabShaaban Abdel-Shafi, the judiciary in the states of Mali and Singai and its cultural impact on society (636 AH, 1000 AH, 1238 AD, 1591 AD), Afriqiyah International for Publishing and Distribution, Cairo, Egypt , 1 / 1, 2014, p: 2.

University of Oran 1 Ahmed Ben Bella. (Oran) Algeria

medmoulay24@gmail.com

ملخص

تناولت هذه الدراسة إحدى الأوجه الحضارية لرقعة جغرافية مثلت العمق التاريخي للحضارة الإسلامية (بلاد السودان الغربي)، حيث ساهم في هذا فئة الفقهاء التي اضطلعت بدور إصلاحي للسلطة الحاكمة في مملكة سنغاي شمل النظام السياسي، والجهاز الإداري للدولة مما أنعكس على الحياة العامة للدولة والأفراد، مكن من إستقرارها وازدهارها، ونشر العدل والمساواة بين الراعي والرعية.، حيث برز مجموعة من الفقهاء تحملوا هذه المسؤولية منهم على سبيل المثال لا الحصر: الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي، القاضي محمود بن عمر آقيت، الفقيه أحمد بن أحمد بن عمراقيت، القاضي العاقب بن محمود بن عمر، الفقيه محمود بن أبي بكر بغيغ، الفقيه أباحفص عمر بن محمود، والفقيه أحمد بابا التنبكتي، وغيرهم كثير.

الكلمات المفتاحية: سنغاي، السودان الغربي، الإصلاح الإداري، السياسي، الفقهاء، الإمام المغيلي، القاضي محمود بن عمر، الفقيه أحمد بن عمراقيت، محمود بغيغ، أحمد بابا التنبكتي، غاو، جنى، تنبكتو، الغزو السعدي.

Abstract:

This study dealt with one of the civilizational aspects of a geographical area that represented the historical depth of Islamic civilization (Western Sudan), where the group of jurists that played a reformist role in the ruling authority in the Kingdom of Singai included the political system and the state's administrative apparatus, which was reflected in the public life of the state and individuals. It enabled its stability and prosperity, and the spread of justice and equality between the shepherd and the parish. Where there emerged a group of jurists who took on this responsibility among them, for example but not limited to: Imam Muhammad bin Abdul Karim al-Maghili, Judge Mahmoud bin Omar Aqit, the jurist Ahmed bin Ahmed bin Omar Aqiq, judge Al-Aqib bin Mahmoud bin Omar, the jurist Mahmoud bin Abi Bakr Bagigh, the jurist Abu Hafs Omar bin Mahmoud, the jurist Ahmad Baba al-Tanbakti, and many others.

Key words: Singai, Western Sudan, administrative, political reform, jurists, Imam al-Maghili, Judge Mahmoud bin Omar, jurist Ahmad bin Omar Aqit, Mahmud Bagigh, Ahmad Baba al-Tanbukti, Gao, Jana, Timbuktu, Saadian conquest.

كان لفئة الفقهاء في مجتمع السودان الغربي^١ دور مؤثر تربطهم من خلاله علاقات مختلفة مع السلطة الحاكمة في جميع نواحي الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية ، حيث شغل البعض منهم وظائف عليا وخططا دينية كبرى ، جعلتهم يسهمون بشكل كبير في الجهاز الإداري والسياسي للدولة ، والتي من خلالها سعوا إلى تنظيم حياة الرعية ، ونشر العدل والأمن بينهم .

١ . الفقهاء والنظام السياسي في مملكة سنغاي :

إن المتتبع لدور العلماء في مملكة سنغاي يجد أن هناك ركائز نشأت عليها علاقة العلماء والفقهاء بالسلطة الحاكمة الآخذة في التكوين لاسيما منذ عهد الإسكيا محمد الكبير ، الذي فهم طبيعة هؤلاء الفقهاء ومدى تأثيرهم على مركزه السياسي ، ومن ثم أصبحت العلاقة بين الطرفين علاقة تكاملية ، أدت إلى استفادة كبيرة للعامة ، خاصة وأن العلماء أدوا دور الوساطة بين العامة والسلطة الحاكمة .

لم يكن علماء "سنغاي" على عهد الملك " سني علي"^٢، يُزاعى جانبهم لذا اشتد غضبهم عليه، فما كان من الفقهاء إلا أن انقلبوا على السلطة التي لم تلتزم بأوامر الشرع في العبادات والعبادات

^١ يدخل مصطلح بلاد السودان الغربي في المنطقة الممتدة من بحيرة تشاد شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، ومن حدود الغابات الإستوائية جنوبا إلى حدود الصحراء الكبرى شمالاً، وقد أطلق هذا المصطلح من قبل المؤرخين والجغرافيين المسلمين كإبن حوقل، والمقدسي، والبكري على سكان هذه المنطقة لسواد بشرة أهلها وقد عرفت فيما بعد خاصة في الفترة الحديثة مع بداية الكشوفات الجغرافية ومرحلة الاستعمار الأوربي باسم غرب إفريقيا وهو ما أطلقه الغربيون عليها، وفي وقتنا المعاصر تتقاسمها مجموعة من الكيانات السياسية منها السنغال ومالي وبوركينا فاسو وغامبيا وغانا وغينيا والنيجر والجزء الكبير من نيجيريا والجزء الأكبر من موريتانيا . ينظر: محمد مولاي : العلاقات العلمية بين توات وبلاد الساحل الإفريقي خلال القرنين ١١-١٢هـ/١٧-١٨م ،رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران السانبا، ٢٠١٣-٢٠١٤، ص ص ٣١، ٣٠.

^٢. هو المالك الثامن عشر من أسرة "سني" ، والمؤسس الحقيقي لدولة "سنغاي" ، وقد وصفته الكثير من المصادر المحلية ، منها صاحب " الفتاش في أخبار السودان " محمود كعت : " الظالم الفاجر الملعون المتسلط، الذي سارت الرفاق بقبج سيره ، فلم يترك بلدا ولا مدينة ولا قرية من أرض كنتة إلى أرض سيردك من ممتلكات مالي إلا وقد جرى

الإسلامية، إذ شكّل تسلط "سني علي" على الفقهاء وتكيله بهم سببا لمعارضتهم له^١، وتعاطفا من العامة لفئة الفقهاء على الرغم من محاولة "سني علي" التقرب من العامة، حيث كان يتصدق عليهم بكثير من الذبائح عند المساجد^٢، ولما تولى "أسكيا محمد الكبير"^٣ السلطة عمل على تقريب العلماء والفقهاء، وإجزال لهم الهدايا والعطاء، واستقتائهم في ما يلزمه من أمور السياسة وشؤون الرعية. ومن مظهرية الصراع بين "سني علي" والفقهاء هو ذلك الصدام العنيف الذي وقع بينهما نتيجة قيام بعض الفقهاء بشن حملة كلامية وفقهية ضده وصلت إلى حد التشكيك في إسلامه، واعتبروه مسلما بالاسم، ووثبياً متظاهرا بالإسلام، وسبب هذا الموقف انقلابهم عليه؛ لأنه لم يلتزم بأوامر الشرع. وقد نكل بهم وخاصة عندما أخضع مدينة "تبتكتو" عام ٨٧٣هـ-١٤٦٨م، بعد أن انتزعها من حكامها "الطوارق"، وجعلها العاصمة الثانية لدولته، حيث شكّلت بثقل فقهاءها معارضة سياسة لحكم "سني علي"^٤، مما جعله يعتبر الفقهاء كسلطة موازية تنازعه الملك، وهو ما يتعارض مع تحقيق

خيله فيها، وحارب أهلها وأغار عليهم..."، وقال عنه السعدي صاحب كتاب "تاريخ السودان: الظالم الأكبر"، والفاجر الأشهر "سني علي"، كان ظالما فاسقا، متعديا متسلطا، سفاكا للدماء، قتل من الخلق ما لا يحصيه إلا الله، وتسلط على العلماء والقضاة بالإذلال..."، ينظر: محمود كعت: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظام الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار، نشر هوداسودولافوس، باريس، ١٩٦٤، ص: ٤٣. والسعدي عبد الرحمن: تاريخ السودان، نشر هوداس، باريس، ١٩٦٤، ص: ٦٤١.

١. إيهاب شعبان عبد الشافي، القضاء في دولتي مالي وسنغاي مرجع سابق، ص: ٢١٢.

٢. بطل شعبان محمد فرياني، العامة في دولة سنغاي (٨٦٩هـ، ١٠٠٠هـ-١٤٦٤م، ١٥٩١م)، مذكرة ماجستير في الدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، مصر، ٢٠١١، ص: ٢٢٧.

٣ هو محمد بن أبي بكر التوري ينسب الى قبائل السنغاي كان أحد قواد الجيش عند سني علي مؤسس دولة سنغاي الأول الذي أشتد الصراع بينه وبين الفقهاء، إستغل الفرصة وأنقلب على سيني علي وأعلن قيام دولة سنغاي الثانية لقب بلقب أسكيا واصبحت تسمى بدولة الأساكيا ابتداء من ٨٩٨هـ الى سنة ٩٣٥هـ/١٤٩٣م-١٥٢٨م ينظر: الأحمر أسماء أحمد، الدين والدولة في مملكة سنغاي الإسلامية ٨٩٨-١٠٠٠هـ/١٤٦٤-١٥٩١م، دار الكتب الوطنية، بنغازي ليبيا، ٢٠٠٨، ص ٧٦، وينظر: الشامي علي يوسف، الحج وأثره في دولتي مالي وسنغاي ٦٣٦-١٠٠٠هـ /١٢٣٨-١٥٩١م، رسالة ماجستير في الدراسات الإفريقية، معهد الدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، مصر، ٢٠٠٦، ص ٤٧.

٤. سحر عنتر محمد أحمد مرجان، فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي في عهد دولتي مالي وسنغاي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة مصر، ٢٠١٠، ص: ١٤٠.

حلمه في تكوين دولة شاسعة الأركان، ممتدة الأطراف، حيث بدأ في غزوه لمدينة "تنبكتو"^١، وبعدها مدينة "جني"^٢ سنة ٨٨٢هـ-١٤٧٧م، حيث اصطدم بفئة الفقهاء التي واجهته مواجهة شديدة^٣، فأثنى في التكيل بهم وإذلالهم، فكانت من مساوئ أفعاله أنه أمر بالقبض على ثلاثين بنتا من بنات العلماء والفقهاء الأبيكار، ليكنن من جواريه، ولما عجزن عن التوجه إليه وهو في مرسى مدينة "كابرة" kabara على حوض نهر "النيجر"، أمر بقتلهن جميعا، ويعرف ذلك باسم (فناء قدر الأبيكار)^٤، وهو ما ترك أثرا في نفوس العلماء والعامّة في مدينة "تنبكتو"، حيث هجرها الكثير من العلماء إلى نواحٍ آخر، مثل "ولاته"^٥، وبلاد "الهاوسا"^٦.

^١ هي مدينة من مدن السودان الغربي مشهورة وهي تقع اليوم في دولة مالي، اسسها الطوارق خصوصا قبيلة مغجران، يقال أن إسمها مركب من كلمتين هما (تن) وتعني ذات، و(بكتو) وهي اسم مولاة للطوارق كانت تقطن تلك المنطقة وكانت القوافل تترك عندها بعض الأمتعة فسميت تلك البقعة لذلك بتنبكتو، ومع مرور الزمن أصبحت مركزا للمبادلات التجارية عبر الصحراء، وبحكم موقعها الإستراتيجي بين الصحراء الكبرى وبلاد السودان في التجارة القادمة من بلاد المغرب وحتى من الاندلس مما شجع على استقرار كثير من التجار والعلماء فيما بعد ويرجع كثير من المؤرخين أن تاريخ تأسيسها كان في القرن الخامس الهجري للمزيد ينظر: السعدي عبد الرحمن: تاريخ السودان، مصدر سابق، ص ٢٠، وانظر: ابن حامد المختار: حوادث السنين اربعة قرون من تاريخ موريتانيا وجوارها، تتسيقاحمد بن أحمد سالم، دار الكتب الوطنية هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دولة الإمارات العربية المتحدة، ط١، ٢٠١١، ص ٤١.

^٢ مدينة مالية وهي عاصمة اقليم ماسنة الواقع شرق تنبكتو، وتأتي في المرتبة الثانية بعد تنبكتو كأهم المدن من حيث الأهمية التجارية والحضارية تقع على الضفة اليمنى لنهر النيجر مما جعلها منطقة جذب للسكان والتجار، دخلها الإسلام في القرن السادس الهجري الثاني عشر ميلادي على يد تجار مسلمين قدموا على الأرجح من بلاد شنقيط ومن المغرب والاندلس، وكانت ملتقى تجار الملح والذهب في تلك الفترة وجزء من مملكة مالي ثم تبعت الى مملكة صنغاي بعدها ثم للحكم المغربي إبان الحملة السعدية المشهورة. ينظر: السعدي: تاريخ السودان مصدر سابق، ص ١١-١٢، ابن حامد المختار: حوادث السنين مرجع سابق، ص ٣٨، والغربي محمد: بداية الحكم المغربي في بلاد السودان، دار الرشيد، بغداد العراق، ١٩٨٢، ص ٥٧٩ - ٥٨٠.

^٣ إيهاب شعبان، مرجع سابق، ص: ٢١٤.

^٤ السعدي، تاريخ السودان، مصدر سابق، ص ٦٤/٦٥، محمود كعت، تاريخ الفتاش، مصدر سابق، ص ٥٠/٤٨.

^٥ - ولاته من مدن بلاد السودان الغربي تقع في الجنوب الشرقي الموريتاني حاليا، تأسست في القرن الهجري الأول وكانت تسمى بيرو وقد أسسها مجموعة من سرغلات المجموعة الزنجية الشهيرة بغرب افريقيا، وقد نشطت بها التجارة

واستمر الحال بين " سني علي" وفقهاء المملكة الذين كانوا يرون حكمه حكماً ظالماً ولا بد من إسقاطه ، وهو ما أدى إلى توسيع الخلاف وتأليب بعض قواده وتحريضهم على الثورة عليه ، فكان القائد " محمد بن أبي بكر التوري " ^٢ الذي انقلب على "سني علي" وأسقط حكمه الذي دام قراب ثمانية وعشرين عاماً ، وذلك من : ٨٦٩هـ إلى ٨٩٨هـ - ١٤٦٤م ، ١٤٩٢م . وبوفاة "سني علي " أعلن عن نهاية حكم أسرة " آل سني " ^٣ ، وقيام أسرة " الأساكي " بقيادة " محمد بن أبي بكر التوري " الذي لقب نفسه " بالأسكيا محمد الكبير " الذي احترم العلماء ورفع قدرهم ، وأجزل لهم العطايا والهدايا ، بل أصبحوا موجهين لسلطة " الأساكي " ، بدءاً من " الأسكيا محمد الكبير " والذي سار على نهجه جميع

الصحراوية مما اعطى مكانة واهمية محورية في سنة ٧٥٣هـ زارها الرحالة ابن بطوطة في رحلته الشهيرة وسماها إيولاتن وتحدث عن رخاها الإقتصادي ومكانتها التجارية، هاجر إليها في القرن العاشر الهجري ومابعده العديد من من علماء تنبكتو وحل بها بعض سكان جنوب المغرب الأقصى ووصل إليها بعض الأندلسيين ، كما عرفت هجرات عرب بني حسان وخاصة أولاد داوود ، وأولاد امحمد، فضلاً عن عرب المحاجيب الذين اشتهروا بالوظائف الدينية كالإمامة والقضاء والفتوى، وقبائل بارتيل، وشرفاء سجماسة بنوسيدي حمو بلحاج القادمين من توات والمعروفين بشرفاء ولاتة. ينظر : ابن بطوطة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي : الرحلة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق وتقديم عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، المغرب، ١٩٩٧، ص ٦٥٨، وانظر: ابن حامد المختار: حوادث السنين أربعة قرون من تاريخ موريتانيا وجوارها، تنسيق أحمد بن أحمد سالم ، دار الكتب الوطنية هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، أبوظبي دولة الإمارات العربية المتحدة، ط١١، ٢٠١١، ص ٣٩.

^١ - تشمل بلاد الهوسا حالياً شمال نيجيريا وجزء من جمهورية النيجر حيث كانت تقع في القرون الوسطى في المنطقة المحصورة بين سلطنتي مالي وسنغاي غرباً وسلطنة برنو شرقاً، بينما يحدها من الشمال إقليم آهير والصحراء الكبرى ومن الجنوب ما يعرف حالياً بجنوب نيجيريا، وقد تواجدت في هذه الفترة ببلاد الهوسا عدة إمارات عرفت تاريخياً بإمارات الهوسا. وهيكانو، دورة، رانو، زكرك، زقرة، غوبر، ينظر: الآلوري آدم عبد الله، موجز تاريخ نيجيريا، دار مكتبة، بيروت لبنان، ١٩٦٥، ص ١٢٦.

^٢ . يرجع نسب محمد بن أبي بكر التوري المدعو " الأسكيا محمد " إلى أحد قبائل " السنونيك " فرع من فروع " المانديجو " ، ولد بإحدى جزر نهر النيجر ، وهو زنجي من أسرة عريقة ، واشتهرت بالنبوغ في الفنون العسكرية وسعة الأفق ، وعرف بالعدل والرحمة والحكمة والنشاط ، وهو صاحب الفضل في انتصارات " سني علي " ، وكان أبوه من العلماء ، وأمه سالحة تدعى " كاساي كركي بكر " ، انظر : محمود كعت ، ص ٥٩ . وإيهاب شعبان ، مرجع سابق ، ص : ٢١٦ .

^٣ . السعدي ، مصدر سابق ، ص ص ، ٧٢/٧٣ .

"الأساكي" ^١ ، وهو ما تجلى في العديد من المظاهر التي تثبت استتصاح "الأساكي" برأي العلماء والفقهاء ، مثل : أجوبة "الإمام المغيلي" ^٢ " على أسئلة "الأسكيا محمد الكبير" في شؤون السياسة ، حيث أسدى له مجموعة من النصائح ، تعتبر توجيهية في مجال السياسة الشرعية ، جُمعت في كتاب يسمى " أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي " ^٣ ، لخص له فيها كل ما يتعلق بمهام الحاكم اتجاه المحكوم ، وذكره بأن الملك لله وأنه مستخلف فيه "... إنما أنت مملوك لا تملك شيئاً ، وقد رفعت مولاك على كثير من عباده لتصلح لهم دينهم وديناهم ، لا لتكون سيدهم ومولاهم ..." ^٤ ؛ كما ذكره بشيئين اثنين هما : البعد عن أهل الشر والتقرب من أهل الخير ، لأنهم يؤنسوك بخيرهم وتميل إلى طبعهم ، لأنك إذا قربتهم منك فقد مكنتهم من أذنك ، ومن مكنته من أذنك فقد مكنته من قلبك ، لأن الأذن زمام القلب ، واستشهد بقول الإمام مالك بن أنس : " لا تمكن زائغ القلب من أذنك " .

١. أحمد بابا التتكتي ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، ت: علي عمر ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، مصر ، ط/١ ، ٢٠٠٤ ، ص ص ، ٢٦٥/٢٦٦ .

٢. الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت ٩٠٩ هـ / ١٥٠٣م) : هو محمد بن عبد الكريم بن عمر بن مخلوف بن علي بن يحيى بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد القوي بن العباس بن عطية بن مناد بن السري بن قيس بن الطالب بن أبي بكر بن عبد الله بن ادريس بن عبد الله الكامل ابن الحسن المثنى بن عليين أبي طالب وابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد في مغيلة قرب تلمسان سنة (٨٢٠ هـ / ١٤١٨م) حيث تلقى تعليمه الأول بها على يد الشيخ أحمد بن عيسى المغيلي الشهير بالجلاب فحفظ عليه القرآن الكريم وبعض المتون الفقهية على مذهب الإمام مالك ، تميز بالنباهة والذكاء وعلو الهمة مما أهله ليسافر طالباً للعلم في عدة أقطار مغربية حيث التقى بشيوخ أهمهم الشيخ عبد الرحمن الثعالبي الذي أخذ عليه علم العقيدة والتصوف ، والشيخ يحيى ابن إيدير التادلسي الذي أخذ عليه الفلسفة والمنطق ، كما كانت له رحلات إلى كل من تونس والمغرب الأقصى وبلاد السودان الغربي . للمزيد ينظر مقدم مبروك : الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي مناقبه وآثاره مج ١ دار القدس العربي الجزائر ، ط ٢٠١١ ، ص ٣٥ .

٣- المغيلي محمد بن عبد الكريم ، أسئلة الاسكيا وأجوبة المغيلي ، تحقيق عبد القادر زيادية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٧٤ .

٤. المغيلي : أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي ، مصدر سابق ، ص ص ، ٢٣/٢٤ .

ومن خلال نصائح " الإمام المغيلي " " للأسكيا محمد الكبير " قد رسم نهجا لسياسة الأساكي اتجاه الفقهاء ، بأن أشركوهم في الحكم وأعلوا مكانتهم ووُقِّرت لهم كل الصلاحيات لتنفيذ أحكامهم^١ ، خاصة فقهاء المدن الكبرى ، ك " تمنبكتو ، وجني ، وجاو^٢ " ؛ ومن الأمثلة على ذلك : القاضي " محمود بن عمر أقيت^٣ " الذي لجأ إليه " الأسكيا محمد الكبير " في الكثير من المرات طالبا النصح

^١. محمد مولاي ، القضاء والقضاء في بلاد السودان الغربي من أواخر القرن ١٠٩ هجري حتى ١٢ هـ/ ١٥م - ١٨م، أطروحة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران ١ أحمد بن بلة، الجزائر، ٢٠١٨-٢٠١٩ ، ص: ٣٤٨.

^٢ وهي إحدى مدن مالي وتقع إلى الشمال الشرقي من بامكو عاصمة مالي الحالية عند منحنى نهر النيجر تبعد عن مدينة تنبكتو بحوالي أربعة مئة ميل إلى الجهة الجنوبية الشرقية ، عرفت بعدد الاسماء منا كوكو،كاغ، كاغو، تأسست في النصف الثاني من القرن الهجري الثامن الميلادي على جماعة من بريرشمال افريقيا استوطنتها، وبعد دخول الاسلام إليها عن طريق القوافل التجارية ازدهرت وتطورت ، واضحت مركزا كبير في بلاد السودان الغربي، ثم جاءت مملكة مالي في عهد السلطان منسا موسى بعد عودته من رحلته الحجبية بنى بها مسجدا جامعاً أصبح منارة للعلم والعبادة، لتبلغ أوج قوتها وازدهارها العلمي والحضاري مع مجئ اسرة الأساكي التي حكمت مملكة صنغاي واتخذت منها عاصمة لحكم دولتهم .للمزيد ينظر : بازيئة سالم عبد الله : إنتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، دار الكتب الوطنية بنغازي، ليبيا، ٢٠١٠، ص ١٤٦.

^٣-القاضي محمود بن عمر بن محمد أقيت (ت ٩٥٥ هـ / ١٥٤٧ م) : وهو من أسرة أقيت المسوفية، ولد عام (٨٦٨ هـ / ١٥٤٧ م) بتنبكتو ونشأ في بيت علم وجاه، عينه الأسكيا محمد قاضي على تنبكتو سنة (٩٠٤ هـ / ١٤٩٨م) بعد وفاة قاضيها حبيب الذي أوصى له وزگاه قبل وفاته، مكث فيه خمسين سنة قال عنه أحمد بابا التنبكتي: "قاضيها أبو الثناء وأبو المحاسن، عالم التكرور وصالحها ومدرسها و فقيها وإمامها بلا مدافع، كان من خيار عباد الله الصالحين العارفين به ذا ثبت عظيم في أمور وهدى تام وسكون ووقار وجلالة، اشتهر علمه وصلاحه في البلاد وطار صيته في الأقطار شرقا وغربا، وظهرت ديانته وورعه وصلاحه وعدله ونزاهته لا يخاف في الله لومة لائم، يهابه السلاطين فمن دونهم، ويزرونه في بيته فلا يقوم لهم ولا يلتفت إليهم ويهادونه بالهدايا والتحف، وكان شيخا كريما جوادا يفرق ما يهدى له بين الناس، تولى القضاء عام تسعة مئة وأربعة (هجريه) فشد في الأمور وسدد وتوخى الحق في الأحكام.....ظهر عدله بحيث لا يعرف له نظير في وقته " . اشتغل بالتدريس والعلم إلى جانب القضاء حيث كانت له حلقة علم يدرس فيها الفقه كمختصر خليل ومدونة سحنون، والنحو كألفية ابن مالك، حتى كثر طلبته وانتشرت دروسه فأخرجوها في مجلدين ووضعوا لها شروحا بلغت شهرة كبيرة في بلاد السودان الغربي، كما كانت له عدة رحلات إلى البلاد الإسلامية منها رحلته الحجبية عام (٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م) التي فيها جماعة من مشاهير العلماء أمثال إبراهيم المقدسي،

والإرشاد حتى ينأى بنفسه عن الوقوع في الزلل ، وينجو من غضب الله ، وطلب منه أن يشرح له كل قواعد التشريع الإسلامي ، وأن يبيني معه مشروعه الديني والسياسي ، وقد أسهمت شخصية الفقيه "محمود بن عمر أقيت" في نجاح هذا الدور اتجاه المجتمع والسلطة الحاكمة، فقد قام بطرد رسل "الأسكيا محمد الكبير" عن مدينة "تنبكتو" وعدم تنفيذ أوامر السلطان^١ دون أن يخشى غضبه، فلما راجعه "الأسكيا" وعاتبه على تصرفه هذا أخبره أنه فعل ذلك خوفاً عليه من دخول النار، وإنقاذاً له من معاقبة الله عز وجل، مذكراً إياه بأنه هو الذي طلب منه ذلك، فافتتح "الأسكيا" وقَبِلَ يد الشيخ "محمود" طالباً منه أن يوجهه ويحول بينه وبين جهنم، ونظراً لمكانة الفقيه "محمود" كان يهابه السلاطين، فصاروا يزورونه في داره متبركين به، وكان أيضاً الفقيه "الحاج أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت (ت ٩٩١هـ-١٥٨٣م)^٢" له مقام احترام كبير عند السلاطين، ووافر الحرمة عند

والشيخ زكرياء الفلقشندي، والناصر اللقاني وغيرهم من علماء مصر، كما كان له تلاميذ أشهرهم والد الفقيه أحمد بابا التنبكتي، بالإضافة إلى أبنائه الثلاثة الذين تولوا قضاء تنبكتو فيما بعده، محمد، العاقب، عمر. ينظر: ٣- السعدي: تاريخ السودان، مصدر سابق، ص ٣٨، التنبكتي أحمد بابا: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحرير وتقديم حماد الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ٢٠١٣، ص ص ٣٤٣-٣٤٤، البرتلي أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الصديق الولاتي: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان، ١٩٨١، ص ص ٢٩-٣٠.

١. محمود كعت ، تاريخ الفتاش، مصدر سابق، ص ص ٦٠/٦١. وانظر: سوري إباطة ، القضاء في سنغاي (٨٩٨هـ، ٩٩٩هـ-١٤٩٣م، ١٥٩١)، مجلة المؤرخ المصري، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، العدد ٢٨ يناير ٢٠٠٥ ، ص:٣٦٨.

٢- الفقيه أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت (ت ٩٩١هـ/١٥٨٣م وهو والد العلامة أحمد بابا التنبكتي، كان أحد فقهاء وأعلام تنبكتو قال عنه ابنه أحمد بابا التنبكتي: " إنه كان رحمه الله تعالى علامة فهامة نكيا درآكا محصلا مفتيا محدثا أصوليا بيانا منطقيا، وكان رقيق القلب عظيم الجاه وافر الحرمة عند الملوك وكافة الناس نفاعا بجاهه لا ترد له شفاعا، يُعْلِظُ على الملوك فمن دونهم وينقادون له أعظم الانقياد ..."، كانت له مكانة علمية كبيرة، حيث برع في الفقه والأدب والحديث، وصار مفتيا وقاضيا حتى وصف بأنه الحافظ، جلس للتدريس في تنبكتو واشتهر بحبه لتلاميذه والإنفاق عليهم لاسيما الأيتام، تتلمذ على يديه كثير من علماء تنبكتو البارزين أمثال ابنه أحمد بابا، وأحمد ومحمد ابني القاضي محمود بن أبي بكر بغيغ (قاضي جني)، وعبد الرحمن بن محمود أقيت قاضي تنبكتو، كانت له رحلات إلى بلاد المشرق منها رحلته الحجية (٩٥٦هـ/١٥٤٩م) التي زار فيها مصر والحجاز، فالتقى بمجموعة من العلماء أهمهم:

الملوك^١، وعند مجتمع "سنغاي" كان لا ترد له شفاعة، ويغلب على الملوك فمن دونهم فينقادون له، ويزورونه في داره لدرجة أن "الأسكيا داود" كان يزوره عندما مرض وداوم على ذلك حتى برئ هذا الفقيه^٢.

كما حظي الفقيه "العاقب بن محمود بن عمر أقيت"^٣ الذي تولى قضاء "تمبكتو" سنة ٩٧٣هـ-١٥٦٦م باحترام كبير من "الأسكيا داود"، حيث كان يحرص هذا الأخير على أخذ بركة القاضي "العاقب بن محمود"، بل أصبح من عادة "الأساكي" إذا خرج أحدهم إلى الغزو يدخل مدينة "تمبكتو" ليتبرك به ويصلي معه في المسجد الكبير؛ وكان نفوذ القاضي "الفقيه العاقب" يفوق نفوذ "الأسكيا" نفسه، فكان يخضع للقاضي ويطيعه في كل شيء، فإذا رأى ما لا يعجبه عزل نفسه

الشيخ الناصر اللقاني، والشيخ التاجوري، والشريف يوسف الأرميوني، والشيخ الأجهوري، كما لقي بالحجاز جماعة من كبار العلماء منهم بركات الخطاب، وعبد المعطي السخاوي حيث أجاز بعضهم إجازات في بعض المتون. توفي سنة ٩٩١هـ/١٥٨٣م. ينظر: السعدي، تاريخ السودان مصدر سابق، ص ٤٢-٥٥. و التنبكتي أحمد بابا، نيل الإبتهاج مصدر سابق، ص ١٤١. وإيهاب شعبان، القضاء في عهد دولتي مالي وسنغاي مرجع سابق، ص ٥٢.

^١. بطل شعبان، العامة في دولة سنغاي، مرجع سابق، ص: ٢٣٣.
^٢. البرتلي أبو عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، ت: محمد إبراهيم الكتاني، ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان ١٩٨١، ص: ٢٩، انظر: السعدي، تاريخ السودان، مصدر سابق، ص: ٤٢.

^٣- القاضي العاقب بن محمود بن عمر بن محمد أقيت (ت ٩٩١هـ/ ١٥٨٣هـ: تولى منصب القضاء بعد وفاة أخيه محمد في عهد السلطان الأسكيا داود بن الأسكيا محمد، كان عالما مسددا في الأحكام ذا بصيرة لا تخطئ فراسته كما وصفه أحمد بابا التنبكتي " كان مسدداً في الأحكام صلبا في الحق ثبتا فيه لا تأخذه في الله لومة لائم، قوي القلب مُقَدِّمًا في الأمور العظام التي توقف فيها غيره جسوراً على السلطان فمن دونه وقع له معهم وقائع وكانوا يخضعون له ويطاوعونه في كل ما أراد، إن رأى ما يكره عزل نفسه عن القضاء وسد بابه ثم يلاطفونه حتى يرجع...". أما السعدي فقال عنه: " كان عالما جليلا ثاقب الذهن قوى القلب صلبا في الحق.....ذا فراسة إذا تكلم في شيء لا يخطئ كلامه، كأنه ينظر في الغيب، قد ملأ أرضه بالعدل لا يعرف له نظير في ذلك من جميع الآفاق...". ينظر: التنبكتي أحمد بابا، نيل الإبتهاج مصدر سابق، ص ٢١٨ - ٢١٩. و السعدي، تاريخ السودان مصدر سابق، ص ٣٤-٤٠.

عن القضاء وأغلق دونه بابه ، ف" الأسكيا " كان يقبل شفاعة القاضي للكثير من أهل البلد من فقهاءها وعلمائها ، حتى يسمح له القاضي بالدخول ^١ .
كما أن هناك إشارات تدل على مدى قوة شخصية بعض الفقهاء ، وعدم خشيتهم من السلطان ، فنجد مثلا : قاضي مدينة " جني " في عهد السلطان "الأسكيا إسحاق الأول ٩٤٦هـ، ٩٥٦هـ- ١٥٣٩م، ١٥٤٩م ، وهو القاضي " محمود بغيغ بن أبي بكر الونكري " ^٢ الذي تولى قضاء "جني" ٩٤٩هـ-١٥٤١م ، كان له موقف مع هذا السلطان لما جاء إلى المدينة ودخل مسجدها وطلب عقد اجتماع مع العامة والخاصة ، بحضور هذا القاضي ، مدعيا أنه يريد إصلاح البلاد ومراعاة مصالح الرعية ، بغرض أن يظهر بمظهر الحاكم الشرعي ، وأشاع بين الناس أنه يريد من يؤدي المسلمين ويظلم الناس ، لكن القاضي " بغيغ " لم يتركه وتصدى له وقال له : " ما عرفنا هنا أظلم منك أنت ، ولا يغضب هنا مغصوب إلا لك ، وبامرك ، وبقوتك ؛ إن كنت تقتل الظالم فابدأ بنفسك ... " فلما سمع "الأسكيا " بذلك راجع نفسه وأظهر الخشوع وتاب إلى الله ^٣ .

^١ محمود كعت ، مصدر سابق ، ص:١٠٩ . السعدي ، مصدر سابق ، ص:١١٠ . أحمد بن بابا التنبكتي ، نيل الابتهاج مصدر سابق ص٣٥٤ . بللو محمد، إنفاق الميسور في أخبار بلاد التكرور، تحقيق بهيجة الشاذلي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط المغرب، ١٩٩٦، ص٣١٨ . إيهاب شعبان ، مرجع سابق ، ص ٢٢ .
^٢ - الفقيه محمود بن أبي بكر بغيغالونكري (ت ٩٥٩هـ/١٥٥١م وهو من قبيلة ونكرة التي ينتمي إليها القاضي محمد ساقو أحد علماء جني وقضاتها كان متقنا وفقها متمكنا في الفقه قال عنه السعدي" كان فقيها عالما واسع الإدراك جريئا في الحق لا يخشى في الله لومة لائم، له مواقف جريئة مع السلاطين والحكام "وهو والد الفقيهين محمد بغيغ وأحمد بغيغ، تولى قضاء جني سنة (٩٤٩هـ/١٥٥١م) في عهد الأسكيا إسحاق بعد وفاة القاضي عباس كب، وهو أحد رموز أسرة بغيغ التي تميزت بالشهرة العلمية والقضائية في جني وتنبكتو، ظل في قضاء جني إلى أن توفي خلال القرن العاشر الهجري السادس عشر ميلادي .ينظر: السعدي، مصدر سابق، ص ١٩. والتنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج مصدر سابق، ص ٣٤١. والبرتلي، فتح الشكور مصدر سابق، ص١١٣. و ميقا عبد الرحمن، الحركة الفقهية ورجالها في السودان الغربي من القرن ٠٨ إلى القرن ١٣ الهجري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ٢٠١١، ص ٣٤٣ .
^٣ محمود كعت ، مصدر سابق ، ص:٨٨/٨٩ . سوزي إباطة ، مرجع سابق ، ص:٣٧٠ . إيهاب شعبان ، مرجع سابق ، ص:٢٢٤ .

وقال بعضهم للقاضي : أنت القائل للسلطان بهذا القول ؟ ، وكادوا أن يسطوا عليه ، فردهم "الأسكيا" عن ذلك وانتهرهم ، فما صدر منه إلا الإذعان والخشوع والحشمة ، بل قال له : صدقت والله ، وأنا تائب؛ ورجع إلى منزله باكيا ثم ولاه قضاء مدينة " جني " .^١

ومن المواقف الدالة أيضا على انقياد العلماء والفقهاء إلى الحق ، والوقوف في صف العامة حتى ولو كان في وجه السلاطين أنفسهم ، أن " الأسكيا داود" خرج لاستقبال بعض الحجاج من أهل "تنبكتو" ونواحيها في بعض السنين ، وكان منهم رجل من أهل " كنت " وهو من عبيد "الأسكيا" ، ونزل الحجاج خارج مدينة "جاو" على عادتهم التي تقضي بعدم دخول المدينة إلا بعد مشاورة " الأسكيا " واستئذانه ، ويأتيهم " الأسكيا " ويستقبلهم ويعطيهم بعض الكسوة واللباس ، ويسألهم الدعاء ويتبرك بهم. فقام " الأسكيا داود" إجلالا منه للحجاج وتعظيما لهم بتقبيل أيدي الحجاج ، وأقبل العبد " الكنتاوي" فقام له " الأسكيا داود" وهو لا يشعر به ، ولا يعلم أصله ، وصافحه وأراد تقبيل يده ، فقام أحد أتباع " الأسكيا " بنزع يد ذلك العبد من يد " الأسكيا " وحلف على قطع يده ، واستعظم القوم ذلك وتعجبوا من جرعة هذا العبد على يد " الأسكيا " الذي طلب رأي الفقيه القاضي " محمود كعت الونكري " في هذه المسألة ، فكان رأيه أن من نال شرف زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ووقف بعرفة ، وطاف بالكعبة ، ولمست يده الحجر الأسود ، ثم يصافح "الأسكيا " لينال عرضا قليلا من الدنيا كان أولى به أن لا يفعل ذلك ، وأن يحفظ يده من النجاسة ، فلما سمع ذلك " الأسكيا داود " نهض إلى الرجل الكنتاوي والدموع تسيل من عينيه وقبل يديه وأعطاه مائة ألف مثقال، وأعتقه لوجه الله تعالى بحرمة يديه، وأعتق خمسين رجلا من قبيلة أبيه، ومثلهم من قبيلة أمه، وأسقط عنه وظائف السلطة وغراماتها،^٢ كما أن القاضي " العاقب بن عمر" الذي سعى الوشاة بينه وبين " الأسكيا داود " فنَقَوْا على لسان القاضي مالم يقله في "الأسكيا"، فأرسل إليه "الأسكيا" عتابا فرد عليه القاضي "العاقب" برد لا يقدر عليه، فعندها أدرك "الأسكيا داود" خطأه مع القاضي، فذهب إليه ليسترضيه، وظل واقفا ببابه طويلا ولم يأذن له القاضي بالدخول إلا بعد شفاعة بعض العلماء والفقهاء في "تنبكتو"، ودخل "داود"

١. سحر عنتر ، فقهاء المالكية ، مرجع سابق ، ص: ١٥٣.

٢. محمود كعت ، تاريخ الفتاش ، مصدر سابق ، ص ص: ١١١/١١٢. بطل شعبان ، العامة في سنغاي ، ص ص: ٢٣٣/٢٣٤.

متذلا وقبل رأس القاضي وجلس أمامه وتراضيا بعد إباية وامتناع من "العاقب"؛ ومن هنا يبدو جليا دور الفقهاء المؤثر والمهم في الوقوف إلى جانب العامة في وجه الحاكم ونصرة الحق، فكان هدفهم الأسمى هو تطبيق الشرع دون الوقوع في الزلل ، وتلك هي الحقيقة التي أقرها "الأسكيا داود" عندما قال "كعت": "لولا العلماء لكنا من الهالكين ، فجزالك الله عنا خيرا"^١، وهو ما يوضح الدور الكبير الذي لعبه الفقهاء في تقويم سلوك الحكام وتصحيح مسارهم، وهذا عاد بالنفع على العامة.

أما مظهرية احترام "الأساكي" للفقهاء فتجلت في تلك المكانة التي وضعوهم فيها، حيث كانوا لا يسمحون بمصافحة أحد لهم سواهم ، إضافة إلى مظاهر التقدير والاحترام في المناسبات ، فقد كان "الأساكي" يستقبلون الفقهاء عند ذهابهم ورجوعهم من الحج ، ومن أمثلة ذلك : الاحتفال الذي أقامه "الأسكيا محمد الكبير" للقاضي الفقيه "محمود بن عمر" عندما حج سنة ٩١٥هـ ، فخرج في موكب شبيه بموكب الملوك ، وحضر "الأسكيا لهذا التوديع في يوم مشهود"^٢ ، وعمت الأفراح سائر مملكة "سنغاي" ، بل إن الكثير من الفقهاء صاحبوا "الأساكي" في رحلاتهم للحج ، مثل الفقيه القاضي "محمود كعت" الذي صاحب الأسكيا محمد "في رحلته للحج سنة ٩٠٢هـ ، مع عدد من الفقهاء والعلماء ، منهم : الشيخ "محمد تل" ، و"الألفا صالح جور" ، و"كاغ زكريا" وغيرهم^٣.

كما كان للفقهاء مواقف من الصراعات التي كانت تحدث بين أفراد الأسرة الحاكمة على العرش ، حيث نجدهم أكثرهم كان يعارض هذا الصراع ولا يباركه ، فمثلا : الفقيه "محمود بن عمر" أقيت "لم يستقبل" الأسكيا "عندما زار" تنبكتو" لأنه خلع أبوه "الأسكيا محمد"^٤ ، وكان من عادة الأساكي عندما يعتلي العرش أن يزور "تنبكتو" ، لما لها من مكانة علمية وروحية ، وكانوا يذهبون

^١. المصدر نفسه ، ص: ١١٣.

^٢. السعدي ، تاريخ السودان ، مصدر سابق ، ص: ٦٥.

^٣. محمد مولاي ، القضاء والقضاء ، مرجع سابق ، ص: ٣٥٨.

^٤. تورد بعض المراجع خبر عزل الأسكيا موسى والده الأسكيا محمد مرجعه إلى عدة أسباب منها :

تعيين الأسكيا محمد لأحد عبيده أن يكون مستشار له ، وكان يدعى "علي فلا" ، وهو ما حز في نفس الأسكيا موسى الذي كان واليا على إقليم "كوكيا" عاصمة سنغاي قبل "جاو" ، للمزيد ينظر : المرجع السابق ، ص: ٣٥٨. وكذا إيهاب شعبان ، مرجع سابق ، ص: ٢٤٣.

إلى بيت القاضي احتراماً له فلا يدخلون حتى يأذن لهم^١، ففي هذه المرة لم يستقبل الفقيه القاضي " محمود " " الأسكيا موسى " ولم يعطه وجهاً ، بل قال له : لا أستقبل وجهاً خلع أمير المؤمنين " الأسكيا محمد " واغتصب الحكم ، فرد عليه " الأسكيا موسى " : ما فعلت ذلك إلا خوفاً على نفسي ، وقبل رأسه^٢.

وكان الفقيه " العاقب بن محمود " ذو شخصية صارمة لا يخاف أن يقول كلمة الحق ، وصفه السعدي بقوله : " كان رحمه الله مسدداً في أحكامه ، ثبتاً في الحق ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، قوي القلب ، مقداماً في الأمور العظام التي يتوقف فيها جسور على السلطان فمن دونه ؛ وقع له معهم وقائع وكانوا يخضعون له ويهابونه ويطاوعونه فيما يريد ، وإذا رأى ما يكره عزل نفسه وسد بابه فيلاطفونه حتى يرجع " ^٣.

وما يؤكد هذا أن القاضي " العاقب " آزر " الأسكيا محمد نبكا " الذي حاك مؤامرة ضد أخيه " الأسكيا محمد الثالث بن داود " ، فعاقب " الأسكيا محمد الثالث " أخاه " محمد نبكا " بالقتل ، وعفا عن القاضي الفقيه " العاقب بن محمود " ، وعندما توفي " العاقب " سنة ٩٩١هـ ، ذهب " محمد الثالث " لتقديم واجب العزاء فيه^٤.

وكان لدور الفقهاء في هذه الحالات العصبية إلى إحداث نوع من التوازن بين أفراد الأسرة الحاكمة ، وتغليب مصلحة السلطنة على المصالح الشخصية ، وتجنب ويلات الانشقاق والضعف والانهايار.

٢ - الفقهاء والإصلاح الإداري :

كان للفقهاء دور مميز في الإصلاح الإداري ، الذي من خلاله إصلاح سلم الحكم في السلطنة ، وهو ما دفع بالسلطة إلى تغيير بعض الوظائف وتوسيع صلاحيات أخرى ، وتعيين وظائف جديدة حتى يكتمل البناء والإصلاح في مملكة مترامية الأطراف ، يسودها العدل والحق كمملكة "

^١ . محمود كعت ، تاريخ الفتاش ، مصدر سابق ، ص : ٨٣.

^٢ . السعدي ، تاريخ السودان ، مصدر سابق ، ص : ٨٦.

^٣ . السعدي ، المصدر نفسه ، ص : ٤٠.

^٤ . أحمد بابا التبتكتي ، نيل الابتهاج ، مصدر سابق ، ص : ٢١٨/٢١٩.

سنغاي" ، إذ ينطلق " الأسكيا محمد الكبير" في هذه الإصلاحات من نصائح الإمام المغيلي الذي أعطى جوابا تفصيليا ، مبينا من خلاله أسس السياسة الراشدة التي يمكن أن يسير عليها أي حاكم^١ ، ويبرز هذا من خلال كتابه " تاج الدين في ما يجب على الأمير " الذي وضعه للأمير " محمد بن يعقوب"^٢ حاكم إمارة "كانوا"^٣ التي كانت تابعة لمملكة " سنغاي" ، إضافة إلى كتابه " أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي " الذي وضعه " للأسكيا محمد الكبير" ، حيث خصص المغيلي أبوابا في هذين الكتابين ، رسم فيها ما يجب على الأمير من ترتيب دولته بما يكفل صلاح رعيته ، وخصص عددا من الوظائف^٤ تحقق الهدف ، ومنها : عقلاء يشيرون ، أي أن يقرب أهل التقوى والعلم والصلاح لمجلسه ويعتمد عليهم في سياسته ونظمه الإدارية ، كما نبه إلى وجود صيارفة وكتاب يحفظون ، ورسل وحفظة وعساس وهم الذين يطوفون بالليل ويحرسون الناس ويكشفون أهل الريبة ، ومن ذلك علماء ثقات يرشدون ، وأئمة فضل يجمعون ، وعدول يشهدون ، ومحتسبون يكشفون ويصلحون ، وأرباب شرطة يزجرون ، وقضاة ثقات يفصلون ، ومنهم عمال يجوبون حق الله ، ووزراء لا يخشون في الله لومة لائم^٥ ، ومن ذلك أيضا بعض الوصايا في الجانب العسكري ، فيقول : " حصن الحصين مكفي بالخرين ، وخيل خديرة^٦ ورجال شجعان حاضرة في كل أوان ، ووزراء يجمعون الرجال ، ويخففون الأثقال ويحملون على الحذر وحمل السلاح ، ويرتبون الجيش للكفاح ... وبلغاء ينشطون

١. محمد مولاي ، مرجع سابق ، ص:٣٥٧.

٢. واسمه تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين ، للإمام المغيلي ، ت: محمد خير رمضان يوسف دار ابن حزم للطباعة والنشر ، بيروت . لبنان ، ط/١ ، ١٩٩٤ ،

٣. هو ابن يعقوب " رنفا" حاكم إمارة "كانوا" ، تولى الحكم بعد وفاة أبيه سنة (٨٦٧هـ، ٩٠٤هـ-١٤٦٣م، ١٤٩٩م) والذي اعتبر الإسلام ديناً رسمياً للدولة ، وهو الذي التقى الإمام المغيلي ، للمزيد انظر: مولاي محمد ، العلاقات العلمية بين توات وبين الساحل الإفريقي خلال القرنين ١١هـ و١٢هـ ، ١٧م و١٨م ، رسالة ما جستير في التاريخ والحضارة الإسلامية ، جامعة وهران ٢٠١٣/٢٠١٤ ، ص:١٢٦.

٤. أشار إليها محمد " بللو" صاحب " إنفاق الميسور " مصدر سابق ، ص ص ص:١٦٩/٨٧/٦٧/٤٧.

٥. المغيلي تاج الدين ، مصدر سابق ، ص:١٥.

٦. المصدر نفسه ، ص:١٨.

٧. هي الخيل القوية والسريعة ، يقال : خدَّ الفرس الأرض بحوافره ، انظر: المغيلي تاج الدين ، مصدر سابق ، ص:٢٤.

القلوب ، ويقبحون الهروب ؛ ولقد زيل نهاية كل باب من الأبواب الثمانية بمقولة غاية في الأهمية ، يقول فيها : " ورأس كل بلية احتجاب السلطان عن الرعية ^١ وقد باشر " الأسكيا " هذه التنظيمات ، حيث بدأ بالتنظيم السلطوي باختيار كفاءات ممن يثق فيهم ، وحدد اختصاصاتهم ، وقد اقتضت هذه التنظيمات الإدارية أن يحدث مناصب جديدة ، منها : مفتش الضرائب ، ومنصب مشرف على القبيلة ، وهذا بعد إلحاح من القاضي " محمود بن عمر أقيت " ^٢ ، حيث أعاد " الأسكيا محمد الكبير " تقسيم دولة " سنغاي " إلى أربعة أجزاء إدارية كبيرة ، وكل منطقة تتبع لحاكم أو رئيس يكون تحت إمرة القاضي الفقيه ، كما أسس في العاصمة " جاو " مجلس إداري كبير يساعده فيه مستشارين ، ونواب من الفقهاء وقضاة ، وكان يسمى هذا المجلس " بالمالمال " ^٣ وتحت مجموعة من الهيئات وهي :

أ. **المكلف بالمالية** ، ويسمى " فاري موندنيا (farimendea) " ، وهو الذي يقوم على جمع الضرائب ، وله أعوان في كل أسواق البلاد وعلى الحدود ، مهمتهم استقبال القوافل الواردة ، وتوريد الرسوم على كل بضاعة . ب. **المكلف بالبحرية** ، ويسمى " كوري فارما (farmakory) ، وهو رئيس البحرية ، ومسؤول عن البحرية وكل ما يخص بها .

ج. **المكلف بالأشغال** ، ويسمى " واري فارما (waryfarma) ، وهو مسؤول على مشروعات البناء والتعبيد والتشييد ، وبناء القناطر ، والأسواق ، والمساحات العامة ، والقصور .

د. **المكلف بالشحن النهري والبحيرات والصيدان** ، يسمى : " هاري فارما (haryfarma) ° . وقد خلف هذا التنظيم الإداري الذي طبقه " الأسكيا محمد الكبير " ومن بعده من " الأساكي " وحدة قوية في دولة " سنغاي " ، سواء في مقر الحكم أو الأجزاء الأخرى من الدولة ، وهو ما مكن من

١. المصدر نفسه ، ص ص : ٢٨/٢٥ .

٢. محمود كعت ، تاريخ الفتاش ، ص ص : ١٤٩/١٥٢ .

٣. الشامي إبراهيم علي يوسف ، الحج وأثره الحضاري في دولتي مالي وسنغاي (١٠٠٠هـ-١٢٣٨م ، ١٥٩١م) ، رسالة ماجستير في الدراسات الإفريقية (تاريخ إسلامي) ، معهد الدراسات الإفريقية جامعة القاهرة ، مصر ٢٠٠٦ ، ص : ٢٣٣ .

٤. أحمد أبو الفتوح عابدين ، الحواضر الإسلامية في غرب إفريقيا في القرنين ١٦م و١٧م ، تاريخها السياسي والحضاري والاقتصادي ، أطروحة دكتوراه ، معهد البحوث والدراسات الإفريقية ، جامعة القاهرة ، مصر ١٩٨٩ ، ص : ١٦٩ .

٥. الشامي إبراهيم علي يوسف ، مرجع سابق ، ص : ٢٣٣ .

القضاء على السلطة القبلية ، حيث قام هذا التنظيم على أساس المركزية في الشؤون الرئيسية والتشريع واللامركزية في الشؤون التنفيذية، ولكي يضمن المزيد من الولاء للسلطنة ألح الفقهاء على " الأسكيا " بتقسيم المناطق الأربعة السابقة إلى ولايات ، واستمر هذا التقسيم حتى آخر دولة "سنغاي" ١٠٠٠هـ- ١٥٩١م ، ومجيء الغزو " السعدي" الذي أعاد التقسيم الإداري ، وأخضعه لنظام الباشوية العسكرية، وهي

أ. ولاية كورما ، وتعرف أيضا بـ (كورمينيا)، وتقع غربي نهر النيجر، وعاصمتها "تندرن"، وقد عهد "الأسكيا محمد الكبير " بهذه الولاية إلى أخيه "عمر كمزاغ" ^١ ، الذي أسس عاصمتها " تندرن " ، وقد عرف بالإخلاص والوفاء له ، وكان والي هذه الولاية يقيم في بداية الأمر في العاصمة "جاو" ، ثم أصبح بعد ذلك يقيم في " تندرن " ، وكان لهذا الوالي صفة الامتياز على سائر حكام أقاليم الغرب ، فهو الذي يمثلهم في بلاط حكم " سنغاي" ، وربما كانوا يتلقون الأوامر عن طريقه، ونظرا لأن هذه الولاية كانت أكبر مقاطعة في الغرب ، فإن واليها كان ذا شخصية هامة جدا ، وصاحب المقام الأول في السلطنة ، حيث من العاصمة "جاو" مباشرة ^٢ ، كما كان الجيش الإقليمي لهذه المقاطعة من أهم لقب بلقب "فارم" ، حيث يدير فعليا جميع الأقاليم الغربية التي كان يعين حاكمها جيوش المملكة بعد جيش العاصمة المركزية ، الأمر الذي وفر لها سلطة كبيرة جعلتها تضمن تأمين الدفاع عن المنطقة (الغرب) بكاملها ، وتنال أكثر من مرة شرف تلقي أوامر " الأسكيا " للقيام بسريات داخل البلاد المتاخمة لحدود مملكة "سنغاي" ك"مالي" ، و"إمارة الموشي" ، كما تدخلت عدة مرات لقمع التمردات في منطقة " ماسينة" ، ولعل هذه الأسباب جعلت هذه الولاية من أهم ولايات المملكة مع اتساع رقعتها، إضافة إلى تمتعها بازدهار تجاري وزراعي ، وهو ما ضمن لها مورد اقتصادي هام .

١. محمود كعت ، تاريخ الفتاش ، ص:٤٦.

٢. الأحمر أسماء أحمد ، الدين والدولة في مملكة سنغاي الإسلامية (٨٦٩هـ، ١٠٠٠هـ-١٤٦٤م، ١٥٩١م) ، دار الكتب

الوطنية ، بنغازي ليبيا ٢٠٠٨ ، ص:١٠٥.

- ب . ولاية بالما : تقع على حدود بلاد الموشي في الجنوب الغربي لمملكة "سنغاي" ، أي بين "تنبكتو" و "تغازا" ، وقد أنشأت لتكون بمثابة خط الدفاع الأول للمملكة ، باعتبار أن الصراع بين بلاد "الموشي" والمملكة ظل مستمرا ، وكان يشكل دائما مصدر قلق واضطراب لملوك "السنغاي" .^١
- ج . ولاية دندي : تقع هذه الولاية إلى الجنوب من العاصمة "جاو" ، فهي تشرف على المناطق الممتدة شرقا حتى بحيرة "تشاد"^٢ ، أما عاصمتها الإقليمية فكانت مدينة "جوجيا" ، وتأتي أهمية هذه الولاية بعد ولاية "كورما" ، وقد عهد بإدارتها إلى شخصيات كبيرة في القصر ، وكانت منطقة عسكرية مهمتها الدفاع عن الحدود الشرقية للبلاد.^٣
- د . ولاية بانجو : تقع هذه الولاية حول بحيرة "ديبو" ، وهي تشرف على شؤون المنطق الواقعة بين العاصمة "جاو" وبين مدينة "تنبكتو" ، ويعتبر هذا الإقليم مركزا علميا وتجاريا هاما في "سنغاي" ، الأمر الذي جعل لحكامها ميزة خاصة ، كونه الحاكم الوحيد الذي يملك فرقة خاصة من ضاربي الطبول يدخل بها العاصمة .^٤
- هـ . ولاية هارباندا : تقع على ضفة نهر النيجر اليمنى ، المواجهة للعاصمة "جاو".^٥
- و . ولاية رئاسة نهر النيجر : لقد أسست هذه الولاية وأسندت مهمة الإشراف عليها إلى قائد الأسطول ، الذي أطلق على وظيفته الإدارية اسم "كوري".^٦

١. الأحمر ، المرجع نفسه ، ص: ١٠٦.

٢. حسن أحمد محمود ، دور العرب في نشر الحضارة في غرب إفريقيا ، المجلة التاريخية المصرية ، القاهرة ، مج ١٤ ، ١٩٦٨ ، ص: ٦٧.

٣ . عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، دور الإسلام وحضارته في إفريقيا ، دار اللواء ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ١٩٨٣ ، ص: ٧٤.

٤. زبادية عبد القادر ، مملكة سنغاي في عهد الأسكيبين ١٤٩٣ - ١٥٩٢م ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر د. ت . ن ، ص ٢٥ .

٥. الأحمر أسماء أحمد ، الدين والدولة في مملكة سنغاي ، مرجع سابق ، ص: ١٠٧.

٦. الهادي مبروك الدالي: التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء ، دار الكتب الوطنية ، بنغازي ليبيا ، ٢٠٠٢ ، ص ١١٦ .

ز - ولاية تنبكتو : تقع على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى ، وقد اشتهرت كمدينة علمية، وكانت منارة يرتادها العلماء من الشمال الإفريقي ، لوجود جامع "سنكري" بها ، الذي كان كمنارة علمية ، إلى جانب أنها مركزا تجاريا ، حيث شكلت ملتقى للقوافل التجارية ، من الشمال الإفريقي والمشرق العربي^١.

٣ - الفقهاء وموقفهم من الغزو السعودي^٢ لبلاد السودان الغربي :

أدى الصراع على السلطة بين أفراد أسرة " الأساكي " خاصة بعد حكم "الأسكيا محمد الكبير" وما نتج عنه من ضعف للسلطة الحاكمة من أطماع الدول الأخرى ، خاصة دولة السعديين ، التي حاول سلطانها " المنصور الذهبي "^٣ السيطرة على مناجم الذهب في " تغازا"^٤

^١. المرجع نفسه ، ص: ١١٦.

^٢ - الغزو السعودي لبلاد السودان الغربي كان من طرف دولة السعديين في مراكش بالمغرب الأقصى بأمر من السلطان المنصور الذهبي الذي اشتهرت هذه الحملة او الغزوة باسم حماة المنصور الذهبي وكانت نتيجة لأطماع اقتصادية وهي تجارة الذهب واسباب أخرى تتمثل في بسط التبعية والولاء له كرمزية لتقلده خلافة المسلمين وهو ما يدخل في ظل التنافس بينه وبين الدولة العثمانية التي كانت تسيطر على كل من الجزائر وتونس وليبيا القربين من المغرب الأقصى ، كانت هاته الحملة سنة ٩٩٩هـ/١٥٩١م والتي اسقطت فيها معظم مدن مملكة صنغاي بدء من غاو عاصمة الحكم الى تنبكتو وجني وبقية المدن وهو ما أدى الى زوال حكم آل الاسكيا واحلال محلهم الحكم المغربي المتمثل في حم الباشوات .للمزيد ينظر الغربي محمد: بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، دار الرشيد، بغداد العراق، ١٩٨٢، ص٢٦٨ وما بعدها.

^٣. أحمد بن محمد الشيخ المهدي بن القائم بأمر الله من آل زيدان، أبو العباس السعدي، المنصور بالله، ويعرف بالذهبي: رابع سلاطين الدولة السعدية في المغرب الأقصى. ولد بفاس (٩٥٦ هـ) ، انتهت إليه الإمرة بعد وفاة المعتصم سنة ٩٨٦ هـ فساس الرعية بحكمة وحسن إدارة. وكان شجاعا عاقلا، داهية في سياسة الملك، محبا للغزو والفتح. من القادة العلماء والأدباء ، وهو أول من أحدث معاصر السكر في مراكش وبلاده حاحه وشوشاوة. وإليه تنسب الثياب المنصورية في المغرب لأنه أول من ارتدى بها. وكان محبا للعلم. توفي بالمدينة البيضاء خارج فاس الجديدة مطعونا بالوباء، فدفن فيها ثم نقل إلى مراكش (١٠١٢ هـ). انظر: الأعلام للزركلي ، خير الدين بن محمود الزركلي(المتوفى: ١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين ، القاهرة ٢٠٠٢ ، ط/١٥ ، ج/١ ، ص: ٢٣٥.

^٤. محمود كعت ، تاريخ الفتاش ، مصدر سابق ، ص: ١٥٢.

إن أطماع السعديين في ملح وذهب "سنغاي" لم يكن حديث العهد ، بل إن حملات مغربية أخرى سبقت حملة " المنصور الذهبي " ، وهذا يدل على أن السعديين كانوا منذ وقت مبكر يطمعون في بسط نفوذهم على السودان الغربي ، ففي آخر أيام " الأسكيا إسحاق الأول " ٩٤٦هـ، ٩٥٦هـ- ١٥٣٩م، ١٥٤٩م ، أرسل له سلطان مراکش في ذلك الوقت " أحمد الأعرج " رسالة شديدة اللهجة ، يدعوها فيها إلى تسليم مناجم " تغازا " للمغاربة ، وقد تقابلاً " الأسكيا إسحاق الأول " من هذا الطلب ، ومع ذلك أظهر صلابته في الرد .

أما في عهد " الأسكيا داود" فقد أرادت المغرب أن تحقق أهدافها بالطرق السلمية ، إذ أرسل سلطان مراکش إلى " المنصور الذهبي " بهدية إلى " الأسكيا داود" ، قوامها عشرة آلاف أوقية من الفضة ، وبما أن " الأسكيا داود " عرف بحنكته ودهائه ، وكان يدرك أنه لا طاقة له على مجابهة الجيش المغربي ، لذلك قبل باقتراح السلطان المغربي بتأجير مناجم الذهب لمدة سنة^١ ، وعندما قام المغاربة بقتل مأمور الضرائب من طرف " الأسكيا داود " في " تغازا" ، تسبب هذا في حدوث اضطرابات في المنطقة ، وطلب رجال الطوارق الذين كانوا يتولون حمل الملح على جمالهم باتجاه الجنوب من " الأسكيا "تحويل مكان التنقيب من "تغازا" إلى مكان آخر يسمى " الغزلان"^٢.

ولم يتوقف الطمع المغربي عند هذا ، بل أعد " أحمد المنصور " جيشاً بقيادة " جوذر باشا " ، تعداده حوالي أربعة آلاف جندي ، تم تزويدهم بالبارود والأسلحة النارية ، وخرج هذا الجيش أواخر ذي الحجة عام ٩٩٨هـ-١٥٨٩م.^٣

وبعد أن قطع الجيش المغربي أكثر من ألفين كيلومتر^٤ في الصحراء ، وصل إلى العاصمة " كاغ جاو" في أوئل جمادى الأولى سنة ٩٩٩هـ-١٥٩٠م ، واحتل البلاد بعد معركة شهيرة تعرف بمعركة " سونكي " في مكان يسمى " تندبي " قرب العاصمة "جاو"^٥ .

١. زيادية عبد القادر ، مملكة سنغاي ، مرجع سابق ، ص: ٨٨.

٢. السعدي ، تاريخ السودان ، مصدر سابق ، ص: ١٤٦.

٣. الفشتالي عبد العزيز ، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا ، ت: عبد الكريم غلاب ، مطبوعات الأوقاف والشؤون الإسلامية ، الرباط ١٩٧٧ ، ص: ٥٧.

٤. السعدي ، تاريخ السودان ، مصدر سابق ، ص: ١٤٧/١٤٦.

وكان من أسباب انهزام الجيش " السنغائي " أن " الأسكيا إسحاق الثاني " لم يعمل الترتيبات اللازمة لصد هذا الغزو ، إضافة إلى الصراع القائم بينه وبين إخوانه ، خاصة " الأسكيا داود " السالف الذكر ، حيث وصف السعدي حالة " الأسكيا إسحاق الثاني " وجيشه حالة الغزو بقوله : " ولم يلتئم عليه العسكر ، لأن أهل " سنغي " ما صدقوا بخبرهم (الجيش السعدي) حتى نزلوا البحر... " ^٣ ، يضاف إلى ذلك كله أن المجتمع تعامل مع الموقف في جو مشحون بالتردد ، خاصة وأن بعض الفقهاء الذين تعلق بهم قلوب الناس في جل المواقف ، اتخذوا في البداية موقفا مؤيدا للجيش المغربي ، معتقدين أنهم جاءوا لتخليص أهل " سنغاي " من " الأسكيا إسحاق " الذي كان بعيدا عن اتباع أوامر الشرع ، وساد في عهده الفساد والانحلال الأخلاقي ، هذا في الوقت الذي ظهرت فيه نداءات تمجد حسن معاملة التي أظهرها المغاربة في البداية ، الحدث الذي أوقع المجتمع في حيرة في شأن هذا الجيش السعدي ^٤ .

ولما أصبح الغزو السعدي حقيقة واقعة ، أدرك مجتمع " سنغاي " الأهداف الحقيقية للغزو ، وهب الفقهاء لتنظيم مقاومة عنيدة ضد جيش السعديين ، وكان على رأس حركة المقاومة الفقيه " أحمد بابا التنبكتي " ^٥ الذي صرح بأنه لا يجوز لأمة مسلمة أن تستعبد أمة أخرى مسلمة ، ولذلك أمر السلطان السعدي بنفيه إلى المغرب ، وقيد أسيرا هو وأفراد عائلته من " آل أقيت " ^٦ .

^١ وهي قرية صغيرة تقع على بعد ٣٥ ميل من شمال جاو. ينظر : الهادي مبروك الدالي: التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء ، مرجع سابق ، ص ١٧٤ .

^٢ . بطل شعبان ، العامة في سنغاي ، مرجع سابق ، ص : ٢٤٨ .

^٣ . يدافع الفشتالي الذي يعتبر مؤرخ الدولة السعدية عن الحملة السعدية على سنغاي وأهدافها ، فيقول عن الجيش : " فأخذوا في التمهيد وتسكين الشارد ، وتأمين الطريد ، وبسط الهدوء ، وخفض الجناح ، حتى اطمأنت لهم النفوس المستنة في مجال القلق ، واستقرت الأفئدة الجائشة بما خامرها من الرهب والذعر الذي ملأ أحشاءهم ، وأزاع أبصارهم ، وأشكت لربه مسامعهم ، من أجل حدة الدولة ، وثقل الوطأة وجلال السلطان ... " ، انظر : الفشتالي ، مناهل الصفا ، مصدر سابق ، ص : ١٤٧ / ١٤٨ .

^٤ . السعدي ، تاريخ السودان ، مصدر سابق ، ص : ١٤٤ .

^٥ - الفقيه أحمد بابا التنبكتي (ت ١٠٣٦هـ / ١٦٢٧م : هو أبو العباس أحمد بابا بن الحاج أحمد بن عمر بن محمد بن أقيت بن عمر بن علي بن علي بن يحيى وينتهي الى آل عمر الصنهاجي الماسيني نسبة إلى قبيلة صنهاجة الصحراوية ، ولد في تنبكتو عام ٩٦٣هـ / ١٥٥٦م في أسرة أقيت المعروفة بانتسابها للعلماء تلقى تعليمه الأول على يد

ومع بداية الحكم المغربي في السودان الغربي حدثت فتنة بين أهل " تنبكتو" وبين القائد " جوذر باشا"، فتدخل الفقيه " أبا حفص " ، ومع اشتداد الصراع بين أهل " سنغاي" والغزاة المغاربة أرسل

والده وغيرهم من مشايخ تنبكتو أبرزهم محمد بغيغ ابن القاضي محمود بغيغالونكري، الذي ذكره في نيل الابتهاج حيث قال: " هو شيخي وأستاذي ما انتفعت بأحد انتفاعي به وبكتبه، كما أخذ الفقه والحديث والمنطق على والده أحمد، والنحو على عمه أبا بكر، إضافة إلى حضوره دروس الفقيه أحمد بن محمد بن سعيد، كما كانت له إجازات من عدة علماء أهمها إجازة شيوخه بخط يديه في كل مايجوز له وعلمه، كما أجازه الإمام يحي بن محمد الحطاب الطرابلسي مراسلات بينهما، تعرض لمحن كثيرة أهمها محنة أسره عندما احتل السعديون مدينة تنبكتو أسرَتْ جميع عائلة آقيت وكثيرا من العلماء نقلوا إلى مراكش أين بقي في السجن عامين كاملين، أين فرضت عليه الإقامة الجبرية بأمر من السلطان أحمد المنصور الذهبي إلى أن توفي المنصور وجاء ابنه زيدان فأفرج عنه وأذن لهم بالرجوع، حيث بقي في مراكش مدة من الزمن مدرسا وقاضيا إلى أن رجع إلى بلاده تنبكتو قضى فيها عشرين سنة يعلم الناس ويفتي ويقضي بينهم إلى أن توفي يوم الخميس السادس من شعبان سنة (١٠٣٦هـ / ١٦٢٧م)، أما تلاميذه فهم كثر في تنبكتو ومراكش، منهم القاضي أبو القاسم بن أبي النعيم الغساني قاضي فاس المتوفي (١٠٣٢هـ / ١٥٢٤م)، والقاضي أبو العباس أحمد بن محمد المقرئ التلمساني صاحب نفح الطيب المتوفي (١٠٤١هـ / ١٥٨٤م)، أبو العباس احمد بن محمد أبي العافية المكناسي المتوفي (١٠٢٩هـ / ١٦١٩م) الشهير بابن القاضي وقد شغل منصب قاضي مكناس وله كتاب جذوة الاقتباس الشيخ محمد عبدالله الر جرجي المتوفي (١٠٢٢هـ / ١٦١٣م) كان مفتي مراكش، وأبو العباس أحمد بن علي بن محمد السوسي البوسعيدي (١٠٤٦هـ / ١٦٣٦م). ينظر: المقرئ أحمد بن محمد، روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، ط٢، ١٩٨٣، ص٣١١، و القادري محمد بن الطيب، نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، ج٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط٢، ٢٠٠٨، ص ١٥١. والقشاش سعيد، أعلام من الصحراء، دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط١، ١٩٩٧، ص٢٧.

١. السعدي ، تاريخ السودان ، مصدر سابق ، ص: ١٤٤.

٢ محمود كعت ، تاريخ الفتاش ، مصدر سابق ، ص: ١٥٥/١٥٦.

٣ هو شاب قيل أنه من أصول إسبانية أو برتغالية، نشأ في لاس سوفيلاس من أعمال غرناطة وقع في أسر المغاربة وهو صغير فكبر في القصر السلطاني في مراكش (قصر المنصور) كان قصير القامة ازرق العينين، عرف عنه الحزم والعزم والقوة، امتاز بجباية الخراج وحسن الإدارة والتنظيم . ينظر: السعدي: ص ١٣٧، ابن القاضي المكناسي: جذوة الإقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، ص٢٣٥.

السلطان المغربي رسالة إلى الفقيه " أبا حفص عمر بن محمود بن عمر أقيت ، ت١٠٠٣هـ ، يبرر له أسباب الحملة ويحض الناس على الدخول في طاعته ، ولزوم الجماعة ، لأن هذا لا يحدث إلا بمساعدة الفقهاء . الذين اظهروا رفضهم الى هذا الغزو واعتبروه اعتداء على بلاد إسلامية، خاصة أسرة آل أقيت^٢ التي كانت تعارض بشدة هذا الوجود مما اضطر المغاربة إلى ممارسة العنف والتهجير ضد

١. القاضي عمر بن محمود (ت ١٠٠٣هـ / ١٥٩٤م: هو أبو حفص عمر بن محمود بن عمر بن محمد أقيت تولى منصب القضاء في تنبكتو سنة (٩٣٣هـ / ١٥٨٥م) بعد رفضه له وإلحاح كبير من طرف الأسكيا محمد، كان عالما متضلعا في الفقه والحديث والسير والتاريخ وأيام الناس، بلغ الغاية القصوى حتى قال عنه بعض معاصريه من الشيوخ: " أنه لو كان موجودا زمن ابن عبد السلام بتونس لاستحق أن يكون مفتيا فيها، ولما تولى القضاء في تنبكتو أقام تسع سنين حتى وفاته، أخذ العلم عن مجموعة من العلماء منهم والده الفقيه القاضي محمود، وأخذ عنه جماعة من علماء السودان وهو من القضاة الذين حلت بهم كارثة الغزو المغربي وأخذ أسيرا إلى مراكش التي توفي بها عام (١٠٠٣هـ / ١٥٩٤م). ينظر: السعدي، مصدر سابق، ص ٣٤، البرتلي، فتح الشكور مصدر سابق، ص ١٧٨، أبوبكر إسماعيل ميقات، الحركة العلمية والإصلاحية في السودان الغربي من ٤٠٠هـ إلى ١١٠٠هـ، مكتبة التوبة، الرياض المملكة العربية السعودية، ١٩٩٧، ص ١٩٦.

٢ يرجع أصل هذه الأسرة الى قبائل مسوفة الصنهاجية التي سكنت الصحراء ،وتعود تسمية هذه الأسرة الى الجد الأول محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحي الصنهاجي المسوفي الشهير بأقيت،الذي وصل الى منطقة ماسنةقأدمأ من الشمال و استقر بها لفترة من الزمن ثم رحل عنها الى ولاتهبسبب ماتعرض له من مضايقات من طرف الفلانين ،ويعد ولاته ذهب الى تنبكتو واستقر بأبنائه الثلاثة عمر ،واحمد ،ومحمود ، وذلك لضمان العلم والتربية السليمة فيها نظراً لما كانت تتمتع به من إشعاع علمي وثقافي في هذه الفترة (ق ٨هـجري) ،تربى هؤلاء الأبناء الثلاثة في تنبكتو حيث تلقوا التربية والتعليم ،مما أكسبهم مكانة علمية واجتماعية جعلت منهم محل إقتداء ورياسة ،وقد اشتهر منهم عمر الذي فر من تنبكتو إثر حملة سني علي على تنبكتو ومحنة العلماء ،فاضطر للهروب الى ولاته مجدداً واستقر بها مخلصاً أولاده الثلاثة عبد الله وأحمد ومحمود، فعاد الاثنان أحمد ومحمود الى تنبكتو لتكميل مسيرتها العلمية ،ويعتبر هؤلاء الاولاد الثلاثة ابناء عمر بن محمد الجيل الأول لعائلة آل أقيت التي ترأست المكانة العلمية والفقهية في تنبكتو ،وبلاد السودان الغربي ،وقد خلفوا أجيال من العلماء تولوا مهنة القضاء مثل القاضي محمود بن عمر ت٩٥٥هـ الذي خلف ابناء، محمد والعاقب، وعمر، وكذا القاضي أحمد بن عمر والد أحمد بابا التنبكتي، وقد تولى كل منهما القضاء في تنبكتو، وقد تعرضت هذه الاسر للتهجير بعد النكبة التي أحلت بتنبكتو إثر الغزو السعدي لبلاد السودان الغربيةرحلوا أسارى الي مراكش، وأودعهم المنصور السجن ولم يطلق سراحهم الا في رمضان سنة ١٠٠٤هـ بشرط بقاءهم في مراكش،وعند وفاة المنصور سنة ١٠٠٢هـ، خيرهم ابنه زيدان بين البقاء في مراكش أو الرجوع الى وطنهم فخيروا الرجوع الى تنبكتو.

هؤلاء ونفيهم من تنبكتو إلى مراكش، واستمرت حالة البلاد في مظاهر اللاتفاهم بين السلطة الحاكمة والقضاة مما اضطر السعديين إلى إصدار مراسيم جديدة تقضي بتعيين قضاة موالين لنظام حكمهم وفق سياسة محددة تقضي بتبعية القاضي للباشوية في السودان الغربي بطريقة مباشرة، وللسلطة السعدية في مراكش بطريقة غير مباشرة.

وفي ختام هذه الورقة البحثية التي تناولت دور الفقهاء في إصلاح الجانب السياسي والإداري للسلطة الحاكمة في دولة سنغاي هذه الدولة التي مثلت قفزة فعلية وحضارية في هذه البلاد الشاسعة التي حكمتها أعراف وعادات سلطوية نتيجة للبعد القبلي من جهة والبعد الديني الوثني من جهة أخرى، وقد جاء هذا الإصلاح نتيجة للمكانة التي تبوأها الفقهاء من طرف الحكام بدء من الأسكيا محمد الكبير ومن جاء بعده وهو ما انعكس على المجتمع والسلطة من خلال إصلاح الرعية لا يكون إلا بصلاح الراعي.

قائمة المصادر والمراجع:

- ١- المغيلي محمد بن عبد الكريم، أسئلة الاسكيا وأجوبة المغيلي، تحقيق عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٤.
- ٢- المغيلي محمد بن عبد الكريم: تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين ، للإمام المغيلي ، ت: محمد خير رمضان يوسف دار ابن حزم للطباعة والنشر ، بيروت . لبنان ، ط/١ ، ١٩٩٤ .
- ٣- التنبكتي أحمد بابا: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحرير وتقديم حماد الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ٢٠١٣ .
- ٤- التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، ت: علي عمر ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، مصر ، ط/١ ، ٢٠٠٤ ،

ينظر: السعدي، مصدر سابق، ص ص ٦٦-١٥٥-١٥٨، التنبكتي أحمد بابا، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج ج ٢، تحقيق، محمد مطيع، المكتبة الدينية الرباط، المغرب، ٢٠٠٠، ص ٢٣٨، البارة بنت محمد الطالب: الاسلام وأثره في التحولات السياسية والثقافية لمجتمع سنغاي (٤٠٠هـ/١٠١٠م-٩٩٩هـ/١٥٩١م)، بحث مقدم لنيل شهادة الماستر في التاريخ الإفريقي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة أنواكشوط، موريتانيا، ٢٠١٣-٢٠١٤، ص ٥٩، الذبايات آمنة محمود عودة ، "أحمد بابا التنبكتي ومنهجه في كتابه نيل الابتهاج بتطريز الديباج"، مجلة المشكاة للعلوم الانسانية والاجتماعية" ، العدد ٢ مج ٣، عمادة البحث العلمي، جامعة العلوم الاسلامية العالمية، الأردن، ٢٠١٦، ص ٤١٥ .

- ٥- التنبكتي أحمد بابا، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج ج٢، تحقيق، محمد مطيع، المكتبة الدينية الرباط، المغرب، ٢٠٠٠.
- ٦- البرتلي أبو عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق ، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور ، تحقيق، محمد إبراهيم الكتاني ، ومحمد حجي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت لبنان ١٩٨١ .
- القادري محمد بن الطيب، نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، ج٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط٢، ٢٠٠٨.
- ٧- ابن بطوطة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي : الرحلة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق وتقديم عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية الرباط، المغرب، ١٩٩٧.
- ٨- السعدي عبد الرحمن : تاريخ السودان ، نشر هوداس، باريس، ١٩٦٤.
- ٩- الزركلي خير الدين بن محمود (المتوفى: ١٣٩٦هـ) الأعلام ج١، دار العلم للملايين ، القاهرة، ط١٥، ٢٠٠٢ ،
- ١٠- المقرئ أحمد بن محمد الأنفاس ، روضة الآس العاطرة في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراکش وفاس، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، ط٢، ١٩٨٣.
- ١١- الفشتالي عبد العزيز ، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا ، ت: عبد الكريم غلاب ، مطبوعات الأوقاف والشؤون الإسلامية ، الرباط ١٩٧٧ .
- ١٢- ابن القاضي المكناسي: جذوة الإقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، ١٩٩٧.
- ١٣- بللو محمد، إنفاق الميسور في أخبار بلاد التكرور، تحقيق بهيجة الشاذلي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، ١٩٩٦.
- ١٤- محمود كعت : تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظام الأمور وتقرييق أنساب العبيد من الأحرار، نشر هوداسودولافوس، باريس، ١٩٦٤.
- ١٥- الأحمر أسماء أحمد ، الدين والدولة في مملكة سنغاي الإسلامية (٨٦٩هـ، ١٠٠٠هـ-١٤٦٤م، ١٥٩١م) ، دار الكتب الوطنية ، بنغازي ليبيا ٢٠٠٨ .
- ١٦- الألوري آدم عبد الله، موجز تاريخ نيجيريا، دار مكتبة، بيروت لبنان، ١٩٦٥.
- ١٧- ابن حامد المختار: حوادث السنين أربعة قرون من تاريخ موريتانيا وجوارها، تنسيق أحمد بن أحمد سالم ، دار الكتب الوطنية هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، أبوظبي دولة الإمارات العربية المتحدة ط١، ٢٠١١.
- ١٨- البارة بنت محمد الطالب: الاسلام وأثره في التحولات السياسية والثقافية لمجتمع سنغاي (٤٠٠هـ/١٠١٠م)- ٩٩٩هـ/١٥٩١م)، بحث مقدم لنيل شهادة الماستر في التاريخ الإفريقي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة أنواكشوط، موريتانيا، ٢٠١٣-٢٠١٤.

- ١٩- أوبكر إسماعيل ميّقا، الحركة العلمية والإصلاحية في السودان الغربي من ٤٠٠هـ إلى ١١٠٠هـ، مكتبة التوبة، الرياض المملكة العربية السعودية، ١٩٩٧
- ٢٠- إيهاب شعبان عبد الشافي ، القضاء في دولتي مالي وسنغاي وأثره الحضاري في المجتمع (١٥٩١م، ١٢٣٦هـ، ١٠٠٠هـ ، ١٢٣٨م، ١٥٩١م) ، الإفريقية الدولية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ، ط/١ ، ٢٠١٤ .
- ٢١- أحمد أبو الفتوح عابدين ، الحواضر الإسلامية في غرب إفريقيا في القرنين ١٦م و١٧م ، تاريخها السياسي والحضاري والاقتصادي ، أطروحة دكتوراه ، معهد البحوث والدراسات الإفريقية ، جامعة القاهرة ، مصر ، ١٩٨٩
- ٢٢- الفشاط سعيد، أعلام من الصحراء، دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط١، ١٩٩٧.
- ٢٣- الذبابات آمنة محمود عودة ، "أحمد بابا التتبيكتي ومنهجه في كتابه نيل الابتهاج بتطريز الديباج"، مجلة المشكاة للعلوم الانسانية والاجتماعية" ، العدد ٢مج ٣، عمادة البحث العلمي، جامعة العلوم الاسلامية العالمية، الاردن، ٢٠١٦ .
- ٢٤- الهادي مبروك الدالي: التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء، دار الكتب الوطنية، بنغازي ليبيا، ٢٠٠٢ .
- ٢٥- الغربي محمد: بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، دار الرشيد، بغداد العراق، ١٩٨٢.
- ٢٦- الشامي إبراهيم علي يوسف ، الحج وأثره الحضاري في دولتي مالي وسنغاي (١٥٩١م، ١٢٣٦هـ، ١٠٠٠هـ - القاهرة، مصر ٢٠٠٦ .
- ٢٧- بطل شعبان محمد فرياني ، العامة في دولة سنغاي (١٥٩١م، ١٢٦٤م، ١٠٠٠هـ، ١٨٦٩هـ) ، مذكرة ماجستير في الدراسات الإفريقية ، جامعة القاهرة ، مصر ، ٢٠١١ .
- ٢٨- بازينة سالم عبد الله :إنتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، دار الكتب الوطنية بنغازي، ليبيا، ٢٠١٠.
- ٢٩- حسن أحمد محمود ، دور العرب في نشر الحضارة في غرب إفريقيا ، المجلة التاريخية المصرية ، القاهرة ، مج١٤ ، ١٩٦٨ .
- ٣٠- طرخان إبراهيم، دراسات في تاريخ إفريقيا الإسلامية قبل عصر الإستعمار إمبرطورية صنغاي الإسلامية، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٩٨١.
- ٣١- عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، دور الإسلام وحضارته في إفريقيا ، دار اللواء ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ١٩٨٣.
- ٣٢- زبديّة عبد القادر ، مملكة سنغاي في عهد الأسكيبين ١٤٩٣ - ١٥٩٢م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر د. ت. ن.
- ٣٣- سحر عنتر محمد أحمد مرجان ، فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي في عهد دولتي مالي وصنغاي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة مصر، ٢٠١٠.
- ٣٤- مولاي محمد ، العلاقات العلمية بين توات وبين الساحل الإفريقي خلال القرنين ١١هـ و١٢هـ ، ١٧م و١٨م ، رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية ، جامعة وهران ٢٠١٣/٢٠١٤

- ٣٥- محمد مولاي ، القضاء والقضاة في بلاد السودان الغربي من أواخر القرن ٩ هجري حتى ١٢هـ/١٥م-١٨م، أطروحة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران ١ أحمد بن بلة، الجزائر، ٢٠١٨،-٢٠١٩
- ٣٦- مقدم مبروك:الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي مناقبه وآثاره مج ١ دار القدس العربي الجزائر، ط١، ٢٠١١.
- ٣٧- ميقات عبد الرحمن، الحركة الفقهية ورجالها في السودان الغربي من القرن ٨ إلى القرن ١٣ الهجري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ٢٠١١.
- ٣٨- سوري إباطة ، القضاء في سنغاي (٨٩٨هـ ، ٩٩٩هـ -١٤٩٣م،١٥٩١) ، مجلة المؤرخ المصري ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، العدد ٢٨ يناير ٢٠٠٥.

الانشقاق الكبير عام ١٠٥٤م

الأسباب - الوقائع - النتائج

The Great Schism of 1054

Causes - Events - Consequences

انتصار خالد هزاوي

أستاذ مساعد بقسم التاريخ ، جامعة عمرالمختار - البيضاء، ليبيا

Intisar Khalid Hazawi

Assistant Professor, History Department, Faculty of Arts, Omar Al-

Mukhtar University, El-Beida, Libya.

intisar.hazawi@gmail.com

المستخلص

في يوليو عام ١٠٥٤م أرسل البابا ليو التاسع Leo IX (١٠٤٩-١٠٥٤م) بعثة إلى القسطنطينية برئاسة الكاردينال همبرت Humbert (1006-1061م) للتباحث مع بطريرك القسطنطينية ميخائيل كيرولاريوس Michael Cerularius (١٠٤٣-١٠٥٨م) في بعض الطقوس الدينية، احتدم النزاع بين الطرفين وانتهى الأمر بإصدار قرار حرمان ضد البطريرك كيرولاريوس، وبالمقابل قام الأخير بمقاطعة الوفد البابوي وحدث الانشقاق بينكنيسة روما (الكاثوليك) والقسطنطينية (الأرثوذكس). هذه الورقةستدرس الجذور التاريخية للخلافات المذهبية بين الكنيسة منذ منتصف القرن الرابع الميلادي عندما أصبحت المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية حتى مستهل القرن الحادي عشر؛ لتوضيح أن ما حدث عام ١٠٥٤م لم يكن سبباً مباشراً في هذه القطيعة، بل كان حصيلة الاختلاف الثقافي بين المجتمعين الشرقي (الإغريقي) والغربي (اللاتيني).

الكلمات المفتاحية: الجدل الديني، الانشقاق العظيم، الحملة الصليبية الرابعة.

Abstract

In July 1054, Pope Leo IX (1049-1054 A.D.) sent an envoy to Constantinople led by Cardinal Humbert (1006-1061 A.D.) to discuss some religious rituals with the patriarch Michael Cerularius (1043-1059 A.D.) The theological debate ended with the

excommunication of the patriarch of Constantinople and the final division between the Roman Catholic and the Eastern Orthodox Churches. This paper examines the historical roots of the doctrinal differences between the two Churches from the middle of the 4th century A.D., when Christianity became the official religion of the Roman Empire until the beginning of the 11th century, in order to clarify that what happened in 1054 A.D., was not a direct cause of this schism, but rather was a result of the cultural difference between the eastern (Greek) and western (Latin) societies.

Keywords: Theological debate, Great Schism, Fourth Crusade.

المقدمة

اختلف الباحثون في ما إذا كان عام ١٠٥٤ هو تاريخ الانشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية، ويطلق جيبون^١ Gibbon على الحرمان المتبادل بين الطرفين عام ١٠٥٤ "الصاعقة"، ويرى أن هذه الحادثة هي نهاية الانشقاق، ويضيف أن الفشل الذريع في الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤ عمق الانشقاق الذي كان موجودًا بالفعل والذي يُرجعه بدوره إلى الجدل حول إضافة الكنائس الغربية كلمة الابن (*Filioque*) إلى عقيدة الإيمان النيقاوي، في حين يرى سيموندس^٢ Symonds أن الفشل الذريع في عام ١٠٥٤ كانت له عواقب وخيمة على الكنيسة في وقت لاحق، ولكن لم يلاحظه معاصرو كريبولاريوس، ويرجع سيموندس بداية الانشقاق إلى القرن العاشر تحديدًا؛ بسبب الصراع بين فوتيوس وأجانتوس.

¹Edward, Gibbon, *The Decline and Fall of the Roman Empire*, Penguin Books London, 2000, pp. ١٠٨٦-١٠٨٢.

²Symonds, Henry, *The Church Universal and the See of Rome: Study of the Relationship Between the Episcopate and the Papacy up to the Schism Between East and West*, Society for promoting Christian knowledge, London, 1939, pp. 252-270.

ويتفق كلٌّ من هسي^١، ودفوميك^٢ Dvomik وواير^٣ Ware على أنه من الصعب إنكار التأثير التاريخي لعام ١٠٥٤م على الانفصال بين الكنيستين، إلا أن الانشقاق الرسمي والانفصال النهائي كان عام ١٢٠٤م (الحملة الصليبية الرابعة)، ويرى ميندورف^٤ Meyendorff أنه لا يمكن إرجاع الانقسام إلى حادثة بعينها أو إلى تاريخ محدد.

على الرغم من أن بعض المؤرخين المحدثين عدّ هذه الحادثة على أنها سببا لانشقاق بين الكنيستين الغربية والشرقية، في الحقيقة من المتعذر اعتبار ما حدث في عام ١٠٥٤م بداية الانشقاق بين الكنيستين؛ لأن العلاقات بين الطرفين كانت قائمة منذ البداية على الريبة والشك، وكانت أوجه الخلاف بين اللاتين والإغريق في النواحي اللغوية والمذهبية سبباً في ازدياد سوء العلاقات بينهما. يهدف موضوع الورقة الى دراسة اراء المؤرخين والوقائع المشار اليها لمعرفة ما اذا كان حادثة عام ١٠٥٤م هو التاريخ الفعلي لانشقاق بين الكنيستين أو أن أسبابا أخرى ساهمت في الانفصال بينهما. يُعد موضوع القطيعة بين الشرق والغرب من الموضوعات الجديدة بالدراسة؛ لأنه يكشف عن الجذور التاريخية للخلاف بين الطرفين، كما أنه يلقي الضوء على الاختلاف الثقافي بين الشرق والغرب، ليس في القرن الحادي عشر فحسب، بل إنه حصيلة قرون عديدة وأطراف مختلفة.

الخلاف المذهبي حول العلاقة بين الإله الأب و الابن

كان نقل مركز ثقل الإمبراطورية من الغرب إلى الشرق باتخاذ الإمبراطور قسطنطين Constantine (٣٠٥-٣٣٧م) القسطنطينية عاصمة في الشرق عام ٣٣٠م حدثاً مهماً، احتلت

¹Husse, J. M., *The Orthodox Church in the Byzantine Empire*, Oxford:Clarendon, Press, 1986, pp.124-140.

²Dvomik, Francis, *Byzantium and the Roman Primacy*, trans. By Edwin A Quain New York: Fordham University Press, 1966, pp.154-156.

³Ware, Timothy, *The Orthodox Church*, Penguin Books, New York, 1993, p.43.

⁴Meyendorff, John, *Byzantine Theology: Historical Trends and Doctrinal Themes*, Fordham University Press, 1979, p.91

القسطنطينية (روما الجديدة) مركزًا إستراتيجيًا بالغ الأهمية بين قارتي آسيا وأوروبا، وأصبحت أهم مركز للتجارة العالمية، وأخذت العاصمة الجديدة تنافس روما التي سرعان ما فقدت أهميتها. بعد اعتراف الإمبراطور بالمسيحية في مرسوم ميلان^١ Edict of Milan عام ٣١٣ م، حدثت أزمات ومشادات عديدة، ولم تأخذ منذ البدء العمق الذي وصلت إليه إلا بعد أن استطاع الإمبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I (٣٧٩-٣٩٥م) توحيد غرب الإمبراطورية بشرقها وجعلها تحت إدارته، وعند موته في عام ٣٩٥م ترك الإمبراطورية لولديه، فكان الغرب من نصيب ابنه هونوريوس Honorius والشرق لابنه أركاديوس Arcadius وبموته انفصل الشرق عن الغرب إلى الأبد^٢.

عندما زاد الإقبال على اعتناق المسيحية بعد اعتراف الإمبراطور قسطنطين بها كان من الطبيعي أن تجد بذور الخلاف الذي حدث في القرن الرابع الميلادي التربة الخصبة لنمو الخلاف الديني والذي تجلى في النزاع بين أحد قساوسة كنيسة الإسكندرية أريوس^٣ Arius (270-336م) وأسقف كنيسة الإسكندرية أثناسيوس^٤ Athanasius (٣٢٨-٣٧٣م) حول علاقة المسيح (الابن) بالإله (الاب) وذلك عندما أنكر أريوس صفة الشبه بين الأب والابن ورأى أن الابن مخلوق، وبذلك أنكر ألوهية المسيح، في حين رأى خصمه أثناسيوس أن الابن مساوٍ للإله تمامًا، وفي كل شيء^٥.

^١ هو مرسوم أعلن فيه إلغاء العقوبات المفروضة على المسيحيين والسماح لهم بممارسة حريتهم الدينية. توفيق، عمر كمال تاريخ الدولة البيزنطية، تقديم محمود سعيد عمران، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000، صص ٥٦-٥٧.

^٢ Limberis, Vasiliki, *Divine Heiress: The Virgin Mary and the Creation of Christian Constantinople*, Routledge, London, 1994, p.8.

^٣ كان أريوس أحد قساوسة مصري القرن الرابع الميلادي، وراعي كنيسة بوكاليس بالإسكندرية. توفيق، المرجع السابق، ص ٦٩.

^٤ أثناسيوس هو أسقف كنيسة الإسكندرية في القرن الرابع الميلادي. المرجع نفسه، ص ٧٠.

^٥ Williams, Rowan, *Arius: Heresy and Tradition*, SCM Press: London, 2001 p. 98; Behr, John, *Nicene Faith*, St. Vladimir Seminary Press Crestwood, New York, 2004, p.138.

أدى هذا النزاع إلى عقد مجمع نيقيا Nicaea ٣٢٥م وتمخض عن هذا المجمع ما يعرف بـ (قانون الإيمان النيقاوي) الذي أكد أن "يسوع ابن الله المولود من الأب، إله من إله، مولود غير مخلوق ومن ذات الجوهر". وتم الاعتراف بثلاثة كراسٍ بطيركية في العالم المسيحي وهي: روما، الإسكندرية، وأنطاكية.^١ وأضاف اللاتين فيما بعد -دون استشارة الشرق- إلى نص العقيدة المسيحية لفظ " Filioque " من الابن"وبذلك يجعل من الروح القدس صادرًا من الإله الابن صدوره من الإله الأب.^٢ على الرغم من أن ذلك المجمع أدان تعاليم الأريوسية وحرّمها فإنه لم يقض عليها، ففي عام ٣٨١م دعا الإمبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I إلى المجمع مسكوني ثاني في القسطنطينية أكد فيه تحريم بدعة أريوس، كما أقر المجمع أن اسقف القسطنطينية يلي في المكانة بابا روما في الكنيسة^٣، وعلى الرغم من أن هذا القرار لم يهدد أسقف روما فإن العلاقات بدأت تسوء بين روما والقسطنطينية عندما عقد البابا داماسيوس الأول Damasius I (٣٦٦-٣٨٤م) مجمعًا محليًا في روما عام ٣٨٢م رفض فيه وبشدة ما جاء في مجمع القسطنطينية، وأكد ما أقرّه مجمع نيقيا بالنسبة للكراسي الأسقفية^٤.

الخلاف حول الطبيعة الإلهية والبشرية للمسيح

ما لبث أن حدث جدال جديد في الكنيسة الشرقية حول طبيعة المسيح الإلهية والبشرية، ويرى أصحاب هذا المذهب (مذهب الطبيعة الواحدة) أن الطبيعة البشرية للمسيح ذابت في الطبيعة الإلهية، وأصبحتا طبيعة واحدة. دعا الإمبراطور ماركيان 450-457 (م) إلى عقد مجمع

¹Chadwick, H "Faith and order at the Council of Nicaea: A Note on the Background of the Six Canon", *The Harvard Theological Review*, Vol.53, 3, 1960, pp. 171-195.

². Novak, Ralph Martin, *Christianity and the Roman Empire: background texts*, Trinity Press International, Harrisburg, 2001, p.277.

³Baynes, N.H & Moss, L. B, *Byzantium: An Introduction to East Roman Civilization*, Oxford University Press, Oxford, 1962, p.96.

⁴Greenslade, S.L, *Schism in the Early Church*, SCM Press, London, 1964, pp.82-83.

مسكوني رابع في خلدونيا Chalcedon (مدينة في آسيا الصغرى) عام ٤٥١م وتقرر فيه تحديد العقيدة المسيحية وأن للمسيح طبيعتين دون اندماج أو تغيير أو انقسام^١، وجاء في هذا المجمع أيضًا قرار يمنح أسقف القسطنطينية الامتيازات التي يتمتع بها أسقف روما، ولكن البابا ليو الكبير (440- Leo the Great ٤٦١م) قابل القرار بالرفض والاحتجاج وعده تجاوزًا لما جاء في مجمع نيقيا^٢. في فترة حكم الإمبراطور زينو Zeno (٤٧٤-٤٩١م) توصل بطريرك القسطنطينية أكاكوس Acacius (٤٧١-٤٨٩م) إلى صيغة مرسوم عُرف بمرسوم الاتحاد Henotikon من أجل التوفيق بين المذهب الرسمي (الخلدونى) وأصحاب الطبيعة الواحدة، تقرّر فيه الاعتراف بما صدر في قرارات المجامع المسكونية الثلاث (نيقيا، القسطنطينية، خلدونيا)، وتجنّب فيه الإشارة إلى عبارة الطبيعتين أو الطبيعة الواحدة، ولم تعترف البابوية بهذا المرسوم، فأصدر البابا قرار الحرمان ضد بطريرك القسطنطينية مما جعل البطريرك يرد عليه بإسقاط اسمه من الصلوات والأدعية في الكنيسة. ويعد هذا الحدث أول انقسام بين الكنيستين الغربية والشرقية^٣.

إن سوء العلاقات بين الكنيستين لم يكن على وتيرة واحدة بل تخللته العديد من المحاولات من بعض الأباطرة البيزنطيين من أجل إقامة علاقات ودية مع كنيسة روما، مثل الإمبراطور جستنيان الأول Justinian I (٥٢٧-٥٦٥م) وفي هذا الصدد يرى فازيليف Vasiliev^٤ أن لحكومة جستنيان وجهين يطل أحدهما على الغرب يلتمس التوجه إلى روما، بينما سعى الوجه الآخر إلى

¹Meinardus, O.F.A., *Two Thousand Years of Coptic Christianity*, The American University Press, Cairo, 2002, p.53; Baynes, & Moss, L. B., *op.cit*, p.99.

²Sarkissian, Karekin, *The Council of Chalcedon and the Armenian Church*, S.P.C.K., London, 1965, p.53; Meinardus, *op.cit*, p.53; Meyendorff, John, *Christ in Eastern Christian Thought*, Crestwood, St. Vladimir's Seminary, New York, 1975, p.29.

³Diehl, G, *Byzantium, Greatness and Decline*, Rutgers University Press, New York, 1975, pp.211-212.

التماس الحقيقة من [أصحاب الطبيعة الواحدة]^١، وقد حاول الإمبراطور جستنيان إعادة العلاقات الدينية مع كنيسة روما، ويعد هذا الإجراء خطوة أساسية في التمهد لتحقيق طموح جستنيان السياسي في الغرب، مع الاستمرار في محاولة إعادة المونوفستية إلى الكنيسة الأرثوذكسية وتوطيد علاقته بروما وجعل لقب البابا قاصرًا على أسقف روما^٢.

مرّت الإمبراطورية البيزنطية في بداية القرن السابع بفترة عصيبة بسبب الأخطار الخارجية، كما كانت الأحوال الداخلية على درجة كبيرة من الفوضى، فضلًا عن استمرارية الجدل حول طبيعة المسيح، ولم يألُ الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١م) جهدًا في إعادة الهدوء إلى الكنيسة، فأصدر ما يُعرف بمذهب الإرادة الواحدة المونوثلستية Monotheletism الذي ينص على أن ما للمسيح من طبيعة إلهية وبشرية تتسمان بإرادة واحدة، لكن أماله لم تتحقق، لأن البابا هونوريوس Honorius (٦٢٥-٦٣٨) لم يعترف بمرسوم هرقل، وأعلن أنه بدعة^٣.

حاول خليفة الإمبراطور هرقل قنسطانز الثاني Constans II (٦٤١-٦٦٨ م) مصالحة الكنيسة الغربية، فأصدر مرسومًا يُعرف بمرسوم نوع الإيمان Typos الذي حرم فيه النقاش في قضية الإرادة الإلهية، ولكن سرعان ما ساءت العلاقات بين الإمبراطور قنسطانز والبابا مارتن I Martin (٦٤٩-٦٥٣م) وذلك عندما أدان البابا مارتن في مجلس لاتيران Lateran وبحضور ممثلين من رجال الدين البيزنطيين، رفض مرسوم الإيمان ووصفه كل من كانت له علاقة بتأليفه بالهرطقة (أصحاب البدع)^٤.

¹Vasilive, A., *History of Byzantine Empire*, The University of Wisconsin, Wisconsin, 1961, Vol. 1 p. 149.

²*Ibid*, pp.149-150.

³ص ص 132-133، *الدولة البيزنطية*، دار النهضة العربية، بيروت، العربي، السيد الباز

^٤ المرجع نفسه، ص ١٤٤.

وردًا على موقف البابا في مجلس لاتيران، أمر الإمبراطور أوليمبيوس Olympius حاكم رافينا Ravenna (مدينة إيطالية بإقليم إميليا) -الذي لم يعترف بالبابا مارتن ولا بالطريقة التي وصل فيها لكرسي البابوية- بإلقاء القبض على البابا مارتن، وبعث به إلى القسطنطينية حيث أُدين البابا بتهمة التمرد على الإمبراطور والتحريض على ثورة ضده في الأقاليم الغربية، وتقرر سجنه ثم أرسل إلى منفاه في خرسون Carson (مدينة نائية على الساحل الجنوبي لشبه جزيرة القرم)، حيث مات بعد وصوله بوقت قصير^١.

ألهمت قرارات مجمع تورلان Trullan الذي عُقد في القسطنطينية عام ٦٩١م نار الشقاق بين الكنيستين، الذي دعا له الإمبراطور جستينان الثاني Justinian II (٦٨٥-٦٩٥ / ٧٠٥-٧١١م). وأصدر المجمع قانونًا ينظم ما يخص الطقوس والشعائر مثل الأعياد والمواسم، وكشف المجمع العديد من القرارات التي تمس العلاقة بين الكنيستين، مثل السماح للقس بالزواج، وإبطال عادة صيام السبت^٢.

احتج البابا سرجيوس Sergius (٦٨٧-٧٠١م) على قرارات مجمع تورلان الذي دفع الإمبراطور جستينان الثاني إلى إرسال ممثله إلى روما من أجل القبض على البابا وإرساله إلى القسطنطينية ليحاكم هناك، مثلما حدث مع البابا مارتن، إلا أن الظروف تغيرت إذ لم يعد للإمبراطور من سلطان في إيطاليا، وفي الوقت نفسه زاد مركز البابوية قوة، حتى إن القوات الحربية البيزنطية في روما ورافينا رفضت مطالب ممثل الإمبراطور، وهذا ما دعا الأخير إلى طلب العفو والصفح عن البابا، ولم تتطور الأحداث إلى أبعد من ذلك بسبب عزل الإمبراطور عن العرش البيزنطي^٣.

النزاع الأيقوني

^١ المرجع نفسه، ص ١٤٥.

^٢ Vasilive, op. cit., p. 225.

^٣ *Ibid*, p.225.

في القرن الثامن الميلادي دفعت سياسة تحطيم الأيقونات (الصور المقدسة)، التي تبناها الإمبراطور ليو الثالث Leo III (٧١٧-٧٤١م) إلإذكاء نار الصراع بين الكنيستين، وعلى الرغم من أن الإمبراطور ليو الثالث لم يحاول فرض سياسته المناهضة للأيقونات على المقاطعات الغربية فإنها آثار السخط في إيطاليا، فعقد البابا جريجوري الثالث Gregory III (٧٣١-٧٤١م) مجمّعاً عام ٧٣١م ضمّاً لأساقفة الإيطاليين في روما أصدر فيه قرار حرمان ضد جميع اللاأيقونيين Iconoclasts (المعارضين لعبادة الأيقونات) وكل من يعارض احترام الصور المقدسة بما فيهم الإمبراطور ليو الثالث^١، ردّ الإمبراطور ليو الثالث على هذا القرار بحرمان البابوية من أملاكها وحقوقها في صقلية وجنوب إيطاليا، وفصل الكراسي الأسقفية في هذه الجهات عن السلطات البابا، فترتب على هذا الأمر أن اتسعت الهوة بين القسطنطينية وروما^٢.

من الواضح أن سياسة الأباطرة اللاأيقونيين قد تسببت في ازدياد الخلاف بين البابوية والقسطنطينية، ودفعت الباباستيفن الثاني Steven II (٧٥٢-٧٥٧م) إلإلاستعانة بالفرنجة عندما سقطت رافينا البيزنطية في أيدي اللمبارديين Lambards، وذلك عندما تأكد من عدم جدوى الاستعانة بالدولة البيزنطية لمواجهة الخطر اللمباردي. لقد دفع الخطر اللمباردي الذي زاد اجتياحه على إيطاليا توجّه البابوية نحو الفرنجة وطلب العون منهم لدفع هذا الخطر، وهذا ما ترتب عليه تتويج شارلمان إمبراطوراً في روما عام ٨٠٠م على يد البابا ليو الثالث Leo III (٧٩٥-٨١٦م)^٣.

لا شك أن تتويج شارلمان Charlemagne إمبراطوراً، كان ضربة للبلاد البيزنطي؛ لأن بيزنطة كانت تعد نفسها وريثة الإمبراطورية الرومانية القديمة، لذا رأت أن ارتقاء شارلمان إلى عرش

^١ الأيقونات هي عبارة عن صور وتمائيل القديسين التي كانت تعلق في الكنائس. يبدو أن إفراط الناس في تقديس هذه الصور دعا الإمبراطور ليو الثالث إلى منع الناس من تقديسها. للمزيد انظر عمران، محمود سعيد، معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 2000.

^٢Vasilive, *op.cit*, pp.257-258.

^٣*Ibid.*, p.265.

الإمبراطورية انتهاكًا واغتصابًا لحقّ من حقوقها، فرفضت الاعتراف بالإمبراطور الجديد وعدّته مغتصبًا، وفي الوقت ذاته أصبح البابا في نظر البيزنطيين مجرد شخص متمرّد؛ لأنه قام بتتويج شارلمان^١.

في القرن التاسع الميلادي تم القضاء على الحركة اللاأيقونية وخرج مبدأ عبادة الأيقونات منتصرًا فترة حكم الإمبراطورة ثيودورا Theodora (٨٤٢-٨٥٦م) التي أعلنت عودة عبادة الأيقونات في مجمعيّدينيّعام ٨٤٣م، كما قامت بتعيين أجناتيوس Ignatius (٨٤٧-٨٧٧م) بطريركًا لكنيسة القسطنطينية^٢، ووجد الأخير نفسه في مواجهة مع أكبر رجال الكنيسة فوتيوس، ولم يلبث أن دخل الرجلان في صراع عنيف.

الصراع بين فوتيوس وأجناتيوس

استهلّ بطريك القسطنطينية أجناتيوس أعماله بعزل جريجوري أسبيتاس Gregory Asbestos (رئيس أساقفة سيركوزة) بسبب أعمال كان قد ارتكبها، وعندئذ استغل البابا هذه الحادثة واستدعي جريجوري إلى روما، وبعث إلى أجناتيوس يطلب منه حل قرارات المجلس الذي أُدين فيه جريجوري والتهم التي وُجّهت إليه، غير أن أجناتيوس رفض السماح لروما بالتدخل في شؤون كنيسة القسطنطينية، وبذلك اشتعل لظى النزاع بين الطرفين^٣.

في عام ٨٥٦م انتهت وصاية ثيودورا إثر الانقلاب الذي قام به ميخائيل الثالث Michael III (٨٤٢-٨٦٧م) وخاله بارداس Bardas الذي قام بخلع البطريرك أجناتيوس وتعيين المفكر العلماني ذائع الصيت فوتيوس Photius (٨٥٨-٨٦٧ / ٨٧٧-٨٨٦م) بطريركًا، وقد تم

^١ العريني، المرجع السابق، ص ٢٣٢.

^٢Bury, J.B., *A History of the Eastern Roman Empire*, Cambridge university press, London, 1912, p.179.

^٣Dvornik, Francis, *The Photian Schism, History and Legend*, Cambridge University Press, Cambridge, 1948, p.19.

ترسيمه على يد جريجوري أسبيتاس في كنيسة القديسة أيا صوفيا، ويبدو أن اختيار فوتيوس لجريجوري أسبيتاس لم يكن بالصدفة، بل إنه تعمّد ذلك حتى يضمن وقوف البابوية إلى جانبه. آثار هذا الأمر حفيظة أجناتايوس الذي رأى أن قيام أحد الأساقفة المعزولين (جريجوري) بتوليمر اسم تنصيب بطريرك الكنيسة باطل، بعث البطريرك الجديد فوتيوس برسالة إلى البابا يطلب فيها اعترافه، فأوفد البابا نيقولا الأول (Nicholas I) (٨٥٨-٨٦٧م) مندوبين إلى القسطنطينية لتقصي الحقائق، ويبدو أن البابا وجد في النزاع بين فوتيوس وأجناتايوس فرصة ليفرض نفوذه على كنيسة القسطنطينية^٢، وهكذا بدأت أعنف أزمة داخلية واجهتها الكنيسة البيزنطية والتي سرعان ما امتدت لتؤثر على العلاقات بين كنيسة القسطنطينية وروما.

عُقد مجمع في القسطنطينية عام ٨٦١م وحضره مندوبو البابا للنظر في قضية أجناتايوس، واستعادة المقاطعات التي انتزعتها ليو الأيسوري من البابوية، وبحث المجتمعون في قضية أجناتايوس وبموافقة البابا خلع الأخير واعترف بفوتيوس بطريركاً شرعياً للقسطنطينية، ولكن يبدو أن النتائج لم تنل رضا البابا، لذلك أجل الاعتراف بفوتيوس إلى أن يحصل على هذه المقاطعات، وحينها أدرك فوتيوس أن الثمن الذي يطلبه البابا نيقولا باهظ عندما لم يحدث أي تقدم في أمر المقاطعات السابق ذكرها، فعقد البابا مجمعاً في روما عام ٨٦٣م أعلن فيه أن أجناتايوس هو البطريرك الشرعي للقسطنطينية وحرمان فوتيوس من منصبه وطرده من الكنيسة^٣.

وجاءت قضية الكنيسة البلغارية لتضيف إلى العلاقات الساخنة بين روما والقسطنطينية تعقيدات جديدة، فقد كان البلغاريون المسيحية على يد المبشرين البيزنطيين، بعد أن تنصرت لهم بوريس (Boris) (٨٥٢-٨٨٩م) في القسطنطينية عام ٨٦٤م، وأرسل فوتيوس الكهنة إلى بلغاريا لتتقيف الشعب في أمور الدين ولكنه لم يمنح بوريس الاستقلال الكنسي الذي طالب به، ولما خاب أمل ملك

¹ *Ibid.*, p.52.

² *Ibid.*, p.53.

³ *Ibid.*, p. 107.

البلغار أرسل وفدًا إلى روما طالبًا من البابا نيقولا الأول مالم يتحصل عليه من البطريرك فوتيوس، أرسل البابا إلى بلغاريا جماعة من المبشرين انطلقوا يشجبون الطقوس البيزنطية ويطردون المبشرين الشرقيين ويعيدون تثبيت من قبلوا المعمودية من يد كاهن شرقي، أثار هذا الأمر غضب فوتيوس وأرسل رسالة عنيفة إلى البطاركة الشرقيين يدعوهم فيها إلى القسطنطينية للحكم على البابا نيقولا الأول وشجب بدعة "من الابن" التي تزعم أن انبثاق الروح القدس ليس من الأب فحسب، بل انبثق من الابن أيضًا^١، ووجه في الوقت نفسه رسالة إلى إمبراطور الغرب لويس الثاني يطلب إليه فيها عزل نيقولا عن الكرسي البابوي، وعقد مجمعًا في القسطنطينية عام ٨٦٧ فحرم البابا وأعلن عزله، وبعث وفدًا إلى الإمبراطور الغربي وإلى البابا نيقولا يبلغهما الحكم، ولكن البابا توفي قبل وصول الوفد البيزنطي وفقد فوتيوس منصبه البطريركي إثر الانقلاب الذي أطاح بمنصره الإمبراطور ميخائيل الثالث^٢.

انتهت أحداث ٨٦٧م بمقتل الإمبراطور ميخائيل الثالث واعتلاء الإمبراطور باسيل الأول المقدوني Basil I (٨٦٧-٨٨٦م)، استهل باسيل أعماله بإعادة أجناتيويس إلى البطريركية القسطنطينية وعزل فوتيوس في مجمع القسطنطينية عام ٨٦٩ وعرف هذا المجمع بالمجمع المعادي لفوتيوس، ويبدو أن باسيل قصد من وراء هذا الإجراء أن يوطد حكمه الذي لا يستند إلى حق شرعي، كما أنه أعاد أجناتيويس تحقق له هدفين هما: عودة العلاقات الودية مع روما، والحصول على تأييد أنصار أجناتيويس^٣، أرسل الإمبراطور باسيل سفارة إلى البابا هادريان الثاني (٨٦٧-٨٧٢م)، كان الغرض منها إقامة علاقات طيبة مع البابوية، إلا أن هذه العلاقات كانت قصيرة الأمد بسبب صرف

^١ زيادة لفظ "والابن" في قضية انبثاق الروح القدس. إن أقدم النصوص لقانون الإيمان سواء باللغة اليونانية أم باللغة اللاتينية تثبت انبثاق الروح القدس "من الأب". وفي أواخر القرن السادس أخذت بعض الكنائس في الغرب تصرح بانبثاق الروح القدس "من الأب والابن" للمزيد انظر. Bury, *op.cit.*, p.199.

^٢Dvornik, *op.cit.*, pp. 123-127.

^٣*Ibid.*, p.142.

ملك البلغار للبعثات التبشيرية الكاثوليكية (لعدم حصوله من روما على شروط أفضل بشأن الكنيسة البلغارية) واتجاهه الى القسطنطينية^١، وكان هذا انتصاراً للقسطنطينية وضربة عنيفة لروما. لا شك أن هذا الأمر لأسهم في اتساع الهوة بين الطرفين وإثارة حفيظة روما التي ضحى باسيل في سبيل إرضائها بالبطيريك فوتيوس، الذي - على الرغم من وجوده في منفاه - حرص على إظهار ولائه وإخلاصه للإمبراطور، وهذا ما عجل بعودة أجناتيويسالى القسطنطينية، بل إلى القصر الإمبراطوري في القسطنطينية، حيث عهد إليه الإمبراطور باسيل بتربية أبنائه^٢.

حرص فوتيوس ومناصره على إظهار ولائهم وإخلاصهم للإمبراطور، ويبدو أن الأخير أدرك أن عزل فوتيوس قرار خاطئ، فقام بالتوفيق بين أجناتيويسوفوتيوس عام ٨٦٧. ولما مات أجناتيويس في ٢٣ أكتوبر ٨٧٧ خلفه فوتيوس على كرسي البطريركية، وفي مايو ٨٧٩ بعث الإمبراطور باسيل وفوتيوس رسائل إلى البابا يوحنا الثامن John VIII (٨٧٢-٨٨٢م) من أجل الاعتراف بفوتيوس بطريركا، كان فحوى رسالة البابا- التي جاءت ردًا على الرسائل السالفة الذكر - يتضمن الاعتراف بفوتيوس بطريركًا شرعيًا لكنيسة القسطنطينية، شرط أن يقوم الأخير بالاعتراف عما بدر منه من قبل، وأن يتنازل عن سيادة كنيسة القسطنطينية على بلغاريا^٣.

تولّى فوتيوس جلسات مجمع ٨٧٩-٨٨٠م وجاءت قرارات هذا المجمع مصدقة لإعادة تنصيب فوتيوس بطريركًا، وأنقرار المجمع المعادي لفوتيوس باطل، أيّد باسيل قرارات هذا المجمع كما أيّده بعد ذلك البابا، وبعث برسالة يعلن فيها تعيين فوتيوس رسميًا، ويبدو أن البابا يوحنا قد اتبع سياسة حكيمة في إقامة علاقات ودية مع القسطنطينية، ولعل هدفه من وراء ذلك هو كسب الجانب البيزنطي إنجانبه؛ لأن وسط أوروبا كان يعاني من خطر المسلمين.

¹ *Ibid.*, pp.143-144.

² *Ibid.*, p. 165, Vasilive, *op.cit*, p.331.

³ Dvornik, *op.cit*, pp.174-175.

⁴ Vasilive, *op.cit*, pp.331-332.

لم تنقطع العلاقات بين روما والقسطنطينية، غير أنها لم تكن وثيقة، فلقد تميزت فترة فوتيوس الثانية بالهدوء مقارنة بالفترة الأولى، وأياً كان الأمر فإن بطريركية فوتيوس لم تدم طويلاً بسبب وفاة الإمبراطور باسيل واعتلاء ابنه ليو السادس العرش Leo VI (٨٨٦-٩١٢م)، واعتزل فوتيوس منصبه بناء على طلب الإمبراطور^١.

ويمكن القول بأن ما حدث بين كنيسة القسطنطينية والبابوية جاء نتيجة طبيعية لجميع عناصر الاختلاف الموجود بين العالم الشرقي والغربي، ويمكننا أن نعهده مقدمة عميقة للانفصال بين الكنيستين.

الانشقاق الكبير عام ١٠٥٤م

كانت العلاقات بين القسطنطينية وروما في مستهل القرن الحادي عشر هادئة؛ وذلك لانشغال الإمبراطورية البيزنطية بحروبها في الشرق مع المسلمين والبلغار من جهة، ونتيجة لانحطاط البابوية بسبب تسلط العلمانيين من جهة أخرى، غير أن ذلك لا ينفي حدوث مشاكل عقائدية بين الطرفين فيما بعد، ففي عام ١٠٠٩م بعث البابا سيرجوس الرابع Serguis IV (١٠٠٩-١٠١٢م) بيان إيمانه إلى القسطنطينية، وكان هذا البيان يتضمن إضافة (*Filique*) إلى العقيدة النيقية، وعلى الرغم من أن البطريرك سيرجوس الثاني Serguis II (٩٩٩-١٠١٩م) لم يحتج على الإضافة في بيان الإيمان إلا أنه لم يدرج اسم البابا في قوائم كنيسة القسطنطينية^٢.

¹ *Ibid.*, p.332.

² Trenchard- Smith, Margaret, "East and West: Cultural Dissonance and the Great Schism of 1054", *Huffington Ecumenical Institute*, Loyola Marymount University, Los Angeles, 2006, p. 10.

لم يكن للبابوية أية ردة فعل مباشرة، إلا أنها استغلَّت حفل تتويج الامبراطور الألماني هنري الثاني (١٠٠٢-١٠٢٤م) في روما عام ١٠١٤م حيث أعلنت في هذه المناسبة إضافة الإيمان (انبثاق من الأب والابن) وكانت هذه الإضافة إنذارًا خطيرًا بالنسبة للعلاقات بين روما والقسطنطينية^١. في منتصف القرن الحادي عشر حدثت الشرارة التي ألهمت الخلافات العميقة بين الكنيستين، وذلك عندما تولى كرسي البابوية البابا ليو التاسع Leo IX (١٠٤٩-١٠٥٤م) الذي كان حريصًا على فرض النفوذ البابوي في شؤون كنيسة القسطنطينية، وصادف أن كان بطريك القسطنطينية ميخائيل كريلولاريوس Michael Cerularius (١٠٤٣-١٠٥٨م) الذي تميَّز بحزمه وصلابته، فمن الطبيعي أن تهَيَّ هاتان القوتان فرصة وقوع الانشقاق بين كنيستي روما والقسطنطينية، طلب البطريك ميخائيل من الأسقف ليو كتابة رسالة إلى البابا يشكو فيها الكنائس الكاثوليكية الموجودة في القسطنطينية ويفصح له فيها عن انحرافاتهم في أداء الطقوس الدينية مثل استخدام اللاتين للخبز غير المختمر، وصوم يوم السبت إلى غيرها من الطقوس، وعندما وصلت الرسالة إلى البابا ليو التاسع قام الكرديال همبرت بترجمتها من الإغريقية إلى اللاتينية، والذي ربما قد أساء ترجمة الرسالة مستغلًا جهل البابا للغة الإغريقية، وقد غضب البابا من مضمون الرسالة، وطلب من همبرت إعداد رسالتين إحداهما إلى كريلولاريوس والأخرى إلى أسقف ليو، غير أن إرسالهم لم يتم بسبب توطُّط يوحنا أسقف تراني (نائب بطريك إيطاليا) بين الطرفين، كما نجح الأخير في إقناع البطريك البيزنطي بكتابة رسالة اختلفت في مضمونها وأسلوبها عن الرسالة السابقة^٢. بدأت المراسلات من جديد بين روما والقسطنطينية، وذلك عندما بعث البطريك كريلولاريوس رسالة إلى البابا ليو التاسع واستهلها بمخاطبته بوصفه أخًا وليسأبًا، وفي الوقت نفسه وقَّع

¹ *Ibid.*, p.10.

² Jenkins, R., *Byzantium: The Imperial Centuries 610-1071*, The University of Toronto, Canada, 1987, pp.357-359.

كريولاريوس الرسالة باسم البطريرك المسكوني، أي رئيس الكنائس المسيحية في الإمبراطورية، غير أن همبرت ترجمها على أساس رئيس الكنائس المسيحية في العالم أجمع.

استشاط البابا غضبًا وطلب من همبرت إعداد رسالتين إلى الإمبراطور والبطريرك، وأن يحملها على رأس وفد بابوي إلى القسطنطينية، وصل الوفد إلى القسطنطينية في نهاية أبريل عام ١٠٥٣م برئاسة همبرت الذي أظهر التعالي والكبرياء وعدم الاحترام مما أثار غضب البطريرك البيزنطي، فرفض الاستمرار في مفاوضة الوفد، وبعد عدة أيام من وصول الوفد إلى القسطنطينية تُوِّفي البابا ليو التاسع، وبوفاته لم تعد للوفد أي صفة شرعية من وجهة نظر كريولاريوس الذي احتفظ بصمته طيلة وجود الوفد البابوي في القسطنطينية^١.

في ١٨ يولييه عام ١٠٥٤م أُقيم قُدَّاس في كنيسة القديسة آياصوفيا، حضره مندوبو البابا، واتجهوا نحو المذبح، واضعين فيه قرار الحرمان ضد البطريرك كريولاريوس وأنصاره، وقد ردَّ الأخير على هذا التصرف بأن عقد مجمعًا في القسطنطينية تقرّر فيه قطع مندوبي البابا وكل من يتصل بهم^٢، وهكذا حدثت القطيعة بين الكنيستين.

من الطبيعي أن يترتب على ما حدث عام ١٠٥٤ نتائج سواء بالنسبة لكنيسة القسطنطينية أو الإمبراطورية البيزنطية، فبالنسبة للكنيسة احتفظ بطاركة بيت المقدس وأنطاكية والإسكندرية على ولائهم لبطريرك القسطنطينية الذي ازدادت مكانته في الشرق، غير أن هذا الانشقاق عدَّ ضربة قاصمة للإمبراطورية البيزنطية التي كانت بحاجة لمساعدة روما عندما بدأ السلاجقة (قبائل تركية عُرفت بهذا الاسم نسبة إلى زعيمهم سلجوق بن دقاق، أغاروا على آسيا الصغرى في النصف الأول من القرن الحادي عشر) يهددون أملاك الإمبراطورية في الشرق.

¹ *Ibid.*, p.359.

² *Vasilive, op.cit*, pp.338-339.

ترتب على هذا الانفصال أيضًا فقدان جنوب إيطاليا ووقوعها في يد النورمان بقيادة روبرت جسكارد بمعاونة البابوية عام ١٠٥٩ واعتراف البابا نيقولا الثاني Nicholas II (١٠٥٩-١٠٦١م) بزعيم النورمان جسكارد أميرًا على أبوليا وكالابريا، على أن يعترف الأخير بسيادة البابا في هذه الإمارات^١.

أثر الحملة الصليبية الرابعة على العلاقات بين كنيسة روما والقسطنطينية

تعرضت الإمبراطورية البيزنطية لغارات السلاجقة في عهد الإمبراطور قسطنطين التاسع مونوماخس Constantine IX Monomachs (١٠٤٢-١٠٥٥م) وذلك عندما أغار السلاجقة عام ١٠٤٨ على بعض أقاليم الإمبراطورية مثل أيبيريا وطرابيزون، وحقّق السلاجقة انتصارات باهرة جعلت الإمبراطور مضطرًا إلى القيام بمفاوضات مع زعيم السلاجقة طغرل بك بن سلجوق (٣٨٥ - ٤٥٥ هـ / ٩٩٥ - ١٠٦٣ م) الذي أطلق بموجبها ملك أيبيريا، بيد أن هذا الصلح لم يستمر طويلًا، بدليل شن السلاجقة بقيادة طغرل بك حملة حربية على بعض أقاليم الإمبراطورية البيزنطية وحاصروا ملاذكرد (شمال بلاد الشام) غير أنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها^٢.

عندما وصل الإمبراطور قسطنطين العاشر Constantine X (١٠٥٩-١٠٦٧م) إلى الحكم أهمل الجيش وأنقص من المبالغ المخصصة لهم، وهذا الأمر أدّى إلى إضعاف الجيش، مما شجع السلطان السلجوقي ألب أرسلان (١٠٦٣-١٠٧٢م) على التوغّل داخل أرمينيا واستولى على مدينة آني Any (قلعة حصينة ومدينة بأرمينيا) عام ١٠٦٥م وبالاستيلاء على هذه المدينة^٣ سيطروا على أرمينيا التي كانت الدرع الواقي للإمبراطورية البيزنطية من الشرق، كما هاجموا قيليقية ودمروا

¹ Ibid., Vol.2, p.393.

² Hillenbrand, Carole, *Turkish Myth and Muslim Symbol: The Battle of Manzikert*, Edinburgh University Press, Edinburgh, 2007, pp. 237-238.

³ آين الأثير، عز الدين أبو الحسن (ت ٦٣٠هـ)، *الكامل في التاريخ*، تحقيق عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ج ٨، ١٩٧٩، ص ١٩٧.

مدينة قيصرية في أعالي الفرات عام ١٠٦٧م، وإزاء هذه الانتصارات قام الإمبراطور رومانوس الرابع ديوجينيس Romanus IV Diogenes (١٠٦٧-١٠٧١م) بمحاولةٍ لصدِّ هذا الخطر السلجوقي، فتقدّم على مقربةٍ من ملاذكرد Manzikert (شمال بلاد الشام)، حيث التقى الطرفان في معركة حاسمة عام ٤٦٣هـ / ١٠٧١م، وكان النصر حليف السلاجقة، وحلَّ الدمار بالجيش البيزنطي بقيادة رومانوس الرابع الذي وقع أسيراً في أيدي السلطان السلجوقي ألب أرسلان^١، وتعد هزيمة البيزنطيين في ملاذكرد نقطة تحول في التاريخ البيزنطي، فقررت هذه المعركة مصير آسيا الصغرى، إذ نجح السلاجقة في التوغل فيها وفتحها، ولم تستطع بيزنطة الصمود في وجه السلاجقة في آسيا الصغرى وخاصة في أرمينيا وقبادوقيا، وأذن هذا الأمر بسقوط الإمبراطورية البيزنطية، وعلى حد تعبير المؤلف فريونيس Vryonis "عندما فقدت الدولة البيزنطية ولاياتها الغنية في آسيا الصغرى أصبحت القسطنطينية راساً بدون جسد يسنده" فالضعف الذي آلت إليه الإمبراطورية البيزنطية أدى بدون شك إلى وقوع بيزنطة في دائرة الحروب الصليبية^٢.

جاءت الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤ ووجّه فيها الغرب الضربة القاصمة لبيزنطة، وذلك عندما أراد البابا أنوسنت الثالث Innocent III ، (١١٩٨-١٢١٦م) توجيه حملة صليبية إلى مصر؛ بحجة أنها مركز قوة المسلمين في الشرق الأوسط، وكان من المفترض أن تحمل سفن البنادقة جموع الصليبيين إلى مصر مقابل إعطائهم زارا المسيحية (مدينة على ساحل دالماشيا) ثمناً لذلك. في الوقت الذي استعد الصليبيون للابحار نحو مصر^٣ خلع الإمبراطور إسحق الثاني أثر ثورة في القسطنطينية، وهكذا غيرت البندقية وجهة هذه الحملة من مصر إلى القسطنطينية، وظهر الأسطول

^١المصدر نفسه ، ج ٨ ، صص ٢٢٣-٢٢٥.

^٢Vryonis, Speros, *Byzantium and Europe*, London: Thames and Hudson, 1967, p.136.

^٣ لمزيد من التفاصيل انظر باركر، ارنت ، *الحروب الصليبية*، ترجمة السيد الباز العريني، دار النهضة بيروت، 1967.

^٤. Vasilive, *op.cit*, Vol.2, p. 455.

البندقي على شواطئ القسطنطينية في يناير عام ١٢٠٤م وتمكّن الأسطول من الاستيلاء على المدينة بعد أن فرّ الإمبراطور البيزنطي الكسيوس الثالث (Alexius III ١٢٠٤-١١٩٥-) تاركًا مدينته للسلب والنهب، وقُتل الآلاف من المسيحيين الأرثوذكس، ودُنست الكنائس والأيقونات^١.

لا شك أن الصراع الديني بين الشرق والغرب على مرّ القرون الذي أدّى إلى أحداث ١٢٠٤م قد عبّر عن ميلاد صباح يوم التاسع والعشرين من شهر مايو عام ١٤٥٣م بسقوط القسطنطينية على يد العثمانيين

الخاتمة

إن قطيعة عام ١٠٥٤ ليست وليدة ساعتها ولا صنّعة أشخاص، بل كانت نتيجة طبيعية لتطور تاريخي طويل ومعقد من العلاقات بين الكنيستين الشرقية والغربية، ونتيجة لخلاف حضاري وثقافي تعمّقت جذوره مع مرور السنين، وعندما ننظر إلى الجانب الحضاري يجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أن الحضارة الإغريقية حضارة ذات طابع فلسفي جدلي ولغتها هي اللغة الإغريقية، في حين كانت اللغة اللاتينية هي لغة الغرب الأوربي، ومن الطبيعي أن تؤدي وحدة اللغة إلى وحدة الفكر، فلا غرو أن يطلّ القسم الشرقي من الإمبراطورية من نافذة غير تلك التي يطلّ منها القسم الغربي.

في القرن الرابع بدأ كلٌّ من الشرق والغرب يأخذ ملامحه الخاصة من الوجهتين السياسيّة والثقافيّة، وذلك عندما نقل الإمبراطور قسطنطين الكبير العاصمة إلى القسطنطينيّة وما ترتب عليه منشطر الإمبراطوريّة الرومانيّة إلى شطرين: شرقي وغربي، واعتراف الإمبراطور قسطنطين الكبير بالديانة المسيحية.

إن تذبذب سياسة الأباطرة البيزنطيين الدينية _ التي بدأت منذ وفاة الإمبراطور قسطنطين _ كانت سببًا مهمًّا في حدوث الخلاف بين روما والقسطنطينية.

¹ *Ibid.*, pp.455-456.

وعلى الرغم من محاولة هؤلاء الأباطرة من محاولات رَأب الصداع بين الكنيستين عن طريق المجامع المسكونية التي كانت تعقد من حين إلى آخر، فإن قرارات المجامع المسكونية عززت الخلاف بين الطرفين.

إنَّ أقدم النصوص لقانون الإيمان سواء باللغة اليونانية أم باللغة اللاتينية تثبت انبثاق الروح القدس "من الأب"، وفي أواخر القرن السادس أخذت بعض الكنائس في الغرب تصرّح بانبثاق الروح القدس "من الأب والابن"، كما أن زيادة لفظ "والابن" في قضية انبثاق الروح القدس ألهبت سعي الخلاف بين الطرفين وأسهمت في ابتعاد كل من روما والقسطنطينية عن بعضهما.

لقد زادت السياسة التي انتهجها الأباطرة اللأيقونيين العلاقات تعقيداً، وتفاقم الأمر عندما أقدم البابا على تتويج شارلمان إمبراطوراً للرومان ليلة الميلاد عام ٨٠٠ فكان تتويج شارلمان إمبراطوراً إيداناً بخلع بيزنطية وإقراراً بانقسام المسيحية نهائياً إلى شطرين، وبارتباط البابوية بالعالم الغربي انحصر اهتمام روما في الغرب وأصبحت تدخلته في أمور الشرق نادرة الحدوث، كما اعتاد الشرق أن يستغني عن الاتصال بروما، فنجم عن ذلك تجاهل متبادل وتعصب كل طرفٍ لتقاليدهِ وثقافته الخاصة، فكان ذلك منطلقاً للخصومات ومبعثاً للقطيعة.

وعلى الرغم من القطيعة السياسية بين روما والقسطنطينية ظلَّت البابوية تحظى بمكانة رفيعة في الشرق حتى أواسط القرن التاسع، وقد وجد فيها الرهبان وأنصار الأيقونات عوناً كبيراً في وجه الاضطهاد الذي أثاره الأباطرة إلا أيقونيين، ولكن قضية فوتيوس وأجناتايوس من جهة، والانحطاط الذي أصاب البابوية من جهة أخرى قد أوهن نفوذ البابوية في الشرق.

وفي واقع الأمر لا يمكن فصل حدث فوتيوس عن أحداث قطيعة ١٠٥٤، فالقطيعة بدأت من قبل فوتيوس لكنها تعمّقت بالفعل عام ١٠٥٤.

إن أحداث عام ١٠٥٤ لم تكن انشقاقاً نهائياً بدليل استمرار العلاقات بين الطرفين، وكان من الممكن أن تكون خصومة عابرة كسابقاتها، إلا أن الحروب الصليبية أكّدت هذه القطيعة

ورسختها، وذلك عندما غدت حقد اللاتيني وغيرته من نظيره البيزنطي، وزادت من العناد البيزنطي المتوارث، وهذا الأمر وقف عائقاً دون الوحدة الدينية بين الطرفين. جاءت الحملة الصليبية الرابعة التي اتجهت إلى القسطنطينية وسيطرت على الشرق، وعاملت البيزنطيين معاملة الوثنيين، فزاد النفور بين العالمين، وضعف الصوت المناهض بالوحدة وربط الجسر بين شقي العالم المسيحي، ولما استولى العثمانيون على القسطنطينية لم يعد بالإمكان تعايش الطرفين في كنيسة واحدة.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً المصادر العربية

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن، الكامل في التاريخ، تحقيق عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٩، ج٨.

ثانياً المراجع العربية

العريني، السيدالباز، الدولة البيزنطية، دارالنهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢. توفيق، عمر كمال، تاريخ الدولة البيزنطية، تقديم محمود سعيد عمران، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ٢٠٠٠.

عمران، محمود سعيد، معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ٢٠٠٠.

ثالثاً المراجع الاجنبية

Baynes, N.H & Moss, L. B, Byzantium: An Introduction to East Roman Civilization, Oxford University Press, Oxford, 1962.

Behr, John, Nicene Faith, St. Vladimir Seminary Press Crestwood, New York, 2004.

Bury, J.B., A History of the Eastern Roman Empire, Cambridge university press, London, 1912.

Chadwick, H "Faith and order at the Council of Nicaea: A Note on the Background of the Six Canon", The Harvard Theological Review, Vol.53, 3, 1960.

Diehl, G, Byzantium, Greatness and Decline, Rutgers University Press, New York, 1975.

Dvornik, Francis, The Photian Schism, History and Legend, Cambridge university press, Cambridge, 1948.

Dvomik, Francis, Byzantium and the Roman Primacy, trans. By Edwin A Quain New York: Fordham University Press, 1966.

Edward, Gibbon, The Decline and Fall of the Roman Empire, Penguin Books London, 2000.

Greenslade, S.L, Schism in the Early Church, SCM Press, London, 1964.

Hillenbrand, Carole, Turkish Myth and Muslim Symbol: The Battle of Manzikert, Edinburgh University Press, Edinburgh, 2007.

Hussey, J. M., The Orthodox Church in the Byzantine Empire, Oxford: Clarendon, Press, 1986.

Jenkins, R, Byzantium: The Imperial Centuries 610–1071, the University of Toronto, Canada, 1987.

Limberis, Vasiliki, Divine Heiress: The Virgin Mary and the Creation of Christian Constantinople, Routledge, London, 1994.

Meinardus, O.F.A., Two Thousand Years of Coptic Christianity, The American University Press, Cairo, 2002.

Meyendorff, John, Christ in Eastern Christian Thought, Crestwood, St. Vladimir's Seminary, New York, 1975.

Byzantine Theology: Historical Trends and Doctrinal Themes, Fordham University Press, New York, 1979.

Novak, Ralph Martin, Christianity and the Roman Empire: background texts, Trinity Press International, Harrisburg, 2001.

Sarkissian, Karekin, The Council of Chalcedon and the Armenian Church, S.P.C.K., London, 1965.

Symonds, Henry, The Church Universal and the See of Rome: Study of the Relationship Between the Episcopate and the Papacy up to the Schism Between East and West, Society for promoting Christian knowledge, London, 1939.

Trenchard– Smith Margaret, East and West: Cultural Dissonance and the Great Schism of 1054” Huffington Ecumenical Institute, Loyola Marymount University, Los Angeles, 2006.

Vasilive, A., History of Byzantine Empire, The University of Wisconsin, Wisconsin, Vol. 1&2, 1961.

Vryonis, Speros, Byzantium and Europe, Thames and Hudson, London, 1967.

Ware, Timothy, The Orthodox Church, Penguin Books, New York, 1993.

Williams, Rowan, Arius: Heresy and Tradition, SCM Press: London, 2001.

نماذج من الوثائق السواحلية بزنجبار: دراسة تاريخية، أرشيفية وثائقية مع نشر وترجمة وتحقيق

Examples of Swahili documents in Zanzibar: historical study, archival documentary, with publication, translation and investigation

أ.د.م/ محمد مسعود محمد أبو سالم

أستاذ مساعد بكلية الآداب- جامعة المنصورة - مصر

Dr. Mohamed Masoud Mohamed Abou Salem

Assistant Professor at the Faculty of Arts – Mansoura University

m_abousalem@mans.edu.eg

الملخص

البحث بصدد دراسة لعدد (٥) وثائق سواحلية إبان الحُكم العُماني لزنجبار، سنوات (١٩٢٥م، ١٩٣٢م، ١٩٣٩م) تصرفهم القانوني الرئيس هو طلب مبلغ من وكيل الأيتام لتجهيز عروس، وإشهار زواج، موضوع خاص بالتعامل مع رهن من خلال لجنة تحسين الديون ومفوض الديون بزنجبار، وطرق دفع الأقساط السنوية للمديونية من خلال لجنة ديون الرهن، وكشف حساب المديونية والمنتبقي منه وعدد الأقساط، تمت في فترات زمانية وأماكن مُختلفة من زنجبار، بها اشكاليات مُتمثلة في وجود اختلافات من حيث الصيغ القانونية والدبلوماسية لكل تصرف قانوني، وأخرى متعلقة بتحديد الأماكن الجغرافية بدقة، ووجود بعض مُفردات الحياة والعمل، وعلاقة الدولة بالفرد ووجود مؤسسات اجتماعية خاصة بالأيتام، ولجنة جدولة الديون والرهن، وتسجيل عقود الزواج؛ لضمان حقوق الناس؛ لأنه مجتمع متعدد الجنسيات، وهؤلاء كثيري الترحال، ومن ثم هناك قواعد عامة أُنشئت في كتابة مثل هذه الوثائق في تلك المنطقة الجغرافية من أفريقيا، وكيفية توثيقها وألفاظها وعباراتها المُستخدمة، وأسماء البلدان المذكورة بالوثائق محل الدراسة، وقد اعتمد البحث على المنهج التاريخي التحليلي، وذلك من خلال مُراجعة المصادر الأولية ونقدها نقداً خارجياً وداخلياً، بالإضافة للمراجع الثانوية واستخدام أدوات مثل: الملاحظة التحليلية الناقدة لتلك المصادر، بالإضافة لمُقابلة شخصيات عمانية زنجبارية لتوضيح بعض الأمور في الترجمة من السواحلية إلى العربية، واستخدام المنهج الدبلوماسي للوصول إلى الصيغ والأجزاء القانونية بالوثائق.

الكلمات المفتاحية: الوثائق، اللغة السواحلية، زنجبار، ديون الأرض، الرهن.

Abstract:

Research in connection with a study of (5) Swahili documents during the Omani rule of Zanzibar, years (1925 AD, 1932 AD, 1939 AD), their main legal action is to request an amount from the orphan's agent to equip a bride, and to declare a marriage, a topic related to dealing with a mortgage through the Debt Improvement Committee and the Debt Commissioner in Zanzibar And the methods of paying the annual installments of the debt through the mortgage debt bill, and the disclosure of the debt account, the remainder of it, and the number of installments, which took place in different periods of time and places in Zanzibar, with problems represented in the presence of differences in terms of legal and diplomatic formulas for each legal action, and others related to accurately determining geographical locations And the existence of some vocabulary of life and the currency, the relationship of the state to the individual and the existence of social institutions for orphans, the debts and mortgage scheduling committee, and the registration of marriage contracts; To guarantee people's rights; Because it is a multinational society, and these people are very mobile, and then there are general rules that were followed in writing such documents in that geographical region of Africa, how to document them, their used expressions and phrases, and the names of the countries mentioned in the documents under study, and the research relied on the historical and analytical method, and that is from During the review of primary sources and their critique of external and internal criticism, in addition to secondary references and the use of tools such as: critical analytical notes to those sources, in addition to interviewing Omani Zanzibari personalities to clarify some matters in

translation from Swahili into Arabic, and using the documentary approach, to reach the legal formulas and parts of documents.

Key words: documents, Swahili, Zanzibar, land debts, foreclosure.

حدود الدراسة:

الحدود النوعية: وثائق مساعدة لتجهيز بنت يتيمة للزواج، وتسجيل زواج وجدولة دين على أرض وجدولة رهن وكشف حساب لمديونية.

الحدود المكانية: تتناول الدراسة الوثائق التي حررت بزنجبار بعدة مناطق بها.

الحدود الزمانية: الفترة الزمانية التي تغطيها الدراسة سنوات (١٩٢٥م، ١٩٣٢م، ١٩٣٩م).

الحدود الموضوعية: خاصة وعامة.

الحدود اللغوية: اللغات السواحلية والعربية والإنجليزية.

أهمية الدراسة ومشكلاتها: البحث في الوثائق والعناية بها مرتبط ارتباطاً وثيقاً بنمو الشعور القومي والانتماء المادي والوجداني للوطن لدى الشعوب^(١)، ومصدر أصيل من مصادر سيادة الدولة، وتؤدي الوثائق الدور الأول في دراسة الحدث التاريخي، فهي تكيفه وترسم دقائق كل جزئية من جزئياته، خاصة إذا جاءت على شكل معاملات اجتماعية واقتصادية، مما يعطينا صورة واضحة عن شكل المجتمع ومؤسساته وكيفية تناوله لتلك التصرفات^(٢)، والوثائق التي ارتكز البحث على دراستها هي من هذا النوع، وأهم النتائج التي تتمخض عن أي بحث تكمن في التعميمات أو المبادئ التي تستخلص من الحقائق التي توصل إليها^(٣)، وهو ما حاول الباحث قدر الامكان القيام به.

وتعد تلك الوثائق محل الدراسة مصدراً مهماً لدراسة النواحي الاجتماعية والاقتصادية والإدارية وكذلك اللغوية، وأهميتها تأتي من الناحية الاجتماعية والفقهية والاقتصادية ومؤسسات تلك الدولة في ذلك الوقت، في بيان الفئات العمرية للمتزوجين، ومقدار المهر وأسماء الرجال والنساء ودلالاتها، إذ لكل عصر مسميات تختلف إلى حد ما عن أسماء العصور السابقة واللاحقة، ومن الناحية الاقتصادية فإن المهور وتعثر المواطنين في تسديد مديوناتهم ووجود لجان لتوفيق أوضاع المدينين والرهون وكشوف الحساب متضمناً قيمة الدين وعدد الأقساط تدل على المستوى الاقتصادي للمجتمع وكذلك له دلالة إدارية للدولة، والعملة المستخدمة وقيمتها الشرائية المتداولة تدل على قوة أو ضعف المجتمع الاقتصادي في زنجبار، وكذلك الغلال الزراعية وأثرها على المواطنين في تلك البيئة الزراعية، ومن الناحية الإدارية التعرف على الأوضاع الإدارية في المنطقة ودرجات تصنيفها الإداري، ومن الناحية اللغوية التعرف على أسلوب الكتابة في ذلك الوقت والمصطلحات الجارية عندهم، وبيان اختلاف رسم الخطوط المستخدمة في تلك الوثائق.

والبحث بصدد دراسة لعدد (٥) وثائق سواحلية إبان الحكم العُماني لزنجبار، سنوات (١٩٢٥م)، (١٩٣٢م)، (١٩٣٩م) تصرفهم القانوني الرئيس هو طلب مبلغ من وكيل الأيتام لتجهيز عروس، وتسجيل زواج، موضوع خاص بالتعامل مع رهن من خلال لجنة تحسين الديون ومفوض الديون بزنجبار، وكشف حساب للمديونية والمنتقي منها وعدد الأقساط وكيفية دفع الأقساط السنوية لدين من خلال لجنة ديون الرهن، تمت في فترات زمنية وأماكن مختلفة، بها اشكاليات مُتمثلة في وجود اختلافات من حيث الصيغ القانونية والدبلوماسية لكل تصرف قانوني، وأخرى متعلقة بتحديد الأماكن الجغرافية بدقة، ووجود بعض مُفردات الحياة والعملة، وعلاقة الدولة بالفرد ووجود مؤسسات اجتماعية خاصة بالأيتام، ولجنة جدولة الديون والرهون، وتسجيل عقود الزواج؛ لضمان حقوق الناس؛ لأنه مجتمع متعدد الجنسيات، وهؤلاء

١ الألويسي، سالم، علم تحقيق الوثائق. ج ٢. الوثائق العربية. ١٩٧٦م، ص ٣.

٢ عبد الرحيم، عبد الرحيم، وثائق الأرشيف المصري وأهميتها لدراسة تاريخ شبه الجزيرة العربية والخليج العربي، مجلة الروزنامة، ع ٣، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٥م، ص ٣١٧.

٣ عمران، محمد، مدخل إلى علم التاريخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥م، ص ١٢٨.

كثيري الترحال، ومن ثم هناك قواعد عامة أتبع في كتابة مثل هذه الوثائق في تلك المنطقة الجغرافية من أفريقيا، وكيفية توثيقها وألفاظها وعباراتها المستخدمة، وأسماء البلدان المذكورة بالوثائق محل الدراسة، مع وجود اشكاليات عامة وهي:

هل توجد بالوثائق اختلافات في تناول تلك الموضوعات من حيث: الصيغ القانونية والدبلوماسية كلما اختلف الزمان والمكان وشخص محرر تلك الوثائق.

ما الدليل على سيادة الدولة بتلك الوثائق، وبالتالي ممارسة سلطتها على رعاياها وانصياح هؤلاء الرعايا لهذا الكيان السياسي؟

أهداف الدراسة:

الحصول على حقائق اجتماعية واقتصادية تخبئها تلك النوعية من الوثائق لا توجد في المصادر والمراجع الروائية.

طرق الاثبات والتوثيق.

معرفة هل هذه النوعية من الوثائق دليل على سيادة الدولة وبالتالي ممارسة سلطتها على رعاياها وانصياح هؤلاء الرعايا بهذا الكيان السياسي.

الوقوف على نوعية الديون والرهنات وأسباب ذلك، ومفردات الحياة بزنجبار.

الوقوف على مسألة الزواج وتوثيق عقودها.

وجود مجتمع شبه مدني يدير الحياة الاجتماعية للفقراء والمحتاجين.

الخروج بقواعد عامة أتبع في كتابة مثل هذه الوثائق في تلك المنطقة الجغرافية من أفريقيا إبان الحكم العُماني لها، وكيفية توثيقها وعباراتها وألفاظها المستخدمة.

حصر الأسماء والأماكن الجغرافية بزنجبار والمذكورة بالوثائق.

طرح تفسير موضوعي لمسألة الضرائب والإقراض وكيفية جمعها والأقساط.

تفسير لمسألة عقد وتسجيل الزواج بطفلة صغيرة المذكورة بإحدى تلك الوثائق، وإظهار البُعد الاجتماعي بزنجبار من حيث رعاية الأيتام والقيام على تزويجهم.

منهج البحث وأدواته: اعتمد البحث على المنهج التاريخي القائم على التحليل، وذلك من خلال مراجعة المصادر الأولية والثانوية ونقدها نقدا ظاهريا وباطنيا، مع الاعتماد على بعض الأدوات التي منها:

الملاحظة التحليلية الناقدة لتلك المصادر، وصياغة الفروض، وذلك بدراسة العقود التي اعتمد عليها البحث دراسة أرشيفية وثائقية، واستخدام بعض الأدوات التي منها المقابلات الشخصية لبعض

الشخصيات الزنجبارية في عمان لتوضيح بعض الألفاظ والعادات التي كانت موجودة حينئذ وغير معلومة للباحث، هذا بجانب المنهج القائم على التحليل الوثائقي الدبلوماسي للوصول إلى الصيغ القانونية

المستخدمة في الوثائق، وأجزاءها من خلال الدراسة الأرشيفية الدبلوماسية لهما.

اللغة السواحلية: السواحلية هي لغة سواحل أفريقيا الشرقية، وهي اللغة الرسمية لأربع أمم، يتكلم بها بين (٥ - ١٠) ملايين شخص، وهي من لغات البانتو، وقد أثرت فيها العربية كثيراً، إذ تُشكل الكلمات العربية أكثر من (٣٥%) من مفرداتها، وكانت تُكتب سابقاً بالحروف العربية، وتُكتب حالياً بالحروف اللاتينية^(١)، وفي الفترة التي كانت فيها سلطنة «بات» النبهانية صاحبة السيطرة والنفوذ على معظم أجزاء الساحل الشرقي لإفريقيا في ذلك الوقت ظهر ما يعرف باللغة السواحلية؛ مما أدى إلى وجود تأثير عربي قوي في اللغة السواحلية حتى في المناطق الجنوبية التي تقع في «تنجانيقا» و«زنجبار»؛ حيث ظهرت أفصح أنواع اللغة السواحلية، وأن المهاجرين العرب الذين أقاموا في «لامو» وأنشئوا هذه الإمارة تزوجوا من نساء «البانتو» واضطروا إلى استخدام عدد من الكلمات البانتوية بحكم معيشتهم اليومية مع زوجاتهم، ونشأ أولاد «مولدون» أي نصف عرب ونصف بانتو، مزجوا بين اللغة العربية لغة آبائهم، وبين لغة البانتو لغة أمهاتهم، ومع استمرار التزاوج والاختلاط والمصاهرة تكوّن الشعب السواحلي وظهرت اللغة السواحلية التي أصبحت لغة التجارة^(٢)، ونتيجة استقرار العرب في زنجبار لقرون عديدة، أصبح معظمهم كالسواحليين في ثقافتهم وتقاليدهم وممارساتهم لأعمالهم اليومية، وشيئاً فشيئاً نسي كثير من الشباب الذين ولدوا من هؤلاء العرب لغتهم العربية حتى أصبحت اللغة السواحلية هي السائدة فيما بينهم^(٣).

أثر الخط العربي في السواحلية الزنجبارية: من الضروري وجوب دراسة اللهجات "الشحرية" و"المهرية" و"السواحلية" و"السقطرية"، ولهجات السواحل الأفريقية المقابلة لجزيرة العرب للوقوف على تطور اللغات العربية الجنوبية، وعلى حل رموزها التي لا تزال مغلقة غير معروفة عند علماء هذا اليوم، لما لهذه اللهجات من صلات بالعربية، ومن الضروري دراسة اللهجات العربية الحالية في كل مكان من أمكنة جزيرة العرب، ولا سيما في المواضع التي استخرج العلماء من باطنها نصوصاً مدونة بلهجات عربية قديمة، مثل أعالي الحجاز لنتمكن بهذه الدراسة من حل معضلات تلك الكتابات ومن تكوين رأي علمي واضح عن تطور تلك اللهجات^(٤)، وقد وصل إلينا كثير من المعلومات من الوثائق التاريخية المهمة، وبفضل ما كتبه الرحالة والجغرافيون العرب كالمسعودي، و«الإدريسي»، و«ابن بطوطة» الذي زار مدينة «كلوة» و«ممبسة»، وازدادت الهجرات العربية في عهد هذا البيت العربي الحاكم في «كلوة»، مما جعل الطابع العربي يتغلب على الطابع الفارسي في مظاهر الحياة المختلفة، فاللغة الغالبة هي اللغة العربية

١ إنغرامز، وليام هارولد، زنجبار: تاريخها وشعبها، ترجمة: عدنان خالد عبد الله، راجعه وعلق عليه محمد بن سالم بن عبد الله الحارثي، ط١، دار الكتب الوطنية، ٢٠١٢م، ص ١٠.

٢ سفير للتاريخ الإسلامي، الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، ج٩، د.ن. د.ت، ص ١٠٨.

٣ Burgess, G. Thomas, Race, Revolution, and the Struggle for Human Rights in Zanzibar: The Memoirs of Ali Sultan Issa and Seif Sharif Hamad, Ohio, Ohio University Press, 2009, p32.

٤ سفير للتاريخ الإسلامي، ج٩، مرجع سابق، ص ٢٧٧.

التي كانت تُكْتَبُ بها سجلات «كلوة» بجانب اللغة السواحيلية، وبدأت اللغة السواحيلية في الظهور، واتخذت لها الأحرف العربية^(١)، وتعتبر زنجبار نقطة تركيز إسلامية في شرق أفريقيا تتسم بالثقافة العربية، وهم مرتبطون في قسم منهم بالجنوب العربي أثولوجيا وثقافيا، والمشكلة التي تواجه اللغة العربية هناك أنها مرتبطة بالماضي وتعلمها كأداة لفهم الدين، ونتيجة لاتصال العرب بأهل زنجبار منذ عصور سحيقة، فقد عنوا بدراسة لغتهم "المسماة السواحلية Swahili" ودونها بحروف عربية، وعن طريقهم وصلنا كثير من تفاصيل هذه البلاد^(٢).

وقد لاحظ الباحثون المهتمون بأداب الشعوب الإسلامية في إفريقيا، أن النشاط الفكري وسط هذه الشعوب يبدأ دائما باللغة العربية نفسها، ثم ينشأ على أثره الأدب المعبر عنه باللغات المحلية، كما وجدت عبارات باللغة العربية مكتوبة على شواهد بعض القبور ترجع إلى القرن الثامن الميلادي، ولا يستبعد وجود تراث أدبي مكتوب بالخط العربي قبل هذا التاريخ، لم يتم اكتشافه بعد، وبداية تأليف اللغة السواحيلية كان بالنظم، والنقد بالنصوص التي تم العثور عليها في هذا الفن^(٣)، واللفظ السواحيلي مشتق من اللفظ العربي "السواحل جمع ساحل" ومعناها هنا سكان السواحل، أي السواحل الشرقية لإفريقيا، ويستخدم اللفظ عامة لكل سكان هذه السواحل، وهم خليط من الإفريقيين والعرب والإيرانيين^(٤).

سلطنة كلوة الإسلامية (٣٦٥ - ٩١١ هـ = ٩٧٥ - ١٥٠٥ م): قامت هذه السلطنة نتيجة هجرة قدمت من «شيراز» بفارس، كان على رأسها «علي بن حسن بن علي الشيرازي الفارسي» وأبناؤه الستة؛ حيث كانوا على متن سفنهم بما فيها من بضائع بقصد التجارة، ولما وصلوا إلى «جزيرة كلوة» التي تقع أمام الساحل الشرقي لإفريقيا، واستقروا فيها منذ عام (٣٦٥ هـ = ٩٧٥ م)، ووفد عليهم كثير من العرب، فما كان أن فضل هؤلاء الوافدون المعيشة في الجزر لسهولة الدفاع عنها والاعتصام بها إذا ما حاول الأهالي الساكنون في البر الإفريقي الاعتداء عليهم، وعند وفاة «علي بن حسن» كان نفوذه قد امتد إلى مدينة «سوفالة» في الجنوب، وإلى «مباشة» في الشمال، وازدهرت المدينة خلال القرن التالي بسبب تجارة العاج والذهب الذي كان يُصدَّر من «سوفالة» التي تقع جنوب نهر «الزمبيري»، أي جنوب «كلوة»، وخاصة في عهد السلطان «داود بن سليمان» سلطان «كلوة» (١١٣٠ - ١١٧٠ م)، وبذلك صارت

١ نفس المرجع، ص ١٠٣، ١٥٤.

٢ وافي، علي عبد الواحد، علم اللغة، ط١، نهضة مصر للطباعة والنشر، د.ت، ص ص ٢١٥، ٢١٦.

٣ مناهج جامعة المدينة العالمية، الأدب المقارن، جامعة المدينة العالمية، د.ت، ص ٣٠٤.

٤ الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، مجلة البحوث الإسلامية، ج ٢٧، د.ن، د.ت، ص ٢٢٦.

الزعامة السياسية والاقتصادية لكلوة، ويعتبر القرنان الثاني عشر والثالث عشر الميلاديان هما العصر الذهبي لتلك السلطنة الزنجية الإسلامية، وقام سلطانها بسك النقود^(١).

وقد عرفت كلوة فيما بعد ببر الزنج (زنجبار)، ولم يكن محط القوافل في دار السلام، وإنما كان في بكمويو المجاورة لها، وقد أصبح لقرى السماكين هناك بعض الأهمية لأول مرة عندما شيد السيد ماجد سلطان زنجبار قصرًا فيها عام (١٨٦٢م)، وقد قامت الفتنة العربية الكبرى بزنجبار (١٨٨٨ - ١٨٩٠م)، فلما أخدمت الفتنة وضع الساحل بأسره تحت الحماية الألمانية (أول يناير عام ١٨٩١م) وأصبحت دار السلام مقر الحاكم الإمبراطوري، وكان لعرب حضرموت دور بارز في انتشار الإسلام بزنجبار، وذلك في القرن السابع إن لم يكن قبله، وكان في كلوة عدد من الشوافع عندما زارها ابن بطوطة، ويتبع السنة والمذهب الشافعي الذي أخذ به الأهلون العرب الوافدون من حضرموت والذين كثر مقامهم على طول الساحل، ويسمون عادة الشحريين نسبة إلى أهم ثغور بلادهم، وأحسن منهم من حيث الرتبة الاجتماعية عرب مسقط سادة زنجبار الذين كانوا أصحاب الأرض فيها، وهم من الإباضية، والهنود^(٢).

إمبراطورية الزنج (زنجبار) ودولة (تتزانيا): بلاد الزنج التي تدعى زنجبار، وأعظم مدنها تدعى سفالة الزنج وقنبله^(٣)، وقد احتل البرتغاليون سواحل زنجبار سنة (٩١٥هـ/١٥٠٩م)، ثم تمكن العمانيون من دحرهم وطردهم، ومن ثم بسط نفوذهم على المنطقة^(٤)، وقد قويت الدولة العمانية وجالت بأساطيلها في البحار واتسع نفوذها فسيطرت على زنجبار في أفريقيا ومقاطعات جنوب فارس وبلوشستان تم ذلك في عهد دولة اليعاربة (١٦٢٤ - ١٧٣٨م) العمانية، وفي سنة (١١٥٤هـ/١٧٤١م) حكمت البلاد الأسرة البوسعيدية ومؤسسها هو أحمد بن سعيد (يعتبر مؤسس الدولة العمانية في العهد الحديث) وتوالى حكام عمان من

١ سفير للتاريخ الإسلامي، ج٩، مرجع سابق، ص ١٠٥، ١٠٧، ١٢٠.

٢ هوتسما، م. ت، موجز دائرة المعارف الإسلامية، إعداد وتحرير: إبراهيم زكي خورشيد، ترجمة: نخبة من أساتذة الجامعات المصرية والعربية، مراجعة وإشراف علمي: حسن حبشي، ط١، ج٧، ١٥، ٢٨، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ١٩٩٨م، ص ص ٤٨٢٢، ٤٨٢٣.

٣ ابن فندمه، أبو الحسن ظهير الدين علي بن زيد بن محمد بن الحسين البيهقي، تاريخ بيهق، ط١، دار اقرأ، ١٤٢٥هـ، ص ١٠٨.

٤ العسيري، أحمد معمور، موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام (تاريخ ما قبل الإسلام) إلى عصرنا الحاضر ١٤١٧هـ/٩٦ - ٩٧م، ط١، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٩٩٦م، ص ص ٤٠٠، ٤٠١، وبعد أن نقل أئمة عُمان عاصمتهم إلى جزيرة زنجبار، حملوا معهم الكثير من مواطنيهم ومن الهنود والحضارمة والبلوشيين (أو البلوشيين) واتخذوا منهم حاميات عسكرية وموظفين إداريين ومحصلين للمكوس. (هوتسما، م. ت، مرجع سابق، ص ٨٦٩).

هذه الأسرة^(١)، وكان أعظم حكام عمان لزنجبار السلطان سعيد بن سلطان البوسعيدي (١٢٢١- ١٢٧٣هـ/١٨٠٦- ١٨٥٦م) الذي نقل عاصمته من مسقط إلى زنجبار، فبلغت دولته أعظم نفوذ لها وعظم شأنها، وازدهرت تجارتها بشكل ملحوظ^(٢)، وعلى الرغم من أن سعيد عند توليه حكم زنجبار فقط وجزئاً من بمبه، وربما مافيه، ولامو، وكلوه التي خسرها ثم استردها، فقد أيد سلطته بالقوة على مستعمرات العرب والسواحلية من مقديشو (موكاديشو) إلى رأس إلكادو، وكانت أخطر مقاومة ضده عند مُمباسا؛ ذلك أن القبائل الحامية وقبائل البنتو كانت لا تكاد تعترف بسلطته، بل إن سعيداً - حتى في الجزائر الرئيسية - لم يحصل إلا على الجزية من رؤساء الوهاديمو (موني مكوو) والوبيمبه (الديواني) والوثمباتو (الشها)، وفي السنوات الوسطى من نفس القرن كان الساحل من فنكّه إلى بانيناي (فيما عدا تنكّه) في قبضة سعيد، بالاشتراك مع ملك أوسمبّره الذي أرسل ممثلين أقرهم سعيد في مراكزهم، وأحبط الفرنسيون محاولة سعيد لضم "نوسى به"، وفي سنة (١٢٧٠هـ . ١٨٥٤م) تنازل عن جزائر خوريان موريان للبريطانيين، ولما مات سعيد سنة (١٢٧٣هـ . ١٨٥٦م) بقى ابنه ثويني مهيمناً على مسقط وابنه الآخر ماجد مسيطراً على زنجبار، وأحيل النزاع على لورد كاننك ففضى فيه بأن يحتفظ ماجد بزنجبار وأن يدفع ثويني تعويضاً سنوياً، وأصبح نفوذ الممثل البريطاني سير جون كيرك أعلى نفوذ^(٣)، ونالت الدولة استقلالها سنة (١٣٨٣هـ/١٩٦٣م)، وفي سنة (١٣٨٤هـ/١٩٦٤م) عزل آخر السلاطين البوسعيديين، وأعلنت الدولة جمهورية شعبية، وفي نفس العام انضمت زنجبار إلى تنجانيقا وتكونت جمهورية تنزانيا^(٤)، وتنزانيا الحالية تتكون من منطقتين فأما المنطقة الأولى فهي تنجانيقا والأخرى هي زنجبار^(٥)، وفي عام (١٣٨١هـ/١٩٦١م) استقلت المنطقة الأولى من تنزانيا وهي تنجانيقا، أما المنطقة الثانية وهي زنجبار فقد كانت محمية بريطانية منذ عام (١٣٠٨هـ/١٨٩٠م) وسلطانها عبد الله خليفة ومعه مقيم بريطاني يعد هو السيد الفعلي والحاكم الرسمي، ثم أصبحت سلطنة مستقلة عن الأسرة الحاكمة في عمان عام (١٣٨٣هـ/١٩٦٣م)، ثم لم يلبث أن وقع انقلاب في زنجبار بتاريخ (٢٧ شعبان ١٣٨٣هـ / ١٢ كانون الثاني ١٩٦٣م) وأزاح السلطان جمشيد بن عبد الله، وأعلنت الجمهورية وأصبح عبيد كرومي رئيساً للجمهورية، وفي (١١ اذى الحجة ١٣٨٣هـ / ٢٣ نيسان ١٩٦٤م)، وقعت الحكومة مرسوماً مع تنجانيقا للاتحاد في دولة

١ العسيري، أحمد معمور، مرجع سابق، ص ٤٤١، وقبائل عمان في زنجبار فروع من عمان، قل أن توجد قبيلة في عمان، إلا وقسم منها في زنجبار، وبعض القبائل تزيد أو تنقص سنوياً، وبعضها تستمر على حالها. (السيابي، سالم بن حمود بن شامس بن خميس، إسعاف الأعيان في أنساب أهل عمان، د.ن، د.ت، ص ٤٤).

٢ العسيري، أحمد معمور، مرجع سابق، ص ٤٠٠، ٤٠١، وأنظر: السيابي، سالم بن حمود بن شامس بن خميس، مرجع سابق، ص ٢٢.

٣ هوتسما، م. ت، مرجع سابق، ص ١٩٤١.

٤ العسيري، أحمد معمور، مرجع سابق، ص ٤٠٠، ٤٠١.

٥ السقاف، علوي بن عبد القادر، الموسوعة التاريخية، ج ١٠، د.ن، د.ت، ص ١٢٠.

واحدة حيث نشأت من الاتحاد دولة تنزانيا^(١)، وهذا لا يمنع من أن زنجبار جمهورية مستقلة تبلغ مساحتها (٢٦٥٢) كم، تقع تجاه ساحل تنجانيقا بشرق إفريقيا، تشمل جزر زنجبار، وبمبا، وثلاثة غير مأهولة بالسكان، وزنجبار من أكثر بلاد العالم إنتاجًا للقرنفل، ويرجع أهميتها إلى تميز موقعها؛ فهي نقطة ارتكاز لمنطقة ساحل إفريقيا الشرقي^(٢)، وقد عمل تجار الهند المسلمون بنقل الحاصلات المتوافرة في شرق إفريقيا إلى البلدان المطلة على المحيط الهندي، وإلى الأسواق العربية في مصر والشام والعراق، فأصبحت الدولة على جانب كبير من الثراء، وقد نتج عن هذا الثراء تطور حضاري كبير^(٣)، كما أن أخلاق الإفريقيين، وطباغهم كانت قريبة من طباع العرب الذين اعتاد الأفارقة رؤيتهم ورؤية أحفادهم يوغلون في البلاد ويعملون بالتجارة وينشرون الإسلام والوئام بين الناس، فظهر التألف واتحدت الأهواء والميول، وظهر ما يعرف بالشعب السواحيلي، وقد دعم «النباهنة» هذه الثقافة السواحيلية ذات الطابع الإسلامي وذلك بالعمل على نشر التعليم الديني في المساجد والمدارس والكتاتيب التي وفد إليها كثير من الوطنيين الأفارقة ليحفظوا القرآن الكريم ويتعلموا الكتابة بالحروف العربية، بل ويتعلموا اللغة العربية ذاتها، حتى يتمكنوا من التعمق في فهم عقيدة الإسلام وتراثه الديني واللغوي^(٤).

والإسلام هو الدين السائد في «زنجبار»، وتقدر نسبة المسلمين بنحو (٩٠%) من مجموع السكان، منهم الشافعية ومنهم الشيعة الإسماعيلية والإباضية، وفي كل من «زنجبار» و«بمبا» محكمة شرعية لكل منها قاضيان أحدهما سُني والآخر إباضي، والمساجد كثيرة ولكل طائفة من الطوائف جمعياتها التي ترعى شؤونها ومدارسها ومكاتبها لتحفيظ القرآن، ويوجد في «زنجبار» بعض الآثار العربية والشيرازية^(٥). بعض جوانب الحياة في زنجبار من خلال الوثائق: تضمنت الوثائق طلب مبلغ من وكيل الأيتام لتجهيز عروس، وإشهار زواج، موضوع خاص بالتعامل مع رهن من خلال لجنة تحسين الديون ومفوض الديون بزنجبار، كيفية دفع القسط السنوي لدين من خلال لجنة ديون الرهن، وكشف حساب للمديونية والمتبقي منه وعدد الأقساط، تمت في فترات زمنية وأماكن مختلفة، ومن ثم فقد أظهرت طبيعة الحياة في زنجبار من عدة جوانب، فكانت كالتالي:

المسؤول ووكيل إدارة الأيتام أجنبي وليس عربي وهو مستر سوني، طلبت منه امرأة عربية مسلمة وهي أم فاطمة بنت علي بن عيسى المنذرية (لا نعرف اسم الأم) إعطائها من إحسانه وفضله خمس مائة ربية، وبررت طلبها هذا بأن الهدف هو شراء أغراض لتجهيز عرس ابنتها، وقد كتب هذا الطلب كاتب عربي

١ السقاف، علوي بن عبد القادر، مرجع سابق، ص ١٤٢.

٢ سفير للتاريخ الإسلامي، ج ١١، مرجع سابق، ص ٣٠٧.

٣ نفس المرجع، ص ١٠٨.

٤ نفس المرجع، ص ١١٠.

٥ نفس المرجع، ص ١١١.

بأحرف سواحلية هو محمد بن خلفان بن سالم المعمري بيده في ٢٥ أغسطس ١٩٢٥م، ثم وثيقة زواج بولاية وندوكتك كنفنجه ببimba، أثبت رقمها (٢٧٤٧٤)، وهو رقم بالآلاف ذو مغزى؛ لأنه رقم كبير، أي أن أمر تسجيل وتوثيق عقود الزوج لم يكن أمرا طارئاً ولا فردياً، وإنما كان له سجلات ونماذج معدة مسبقاً، وكذلك يتضح أن هذا الزواج هو رقم (١٤٥) خلال هذه السنة في ولاية بimba خلال عام ١٩٣٢م، مع العلم أن السنة لم تنتهي بعد، فالعقد كان في شهر أكتوبر، وكان الفرق بين عقد الزواج وتسجيله (٧) سبعة أيام، وقد تم ذكر اسم الزوج، ووضح من اسمه أنه ليس عربياً بل سواحلياً وهو: صالح بن ستا مناموينا سليم، وأثبتت عمر الزوجة غير البالغة وكان: (٦) سنوات، أي أنها مازالت طفلة، وهذا يطرح تساؤلاً، هل كان هذا الأمر مستساغاً ومعتاداً في زنجبار في تلك الفترة؟، ثم كان ولي الزوجة: سلطان زنجبار بنفسه (علي بن محمد)، فالبنات سواحلية مولودة عند المزروعي، والوثيقة تثبت لها بصمة هي وزوجها؛ أي أنهما لا يعرفان القراءة ولا الكتابة، ثم أثبت المهر وهو (٤٠) ربية، سلم منه (٧) ربيات عاجلاً، وبقى (٣٣) ربية مؤجلاً، ثم في النهاية توقيع الشهود وهم رجلان أحدهما سواحلي والآخر عربي، ولا نعرف عقوداً للزواج حررت في المجتمعات القبلية خاصة التي تكون منها المجتمع الزنجباري مثل العمانيون واليمنيون في فترة الدراسة، ولكنها عرفت في وقت مبكر من تاريخ مصر، حيث وجدت مجموعة من عقود الزواج المصرية في فترات إسلامية مختلفة معظمها مكتوب على بردي، أو جلد حيوان، وقد وجد تغييراً واضحاً ومن ثم تطوراً في تبويب وشكل عقود الزواج منذ أن كانت شفاهية إلى أن صارت محررة في عقود رسمية؛ لأن مضمون العقد ظل ثابتاً وهو الإيجاب والقبول، واستخدمت هذه العقود عدة قرون، ولم يكن تحريرها وتوثيقها بواسطة نائب الحكم (المأذون) أمراً واجباً في كل الأحوال، فقد بقى العرف والعادة قائمان في إتمام إجراءات الزواج في معظم الحالات عن طريق العقود الشفهية التي ألفها الناس حتى صدرت لائحة ترتيب المحاكم الشرعية بالأمر العالي من الدولة العثمانية بتاريخ (٢٧ مايو ١٨٩٧م)، والتي نصت على تحرير عقود الزواج بواسطة القاضي الشرعي، وكان السبب في صدور هذه اللائحة أن بعض الأتراك الذين تزوجوا من مصريات وأنجبوا أبناءاً تنكروا لهم، ومع ذلك ظلت كثير من المجتمعات المصرية تبتعد عن تحرير عقود الزواج حتى صدر المرسوم بقانون (رقم ٧٨ لسنة ١٩٣١م) مشتملاً على لائحة متكاملة لإجراءات المحاكم الشرعية والأمور المتعلقة بها من حيث تعيين المأذونين الشرعيين وأمور الزواج والطلاق والمواثيق... إلخ، وهكذا أصبح عقد الزواج في مصر وثيقة رسمية موثقة من الدولة منذ (أول أغسطس ١٩٣١م)^(١)، ويجري عقد الزواج من (مليّك) أي مأذون بموجب وثيقة رسمية، وإذا جرى الزواج بدون تلك الوثيقة يعاقب كل من العاقد والزوجين والشهود، ويعاقب

١ الشامي، أحمد، التطور التاريخي لعقود الزواج في الإسلام دراسة مقارنة، جامعة الزقازيق، ١٩٨٢م، ص ١٣، ١٦، ١٨، ٣١، ٣٢.

كل مأذون لا يسجل العقد في وثيقة رسمية بعد استيفاء الرسم^(١)، وما تثبته وثيقة الزواج محل الدراسة أن زنجبار قد اقرت كتابة وتوثيق عقود الزواج وجعلها رسمية في نفس ذات الفترة التي أقرتها مصر وسنت لها قانونا، وربما كان الدافع لذلك نفس الدافع الذي من أجله سنت مصر قانونا للزواج لحماية حقوق المرأة وأطفالها من زواج رجال بنساء زنجبار ثم يتكونهن يواجهن مصيرا مجهولا ويرحلوا داخليا أو خارجيا.

سن الزواج: في البداية لم يتعرض المشرع الوضعي لحلية الزواج بين صغار السن؛ حتى لا يصطدم بالأراء الفقهية السائدة في ذلك الوقت، بل ترك الناس أحرارا يتزوجون كما يشاءون في حدود الأوضاع الدينية في أية سن أرادوا، ولكن بقي مع ذلك دائما أن من يعقد عقدا مستوفيا شروطه الشرعية الأساسية مهما تكن سنه فعقده صحيح شرعا، بل وصحيح قانونا؛ لأنه لو لم يكن كذلك لاعتبرت مقاربة الزوج للزوجة الصغيرة هتك عرض يعاقب عليها قانون العقوبات^(٢)، إذا فالسن القانوني ليس شرطا في صحة عقد الزواج شرعا؛ حيث أن الاتصال المشروع بين الرجل والمرأة أحله الله بالزواج وامتن على الناس بهذه الصلة المشروعة ما دامت المرأة تحتل الزواج وتبعاته، وفي مقابل هذا حرم الصلة غير المشروعة وأغلظ عقوبتها، وتطلب الإسلام شروطا يجب تحققها في العاقدين وفي عقد الزواج ليس من بينها بلوغ الزوجين سنا معينة، وقد تطورت الحال بحيث أصبحت المعيشة المنزلية تتطلب استعدادا كبيرا لحسن القيام بها، ولا تتأهل الزوجة أو الزوج لذلك غالبا قبل بلوغ هذه السن، غير أنه لما كانت بنية الأنثى تستحكم وتقوى قبل استحكام بنية الصبي وما يلزم لتأهيل البنت للمعيشة الزوجية يتدارك في زمن أقل مما يلزم للصبي كان من المناسب أن يكون سن الزواج، فلا يسوغ الادعاء بأن مسألة السن أصبحت بمقتضى كل منهما ركناً أساسياً في عقد الزواج كما قد يتوهم^(٣)، وبما أن الضرورات تبيح المحظورات ودفع المفاسد مقدم على جلب المصالح، فبلوغ الغلام والجارية بالعلامات الشرعية يكونان أهلاً بأنفسهما للتعاقد على الزواج شرعا، متى كانا عاقلين في نطاق أرجح الأقوال في فقه مذهب أبي حنيفة، وإذا رأت الجهة الحكومية إغفال قاعدة سن الزواج كان عليها أن تتبصر هي عقد تزويج طرفي الواقعة عقدا قوليا بإيجاب وقبول شرعيين بحضور الشهود، ويوثق في محضرها^(٤)، وهذا ما ينطبق على وثيقة تسجيل عقد الزواج محل الدراسة.

اشكالية امتلاك العمانيين وغيرهم من العرب للأراضي في مناطق المزارع: يرجع تاريخ امتلاك العمانيين لبعض وديان المناطق الهامشية في زنجبار منذ زمن ولاية السلطان برغش بن سعيد (١٨٧٠-١٨٧٠)

١ السرتاوي، فؤاد عبد اللطيف، الوجيز في الوصايا والموارث، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، ٢٠١٠م، ص ٨٤.
٢ خلاف، عبد الوهاب، أحكام الأحوال الشخصية في الشريعة الإسلامية، ط ٢، دار الكتب المصرية، ١٩٣٨م، ص ٣٥.
٣ الباشا، حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، الدار الفنية للنشر، ١٩٨٩م، ص ٤٢٤.
٤ دار الإفتاء المصرية، فتاوى دار الإفتاء المصرية، ج ١، د. د.، ص ٣٠٣، وأنظر: خلاف، عبد الوهاب، مرجع سابق، ص ٦٥.

١٨٨٨م^(١)؛ حيث أنشأ العمانيون وغيرهم من العرب مزارعهم في الوديان التي تصلح لزراعة الأرز، وتم استئجار وبيع لتلك المزارع؛ حيث كانت تتم مكاتبة بين البائع والمشتري أمام شهود، ويتم تسجيل تلك المكاتبات الرسمية عند الجهات المختصة^(٢)، وقد وزع السيد سعيد لمختلف عشائر العرب الأراضي التي لم يكن أحد يسكنها؛ بل كانت تملأها الأدغال الكثيفة، فإذا مسح أحدهم تلك الأدغال وأنبت أشجار القرنفل، واشتغل فيها لمدة خمس سنوات، يصبح هو المالك لتلك القطعة على حسب التقاليد العرفية التي كانت متبعة في زنجبار^(٣)، أو أن يبيع صاحب المزرعة مزرعته لشخص آخر، ومن خلال هذه المعاملة كان صاحب المزرعة يجد الوثيقة الرسمية التي تثبت للمشتري ملكية تلك الأراضي كما وضعت الحكومة أو الجهات الأخرى^(٤)، ليس هذا فحسب بل لقد عرفت زنجبار أهمية حفظ مثل هذه المعاملات في دفاتر خاصة تسجل فيها بيانات الامتلاك في قوائم توضح أسماء الذين يملكون الأراضي وأماكن وجودها والسنوات التي بدأت فيها معاملة تحويلها، ومتى اكتملت، ولم يكتف الناس بالحصول على وثيقة البيع بل كانت تسجل رسميا في مكاتب معينة أوجدتها الحكومة لهذا الغرض، وتشير هذه العملية إلى اهتمام الزنجباريين بمعرفة المالك الحقيقي لقطع الأراضي، وكيفية الحصول عليها، وبأي ثمن وهكذا^(٥).

اضطرار الملاك إلى الدخول في المديونية: اضطرت الطبقة المالكة للمزارع في القرن التاسع عشر في زنجبار الاعتماد بشكل متزايد على قروض من التجار الهنود، واستمر هذا الوضع مسيطرا على الملاك في القرن العشرين، فتم في عام (١٩٢٣م) إنشاء اللجنة الزراعية والمكلفة بمهمة تقديم توصيات للتخفيف من مديونية ملاك الأراضي العرب، وقد أثر انهيار سعر القرنفل في الأسواق الدولية على المستوى الاقتصادي لملاك الأراضي الزراعية في زنجبار الذين قد استثمروا قدرا كبيرا من رؤوس أموالهم في تنظيف وتوسيع مزارعهم؛ مما أدى للمديونية ورهن مزارعهم لدى المرابين، وفقدان الأراضي عند بعضهم، وأصبح العديد من العرب الذين كانوا يملكون الأراضي مدينين للهنود، وبهذا الأسلوب غير الهنود نمط الحياة التي كانت مألوفة عند الزنجباريين^(٦).

Middleton, John, Land Tenure in Zanzibar, London, Her Majesty's Stationery Office, 1961, ١ p38.

٢ زيدي، عيسى الحاج، دور العمانيين في النهوض بالزراعة في زنجبار والنتائج السياسية والاقتصادية والثقافية ١٨٣٢-١٩٦٣م، ط١، هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية، ٢٠١٥م، ص٦٥.

Burgess, G. Thomas, op. cit, p31. ٣

٤ زيدي، عيسى الحاج، مرجع سابق، ص٧٦.

٥ زيدي، عيسى الحاج، مرجع سابق، ص٧٩.

Sheriff, Abdul, Slaves, Spices and Ivory in Zanzibar, Ohio, Ohio University Press, 1987, ٦ p65, Welliver, Timothy K, The Clove Factor in Colonial Zanzibar, MADISSERTATION, Michigan, U.M.I, 1990, P196.

الرهن وتوفيق أوضاعه: بداية ما لا يجوز بيعه لا يجوز رهنه وارتبائه مثل: الحر، أم الولد، المدير، الخمر، الخنزير، ويشترط في المرهون رهنا حيازيًا أن يكون مقدور التسليم عند الرهن صالحًا للبيع، ويشترط في مقابل الرهن الحيازي أن يكون دينًا ثابتًا ثبوتًا صحيحًا في الذمة أو موعودًا به محددًا عند الرهن، ويشترط لتمام الرهن الحيازي ولزومه أن يقبضه الدائن أو العدل، وللراهن أن يرجع عن الرهن قبل التسليم^(١)، وقد أمدتنا الوثائق (٣، ٤، ٥) بمعلومات غاية في الأهمية عن مسألة الديون على الأراضي الزراعية والرهون وإدراك الدولة لهذه المسألة وتدخلها لسداد تلك الديون على أقساط، ووضع قانون لذلك وإنشاء جهة رسمية لتنفيذ ذلك القانون على رأسها موظف أجنبي، فتقوم تلك اللجنة بحصر من عليهم الديون والرهون وثبات ذلك في وثائق ترسل للشخص المعني متضمنة اسم صاحب المزرعة وهو هنا: عبد الله بن سالم بن حامد المنذري، أي أن العرب أصبح لهم أملاك رسمية في زنجبار، ثم يتم اثبات

١ الأمين، عبد الله الأمين حامد، أحكام بيع الأموال المرهونة: دراسة مقارنة، مجلة كلية الدراسات الإسلامية، ع ٣٤٤، جامعة أم درمان الإسلامية، د.ت، ص ٢٨٣١ - ٢٩٣٦، والرهن يختص بحق يمكنه استيفاؤه من مال الراهن، وما ليس بمال لا يمكنه استيفاؤه من مال الراهن، والرهن بالأعيان على ثلاثة أوجه: (أحدها): الرهن بعين هو أمانة، وهذا باطل؛ لأن موجب الرهن ثبوت يد الاستيفاء للمرتهن، وحق صاحب الأمانة في العين مقصور عليه، واستيفاء العين من عين آخر ممكن (والثاني): الرهن بالأعيان المضمونة بغيرها كالمبيع في يد البائع، وهذا لا يجوز أيضًا، (والثالث) الرهن بالأعيان المضمونة بنفسها كالمغصوب، وهو صحيح؛ لأن موجب الغصب رد العين إن أمكن، ورد القيمة عند تعذر رد العين، وذلك دين يمكنه استيفاؤه من مالية الرهن، وكذلك الرهن بالدرك باطل؛ لأن الدرك ليس بمال مستحق يمكنه استيفاؤه ممن عليه الرهن؛ لأن ضمان الرهن ضمان استيفاء، والاستيفاء لا يسبق الوجوب. (السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل، ١٩٩٣، ص ٧٣)، وينعقد الرهن بالإيجاب والقبول ويتم القبض فإذا قبض المرتهن الرهن محوزًا مفرغًا مميزًا ثم العقد فيه وما لم يقبضه فالراهن بالخيار: إن شاء سلمه وإن شاء رجع عن الرهن فإذا سلمه إليه وقبضه دخل في ضمانه، ولا يصح الرهن إلا بدين مضمون وهو مضمون بالأقل من قيمته ومن الدين فإذا هلك في يد المرتهن وقيمته والدين سواء صار المرتهن مستوفيا لدينه حكما وإن كانت قيمة الرهن أكثر من الدين فالفضل أمانة في يده وإن كانت أقل سقط من الدين بقدرها ورجع المرتهن بالفضل، ويجوز رهن الدراهم والدنانير والمكيل والموزون فإن رهنه بجنسها وهلكت هلكت بمثلها من الدين وإن اختلفا في الجودة والصناعة، ومن كان له دين على غيره فأخذ منه مثل دينه فأنفقه ثم علم أنه كان زيوفًا فلا شيء له عند أبي حنيفة. (القدوري، أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن حمدان أبو الحسين، مختصر القدوري في الفقه الحنفي، تحقيق: كامل محمد عويضة، ط ١، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م، ص ٩٢)، ولا يجوز فسخ العقد في بعض الرهن، ولا رهن ثمرة على رءوس النخيل دون النخيل، ولا زرع الأرض دون الأرض، ولا رهن النخيل في الأرض دونها؛ لأن المرهون متصل بما ليس بمرهون أصلا فكان في معنى الشائع، وكذا إذا رهن الأرض دون النخيل أو دون الزرع أو النخيل دون الثمر؛ لأن الاتصال يقوم بالطرفين، فصار الأصل أن المرهون إذا كان متصلا بما ليس بمرهون لم يجز؛ لأنه لا يمكن قبض المرهون وحده، وعن أبي حنيفة أن رهن الأرض بدون الشجر جائز؛ لأن الشجر اسم للنبات فيكون استثناء الأشجار بمواضعها، ولو رهن النخيل بمواضعها جاز؛ لأن هذه مجاورة وهي لا تمنع الصحة، ولو كان فيه ثمر يدخل في الرهن؛ لأنه تابع لاتصاله به فيدخل تبعًا صحيحًا للعقد، ويدخل الزرع والرطوبة في رهن الأرض، ويدخل البناء والغرس في رهن الأرض والدار والقرية. (ابن الهمام، كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي، فتح القدير، ج ١، دار الفكر، د.ت، ص ١٥٥).

العنوان بشكل مانع للجهالة، ثم قيمة الدين بالشيلنغ، وتاريخ الحصاد، واسم الدائن هنا هو: سليمان بن سعيد بن خميس، ثم تثبت الغرامة وقد حددها القانون بنسبة (٣%) من قيمة الدين الكلي، وفيها إثبات أن هذه الأراضي مرهونة للحكومة، ولذا فقد قررت الحكومة أخذ محصولها من القرنفل للعام (١٩٣٨م)، ومن هنا تبين أنه قد وجدت ديون على ملاك الأراضي للحكومة، وكذلك وجدت ديون لأفراد عاديون خاصة الهنود واجبة السداد، وغير مسموح لصاحب الأرض المزروعة قرنفل بيع المحصول لأي شخص حتى سداد كل الديون في السنة المحددة بالوثائق (١٩٣٨م)، وتم ذلك بناء على تقدير قيمة ما سيدفعه المالك بعد التخفيض، أما ملاك مزارع النخيل فقط فعليهم أن يدفعوا أقساطهم قبل تاريخ الأول من شهر مارس سنويا، مع العلم أنه يتم تقليل قيمة الدفع في السنة التي تقل فيها المحاصيل وتزيد القيمة في السنة التي تكثر فيها المحاصيل، ويتم إعلام الملاك بذلك نهاية كل عام، ومن الممكن تقليل قيمة الديون في حال السداد قبل الميعاد المقرر؛ مما ينتج عنه تقليل نسبة معينة من الفوائد عن كل سنة، والذين لديهم ديون للحكومة لا تؤخذ فوائد منهم كغرامة على المبلغ الذي تم دفعه، ومن ثم ترسل لجنة تحسين الديون للمالك المرهونة أرضه لإعلامه بالقرار الذي اتخذته بتحديد قيمة القسط الواجب دفعه سنويا، وذلك قبل (١٥ أغسطس)، وإذا وافق على شرط اللجنة فيجب عليه الدفع بتاريخ (٢٢ أغسطس) في منطقة شكشك، أو أي منطقة تابعة لها الأرض المديونة، وإذا لم يكن للمالك اعتراض على دفع القسط السنوي فيتم تثبيت القرار بذلك، مع العلم أن القسط السنوي غير قابل للتغيير ولا يمكن تخفيض عدد سنوات الحصاد القديم ولكن يمكن التغيير في عدد سنوات الحصاد الجديد، وهذا الأمر يتم ترتيبه بأمر ممثل الحكومة ويكون في ولايات محددة ويتم إرسال رسائل للملاك بذلك، وكذلك يمكن تقديم طلب تغيير القسط السنوي في أي سنة بشرط أن يكون في الشهور التالية فقط وهي: (مارس وأبريل ومايو)، كما يجب دفع القسط السنوي في شهور (مارس أو أبريل أو مايو) أو قبل ذلك، وجميع الأقساط التابعة لكل سنة يجب كذلك أن تدفع في تلك الشهور أو قبل ذلك، وإذا أرد المالك دفع قسط الدين والإيجار بمبلغ أكثر يكون عدد السنوات أقل بموجب الباب الرابع من القانون المحدد لهذا الأمر، وإذا لم يدفع القسط في أي سنة من السنوات كما حدد للمالك يعتبر ذلك جريمة ومخالفة يعاقب عليها حسب القانون، ومن ثم فقد وضعت الحكومة في زنجبار قانونا نظمت به ديون الأراضي الزراعية وكيفية حصرها وطرق دفع أقساطها ومواعيدها ونسب الغرامات وحددت كذلك عقابا لمن لم ينفذ مواد القانون، ولكن الوثائق لم تذكر ما هو ذلك العقاب، وإذا لم يستطع دفع القسط في التاريخ المحدد (شهور: مارس أو أبريل أو مايو) في أي سنة من السنوات، فيمكنه تعبئة استمارة تأخير الدين قبل شهر مارس، مع ذكر أسباب تأخير الدفع، وبناء عليه تقوم اللجنة بعمل كشف حساب يرسل للمالك حتى يوم تحرير الكشف متضمنا التالي: إجمالي الدين، والمتبقي من الدين، ومجموع الغرامة المتبقية، ومجموع ثمن المزرعة، وعدد الأقساط المقررة على المزرعة.

وقد أوضحت الوثائق مجموعة من النقاط المضيئة في إدارة الدولة بزنجبار بجانب المجتمع المدني التي تشرف عليه الدولة كذلك، وهي كالتالي:

نظمت الدولة إدارة لتنسيق أمور الأيتام والأرامل والصرف عليهم حتى تجهيز البنات للزواج. وثقت الدولة ونظمت عقود الزواج في هذا المجتمع المختلف الأعراق والمذاهب، ونظرا لكثرة انتقالات وترحال أفرادها المتعددة داخليا وخارجيا؛ حتى تحفظ حقوق النساء وأولادهن.

وجود إدارة لتنظيم شؤون الديون على الأراضي الزراعية؛ وعدم ترك المواطن لتتراكم عليه الديون؛ مما يؤدي لتهديد حالة السلم العام والوثام المجتمعي.

أوجدت الدولة إدارة لتنسيق وجدولة الديون الخاصة بالرهن وكيفية سدادها؛ حتى لا تزداد الثروة في يد طبقة الدائنين على حساب المدينين.

الدراسة الأرشيفية للوثائق:

مكونات وشكل الوثائق المادي: الوثائق المنشور بالبحث كلها أصول، وهي عبارة عن تصرفات بين أشخاص معنويين وأشخاص طبيعيين أفرزوها نتيجة تعاملاتهم اليومية وحاجاتهم إليها لحفظ الحقوق، والوثائق عبارة عن أوراق مفردة على ورق أبيض مائل للاصفرار بحالة جيدة، وبه بعض بقع الحبر، مما يؤكد أنه مداد سائل^(١).

كيفية نشأة الوثائق وتراكمها: الوثائق محل الدراسة هي وثائق مفردة، كل منها يحوي تصرفاً قانونياً واحداً، وبطبيعة الحال قد يوجد لها تراكمات بحكم أن هذه التصرفات ديون ورهونات وكشف حساب مديونية، ووثيقتا الزواج والمساعدة قد يكون لها تراكمات من طلاق أو استكمال المساعدة أو ما شابه ذلك، والأصول موجودة بهيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية بسلطنة عمان، حصل عليها الباحث عن طريق تلميذة له موظفة بالهيئة المذكورة، وتوجد صور أخذها الباحث بطلب من جهة عمله، ومسألة التراكمات موجودة بحكم المنطق لكنها عملياً غير متاحة، إلا أن تتوفر عليها جهة رسمية من قبل الدولة، وهذه الوثائق تم جمع ما أمكن منها في مجموعات أرشيفية؛ بأخذها من حوزة أصحابها أو ورثتهم، أو الحصول عليها نتيجة التبادل بين دولة عمان ودولة زنجبار لما لهما من علاقات تاريخية قوية وما زالت إلى الآن، وقامت هيئة الوثائق والمحفوظات بترتيب وفهرسة تلك المجموعات - سواء أكانت أصولاً أم صوراً - ترتيباً موضوعياً؛ مما أخلّ بالترابط العضوي بين مجموعات الوثائق وبمبدأ المنشأ المتعارف عليه، وذلك ضمن مجموعات التصرفات الخاصة المحفوظة بهيئة الوثائق والمحفوظات العمانية، وقد حصلت الهيئة أيضاً على تلك الوثائق إما عن طريق الهدايا أو التنازل عنها للدولة أو بالبيع، أو إعطاء الهيئة صورة منها والاحتفاظ بالأصل لدى مالكيها.

١ بقعة حبر بأعلى الصفحة (وثيقة ١)، بقع حبر كبيرة في أطراف وأعلى الصفحة (وثيقة ٢)، بقعتين حبر أعلى يسار الوثيقة وفي أسفلها ما بين السطرين (١٩، ٢٠) (وثيقة ٣).

المدى الزمني للوثائق: تقع تواريخ تلك التصرفات في الفترة الزمنية: ١٩٢٥م، ١٩٣٢م، ١٩٣٩م. الحالة العامة للوثائق: الورق المستخدم قديماً في الكتابة بعمان ومن ثم بزنجبار يُسمى قرطاس كتابة ومنه الركين والرهياف (الثقيل والخفيف) كُتبت به مكاتيب البيع والصكوك الشرعية والديون والرهن واستمارات الدولة المختلفة، والوثائق محل الدراسة محفوظة بهيئة الوثائق بحالة جيدة ولا تحتاج لترميم في الوقت الحالي (وقت إجراء البحث).

وسائل الإيجاد: توجد وسائل إيجاد لدى الهيئة مثل الفهرس الورقي والفهرس الإلكتروني. تسجيل وتوثيق الوثائق: توثيق العقود بالكتابة: اكتفى المسلمون في سابق عصورهم بعقد التصرفات القانونية بألفاظ مخصوصة، وتوثيقها بالشهادة، ولم يروا آنذاك حاجة لتوثيقها بالكتابة، ومع تطور الحياة وتغيير الأحوال، وما يحتمل أن يطرأ على الشهود من عوارض الغفلة والنسيان والموت، وما يقتضيه واقع الحال في تدوين العقود المتعلقة بأحوال الناس كافة وتوثيقها أصبحت هناك حاجة لتوثيق العقود بالكتابة، مما اقتضى النص في العديد من القوانين على الإلزام بالتوثيق، وفق تنظيم معين، وابتدأت كتابة العقود عند المسلمين خاصة في الزواج عندما بدأوا يؤخرون المهر أو شيئاً منه، وأصبح يدون في هذه الوثائق مؤخر الصداق أحياناً وثيقة لإثبات الزواج، منها نفي التهمة وحفظ حقوق الزوجة والأولاد، ودفع احتمالات الإنكار، ولا مرأى في أن هذا التوثيق أدي في مجتمع مثل المجتمع الزنجباري الذي تعددت فيه أسباب النزاع مما يقتضي توثيق العقود بالكتابة، ولهذا التوثيق منافع منها إمكانية حفظ العقد المكتوب مدة طويلة وغير محدودة، ومنها سهولة الرجوع إليه عند النزاع مما لا يتوافر في الشهود، ومنها معرفة الأمة لتاريخها وتسلسل أجيالها، ناهيك عما يستلزمه تخطيط تنميتها واقتصادها^(١)، وهذا ما انتهجته الحكومة العربية في زنجبار خلال حكمها في كل معاملاتها تقريباً، وهو الأمر الذي ظهر بوضوح بوثائق الدراسة وما تناولته من معاملات اجتماعية واقتصادية وإنسانية، والوثائق محل الدراسة هي وثائق رسمية لذا بها ما يُشير إلى تسجيلها في سجلات أو دفاتر؛ وذلك لاهتمام دولة زنجبار في ذلك الوقت بمسألة التسجيل تلك، فالوثيقة الأصل تظل بالجهة التي أصدرتها، ويأخذ صاحب المعاملة نسخة منها توجد لديه رغم قلة عدد المتعلمين بالإضافة لعدم توفر آلات النسخ في ذلك الوقت لكنه لوحظ توفر آلات كاتبة تكتب بها الوثائق لدى الجهات الرسمية، ومع وجود مؤسسات قائمة على كتابة تلك العقود أصبح يلزم احتفاظ الجهة المصدرة الاحتفاظ بنسخ من العقود للرجوع إليها عند الحاجة، والوثيقة الأولى في الأساس موجهة لجهة يبدو أنها رسمية حكومية ويقوم على رئاستها شخص أجنبي وهو المستر (سوني)، ومع ذلك واضح من (الوثيقة ٢) أنها عبارة عن استمارة معدة مسبقاً ومعتادة الاستعمال في مثل تلك التصرفات القانونية؛ حيث وضع قانون موضوع مسبقاً وأن أي عقد لا يُعقد به إلا من خلال تلك الاستمارات المعدة لذلك وفي مكان مُعد خصيصاً لتسجيل العقود، وكذلك الوثيقتان الثالثة والرابعة بهما أرقام مهرت بهما في البداية دليل أنهما

١ الطيار، عبد الله، الفقه الميسر، ط١، ج١١، مدار الوطن للنشر، ٢٠١١م، ص ص ٢٦، ٢٧.

خرجتا من جهة رسمية حكومية مسجلة في سجلات ولهما أرقام محددة، وفي نهايتهما التاريخ وتوقيع مفوض الديون (الشخص الحكومي المسؤول) حتى لو كان أجنبي، والوثيقة الخامسة عبارة عن استمارة رسمية بها رقم الوثيقة والسجل وممهورة في النهاية بتاريخ التحرير وتوقيع رئيس لجنة ديون الرهن الأجنبي؛ ربما لأن تلك الأماكن المحددة كان لها إدارة مركزية ونظام إداري مُستقل؛ حيث تم تصميم نموذج لتلك التصرفات؛ لسهولة الوصول إليها حينما يُطلب من ماسكها أو الجهة التي قامت بالتسجيل استخراجها.

أنموذج لبطاقة وصفية للوثيقة الرابعة^(١):

حقل بيان الهوية:

رمز الاسترجاع: OM.NRAA.A.1.2.4.22.31^(٢).

العنوان: رهن بزنجبار بمكواني.

تاريخ الوثيقة: ٢٧ يوليه ١٩٣٩م.

مدى ونوع المادة: وثيقة مُفردة من الورق التخين نوعا ما والمائل للاصفرار.

حقل السياق:

اسم المنشئ: لجنة تحسين الديون بزنجبار.

التاريخ الإداري: ١٩٣٨.

تاريخ نمو الوثيقة لدى منشئها: بدأ إفراز الوثيقة وتدوينها في ١٧ يوليه ١٩٣٨.

تواريخ تراكم الوثيقة^(٣): تم كتابتها والانتهاؤها منها في ١٧ يوليه ١٩٣٨م، ثم لا بد أن يكون استكمال بأن يسدد عبد الله بن سالم قيمة الرهن أم لم يسدده، وبالتالي لا بد من وجود إجراء حيال ذلك، وانتهى بها المآل بهيئة الوثائق والمحفوظات العمومية بسلطنة عمان.

تاريخ الوصاية: موجودة بهيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية بسلطنة عمان، ولها تركيبات لأنه لا بد من وجود إجراء تابع لهذا الرهن إما السداد أو عدم السداد.

حقل المحتوى والبنية:

المجال والمحتوى: رهن.

١ ميلاد، سلوى علي، ترتيب ووصف الوثائق الأرشيفية، مجلة الاتجاهات الحديثة في المكتبات والمعلومات، ٩٤، المكتبة الأكاديمية، ١٩٩٨م، ص ١٠٣، وأنظر: الخولي، جمال إبراهيم، فهرسة الوثائق الأرشيفية، دار الثقافة العلمية، ٢٠٠٢م، ص ٤٤-٧٠، وأنظر: الملحق، الوثيقة ٤.

٢ OM = سلطنة عُمان/NRAA = هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية/A1 = مخزن الوثائق رقم 2/1 = خزانة رقم 4/2 = رف رقم 1/22 = حافظة 22/31 = وثيقة 31.

٣ تاريخ التركيب: هو الفترة المنتهية التي جُمعت خلالها مواد وحدة الوصف بواسطة المنشئ أو التي تُشكل جزءاً من هذه الفترة (الخولي، جمال إبراهيم، مرجع سابق، ص ٣٩).

التقييم والإهلاك: الوثيقة موجودة ضمن مجموعة خاصة بصاحبها المذكور، وتم فرزها وتقييمها ولم يتم الاستغناء عن شيء من مفرداتها لقيمتها التاريخية.

تغييرات التركيمات: رغم أن الوثيقة مفردة مُكتملة الأركان بحد ذاتها، إذ أن لها إجراءات لابد أنه تم اتباعها حيال هذا الرهن وكيفية سداه من عدمه، وقد انتقلت لهيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية بسلطنة عمان ضمن وحدة تخص تصرفات تمت بزنجبار.

طريقة الترتيب: تم الترتيب بطرق مُحددة تبعا لنظام محدد بهيئة الوثائق والمحفوظات. حقل شروط الإتاحة والاستخدام:

الوضع القانوني: بحوزة هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية.

شروط الإتاحة: مُتاح الاطلاع عليها بعد موافقة الهيئة، تبعا لإجراءات محددة تطبقها الهيئة.

حق النشر والاستساخ: مُتاح حسب شروط الهيئة بدون مقابل حتى وقت إجراء البحث.

لغة المادة: السواحلية والعربية.

الخصائص المادية: الوثيقة من الورق الخين نوعا ما والمائل للاصفرار، والابعاد: ٢٠,٥سم(طول) × ١٩,٥سم (عرض)، والحبر الأسود، والوثيقة بحالة جيدة جداً ولا تحتاج الى ترميم ولا توجد بها أي إصابة حشرية، وظروف حفظ الوثائق بهيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية يعتبر جيد جداً، حيث أن المخازن مزودة بأجهزة لحفظ الرطوبة وأجهزة لقياس درجة الحرارة (تتراوح درجة الحرارة بين ١٨° الى ٢٣°) وذلك من أجل توفير بيئة مناسبة لحفظ الوثائق ولا تسمح بنمو الكائنات الدقيقة (الفطريات والبكتيريا)، كما أن المخازن مزودة بكافة الأجهزة في مجال الأمن والسلامة حيث تحتوي على أجهزة إنذار الحريق وأجهزة خاصة تعمل على سحب الأكسجين في حالة نشوب أي حريق.

وسائل الإيجاد: توجد وسائل إيجاد عبارة عن فهرس تقليدي وآخر إلكتروني.

حقل المواد المُتصلة أو ذات الصلة:

مكان الأصول: الوثيقة أصل بحوزة هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية.

وحدات الوصف ذات العلاقة: ضمن مجموعة وثائق سواحلية خاصة بزنجبار بهيئة الوثائق.

حقل التبصرة:

الوثيقة مُحدد بها المعالم الجغرافية من حيث البلد والمنطقة، علاوة على أنها مُسجلة بلجنة تحسين الديون برقم وتاريخ دفتر مُحددان، والوثيقة مكتوبة بالأحرف العربية بالآلة الكاتبة ما عدا توقيع رئيس اللجنة.

الدراسة الدبلوماسية للوثائق: تظهر أهمية الدراسة الدبلوماسية في إمداد الباحثين المتخصصين بالوقوف على الخصائص الخارجية والداخلية للوثائق محل الدراسة، وتتضمن هذه الدراسة:

أولاً: الخصائص الخارجية: تشمل دراسة كل ما يتصل بالمادة المُحرر عليها الوثائق، المادة المُحرر بها، الخط، العلامات المائية، طرق الإخراج وعلامات الصحة والإثبات، وهي كالتالي: الوثائق محل الدراسة جميعها كُتبت على ورق، والخط السائد هو خط الرقعة السريع تخللته بعض كلمات بخط النسخ^(١)، والمسافات عموماً بين السطور متساوية؛ لأن أغلبها مكتوب على الآلة الكاتبة أو عبارة عن نماذج فارغة تملأ، وفي الوثيقة الأولى نجد أن السطور تتجه لأسفل عند نهاياتها قليلاً؛ لأنها كُتبت بخط اليد، وبعضها لم تُترك فراغات أو بياض بين متن الوثيقة وصيغ الإماءات، وتُركت مسافات بيضاء بنهايات الوثائق؛ لاحتمال كتابة مُكاتبات أخرى مُتعلقة بالوثيقة، وأهملت علامات الترقيم اللهم إلا النقطة؛ ولكن الاهتمام بالغ بالتشكيل لطبيعة كتابة اللغة السواحلية بالأحرف العربية.

المواد التي حُررت بها الوثائق: تعددت أنواع الأقلام المُستخدمة في الكتابة بالوثائق فكان منها أقلام من البوص والسدر والغاف، والأحبار المُستخدمة بالوثائق واضحة، والحبر المُستخدم في هذه الوثائق يُسمى المداد^(٢)، والمداد بالوثائق محل الدراسة هو الأسود السائل، أو الأسود الرمادي، والأسود فقط وهو السائد، والحبر الأسود القاتم المُعتاد المصنوع من السناج والصمغ العربي، والقلم المكتوبة به الوثائق عموماً هو القريب من القلم الغليظ نوعاً ما أو الرفيع.

الخطوط المُستخدمة في التدوين: دونت الوثائق محل الدراسة باللغة السواحلية بالأحرف العربية واللغة العربية بخط الرقعة السريع الواضح في أغلب الأحيان الممتزج بخط النسخ، واستُخدمت الأبجدية الأجنبية بخط اليد بأحرف مشبكة والمطبوعة كذلك والمكتوبة بالآلة الكاتبة، واستخدم خط النسخ المُنمق المكتوب باليد والمطبوع بالوثيقتين الثالثة والرابعة.

الأختام والتوقيعات والبصمات: لا يوجد بالوثائق محل الدراسة أختام دولة ولا أختام شخصية، وإنما وجد توقيعات كل من: مفوض الديون بزنجبار ورئيس لجنة ديون الرهن، ولا يوجد سوى بصمات بالوثيقة الثانية للزوجين؛ لأنهما لا يعرفان القراءة والكتابة.

كُتاب الوثائق: كُتبت الوثيقة الأولى بكاملها بخط كاتب واحد هو محمد بن خلفان بن سالم المعمري بدون شهود، والوثيقة الثانية استمارة بها بيانات مطبوعة وأخرى باليد بخط الموظف المسجل وهو علي بن محمد بن حمد الجابري وشاهدين، والوثائق الثالثة والرابعة والخامسة عبارة عن استمارات بها بيانات مطبوعة بالآلة الكاتبة وتم ملأ بياناتها المطلوبة إما باليد أو بالآلة الكاتبة، ولم يذكر بهم من الذي قام بالكتابة، ولكنهم مهمورين بتوقيع مفوض إدارة الديون أو مدير لجنة ديون الرهن، والوثيقتان اللتان ذكر فيهما اسم الكاتب، كان ذلك مباشرة بعد الانتهاء من كتابة التصرف ثم أعقبه بالتاريخ في الوثيقة الأولى، أما الثانية

١ السيد، محمد إبراهيم، مقدمة للوثائق العربية- سلسلة الوثائق والمعلومات، ج ١، ٥، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٨٧م، ص ٣١.

٢ مقابلة مع الشيخ: محمد بن حميد العامري، الحيل الجنوبية، السيب، مسقط، سلطنة عمان، ٢٠١٥م.

فلم يعقبه بشيء، ويسبق ذكر اسمه بالوثيقة الأولى ب(كتبه)، وفي الثانية سبقه بكتابة(صحيح يافسر وندو)، ثم تبع اسمه بالوثيقة الأولى ب(بيده).

المراجعة: الوثائق(٢، ٣، ٤، ٥) الصادرة من إدارات الدولة والتي حررت على استمارات معدة مسبقا كانت تُراجع على يد موظف مسؤول؛ لأن الدولة مسؤولة عما يحرره موظفيها؛ وذلك بإثبات صيغ معينة للدلالة على تلك المراجعة مثل: "صحيح"، أو أن تُكتب الوثيقة على يد مسئول في الدولة أو بأمره، أو أن تكون حُررت على استمارة معدة لذلك خصيصاً سلفاً، أو أن تكون الوثيقة قد حُررت وسُجلت بناء على قانون وفي مكتب مُحدد لذلك؛ حيث الحكومة الزنجبارية قد قررت أنه لا تُثبت العقود إلا بتحريرها على استمارات محددة، والمُخالف لذلك تُعاقبه الحكومة أشد العقاب ولا يعتد بمحرراته.

ثانياً: الخصائص الداخلية: عبارة عن نقد تفسيري تأويلي، وفيه يتعرف الوثائقي على مدى مطابقة المعلومات والحقائق الواردة في الوثيقة للواقع، وما إذا كانت هذه الوثيقة تحتوي على أكاذيب وأخطاء أم لا، وكذلك يُدلنا على مصدر الوثيقة، وتحديد الظروف التي أنتجت فيها الوثائق الصحيحة، وقد كُتبت الوثائق - محل الدراسة - باللغة السواحلية والعربية والإنجليزية.

الخصائص اللغوية: غالباً قد تم مراجعة تلك الوثائق لأنها حررت في جهات رسمية حكومية أو وجهت إليها، مع ملاحظة قلة عدد المُتعلمين في زنجبار في تلك الفترة، هذا بجانب أن اللغة المكتوب بها سواحلية بأحرف عربية، وأن أطراف التصرف في الغالب عرب، وكُتبت الوثائق - محل الدراسة - باللغات السواحلية والعربية والإنجليزية مع وجود كثير من الكلمات العامية المحلية، وبعض الأسماء والألفاظ الأجنبية الموجودة في الترويسات والتمن، وتتسم اللغة المُحررة بها الوثائق بعدة خصائص مُميزة؛ من حيث إثبات الأحرف أو إسقاطها، أو قلبها إلى أحرف أخرى، وتوضح الدراسة الباليوجرافية لخطوط الوثائق وجود ظاهرة لغوية إملائية سائدة في كتاباتها وهي اثبات حركات التشكيل من فتح وكسر وضم وسكون ومد وتوين، كما لوحظ عدم اثبات الهمزات اللهم إلا في الوثيقتين الثالثة والرابعة، واثبتت الهمزات التي هي على نبرة والهمزة على الواو، ولم يكثرث الكتاب كثيراً بالمُفرد والجمع، والمُذكر والمؤنث سواء في الأفعال أو أسماء الإشارة أو الأسماء الموصولة، وتُرسم سنة الصاد والضاد، وأحياناً عند كتابة كلمة تبدأ بألف ولام يُهمل اثبات الألف مثل: كتوبر، لآخر^(١)، وكُتبت مرة الياء المكسورة ياء راجعة كما الكتابة المغربية^(٢)، ووضعت نقطتان تحت الياء كما بكلمة (كنيلي)^(٣)، وأثبتت أسنان السين والشين بخط النسخ، ولم تُثبت بخط الرقعة، وقلبت الهاء المربوطة ألف مثل: سنا^(٤)، وذكر الكتاب أسماء النساء بدون أي

١ وثيقة ٢، سطري ٧، ٨.

٢ الوثيقة الأولى، سطري ١، ٢: تعالى.

٣ وثيقة ١، سطر ٥.

٤ وثيقة ٢، سطر ١٠.

تحرز بشكل مانع للجهالة؛ وذلك لضرورة العقد وهي "سليمة بنت متوانه مولاة المزروعي"، وتحتوي الوثائق على الكثير من الاصطلاحات والأماكن الجغرافية المستخدمة بزنجبار مثل: (بيمبا، ولاية وندوكتك، زنجبار^(١)، ميزنجاني، جامبانجوم، مكواني، شكشك^(٢)، مفوض الديون، روبية، شيلنغ، لجنة ديون الرهن)، واثبتت بتلك الوثائق الشدة.

علامات الترقيم والشكل: علامات الترقيم هي علامات اصطلاحية تُوضع في أثناء الكلام أو في آخره، كالفاصلة، النقطة وعلامة الاستفهام والتعجب، وكُتاب الوثائق محل الدراسة لم يهتموا بإثبات هذه العلامات اللهم إلا النقطة بالوثيقتين الثالثة والرابعة في نهايات الجمل، أما الشكل فقد أثبتته جميع الوثائق من فتح وضم وكسر وسكون؛ وذلك لطبيعة كتابة السواحلية بالأحرف العربية، ولكنه لم يثبت التتوين. استخدام عناصر عامية زنجبارية: استخدم كُتاب الوثائق الكلمات العامية الزنجبارية في الكتابة مثل: يكي، ييماك، الزيتو، ما شمب... إلخ، هذا بجانب الأماكن الزنجبارية مثل: مكواني، مزنجاني، جامبانجوم، بيمبا، وأهم مفردات العُملة المُستخدمة في الوثائق هي: الروبية، وقد استخدمت بالوثائق (١، ٢) سنوات (١٩٢٥، ١٩٣٢م)، والشيلنغ استخدم في باقي الوثائق سنوات (١٩٣٨، ١٩٣٩م)، وأظهرت لنا الوثائق بعض من الاسماء الزنجبارية الممتزجة بالعربية مثل: (صالح بن ستامنا موينا سليم، سليمة بنت متوانه، علي بن حمد بن محمد بن حاج^(٣)).

استخدام عناصر لغوية عربية: يوجد بالوثائق الكثير من المفردات العربية أو المشتقة منها مثل: (إلى المحب الأكرم المود، الأيتام، سلمه الله تعالى، وبعد، خمسة، كتبه وثيقة^(٤) - تاريخ، أمر، سلطان، صحيح^(٥) - عنوان، تعرف، تأخير، غرام، أصل، دين^(٥) - قبل، لازم، لكن، أبريل، عرض، حال^(٦) - قانون، عداد، حكم^(٧))، كما توجد أسماء عربية مثل: فاطمة بنت علي بن عيسى المنذرية، محمد بن خلفان

١ وثيقة ٢.

٢ وثيقة ٤.

٣ وثيقة ٢.

٤ وثيقة ٢.

٥ وثيقة ٣.

٦ وثيقة ٤.

٧ وثيقة ٥.

بن سالم المعمري^(١)، علي بن محمد بن حمد الجابري^(٢)، عبد الله بن سالم بن حمد المنذري^(٣)، سليمان بن سعيد بن خميس^(٤)، والقبائل العربية مثل: المنذري، المعمري^(٥) - المزروعى^(٦) - الجابري^(٧). استخدام عناصر لغوية أجنبية: استخدمت الوثائق بعض الألقاب والأسماء الأجنبية الذين كانوا مسؤولين عن بعض الإدارات الحكومية مثل: مستر سوني^(٨)، توقيع مفوض الديون بزنجبار^(٩)، توقيع رئيس لجنة ديون الرهن^(١٠).

الألقاب والأدعية في الوثائق: وجد بالوثائق لقب: سلطان زنجبار بالوثيقة الثانية، ووجدت بعض الأدعية مثل: بمنه تعالى، سلمه الله تعالى بالوثيقة الأولى.

صيغ التلحيق: لا يوجد بالوثائق صيغ تلحيق واضحة رغم منطقية ارتباطها بأوراق أخرى مكتملة لها، إلا أنه يمكن أن ندرك أن الأرقام التسجيلية الموجودة بأعلى الوثائق الثالثة والرابعة والخامسة لتسهيل الرجوع إليها عند ارتباطها بما يكملها من وثائق تخصها.

طرق استخدام الأرقام في الوثائق: كُتبت الأعداد بالأرقام الحسابية أو بالأحرف؛ حيث يتم كتابتها حسابياً ثم تُتبع بكتابتها بالأحرف العربية أو تُكتب حسابياً فقط، وأثبت رقم (٦) وكأنه حرف (٤)^(١١)، وأثبت رقم (٤) وكأنه قريب من حرف (F)^(١٢)، وأثبت رقم (٥) شبيهة بحرف (B)^(١٣)، وكُتبت كذلك المبالغ النقدية بالأرقام الحسابية أو بالأحرف العربية أو كلاهما معاً.

طرق تدوين التاريخ في الوثائق: كُتبت الأيام - سواء في التاريخ الهجري أم الميلادي - بالأرقام الحسابية، والشهور العربية كُتبت بالأحرف، أما الإفرنجية فتُكتب بالأرقام، والسنوات العربية والإفرنجية كُتبت بالأرقام، وعند كتابة التواريخ داخل الوثيقة لم تكتب كلمة السنة، ووضع التاريخ بعد اثبات لفظة (في)

١ وثيقة ١.

٢ وثيقة ٢.

٣ وثائق ٣، ٤، ٥.

٤ وثيقة ٣.

٥ وثيقة ١.

٦ وثيقة ٢.

٧ وثيقة ٢.

٨ وثيقة ١.

٩ وثائق ٣، ٤.

١٠ وثيقة ٥.

١١ وثيقة ٢، سطر ١٠.

١٢ وثيقة ٢، سطر ٧.

١٣ وثيقة ٢، سطر ٨.

(بناء راجعة) ويُخط فوقها السنة حسابياً ويُثبت تحتها اليوم حسابياً وذكر الشهر بالأحرف كالتالي (اغست)، وكذلك الوثيقة الثانية ذكر تاريخ تسجيل عقد الزواج باليوم الحسابي ثم الشهر بأحرف عربية ناقصة ثم السنة حسابيا بدون وضع حرف (م) الدال على أنها ميلادية مثل: (٢٦ أكتوبر ١٩٣٢)، أما في الوثائق (٣، ٤، ٥) فقد صيغ التاريخ باليوم والشهر والسنة حسابيا بينهما العلامة (/) ومسبوفا بكلمة (Date) مثل (Date: 15/6/1939)، والوثيقة الثانية هي الوحيدة التي ذكر فيها التاريخ الهجري بالصيغة التالية: (١٨ جماد لآخر ١٣٥١) بدون ذكر حرف (هـ) الدال على السنة الهجرية.

الأجزاء القانونية للوثائق: الوثائق محل الدراسة لم تبدأ بالألقاب وإنما بدأت ب: بالتاريخ أو عنوان تسجيل عقد الزواج، أو اسم صاحب المزرعة، أو ذكر القانون ورقمه المتبع في مسألة دفع أقساط الديون؛ لأنها وثائق إدارية رسمية، فيقول على سبيل المثال: تاريخ ٢ يامواك ١٩٣٨، أو عنوان مكان توثيق شهادة الزواج وهو كفنجه بولاية بيمبا، أو اسم صاحب المزرعة: عبد الله بن سالم بن محمد، أما إن كانت رسالة لشخص ما فقد بدأت بالألقاب؛ لأنها طلب مساعدة من وكيل الأيتام، فكتبت الألقاب التي تليق بالمقدم إليه الطلب مثل: الى جناب المحب الأكرم المود مستر ثم يتبعه باسم المقدم له الطلب، ثم يتبعها بوظيفته (وكيل الأيتام)، ثم الدعاء له (سلمه الله تعالى)، والتعريف بالفاعل القانوني أو التوثيقي: في أغلب هذه الوثائق أتى في نهاية الوثائق، ما عدا الوثيقة الأولى جاء بعد تحديد المبلغ المطلوب وقبل تحديد مصوغات الطلب، وذكرت الوثائق وظائف الأشخاص مثل: وكيل الأيتام، سلطان زنجبار، مفوض الديوم بزنجبار، لجنة ديون الرهن.

١- البروتوكول الافتتاحي: الوثائق عبارة عن طلب إعانة لتجهيز بنت ووثيقة زواج وتقسيط دين وتقسيط دفع رهن وكشف حساب، تخص فاعلين قانونيين عدة وهم المعنيون بها، وقد ذكروا بالوثائق بالتفصيل، ولم يثبت بالوثائق اسم كتابها إلا الوثيقة الأولى فقط؛ باعتبار أن الوثائق الأخرى وثائق إدارية رسمية حررها موظف مختص لم يذكر اسمه.

العنوان: الوثائق محل الدراسة لم يُكتب لها عنواناً في البداية إلا الوثيقة الثانية وهو (تسجيل زواج بالإنجليزية والسواحلية)، وتم وضعة وسط السطر، وكذلك الوثيقة الخامسة؛ حيث وضع عنوانها (قانون جمعية تحسين الديون لتحديد الدفع السنوي بموجب الباب السادس من القانون) وتم وضعه كذلك وسط السطر.

التحية: هي صيغة إنشائية وردت ببعض الوثائق لاستكمال العبارات الواردة بالفاعل القانوني والعنوان، وهي في الغالب عبارات موجزة تعبر عن الشعور الطيب الذي يُكنه موجه الوثيقة تجاه الموجهة إليه الوثيقة، وهذا لا يوجد إلا بالوثيقة الأولى فقط عبارة عن: بمنه تعالى.

النص أو المضمون: مدخل النص أو المقدمة حيث مُسوغات الفعل القانوني، وهي اعتبارات عامة عادية ليس لها صلة بموضوع التصرف، ويوجد هذا الأمر كالتالي: (إلى جناب المحب الأكرم المود) (وثيقة ١)،

أو (العنوان بيمبا كينفجه بيمبا)^(١)، أو (قانون جمعية تحسين الديون في تحديد الدفع السنوي بموجب الباب السادس من القانون)^(٢).

الإشارة أو التنبيه: عبارة عن كلمة أو عدد قليل من الكلمات الغرض منها تنبيه القارئ إلى الفعل القانوني الذي سيجيء فيما بعد مثل: (وبعد) وهذه لم تُذكر إطلاقاً إلا في الوثيقة الأولى فقط؛ وذلك لأنها عبارة عن رسالة مُرسلة لشخص وكيل الأيتام بزنجبار.

العرض: جزء من نص أو مضمون الوثيقة يُصاحب التصرف القانوني أو يسبقه مباشرة، يشرح الظروف الخاصة المباشرة والدوافع الشخصية التي أدت إلى التصرف؛ حيث يأتي بصيغة الماضي، أو المضارع أو الأمر - هذا هو المعتاد في الوثائق المصرية مثلاً- إلا أن العرض في تلك الوثائق محل الدراسة إذا جاء يكون بعد ذكر التصرف القانوني وبعد ذكر الطرف الأول أو الطرف الأول والثاني معاً، ويُذكر كالتالي:

- دافع تزويج بنت يتيمة^(٣).

- دافع جدولة الديون وحرص الدولة على مساعدة أصحاب الأراضي في دفع مديوناتهم^(٤).

٢ - التصرف القانوني: وهو أهم أجزاء الوثيقة على الإطلاق، والتصرف الوارد بالوثائق عبارة عن: طلب مبلغ من وكيل الأيتام لتجهيز عروس، وتسجيل زواج، موضوع خاص بالتعامل مع رهن من خلال لجنة تحسين الديون ومفوض الديون بزنجبار، كيفية دفع القسط السنوي لدين من خلال لجنة ديون الرهن، وكشف حساب للدين والمتبقي منه وعدد الأقساط.

والتصرف القانوني هنا بدأ بأفعال مُحددة هي كالتالي: (نريد بحسبك ولطفك أن تعطيني)^(٥) ثم يذكر بعده المبلغ المطلوب ثم اسم طالبة الإعانة ثم الغرض من الإعانة، أو (تاريخ تسجيل الزواج)^(٦) يسبقه رقم تسجيل الزواج، ثم رقم شهادة الزواج ثم تاريخ الزواج ثم اسم الزوج وعمر الزوجة وولي أمرها والمهر، أو (الحكومة قررت أنك لا تتبع قرنفل هذه المزارع...)^(٧) يسبقه بيان بالحقول المرهونة من قبل الحكومة مع بيان اسم صاحب المزرعة واسم الدائن وقيمة الدين وتاريخ الحصاد، أو (لزم أن تخبر لجنة تحسين الديون قرارك)^(٨) ثم إخباره أنه في حالة عدم الاعتراض يتم تثبيت المبلغ ثم إخبار المدين بأن القسط السنوي لا

١ وثيقة ٢.

٢ وثيقة: ٥.

٣ وثيقة ١.

٤ وثنائق ٣، ٤، ٥.

٥ وثيقة ١.

٦ وثيقة ٢.

٧ وثيقة ٣.

٨ وثيقة ٤.

يمكن تغييره ولا يمكن تخفيض عدد سنوات الحصاد القديم، أو (يجب دفع القسط السنوي)^(١) يسبقه اسم صاحب المزرعة والعنوان، ثم يأتي بعده كشف حساب لغاية يوم تحرير الوثيقة.

الفقرات الختامية: عبارة عن صيغ قانونية مختلفة الأنواع خاصة بالتوثيق والإثبات، ترمي إلى تنفيذ ما ورد في التصرف القانوني، ومنع التعرض له، وإعلان الصفة الرسمية للوثيقة، والإجراءات التي اتخذت في سبيل جعلها صحيحة ونافذة^(٢)، والفقرات الختامية مثل:

فقرات ختامية اثباتية وفقرات ضمان وصحة ونفاد، لتأكيد أن التصرف نافذ مثل: (صحيح كتبه علي بن محمد بن حمد الجابري)^(٣)، توقيع مفوض الديون والرهن بزنجبار^(٤).

فقرات لتبرئة الذمة مثل: (اثبات تسليم المؤجل من مهر العروس وهو ٧ ربية)^(٥).
الصيغ الدالة على قيمة المهر أو الدين أو الرهن، وكيفية قبضه واستلامه وعدده وجنسه، وتحديد ميعاد استحقاقه مثل:

أولاً: تأكيد تحديد قيمة المطلوب من وكيل الأيتام وهو (خمس مائة ربية)^(٦)، قيمة المهر (٤٠ ربية)، وقيمة الدين (قيمة الدين بالشيلنغ ١٨٢٩)^(٧)، أو تحديد قيمة القسط السنوي (دفع القسط على حسب لجنة تحسين الديون سيكون ١٥٠ شيلنغ)^(٨).

ثانياً: كيفية قبض المبلغ إن كان كاملاً وتاماً، أم أن هناك أجلاً وعاجلاً مثل: (سلم ٧ ربية)^(٩)، (المتبقي من الدين ٢١,٠٥ شيلنغ)^(١٠).

ثالثاً: عدد المبلغ وجنسه (خمس مائة ربية)^(١١)، (٤٠ ربية)^(١٢)، قيمة الدين بالشيلنغ ١٨٢٩)^(١٣)، دفع القسط سيكون (١٥٠) شيلنغ^(١)، مجموع الغرامة المتبقي (٥٥) شيلنغ^(٢).

١ وثيقة ٥.

٢ إبراهيم، عبد اللطيف، خمس وثائق شرعية من الوثائق العربية في العصور الوسطى، جامعة أم درمان الإسلامية، ١٩٦٩م، ص ١٨٥.

٣ وثيقة ٢.

٤ وثائق ٣، ٤، ٥.

٥ وثيقة ٢.

٦ الوثيقة الأولى.

٧ وثيقة ٣.

٨ وثائق ٤، ٥.

٩ وثيقة ٢.

١٠ وثيقة ٥.

١١ الوثيقة الأولى.

١٢ وثيقة ٢.

١٣ وثيقة ٣.

وعند ذكر الزواج حدد مكان البلدة: ولاية ويندكتك - كنفجة ببيمبا^(٣).
وعند ذكر أراضي المزرعة حدد مكانها تماماً؛ حتى لا يقع اللبس والشبهة، فذكر البلدة والولاية وهي (مزيجاني، جامبانجوم، مكواني، منطقة شكشك)^(٤).

وذكر فقرات الإشارة إلى الإجراءات المتبعة كتحرير الوثيقة وصحتها وبعد الانتهاء من سرد التصرف القانوني المُرتجى أثبت اسم الكاتب مثل: (كتبه محمد بن خلفان بن سالم المعمرى بيده)^(٥)، أو بصمات طرفي العقد^(٦)، ثم ذكر أسماء الشهود وتوقيعهم بيدهم^(٧)، وكنوع من أنواع التوثيق ذكر (صحيح على بن محمد بن حمد)^(٨)، أو توقيع مفوض الديون ولجنة ديون الرهن بزنجبار^(٩).

وتوجد فقرات آمرة باحترام ما جاء في التصرف وتنفيذه، وفقرات إلزامية وتهديدية مثل: (يجب أن تدفع القسط السنوي في هذه الشهور إذا لم تدفع القسط في أي سنة من السنوات كما حدد لك سوف يكون ذلك جريمة ومخالفة تعاقب عليها حسب القانون)^(١٠)، كما توجد فقرات استعطافية وترجي وحث مثل: (نريد بفضلك وحسنك أن تعطيني)^(١١).

٣ - البروتوكول الختامي: يحتوي على علامات الصحة والإثبات، وأهمية علامات الصحة من تاريخ وصيغ دعائية ختامية وتوقعات للشهود ليست بخافية، لما لها من أثر في إضفاء الصحة على الوثيقة كسمات أو أمارات لصحتها^(١٢)، وهي كما يلي:

التاريخ: هو جزء مهم في الوثيقة القانونية، ويُعنى بالزمن الذي صدرت فيه الوثيقة، ويشمل عنصري الزمان والمكان (مع ملاحظة أن تاريخ التصرف هو تاريخ التحرير)، وتاريخ التسجيل بالدفاتر الرسمية يكون لاحق على التحرير، وقد جاء التاريخ في الوثائق محل الدراسة مُفصلاً باليوم والشهر والسنة

١ وثيقة ٤.

٢ وثيقة ٥.

٣ وثيقة ٢.

٤ وثيقة ٤.

٥ الوثيقة الأولى.

٦ وثيقة ٢.

٧ وثيقة ٢.

٨ وثيقة ٢.

٩ وثائق ٣، ٤، ٥.

١٠ وثيقة ٤.

١١ الوثيقة الأولى.

١٢ السيد، محمد إبراهيم، مرجع سابق، ص ٢٩، ٣٠.

الميلادية والهجرية لتاريخ التسجيل والتحرير (١)، أو الميلادية فقط وذلك بعد عبارة: كتبه "قلان" بيده (٢)، وقد يتم ذكره في نهاية الوثيقة (٣)، ويتم ذكر التاريخ حسابيا بالأرقام الأجنبية، أو يذكر الشهر بالأحرف الأجنبية (٤)، ويوجد بالوثائق تاريخ مكاني مقصود ذكره، كأن يذكر (ولاية وندكتك كنفنجة بيمبا) (٥)، أو يجب الدفع بتاريخ ١٥ / ٨ / ٣٩ في منطقة شكشك (٦)، أو يذكر في بداية الوثيقة العنوان بالإنجليزية مثل: Mizingani, Jambangome , Mkoani (٧)، ولم تثبت في السنة الهجرية حرف (هـ) بعد السنة، وكذلك لم يثبت حرف (م) بعد ذكر السنة الميلادية.

الشهود: موقعهم في نهاية الوثيقة حيث الصحة والإثبات، توقعيات الشهود التي وردت في نهاية الوثيقة هي جزء من علامات الصحة على المكتوب، ولا يوجد بالوثائق شهود؛ لأنها وثائق إدارية محضة، ما عدا الوثيقة الثانية؛ لأنها وثيقة تسجيل عقد زواج بها شاهد وموثق في نهاية الوثيقة وهما رجلان، وعند ذكر اسم الشاهد يُكتب اسمه وأبيه وجده وقبيلته بينهما (بن) هذا إن كان الشاهد عربيا، ولم ينع شهادته بلفظ (بيده، أو بيدي) كما هو معتاد في وثائق عمان وزنجبار.

التوقعيات والإمضاءات والبصمات: التوقعيات التي وردت في نهايات الوثائق هي جزء من علامات الصحة على المكتوب، والوثائق التي نحن بصددنا اشتملت على أسماء وتوقعيات شهود وكتبة ومسؤولين كدليل على مصداقية هذه الوثائق، وجميعهم يعرف القراءة والكتابة، وخطت التوقعيات بالمداد الأسود، وكذلك نجد هنا أمراً جديداً ومختلف وهو وجود واعتماد بصمات الأصابع وهي للزوج والزوجة الذين هم موالى (٨).

نشر الوثائق محل الدراسة:

الوثيقة الأولى (٩):

بمنه تعالى

الى جناب (١٠) المحب الاكرم المود مستر سوني (١) وكيلي الايتام سلمه الله تعالى وبعد نكعرف

١ وثيقة ٢.

٢ الوثيقة الأولى.

٣ وثائق ٣، ٤، ٥.

٤ وثائق ٤، ٥.

٥ وثيقة ٢.

٦ وثيقة ٤.

٧ الوثائق ٣، ٤، ٥.

٨ وثيقة ٢.

٩ الملحق، الوثيقة ١.

١٠ جناب: لقب احترام وتشريف يستعمل في المراسلة أو المخاطبة بمعنى صاحب السيادة أو صاحب السعادة. الباحث

نتاك كياس وتفضلي لإحسانيك أنيب ميم ربية خمسة مبي ربية^(٢)
نفيضة هز نتكي نيم امر شا ممما أكه فاطمة بنت علي بن عيسى المنذرية
لمعنيك فيضة هز مقصد يكي كتاك كك كنيلي بميو ليميا كسبب
يعرس يكي هي متت فاطمة بنت علي بن عيسى المنذرية نتك فيضة
هز امر ييماك كتبه محمد بن خلفان بن سالم المعمرى بيده ٢٥ أغسطس ١٩٢٥م
الوثيقة الثانية^(٣):

MARRIAGE DISTRICT عنوان OF PEMBA

ولاي وندوكتك كنفجه بيمبا

CERTIFICATE OF MARRIAGE

سر تفكيك يندو

NO 27474

نمبر ١٤٥

تاريخ ير جستر ٢٤ أكتوبر ١٩٣٢م

تاريخ يندو ١٨ جماد الآخر ١٣٥١ هـ

جن لموم نلمك صالح بن ستا منا مؤينا سليمة بنت متوانه مولة المزروعي

مك مبالغ ام بعد الفئة ء سنا

جن لولى ام مت موني امر يك از امر سلطان زنجبار^(٤) في يد ...

علي بن محمد

مهر او فض الزتو عربيه سلمه ٧ ربيه

صحيح يموم نيمك (بصمة)

صحيح يشاهد علي بن حمد عمر بن حاج

صحيح يافسر وندو علي بن محمد بن حمد الجابري

١ مستر: مستر بمعنى السيد، رجل لا يحمل لقباً تشريفياً أو مهنياً. الباحث

٢ ربيه: وحدة نقد في الهند وباكستان، وهى من الدراهم الفضية، وقيل أنها عملة قديمة، القيمة الموازية للروبية مقابل الشيلينغ، وهى أن الروبية تساوي (١,٥) شيلنغا، ربية فضة: والروبية الهندية والحبيسة السوداء من النحاس الأحمر استخدمت في البيع ونقش عليها اسم السلطان برغش بن فيصل آل سعيد سلطان عُمان. (مُقابله مع الشيخ: محمد بن حميد العامري، مرجع سابق).

٣ الملحق، الوثيقة ٢.

٤ سلطان زنجبار ١٩٣٢م: السلطان خليفة بن حارب (١٩١١ - ١٩٦٠). (زيدى، عيسى الحاج، مرجع سابق، ص١٣٣).

الوثيقة الثالثة^(١):

D. S. A . form 34

REF . NO. P 41/ 7

ذكرى ٢ يا مواك ١٩٣٨

جين لموني شامب Abdulla bin Salim bin Mahomed al-Menderi

عنوان Mizingani, Jambangome , Mkoani

تتعرف يكو سركال إملب مادين ياك كم اليفيو لى نشو هاب

جمل ياكلب كوا شلنغ تاريخ ياكلب جين ل مداي

Suleiman bin said bin khamis 4/ 5/ 39 1829

غرام اليو توزو (% cess3) ني شلنغ 55

٢ - ماشمب يوليويو نشو كتك كرتاس زفواتا زيمكو كتك رهان ياستركا كوا موجب وادكري

١٩٣٨ / ٢ ناتنغ ساس ممباك دين كاك لوت لليك كوا سركال امكباس كل مواك وُسوز

كرفو زا ماشمب هاي كوامت بيبوت ال كوا كلكت (معن ياك كوا C .G .A mkeani

أو chake مباك كلب شاك شامواك كمكويش ليو (دكري ١٩٣٨ / ٩ مكنغ و ١٧)

٣ - كياس شاكلب شمواك بد هككتفنزو لكن وُتعرفو ن بوان د. س واك كياس كتكش

وكون و و و تكون رخص ي كسكلزو مبل ياكمت يا مدين يا رهان إكو وُمبند

٤ - وني مشامب يامنا زتو إمولزم كجو يكو إموباس كلب كلب شاك مواك كوا تسلم

كوا س . ج . إ كابل ياموز موس و ماش أو وتكو وكسيف (ملنغ ٦ رل ١٤)

٥ - تعرف جو ياخبار ياكينغر ز كلب شامواك كتك مواك و ني مفون مدغ ناكو زديش

كلب كتك مواك وني مفون مكوبو وُتعرفو وقت وُتكب تنفنزو كلب شاك شامواك.

٦ - وادإو و ونو ويز كبنفوز دين لوكوا وُيس إموباس كؤنان ناكلكت (C. G . A) أو

أجنت واك بل يا تأخير كوا سباب ني قيم كواو ناكوا سركال كبنفوز أصل يا دين كوا

كفاني هفيو وتجنفو زي فيد إنينفنز كتك كل مواك

٧ - ود إو و سركال وجويكوا إنترس هيتتوزو جويا غرام (cess) إليو نشو لكن قلب

ولفيلب فتقدي (cess) كوانز إكو إمباك

Date :15/6/ 1939

COMMISSIONER OF DEBTS

الوثيقة الرابعة^(١):

ذكري نمبر ٢ يا موك ١٩٣٨

جين لموني شامب Abdulla bin Salim bin Mahomed al-Menderi

Mizingani, Jambangome , Mkoani عنوان

كو موجب وبرو يانغ يا تاريخ نلي كلتي ككباش خبار جو يرهان

ياك يسركال ساس نبذ ككجوليش يكو كليب جاك جمواك كليج ترجيو نكميت يمدين

نشلنغ - /shs150

٢- أمكياس كعريف بوان د .س . قبل يا 39/ 8/ 15 اكو اكو امبند كسكليزو منين

ياك نكميت يمدين. Meeting ya pili itakuwa mwezi 22/8/39

٣- اكو هون منين كليب كليج تاجو جو ككتبتيك

٤- امكباس كفهام يكوامب قياس جكليب هيك هويز كغوك يعني هويز كبنغوزو كتاك

مياك يمفون محتاج او هوند ككغوزو كتاك مياك يا مفون مكوبو هاي يتتغيزو كو

امر بيوان جيف سكرتير وسركال ناتكاب تتغيزو ايتكو كو ولاي ز مشامب ناؤتعرفيو

قياس جكليب قبل يكغوزو

٥- ويو مونيو فيل وويز كئومب كليب جاك كغوزو كتاك موك ووت لكن لازم

برو ياك يكتومب ايو كتاك مويز و مارش او ابريل او مويز و مي

٦- كليب جاك جمواك لازم كليبو كتاك مويز موس و مارش او قبل يهاب نبعداي

فبليب فوت فنافي فوات كتاك كل موك لازم فيو فيل كتاك مويز موس و مارش او

قبل امكياس ارتعتي كوامب كليب جاك اكو جوت او كو اينغوف او قياس كليج

زيد كليك كليب جاك جمواك وويز كليب وقت ووت نوكليب مبم ندفي بور كو

معن اكتنغليز كليب جاك جمواك كو اكليف كتسيدي كبنغوز اصل يدين نكذ لك قعد

اتبنغوك

٧- اكو كتاك موك ووت هكليب كليب جاك جمواك كليج امريشو جو او كام كلفي

غوزو كو مو جب وملانغ ٤ نا ٥ اكو مكوس نحكم بيت الي تاجو كتاك رول ١٤

(٢) يملانغ و ٦ و ذكري هوند اكبتيشو جو ياك

٨- اكو كتاك موك ووت امئون يكوامب هويز كليب كليب جاك جمواك . اناي رخص

يكتاك كئخرشيو سيك يكليب جاك يعني مويز موس و مارش عرض الحال هيز لازم

زليتو قبل يسيك يكونز ومويز و فبروري تين سباب زوت زكتاك تاخير نفيل فيل

تاريخ امباي الي جفونغ كليب كليب جاك لازم زانيشو

Date :27th july 1939

(توقيع بالأحرف الأجنبية)

COMMISSIONER OF DEBTS

الوثيقة الخامسة^(١):

ذكر يا ٢ مواك ١٩٣٨

قانون يا كمت يا مدين يا كعينيش كلب شا مواك

كو موجب و رول ٤ ملنغ و ٦

Abdulla bin Salim bin Mahomead-al جين لموني شامب

Mizingani, Jambangome , Mkoani عنوان -Menderi

th july 1939. كوا موجب وبرو ينغ D.S.A.NO.35 يا تاريخ يا

كياس شا كلب شامواك كمتبتشو كو شلنغ -/sh.150

مئليز يا حساب ياك مباك تاريخ ياليو نكم يفوتاي

(١) جمل اليباك شلنغ -/Sh.1829

(٢) كد اليباك جو يدين شلنغ Sh.21/05

(٣) جمل يا غرام اليباك شلنغ -/Sh.55

(٤) جمل يثمان يا شامب اليزد كو موجب

يا حكم يا كورت كلك اليفيو ثمني شلنغ

(٥) عداد يا فلب فتكفيو زوك 19

22 August 1939

Mortgage Debt Committee

النشر باللغة العربية:

وثيقة(١):

بمنه تعالى

إلى جناب المحب الأكرم المود مستر سوني وكيل الايتام سلمة الله تعالى وبعد أبلغكم

نزير بحسبك وفضلك أن تعطيني خمسة مائة ربية

وهذا المبلغ الذي طلبته هو لأم فاطمة بنت علي بن عيسى المنذرية

لغرض شراء أغراض لتجهيزات عرس ابنتها^(١)

١ الملحق، الوثيقة ٥.

كتبه محمد بن خلفان بن سالم المعمري بيده في ٢٥ أغسطس ١٩٢٥.

وثيقة(٢):

العنوان: بيمبا

ولاية وندوكتك كنفنجه بيمبا

شهادة زواج

رقم ٢٧٤٧٤

رقم شهادة الزواج: ١٤٥.

تاريخ تسجيل الزواج : ٢٤/أكتوبر/ ١٩٣٢

تاريخ الزواج: ١٨/جماد الآخر /١٣٥١^(٢)

اسم الزوج: صالح بن ستا منامؤينا سليمان بنت متوانه مولة المزروعي

عمر الزوجة البالغة أو غير البالغة: ٦ سنوات

اسم ولي أمر الزوجة: سلطان زنجبار في يد علي بن محمد

مهر الزوجة: ٤٠ ربيه سلم ٧ ربيه

توقيع الزوجة والزوج (بصمتان للزوجين)

توقيع الشاهد على الزواج: علي بن حمد بن محمد حاج

صحيح علي بن محمد بن حمد الجابري

وثيقة(٣):

تاريخ ٢ يامواك ١٩٣٨

اسم مالك المزرعة عبد الله بن سالم بن محمد المنذري

عنوان : جامبنجوم- مكواني

قيمة الدين بالشيلنج تاريخ الحصاد اسم الدائن

١٨٢٩ ٤ . ٥ . ٣٩ سليمان بن سعيد بن خميس

غرامة ٣% = ٥٥

الحقول المعروضة منا مرهونة من قبل الحكومة على حسب سنة

١٩٣٨ / ٣ وقد قررت الحكومة أنك لا تتبع قرنفل هذه المزارع لأي شخص حتى تسدد كل ديونك في هذه

السنة

١ كان من ضمن التحضير لزفاف العروس ضرورة وجود آلة العود لعزف الموسيقى . (لقاء مع الفاضلة: هند المسكرية،

ولاية إبراء، الشرقية شمال، سلطنة عمان، ٢٠١٧م).

٢ = ١٨ أكتوبر ١٩٣٢م.

وقد تم تقدير قيمة الدفع هذه السنة بعد التخفيض، وسيعلمك بوان د.س (لجنة تحسين لديون) مقداره فيما بعد، أما ملاك مزارع النخيل فقط فعليهم أن يدفعوا على محاصيل كل سنة قبل تاريخ الأول من شهر مارس سنويا

ونحيط علمكم أنه يتم تقليل قيمة الدفع في السنة التي فيها قلة المحاصيل ونزيد في السنة التي فيها كثرة المحاصيل وسنعرفك بذلك آخر السنة

أما الذين لديهم ديون من الممكن أن يقللوا ديونهم قبل الوصول لوقت السداد ولا بد أن يتجهوا إلى لجنة تحسين الديون أو (وكيله) His Agint بدون تأخير وبفعلتهم تلك ستقل نسبة معينة من الفوائد كل سنة والذين لديهم ديون من قبل الحكومة لا تتخذ فوائد كغرامة على المبلغ الذي تم دفعه

توقيع : مفوض الديون بزنجبار ١٥ / ٦ / ١٩٣٩

وثيقة(٤):

اسم صاحب المزرعة : عبد الله بن سالم بن محمد المنذري

عنوان المكان: Mizingani, Jambangome, Mkoani

بموجب الرسالة التي أرسلتها الحكومة بموضوع الرهن الحالي، نخبرك أن دفع القسط على حسب لجنة تحسين الديون سيكون ١٥٠ شلنغ

ولا بد أن تخبر د.س. (لجنة تحسين الديون) قرارك قبل ١٥/٨/٣٩ ، وإذا وافقت على شرط اللجنة فيجب عليك الدفع بتاريخ ٢٢/٨/٣٩ في منطقة شكشك

وإذا لم يكن لديك اعتراض على دفع القسط السنوي سوف يتم تثبيت قرارك بذلك

مع العلم أن القسط السنوي غير قابل للتغيير ولا يمكن تخفيض عدد سنوات الحصاد القديم ولكن يمكن التغيير في عدد سنوات الحصاد الجديد، وهذا الأمر سوف ينظم بأمر ممثل الحكومة وسيكون في ولايات محددة وسيتم إرسال رسالة بذلك

وكذلك يمكنك تقديم طلب تغيير القسط السنوي في أي سنة بشرط أن يكون في الشهور التالية فقط: مارس وأبريل ومايو

ويجب دفع القسط السنوي في شهر مارس أو أبريل أو مايو أو قبل ذلك، وجميع الأقساط التابعة لكل سنة يجب كذلك أن تدفع في تلك الشهور أو قبل ذلك، وإذا كان القسط أقل أو أكثر من ذلك يكون الدفع في أي وقت، وإذا أردت أن تدفع قسط الدين والايجار بمبلغ أكثر سيكون عدد السنوات أقل بموجب الباب الرابع، وإذا لم تدفع القسط في أي سنة من السنوات كما حدد لك سوف يكون ذلك جريمة ومخالفة تعاقب عليها حسب القانون

وإذا لم تستطع دفع القسط في التاريخ المحدد (شهر مارس أو أبريل أو مايو) في أي سنة من السنوات، فتستطيع تعبئة استمارة تأخير الدين قبل شهر مارس، مع ذكر أسباب تأخير الدفع

٢٧ يولييه ١٩٣٩

توقيع: مفوض الديون

وثيقة(٥):

قانون جمعية تحسين الديون في تحديد الدفع السنوي بموجب الباب السادس من القانون

اسم صاحب المزرعة : عبدالله بن سالم بن محمد المنذري

العنوان : Mizingani، Jambangome, Mkoani

بموجب لجنة تحسين الديون D.S.No35 المنعقدة بتاريخ ٢٧/ يوليو/ ١٩٣٩ يجب دفع القسط السنوي وقيمه ١٥٠ شلنغ.

كشف حسابك لغاية تاريخ اليوم كالتالي:

مجموع الدين : ١٨٢٩/٠٠ شيلنغ

المتبقي من الدين ٢١/٠٥ شيلنغ

مجموع الغرامة المتبقي ٥٥/٠٠ شيلنغ

مجموع ثمن المزرعة الزائد حسب موجب الحكم

عدد الأقساط المقررة على المزرعة ١٩

22 August 1939

توقيع: لجنة ديون الرهن

Mortgage Debt Committee

النتائج:

أمكننت الدراسة بالخروج بقواعد علم الدبلوماسية العامة التي اتبعت في صياغة مثل تلك الوثائق في دولة زنجبار (أثناء ما كانا دولة واحدة)، عبر تلك الفترة الزمنية محل الدراسة.

وجدت بالوثائق مجموعة من الحقائق الاجتماعية والاقتصادية لا توجد في المصادر والمراجع الروائية، وأوضحت مجموعة من النقاط المضيئة في إدارة الدولة بزنجبار بجانب المجتمع المدني التي تشرف عليه الدولة كذلك، مما أكد على سيادة الدولة وبالتالي ممارسة سلطتها على رعاياها وانصياع هؤلاء الرعايا بهذا الكيان السياسي، وهي كالتالي:

نظمت الدولة إدارة لتنسيق أمور الأيتام والأرامل والصراف عليهم حتى تجهيز البنات للزواج، مما يؤكد على وجود مجتمع شبه مدني يدير الحياة الاجتماعية للفقراء والمحتاجين، وإظهار البُعد الاجتماعي بزنجبار من حيث رعاية الأيتام والقيام على تزويجهم.

وتقت الدولة ونظمت عقود الزواج في هذا المجتمع المختلف الأعراق والمذاهب، ونظرا لكثرة انتقالات وترحال أفرادها المتعددة داخليا وخارجيا؛ حتى تحفظ حقوق النساء وأولادهن، ومن ثم الوقوف على مسألة الزواج وتوثيق عقودها في إدارة خاصة لذلك بالدولة، ومسألة عقد وتسجيل الزواج بطفلة صغيرة المذكورة بإحدى تلك الوثائق.

وجود إدارة لتنظيم شؤون الديون على الأراضي الزراعية؛ وعدم ترك المواطن لتتراكم عليه الديون؛ مما يؤدي لتهديد حالة السلم العام والوثام المجتمعي.

أوجدت الدولة إدارة لتنسيق وجدولة الديون الخاصة بالرهن وكيفية سدادها؛ حتى لا تزداد الثروة في يد طبقة الدائنين على حساب المدينين.

لم تُحدد المساحات بأي وحدات قياس لا بالمتر والقدم والذراع.

تم ذكر المبالغ المالية بالعدد والقيمة والنوع بالأرقام.

وتوصلت الدراسة إلى:

إثبات وجود تغيرات في الصيغ الدبلوماسية مع تقدم الزمن ووجود حكومات منظمة في تلك البلاد، والخروج بقواعد عامة أتبعت في كتابة مثل هذه الوثائق في تلك المنطقة الجغرافية من أفريقيا إبان الحكم العُماني لها، وكيفية توثيقها وعباراتها وألفاظها المستخدمة، وتاريخ تحرير الوثيقة حُدد باليوم والشهر والسنة الهجرية وما يُقابلها بالميلادي في وثيقة واحدة، ثم الميلادي فقط بباقي الوثائق، والكاتب المذكور بالوثائق عربي، وقد أثبت اسمه كاملاً بالعربية، رغم أنه حرر الوثيقة بالسواحلية، والشهود المذكورين كانوا رجالاً، وقد يكونوا عتقاء أو موالى.

قام الباحث بعمل دراسة أرشيفية دبلوماسية للوثائق محل الدراسة، وعمل بطاقة وصف أرشيفي علمي لإحدى تلك الوثائق.

أثبتت الدراسة تملك العرب للأراضي الزراعية، كما أثبتت تراكم الديون والرهونات على تلك الأراضي إما للأفراد خاصة الهنود، أم للحكومة الزنجرارية.

اختلفت قواعد اثبات التصرفات والأجزاء القانونية في الوثائق تبعا لنوع التصرف إن كان طلب إعانة زواج، أو تسجيل زواج، أو جدولة ديون على الأرض أو جدولة الاقساط لسداد رهن، أو كشف الحساب.

أثبت كتاب بعض الوثائق الأرقام الحسابية (٥، ٦، ٤) بطريقة اعتادها العُمانيون وهي أن رقم (٥) كُتب كأنه حرف (B) مقلوباً، ورقم (٦) كُتب كأنه حرف (ء)، ورقم (٤) رُسم قريباً من حرف (F)، ووجد بتلك الوثائق اثبات علامات التشكيل ما عدا الشدة.

أهمل كتاب الوثائق الهمزات وعلامات الترقيم، وُدكر التاريخ باليوم والشهر والسنة الهجرية أرقاماً وحروفاً منعاً للجهالة، والوثائق كُتبت وروجعت من مختصين بالدولة.

حصر الباحث أسماء أطراف التصرفات والشهود والكتب الواردة بالوثائق. إبراز نوعية وثائق جديدة بزنجبار لم تنتشر من قبل، وكذلك حصر الأماكن الجغرافية والبلدان المذكورة بزنجبار، وكذلك عدم وجود حدود واضحة وحادة في الأماكن الجغرافية. حرص العرب في زنجبار على تسجيل تصرفاتهم في وثائق ثابتة ونافذة لعدم ضياع الحقوق.

المصادر والمراجع العربية:

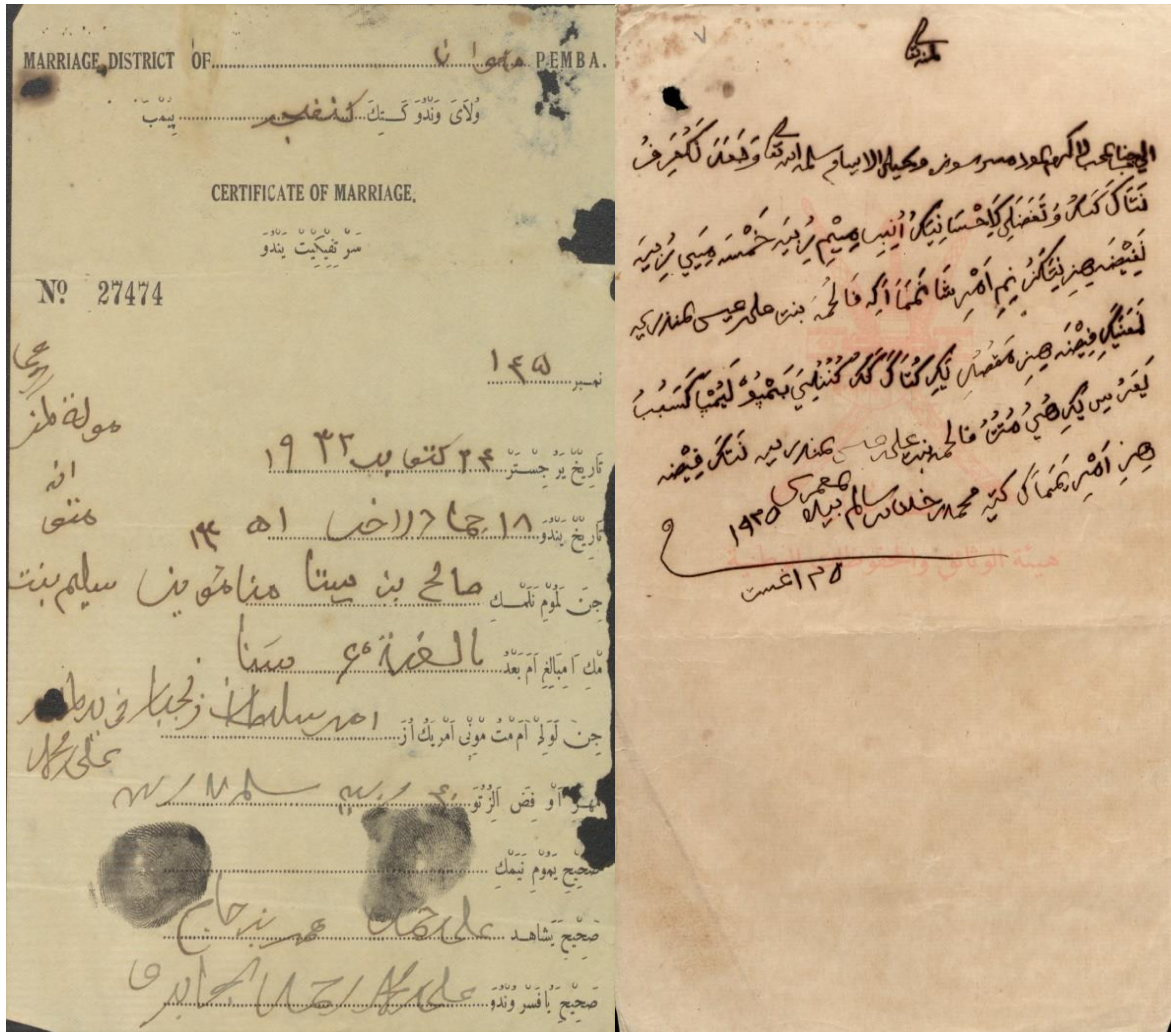
- ١- إبراهيم، عبد اللطيف، خمس وثائق شرعية من الوثائق العربية في العصور الوسطى، جامعة أم درمان الإسلامية، ١٩٦٩م.
- ٢- ابن فندمه، أبو الحسن ظهير الدين علي بن زيد بن محمد بن الحسين البيهقي، تاريخ بيهق، ط١، دار اقرأ، ١٤٢٥هـ.
- ٣- ابن الهمام، كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي، فتح القدير، ج١٠، دار الفكر، د.ت.
- ٤- الألويسي، سالم، علم تحقيق الوثائق، ج٢، الوثائق العربية، ١٩٧٦م.
- ٥- الأمين، عبد الله الأمين حامد، أحكام بيع الأموال المرهونة: دراسة مقارنة، مجلة كلية الدراسات الإسلامية، ٣٤ع، جامعة أم درمان الإسلامية، د.ت.
- ٦- إنغرامز، وليام هارولد، زنجبار: تاريخها وشعبها، ترجمة: عدنان خالد عبد الله، راجعه وعلق عليه محمد بن سالم بن عبد الله الحارثي، ط١، دار الكتب الوطنية، ٢٠١٢م.
- ٧- الباشا، حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، الدار الفنية للنشر، ١٩٨٩م.
- ٨- خلاف، عبد الوهاب، أحكام الأحوال الشخصية في الشريعة الإسلامية، ط٢، دار الكتب المصرية، ١٩٣٨م.
- ٩- الخولي، جمال إبراهيم، فهرسة الوثائق الأرشيفية، دار الثقافة العلمية، ٢٠٠٢م.
- ١٠- دار الإفتاء المصرية، فتاوى دار الإفتاء المصرية، ج١، د.ن، د.ت.
- ١١- الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، مجلة البحوث الإسلامية، ج٢٧، د.ن، د.ت.
- ١٢- زيدي، عيسى الحاج، دور العمانيين في النهوض بالزراعة في زنجبار والنتائج السياسية والاقتصادية والثقافية ١٨٣٢-١٩٦٣م، ط١، هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية، ٢٠١٥م.
- ١٣- السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل، المبسوط، ج٢١، دار المعرفة، ١٩٩٣م.
- ١٤- السرطاوي، فؤاد عبد اللطيف، الوجيز في الوصايا والموارث، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، ٢٠١٠م.
- ١٥- سفير للتاريخ الإسلامي، الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، ج٩، ١١، د.ن، د.ت.

- ١٦- السقاف، علوي بن عبد القادر، الموسوعة التاريخية، ج ١٠، د.ن، د.ت.
- ١٧- السيابي، سالم بن حمود بن شامس بن خميس، إسعاف الأعيان في أنساب أهل عمان، د.ن، د.ت.
- ١٨- السيد، محمد إبراهيم، مقدمة للوثائق العربية- سلسلة الوثائق والمعلومات، ج ١، ٥، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٨٧م.
- ١٩- الشامي، أحمد، التطور التاريخي لعقود الزواج في الإسلام دراسة مقارنة، جامعة الزقازيق، ١٩٨٢م.
- ٢٠- الطيار، عبد الله، الفقه الميسر، ط ١، ج ١١، مدار الوطن للنشر، ٢٠١١م.
- ٢١- عبد الرحيم، عبد الرحيم، وثائق الأرشيف المصري وأهميتها لدراسة تاريخ شبه الجزيرة العربية والخليج العربي، مجلة الروزنامة، ع ٣، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٥م.
- ٢٢- العبودي، محمد، ذكرياتي في إفريقيا، ط ١، الجامعة الإسلامية، ١٩٦٨م.
- ٢٣- العسيري، أحمد معمور، موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام (تاريخ ما قبل الإسلام) إلى عصرنا الحاضر ١٤١٧هـ/٩٦-٩٧م، ط ١، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٩٩٦م.
- ٢٤- عمران، محمد، مدخل إلى علم التاريخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥م.
- ٢٥- القدوري، أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن حمدان أبو الحسين، مختصر القدوري في الفقه الحنفي، تحقيق: كامل محمد عويضة، ط ١، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.
- ٢٦- لقاء مع: محمد بن حميد العامري، الحيل الجنوبية، السيب، مسقط، سلطنة عمان، ٢٠١٥م.
- ٢٧- لقاء مع: هند المسكرية، ولاية إبراء، الشرقية شمال، سلطنة عمان، ٢٠١٧م.
- ٢٨- مناهج جامعة المدينة العالمية، الأدب المقارن، جامعة المدينة العالمية، د.ت.
- ٢٩- ميلاد، سلوى علي، ترتيب ووصف الوثائق الأرشيفية، مجلة الاتجاهات الحديثة في المكتبات والمعلومات، ع ٩٤، المكتبة الأكاديمية، ١٩٩٨م.
- ٣٠- هوتسما، م. ت، موجز دائرة المعارف الإسلامية، إعداد وتحرير: إبراهيم زكي خورشيد، ترجمة: نخبة من أساتذة الجامعات المصرية والعربية، مراجعة وإشراف علمي: حسن حبشي، ط ١، ج ٧، ١٥، ٢٨، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ١٩٩٨م.
- ٣١- وافي، علي عبد الواحد، علم اللغة، ط ١، نهضة مصر للطباعة والنشر، د.ت.

المراجع الأجنبية:

- 1 Burgess,G.Thomas , Race, Revolution, and the Struggle for Human Rights in Zanzibar: The Memoirs of Ali Sultan Issa and Seif Sharif Hamad, Ohio, Ohio University Press, 2009.
- 2 Middleton, John , Land Tenure in Zanzibar, London, Her Majesty's Stationery Office, 1961.
- 3 Sheriff, Abdul , Slaves, Spices and L ivory in Zanzibar, Ohio, Ohio University Press, 1987.
- 4 Welliver, Timothy K , The Clove Factor in Colonial Zanzibar, MADISSERTATION, Michigan, U.M.I, 1990.

ملحق الوثائق السواحلية:



الوثيقة رقم (٢) شهادة زواج في ١٨ أكتوبر ١٩٣٢م.

الوثيقة (١) طلب أم من وكيل الأيتام بمنحها مبلغ لتجهيز ابنتها في ٢٥ أغسطس ١٩٢٥

D. S. A. FORM. 35.
Ref. No. P: 41/7....

دكري نمبر ٢ يا موك ١٩٣٨

چين لعوني شامب .
Abdulla bin Salim bin Mahomed el-Menderi
Mizingani, Jambangome, Mkoani
عنوان .

١. كوريجت و برو يانغ يا تاريخ منبلي كلني كلباش خبار جو برمان
ياك سينكال ساس نيند كليلين يكو كليب چاك چمواك كليج بيجو نكييت بيدين
شيلنج 150/- Shs

٢. ايگياس كعريف بوان ر. س. قبل يا 15/8/39. اكو اميند كليلين مين
ياك نكييت بيدين .
Meeting ya pili itakuwa mwazi 22/8/39
Chake - Chake.

٣. اكو هون مين كليب كليج تاجو جو كنينيك .

٤. ايگياس كهام بكمات بياس چكليپ هيك موز موك . يعني موز كنيو كنيك
چاك بغيون بچتاج . او موند كنيو كنيك چاك يا مهن مكو . ماتي بيتنيزو كو
امر بوان بچيف سيندير و سينكال تاناب تينيزو اكو روي روي روي شامب ناز بويرسو
بياس چكليپ قبل بغيو .

٥. نيو مونيور بيل بيل ويز كوتب كليپ چاك كنيو كنيك موك ووت . لكن لازم
نرو ياك بكمات ايو كنيك موز و مازن . او ارييل . او موز و بي .

٦. كليپ چاك چمواك لازم كليلو كنيك موز موز و مازن او قبل بها به . نيمساي
فيليب فوت نفاي فوت كنيك كل موك لازم نيو بيل بيل كنيك موز موز و مازن او
قبل . ايگياس اريسي كوتب كليپ چاك (اكو چوت . او كو ايموت . او بياس كليج
يند كليپ چاك چمواك) ويز كليپ ووت فوت . نوكليپ ميم بديمو بوز كنيو
هن اكنيليز كليپ چاك چمواك كو اكيلاف سسيدي كنيو اصل بدين . مكدلك قند
ايتنغوك .

٧. اكو كنيك موك ووت مكلپ كليپ چاك چمواك كليج اريسو جو او كام كلي
شوند كو موز چب بيلنج . نا ه اكو مكيون . مكمم بيت ايو تاجو كنيك قند ١٤
(٢) بيلنج و ٦ و دكري . موند اكيپشو جو ياك .

٨. اكو كنيك موك ووت اوون بكمات موز كليپ چاك چمواك . اناي رخص
بكتاك كنيو مينك بكليپ چاك يعني موز موز و مازن . عرض الخال موز لازم
زليو قبل بيلنج موز و موز و موز . مين سباب روت بكتاك تاجو بيل بيل
تاريخ امانا الي جغين كليپ چاك لازم زانينو .

DATE... 27th July, 1939.
COMMISSIONER OF DEBTS.

الوثيقة رقم (٤) توفيق أوضاع رهن خاص
(ب) عبد الله بن سالم بن محمد المنذري
في ٢٧ يولييه ١٩٣٩م

D. S. A. FORM 34.
REF. No. P: 41/7.

دكري ٢ يا موك ١٩٣٨

چين لعوني شامب .
Abdulla bin Salim bin Mahomed el-Menderi
Mizingani, Jambangome, Mkoani
عنوان .

١. كوريجت و برو يانغ يا تاريخ منبلي كلني كلباش خبار جو برمان
ياك سينكال ساس نيند كليلين يكو كليب چاك چمواك كليج بيجو نكييت بيدين
شيلنج 150/- Shs

٢. ايگياس كعريف بوان ر. س. قبل يا 15/8/39. اكو اميند كليلين مين
ياك نكييت بيدين .
Meeting ya pili itakuwa mwazi 22/8/39
Chake - Chake.

٣. اكو هون مين كليب كليج تاجو جو كنينيك .

٤. ايگياس كهام بكمات بياس چكليپ هيك موز موك . يعني موز كنيو كنيك
چاك بغيون بچتاج . او موند كنيو كنيك چاك يا مهن مكو . ماتي بيتنيزو كو
امر بوان بچيف سيندير و سينكال تاناب تينيزو اكو روي روي روي شامب ناز بويرسو
بياس چكليپ قبل بغيو .

٥. نيو مونيور بيل بيل ويز كوتب كليپ چاك كنيو كنيك موك ووت . لكن لازم
نرو ياك بكمات ايو كنيك موز و مازن . او ارييل . او موز و بي .

٦. كليپ چاك چمواك لازم كليلو كنيك موز موز و مازن او قبل بها به . نيمساي
فيليب فوت نفاي فوت كنيك كل موك لازم نيو بيل بيل كنيك موز موز و مازن او
قبل . ايگياس اريسي كوتب كليپ چاك (اكو چوت . او كو ايموت . او بياس كليج
يند كليپ چاك چمواك) ويز كليپ ووت فوت . نوكليپ ميم بديمو بوز كنيو
هن اكنيليز كليپ چاك چمواك كو اكيلاف سسيدي كنيو اصل بدين . مكدلك قند
ايتنغوك .

٧. اكو كنيك موك ووت مكلپ كليپ چاك چمواك كليج اريسو جو او كام كلي
شوند كو موز چب بيلنج . نا ه اكو مكيون . مكمم بيت ايو تاجو كنيك قند ١٤
(٢) بيلنج و ٦ و دكري . موند اكيپشو جو ياك .

٨. اكو كنيك موك ووت اوون بكمات موز كليپ چاك چمواك . اناي رخص
بكتاك كنيو مينك بكليپ چاك يعني موز موز و مازن . عرض الخال موز لازم
زليو قبل بيلنج موز و موز و موز . مين سباب روت بكتاك تاجو بيل بيل
تاريخ امانا الي جغين كليپ چاك لازم زانينو .

DATE... 15/7/ 1939
Commissioner of Debts.

الوثيقة رقم (٣) توفيق أوضاع الديون الخاصة
(ب) عبد الله بن سالم بن محمد المنذري
في ١٥ / ٦ / ١٩٣٩م

S. No. 1/2

D.S.A. Form 37 (a)
Ref. No. P. 4/7

D.S.A. 48-9000-S-20

دَکْرِي يا ٢ يا مَوَاك ١٩٣٨
قَانُون يا كَمِت يا مَدِين يا كَمِينِيش كَلْبُ شَا مَوَاك
كُو مَوْجِب وَ دُول ؄ مَنَع وَ ٦

بِجَن لَمُونِي شَامِب *Abdulla b. Salim b. Muhammad*
al-Mandri.

عَنْوَان *Muzingani, Janlangane, Mkorani*

كُوَا مَوْجِب وَ بَرُو بِنَم D.S.A. No. 35 يا تَارِيخ يا 27th July, 1939

كِيَا س شَا كَلْبُ شَاك شَا مَوَاك كَمِينِيشُو كُو شَلَنَم \$ 150/-

مَسَلِين يا حِسَاب يَاك مَبَاك تَارِيخ يَالِيُو نَكَم يَهَوَتَاي

(١) جَمَلُ الْيَاك شَلَنَم \$ 1829/-

(٢) كَبْدُ الْيَاك جُو يَسِين شَلَنَم \$ 21/05

(٣) جَمَلُ يَا غَرَامِ الْيَاك شَلَنَم \$ 55/-
1905/05

(٤) جَمَلُ يَشَانِ يَا شَامِبِ الْيَزِيدِ كُو مَوْجِبُ
يَا حَكَمُ يَا كُورَتِ كَالِكِ الْيَفِيُو نَمِينِ شَلَنَم

(٥) عَدَادُ يَا فِلْبُ فِتْكَفِيُو زُوكِ 19

M. Adlan
Secretary
Mortgage Debt Committee.

Date. 22nd August, 1939.

الوثيقة (٥) توفيق أوضاع الرهن الخاص
بـ(عبد الله بن سالم بن محمد المنذري) في ٢٢ أغسطس ١٩٣٩م.